

دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تحقيق التراث

كتاب
صبح الأعشى
في صناعة الإنشا

لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي
ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م

المجلد التاسع

الطبعة الثالثة

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)


كتاب
صبح الأعشى
في صناعة الإنشا


دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تحقيق التراث

كتاب



صبح الأعشى في صناعة الإنشا

لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي
ت: ٨٢١هـ - ١٤١٨م

الجزء التاسع

الطبعة الثالثة

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ. د. محمد صابر عرب

القلقشندى، أحمد بن على بن أحمد الفزارى ١٣٥٥ - ١٤١٨.

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا/ تأليف أبو العباس أحمد بن على القلقشندى. - ط ٣. - القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية للمراكز العلمية، مركز تحقيق التراث، 2010-

مج ٩ ؛ 29 سم.

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 977 - 18 - 0720 - x

١ - الإنشاء الأدبى (أدب عربى)

٢ - البلاغة العربية

أ - العنوان

٨١٠,٨٠٢٣

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٧٧٦/٢٠١٠

I.S.B.N. 977 - 18 - 0720 - x

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

من مقاصد المكاتبات، الإخوانيات

(مما يكتب به الرئيس إلى المرءوس والمرءوس إلى الرئيس والنظير إلى النظير)

قال فى "مواد البيان": ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة فى الحاجة إليها. قال: والكاتب إذا كان ماهرا، أغرب معانيها، ولطف مبانيها، وتسهل له فيها مالايكاد أن يتسهل فى الكتب التى لها أمثلة ورسوم لاتتغير ولا تتجاوز، وهى على سبعة عشر نوعا:

النوع الأول

(التهانى)

قال فى "مواد البيان": كتب التهانى من الكتب التى تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب، ومنازلهم من الصناعة، ومواقعهم من البلاغة. وهى من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة، لما فى التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السرور بالعطية. وأغراضها ومعانيها متشعبة لاتقف عند حد، وإنما نذكر منها الأصول التى تفرعت منها فروع رجعت إليها، وحملت عليها.

قال : ويجب علىٰ الكاتب أن يراعِىَ فيها مرتَبةَ المكتوبِ إليه والمكتوبِ عنه فى الرسالة اللائقةِ بهما ممـا لا يُتَسَامَحُ بمثله .

ثم التهانى علىٰ أَحَدَ عشَرَ ضربا :

الضـــــرب الأوّل

(التهنئةُ بالوِلَايات ، وهى علىٰ تسعةِ أصناف)

الصنف الأوّل ـــ التهنئةُ بوِلَايةِ الوِزَارة :

قد تقدّم فى المقالةِ الثانيةِ فى الكلام علىٰ ترتيب المملكةِ أنّ الوِزارةَ كانت فى الزمن المتقدّمِ هى أرفَعُ وظائفِ المملكة وأعلاها رُتْبةً ، وأنّها الرتبةُ الثانية بعـدَ الخلافة . وكانتْ فى زمن الخُلَفاء تكادُ أنْ تكونَ كالسلطنة الآنَ ، فهى (١) من الأتباع ومَنْ فى معناهم علىٰ نحو ما كانتْ فى الزَّمَن المتقـدّم بينَ الرُّؤساء والأكابر ، ومن الرؤساء والأكابر بحسبِ ماتقتضيه رتبةُ المهنَّإ .

وهذه نُسَخُ تهانٍ من ذلك علىٰ ما كان عليه الحال فى الزّمَن القديم .

تهنئةٌ بوِزَارة : من إنشاء أبى الحسين بن سَعْد ، كَتَب بها إلىٰ الوزير محمدِ بن القاسم بن عُبَيد رحمه الله ، وهى :

مَنْ كانتِ النعمةُ ـ أيد اللهُ الوزيرَ ـ نافرةً عنه وبِفِنائِهِ غَرِيبة ، فهى تأْوِى من الوزير إلىٰ مَثْوًى معهود ، وكَنَفٍ محمود ، وتُجاوِرُ منـه من يُوَفّيها حقَّها ، ويُقابِلها بحُسْنِ الصُّحبة لها ، ويَجرِى فى الشكر لـما يُوَلّاه ، والرِّعاية لـما يُسْتَرْعاه ، علىٰ شاكلةٍ مضىٰ عليها السَّلَفُ من أهله ، ونشأ فى مثلها الخَلَف ، مقتديًا بالأوّل الآخِر ، وبالماضى

---

(١) أى التهنئة من الأتباع الخ .

الغابِر، تَشَابُهاً فى كَرَم الأفعـال ، ورِعايةً لحُقُوق الآمال ؛ وآعتماداً للرأفة والرّحمه ، وعُموما بالإنصاف والمَعْدله ؛ إلىٰ ما خَصَّ اللهُ به أهلَ البيت رضىَ اللهُ عن المـاضين منهم وأقام عِزَّ الباقِين وحراستَهم : من العلم بالسياسة والدِّرَاية(١) بتدبير المَمْلَكة ورِعايةِ الأُمَّة ، والهداية فيهم لطُرُق الحَيْطة ونَهْج المصلحة .

والحمدُ لله علىٰ ماخَصَّ به الوزيرَ من فضـله الذى رفع قَدْرَه فيه عن مُساماة ومشاكلة المُقَادر(٢) والشَّبيه ، وجعله فيما حباه به نَسِيجَ وَحْدِه ، وقَرِيعَ دَهْرِه ، وجمَعَ له من مَوَاهب الخير ، وخَصائِص الفَضْل ما أبان به مَوْقِعَه فى الدِّين ، وأعطاه معه الوِلايةَ من جميع المسلمين .

والحمدُ لله حمدًا مجدَّدا علىٰ ما جَدّده له من رَأْى أمير المؤمنين وآجْتبائه ، ومحـلّه من آخْتيارِه وآصطِفائه .

والحمدُ لله علىٰ مامَنَحه من كرامته ، وجدّد له من نِعْمته ، فيما أعاد إلىٰ تدبيره من وِزَارَته ، وأشركَه فيه من أمانَته ، آحتياطًا منه للمَمْلَكة ، ونظرًا للخاصَّة والعامَّة ؛ فإنَّ عائِدةَ رأيِه سَوَّتْ بينَ الضَّعيف والقَوِىّ ، ووصلَتْ إلىٰ الدَّانى والقَصِىّ ؛ وأعادت إلىٰ المُلْك بَهاءَه ، وإلىٰ الإسـلام نُورَه وضِياءَه ؛ فاكتسَت الدنيـا من الجِدَّة بعد الإخْلاق ، والنَّضارة بعد الإنْهاج(٣) ، مالم يكُنْ يوجَدُ مثلُه إلّا بالوزير فى شَرَف مَنْصِبه ، وكَرَم مُرَكَّبه ؛ فهنَّأ اللهُ الوزيرَ ما آتاه وتابَعَ له قَسْمه ، ووصلَ له ماجدّد له بالسَّعاده ؛ وأمدّه فيه بالزِّياده ؛ وأعطاه من كلِّ مأمُول أعظَمَ حظّ وأوفَرَ نصيبٍ وقِسْم ؛ تراخيًا

(١) فى الأصل والوراثة لتدبير وهو تصحيف سخيف .

(٢) فى القاموس "قادرته قايسته وفعلت مثل فعله" .

(٣) الإنهاج البِلَىٰ ، أنظر القاموس فى مادة (ن هـ ج) .

فى مُدّة العُمُر، وتناهيًا فى درَجةِ العِزّ، وآحتياطًا بالمَوْهِبَةِ فى العاجِله، وفَوْزا بالكرامة فى الآجِله، إنه فعّال لمـا يشاء .

تهنئة أُخْرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى تَرَسُّله، وهى :

التهنئةُ بالوَزِير للزّمان وأهلِه بمـا جَمَّلَهم به، وجدّد لهم من مِيسَم العِزّ، وسَرْبَلَهم إيّاه من حُلّة الأَمْنِ بوِلَايتـه، والنعمةُ علىٰ أوليائه ورَعَاياه علىٰ حَسَب مواقِعِهم من مشاركتـه وحُظُوظِهم من مَعْدِلَتِـه ظاهِرَةٌ، ولله علىٰ ذلك الحمْدُ الفاضل، والشكر الكامِل. وللوزيرِ من هذه النعمةِ الجليلةِ، والدولةِ السعيدةِ، أهْنَاها مَوْقِعا، وأسْرَاهَا مَلْبَسا، وأدْوَمُها مُدّه، وأجملها نَفَيسه، وأثْرَاهَا مُبَوءا، وأسلَمُها عُقْبىٰ، فتولّاه الله بالمَعُونة والحِرَاسه، وأيّده الله بالنصر والكِفَايه، وأنْهَضَه بمـا قَلَّده وآستَرْعاه، وبلَّغه مَحابَّه ومُنَاه، وأرجو أنْ يكونَ مَوْقِعِي من ثِقة الوزيرِ يُلْحِقُنِى عنده بمن مَكَّنَتْه الأيامُ من قَضاءِ الحَقّ فى التلَقّى والإبْعاد، ويُعَوّضُنى بتفضـيله ممـا حُرِمتُه منها مَحَلَّ ذَوِى الإخْلاص والاعتِدَاد .

تهنئةٌ أُخْرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى تَرَسُّله أيضا، وهى :

وهـذا أوّلٌ يتْلُوه مابعـده بلا تَناهٍ ولا نَقْص بإذنِ الله ومَشِيئته، بل يكون موصُولا لاتُبْلَغُ منه غايةٌ إلا شفَعَتْها درجةٌ تُرْقَىٰ، تكْنُفُ ذلك كِفايةٌ من الله شاملةٌ كاملةٌ، وغِبطةٌ فى البَـدْء والعاقِبَة بلَا آنْقِطَاع، ولا آرْتِجَاع، حتىٰ يكونَ المُنْقَلَبُ منه بعد بُلُوغ العُمُر منتهاه، إلىٰ فَوْزٍ برحمة الله ورضاه . فهنيئًا للوزيرِ بما لايَقْدِر أحدٌ أنْ يَدَّعِىَ فيه مُساعفَةَ المِقْدار، ولا ينَالُه بغير آستِحْقاق، إذ لامثلَ ولا نظيرَ للوزيرِ : فَضْـلا ظاهِرا، وعلمـا علىٰ العلوم مُوفِيا، وسابقةً فى تقْليب الخلافة ظهرًا لبِطْن، وحَلْب الدّهرِ شَطْرا بعد شَطْر، وجَمْعًا من مال السلطان لمـا كان متفرّقا، وحفظًا

لما كانَ ضائعا، وحمايةً لبَيْضةِ المُلْك، وضَبْطا للثغور، وتلقِّيًا للخُطُوب بما يَفُلُّ حدَّها، ويُطفِئُ نارَها ولهبَها ويُقيم أوَدَها؛ وما وهَبَ اللهُ في رَأْيه من فتح البلاد المُرْتجَة، وقَمْع الأعداء المتغلِّبة، وسُكُون الدَّهْماء، وشُمُول الأمْن، وعُمُوم العَدْل؛ واللهُ يَصِل ذلك بأحسَنه .

تهنئةٌ أُخرى في مثل ذلك : من إنشاء عليّ بن خلف في "موادّ البيان" وهي :

أطال اللهُ بقاءَ حضرةِ الوِزَارة السامية، فارِعةً من المعَالي أسْمَقَها نجُودا، كارِعةً من المِنَنِ أعذَبَها وُرُودا، ساحبةً من الميَامِن أرقَّها بُرودا؛ ممتَّعةً بالنِّعم التي يُرامِي الشُّكر عن حَوْزتِها، ويُحامِي البِشْرُ عن حَوْمَتِها؛ مبَلِّغةً في أوليائها وأعدائها، قاضيةً ماترتمي إليه رِحَابُها؛ فلا تَرى لها وليًّا إلّا لاحِبَ المَذْهَب، ثاقِبَ الكَوْكَب، ساميَ الطَّرْف، حامِيَ الأَنْف؛ ولا عدوًّا إلا ضَيِّقَ المَطْرَح، وَعِرَ المَسْرَح، صالِدَ الزَّنْد، مفَلَّلَ الحَدّ، راغِمَ العِرْنِين، مَتْلُولًا للجَبِين . ولازالتْ أزِمَّةُ الدنيا بيدها حتّى تَبْلُغ بآمالها مُنْتَهاها، وتجْرِيَ بأيَّامها إلى أقصى مَدَاها؛ [فهي] من أعظَم النِّعم خَطَرا. وأحسَنِها على الكافَّة أَثَرا، وأوْلاها بأن يُفَاضَ في شكرِها، وتتعَطَّرَ الآفاقُ بذِكْرِها . ولسيدنا الوزيرِ الأجلِّ رَاعٍ يستَيْقِظُ في صلاحِهم وهم هاجِعُون، ويَنْصَبُ في الذَّبِّ عنهم وهم وادِعُون؛ وَكَل تدبيرَهم فيه، إلى مدبِّر يخافُ اللهَ ويتَّقيه، ويعمَلُ فيمَن آسترْعاه بما يرْضيه؛ ولا يَمُدّ يَدَ الاقتدار عليهم متسَلِّطا، ولا يتَّبِع دَواعِيَ الهَوى فيهم مُتَسقِّطا؛ واضعًا الأشياءَ في حقائِقِها، سالكًا بها أمثَلَ طرائِقِها؛ مُلَايِنًا من غير ضَعْف، مُخاشِنًا من غير عُنْف؛ قريبًا من غيرِ صِغَر، بَعيدًا من غيرِ كِبْر؛ مُرَغِّبا بلا إسْراف، مُرْهِبًا بإنصاف؛ ناظرًا إلى محقَّرات الأمور وأطرافِها، كما يَنْظُر في مَعاظِمِها وأشرافها؛ آخذًا بوَثائق الحَزْم، متمسِّكا بعَلائق العَزْم؛ راميًا بفِكْرَته من وراءِ العَوَاقب، خاطِمًا بآرائه أُنُوفَ المَصَاعب؛

ناظمًا بإيالَتِه عُقُود المَصالح، مُوَطِّنا برِيَاضَتِه ظُهور الجَوَامِح؛ إن تَقَفَّ ذَا النُّبوة الفَرِيده، والهَفْوة الوحِيده ، اقتصر على ما يُوافِقُه الوالِدُ الحَدِب ، من مُقَوِّم الأدَب [وإنْ قبَض] (١) على المرتَكِس فى غَوَايته ، المُفْلِس فى عِنَايته ، ضَيّق عليه مجالَ العَفْو ، وأحاق به أليمَ العذاب والسَّطْو؛ فقد سكنَتِ الرعيَّةُ فى عَدْله ، وأوَتْ حَرَما منيعا من ظِلّه ، ووَثِقتْ أنَّ الحق بنظره شامِخٌ شاهِق ، والباطلَ سائخ زاهِق ، والإنصافَ مبسُوط منشُور ، والإجحافَ مَحْطُوط مبْتُور ، والشَّمْل منظُوم ، والشَّرّ مضمُوم . فنطقَتْ ألسِنَتُها بإحْماده ، واشتمَلَتْ أفئدتُها على وِدَاده ، واتفقَتْ أهواؤُها على رِيَاسـتِه ، وتطابقَتْ آراؤُها المسابِقةُ على دَوامِ سِيادَتِه ، وعرفَ أميرُ المؤمنين عَذْقَ النظر فى دَوْلته ، وسلَّمَ أمورَ مملكته إلى النَّصِيح المأمُون ، والنَّجِيح الميْمُون ، الذى وفَّقَه الله تعالى لاختياره ، ويَسَّره لاصطفائه وإيثاره ، وأنَّه قد ناط أُمورَه بمن لم يستخِفَّ ثَقِيلَ حَمْلها ، ويَنُوءُ بباهِظِ ثِقْلها ، فتمتَّع بلذِيذ الكرى ، وتَوَدّع بعـدَ السَّيْر والسُّرى ، وأَلِمَ من المـامِ مُلِمٍّ مُعْضِل ، وحُدوث حَدَثٍ مُشْكِل . وهـذه نعمةٌ تَمُّ الخاصّة والعامّة عُمومَ الغيث إذا هَمَع وتدفّق ، وتَشْـمَلُهم شُمولَ النهـار إذا لَمَع وتألّق ، وهم أولى بالتهنئة فيهـا وشكرِ الله تعالى عليها .

وسيدُنا الوزيرُ حقيقٌ بأن يُهْدَى إليـه الدعاءُ المرفُوع ، والتضرُّع المسمُوع ، بأن يُنْهِضَه الله تعالى بمـا حَمَّله ، ويُعِينَه على ما كَفَّله ، ويتولّاه بتوفيق يثقبُ أنوارَه ، وتأييـدٍ يُطَبِّق غِرَارَه ، وتسـديدٍ يُحَسِّن آثارَه ، وإجراءِ ما يتولّاه على أوْضح سبِيلٍ وأقصَدِه ، وأرجح دليلٍ وأرشَدِه ، إذ لا يجوز أن يَهْنَأ بمـاله عَناؤُه وكَلُّه ، ولمَذْعِنيه صلاحُه كلُّه . والعبـد يسألُ اللهَ ضارعًا لديْه ، باسطا يدَه إليه ، فى أن يَقْبَـل صالحَ أدعيَتِه لحضرة الوزارة الساميَة ، وأن يجعل ماأحلَّه فى محلِّه من رياستها ، وأوقعه

(١) الزيادة يقتضيها المقام كما لا يخفى .

فى مَوْقِعه من سياستها، دائبًا لا يُنْتَزَع، وخالدا لا يُرتَجَع، وأن يؤيِّدها فيه بما يقضى له بالإحراز والتّخويل، ويحميه من الآبتزاز والتحويل؛ إنّه سميعُ الدعاء، فعّالٌ لما يشاء، إنْ شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى ــ التهنئة بكَفَالة السلطنة :

وهذه نسخةٌ من ذلك، كُتِب بها عن نائب الشام، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُبَاتة، وهى بعد الألقاب :

لا زالَ دائرًا بهنائه الفَلَك، مُنيرا بضياء عَدْله وبِشْره الحَلَك، قريرًا بحُسْن كَفَالته المُلْكُ شاهدًا بفضل أسمائه وسِمَاته المَلَك، مقسوما بأمر الله نَدَاه وبأسه ليَحْيَا مَنْ حَيّ ويَهْلِكَ مَنْ هَلَك، تقبيلًا يُسَاقَه به التُّراب، ويُشاهَدُ شَرَفُ مَطْلَعه علىٰ السَّحاب . ويُنهِى قيامَهُ علىٰ قَدَمِ وَلاءٍ ودعاء : هذا يَنْزِلُ القلبَ وهذا يَصْعَد إلىٰ الأُفُق، ومُقامَه علىٰ بُشرىٰ وحمدٍ منهما الأمنُ يحلى بوصْفِه النُّطْقَ كما تُحَلَّى الأعطافُ بالنُّطُق؛ وأنه وَرَدَ مثالٌ شريفٌ علىٰ يَد فلانٍ يتضمَّن البِشارةَ العامَّه، والمَسَرَّة التامه، والنعمةَ التى يَعُوذُ سَنَا جَبينها من كل عينٍ لامَّه، وخبرَ الخيرِ الذى حَيَّت أزهارُه المتضوِّعةُ نَدَّ مِصْرَ فأولُ مابلَّغه مَنافِسَ الشام شامَّه، بأنَّ المواقفَ الشريفةَ ــ أعزَّ الله تعالىٰ سلطانَها ــ قد فوّضتْ إلىٰ مولانا كَفالةَ الإسلام وبَنِيه، وكِفايَةَ المُلْك بصالح مُؤْمنيه، ونيابةَ السلطنة الشريفة وما نَسَقَتْ، وتدبيرَ المَمالك وما وَسَقَتْ؛ فيالها بُشرىٰ آبتسَمَتْ لها ثغورُ البَشَر، ومسَرَّةً آستجلىٰ سَنَاها مَنْ آمَنَ وبُهِتَ الذى كَفَر، وخبرًا تلقَّت الأسماعُ بَرِيدَه منشدة : قُل وأعِدْ بأطْيَبِ الخَبَر، هُنالك أخذ المُلُوكُ حَظَّه من خيرِ بُشرىٰ، ونصيبَه من مَسَرَّةٍ حُمِد بصَباح طِرْسِها المَسْرىٰ، وحمِدَ الله تعالىٰ علىٰ أن أقام لسلطانِ البسيطة من يَبْسُط العدْلَ والإحسانَ لمَنابه، ويقلّد رعيّته

عقودَالنِّعم إذا تقلّد ماوراءَ سَرِيرِه وبابِه ، ومَنْ إذا كَفَل سيفُه مَمَالكَ الإسلام وثِقَتْ بالمَغْنَمِ والسَّلامه ، وإذا كتب قلمُــه قالتْ ولا سِيَّمَــا أخبارُ جند المسلمين : هكذا تكونُ العَلَامه ؛ وجهَّز المملوكُ هــذه الخدمةَ نائبةً عنه فى تقبيل الأرض ، وعَرْض الهناء بين يَدَىْ من يُسَرُّ المملوكُ بوَلَائه اليومَ ويرجُو أن يُسَرَّ به يومَ العَرْضِ ، ولو وصفَ المملوكُ ماعنــدَه من السُّرور والشَّوْق لضاق الورقُ عن تسطير الواجب منه وضاقَ الوقتُ عن أداء الفَرْض ؛ والله تعــالىٰ يجدِّدُ لمولانا ثمراتِ الفضلِ الواضِح ، والرأى الراجِح ، والقَــدْر الذى هو علىٰ مِيزان الكواكب راجِح ، ويمتِّعنا كافَّةَ الممــاليك بدَوْلة سلطانه الذى علم البيتُ الشريفُ أنَّه علىٰ الحقيقةِ الخلَفُ الصَّالِح .

وهذه نسخة تهنئةٍ لأمير جانْدار بولاية إمْرةِ جاندار، من إنشاء الشيخ جمال الدين ٱبن نُباتةَ، وهى بعد الألقاب :

أعلىٰ اللهُ منَارَها ومنَالَها ، وخلَّد قبولَهــا وإقبالَهَا، وأجزل من الغصْن الذى تناولَتْه ثمرَها وأسبَغ به ظِلالَها؛ ولا زال فى سَيْفها وعَصَاها مآربُ للْمُلْك، وفى بأسِها ونَدَاها مواقعُ للنَّجاة والهُلْك ، ولا بَرِحتِ القُضُب من سُــيُوف وغُصون : هــذه حاكمةً بسَعْدها حُكْمَ الملك، وهذه مُسَخَّرة فى تجريدها تسخيرَ الفُلْك ؛ تقبيلَ مخاصٍ فى وَلَائه ودُعائه ، مُهنِّئ القلبِ مسرورٍ بمــا يتجدَّدُ من مَسَرَّات مولانا وهَنَائِه؛ ويُنْهِى أنه بلغه ماأفاضتْه الصدقاتُ الشريفةُ علىٰ مولانا من المَبَرَّات ،وما جَدّدتْ له من المَسَرَّات؛ وأنها ضاعفَتْ مزيدَ الإحسانــ إليه ، ودعَتْه أميرَ جاندار وَدَّت العِصِىُّ النُّجوميَّة لو قدّمتْ نفْسها بين يدَيْه ؛ وأنَّ المواقفَ الشريفةَ قرَّتْ به عينا وأقرَّتْ ، وأنَّ الدولة القاهرةَ ألقَتْ عصاها إليه وٱستقرَّتْ ؛ وكما سَلَّمت إليــه العَصَا فى السِّلْم سَلَّمت إليه الســيفَ فى الحَرْب ، وكما قرَّبتْــه فى مواقف العَدْل والإحسان قرَّبتْــه فى مواقف الطَّعْن والضَّرْب ؛ فأخذ المملوكُ حظَّه من البُشْرىٰ ، وأوجب علىٰ نَفْســه الفــرَحَ

وسجدَ للهِ شكرا ، ووّدّ لو حضرَ يُشافِه بهذا الهَناء الشامل ، ومَثَل قائمًا لديْه بحق التهنئة القيامَ الحقيقيَّ الكامل ؛ وحيثُ بعُدَتْ دارُه ، ونأتْ عن العيان أخبارُه ؛ فقد علِم الله تعالىٰ مُواصلتَه بالأدعية الصالحةِ ليْلا ونَهارا ، والموالاةِ والمحبّةَ التى يشْهد بها الخاطرُ الكريمُ سِرًّا وجِهارا ، واللهُ تعالىٰ المسئول أنْ يزيدَ مولانا من فضله ، ويَسُرَّه بمتجدِّداتِ الخير الذى هو من أهلِه ، ويمتِّعنا كافَّةَ المماليك بدوام سلطانِ هذه الدولة الذى شَمِل بظله ، وغَنِي بنَصْره عن نَصْله ، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثالث — التهنئة بالإمارة .

من كلام الأقدمين :

تهنئة من ذلك ، أوردها أبو الحسين بن سَعْد فى ترسُّله ، وهى :

وهَنَأ اللهُ الأميرَ مواهِبَه الهنيّه ، وعطاياه السَّنِيّه ، وأدام تمكينَه وقُدْرتَه ، وثَبَّت وَطْأته ، وحَرَس ماخَوَّله ، وجعل ماهيَّأ له من مُؤْتَنَف الكرامة أيْمَنَ الأمُور فاتحةً وأسعَدَها عاقبه ، ووصل أيّامَه بأجمل الوِلَايه ، وأجَلِّ الكِفَايه ، حتّى ينتهى [من] آستيفاءِ سعاداتِ الحُظُوظ وحَوْز القِسَم والآمال ، [إلىٰ] الدرجةِ التى تليقُ بما أفرده اللهُ به من الكمال ، وخَصَّه به من الفضل فى جميع الخِصَال . ومن أفضلِ ماأعتَدّ به من نِعَم اللهِ علَيَّ بالأمير وبجميل رَأْيه ، ومَحَلِّي من طاعتِه وخِدْمته ؛ أنّى لا أخْلُو فى كل وَقْت وحالٍ من بَهْجةٍ تتجدَّدُ لى ، ومسرّةٍ تصلُ إلىّ ، وتتوفَّرُ علىّ ، بمـا يُسَهِّله الأمير علىٰ يده من مستصْعَبِ الأمور ، ومستَغْلَق الخُطوب ، التى تَبْعُد عمَّن يُزاوِلُها ، ويجعل اللهُ بطَوْله وحَوْله للأمير القُدرةَ عليها ، ويتوحّد بالكِفَاية فيها ؛ فينْمُو بجميل تدبيره ولَطِيف نَظَره ، ويَطَّرِدُ بصاعِدِ نَجْمه ويُمْنِ نَقِيبته وعِزِّ دَوْلته ؛ وذلك من فَضْل الله ونِعْمته ، يُؤْتِى فَضْلَه مَنْ يَشاء وهو ذُو الفَضْل العَظِيم .

الصنف الرابع — التهنئـــة بولاية الحجابة .

وقد كانَ لها فى الزّمنِ القديم المحلُّ الوافرُ فى الدولة وعُلُوّ الرتبة فيها .

من كلام الأقدمين :

تهنئـــةٌ من إنشاء أبى الحُسَين بنِ سعد، كُتِب بها إلىٰ أبى بكر بن ياقوت حين وَلِيَ الحِجَابةَ بعد نَكْبةٍ أصابته، وهى بعد الصدر :

وقد كانتْ أنفُسُنا مَعْشَرَ عبيدِ سيدِنا وحَمَلةِ إنعامه، ومؤمِّلى أيامه، فى هذه الأحوال التى نقد سيدنا منها فيما آبتلاه صَبْرَه، وأبانَ فيه قَدْرَه، وزاد العارفَ بفضله نفوذا فى البَصيره، وأعاد ذَوِى الآرتياب فيه إلىٰ الثِّقَة، فآستوىٰ المنازع والمُسَلِّم، وآستوىٰ العالمُ والمُعانِد ـ نعمةً منه تعالىٰ ذكره خَصَّه بها وصانَهُ عن مُشاكَلَة النظير، ومُزاحمة الأكفاء ـ علىٰ سبيل من القلَق والآرتماض، والسُّقُوط والآنخفاض، جَزَعا من تلك الحـال الغَليظه، وإشفاقًا علىٰ تلكَ النَّفْس النَّفِيسـه، وخوفًا علىٰ مَعالِم البِرِّ والتُّقىٰ، وبَقيَّة العلم والحِجَا، وتاريخ الكَرَم والنَّدىٰ، أن يَدْرُسَ مَنَارُها، وتُطْمَسَ آثارُها، ولولا مامَنَّ اللهُ به من الخَلَاص منها وما مَنَح بكرمـه فى عاقِبَتِها، لأوْشَكَتْ أن تأتِيَ عليها وتُعجِلَها عن مَواقِيتِ آجالها، لكنه عَظُمت آلاؤه، وتقدّسَتْ أسماؤُه، أتَىٰ بالأمْن والفَرَج، بعد آستيلاء الكَرْب والوَجَل، وآنبتات أسبابِ الرَّجاء والأملْ، فعرَف سيدُنا مَوْقِعَ الخِيرَةِ فيما قَضاه، ومُيِّزَ له الخبيثُ من الطيِّب ممَّنْ عاداه وتَولَّاه، وجعل النعمةَ التى جدّدَها له فيما ردّه أميرُ المؤمنين إلىٰ تدبيره من أمرِ داره ومملكته، وحِراسة بيضـة رعيَّته، مشتركَةَ النفْع والفائده، مقسومةَ الخَيْر والعائده، بينَ كافَّة الأمَّة فيما عَمَّ من المَعْدِله، وشَمِل من المَصْلحه . ولاحَ من تَبَاشِـير الخير، وأماراتِ البركة، فى آستقامة أمور البِلاد، وصلاح أحوالِ العباد، وأفرد اللهُ سيدَنا بحَظٍّ من

المَوْهِبَــة وَفَّانِي فيه علىٰ حُظُوظ الأولياء، وزادني علىٰ سِهَام الشُّركاء . وأنا أرغَبُ إلىٰ الله فى إسعاد سيدنا بما جدَّدَهُ له ، وتَعريفه بركةَ مُفْتَتَحه ويُمْنَ خاتِمَته . والحمد لله فى مُبْتَــداه، والسلامةِ فى عُقْباه ، وتبليغِه من حَظٍّ مأمول ، وخيرِ مَطْلوب ، وحالٍ عَلِيَّــه ، ورُتْبة سَنِيَّه ، أفضَلَ ما بَلَّغ أحدا آختصَّه بفضله ، وآصطفاه من خَلْقه ، إنه جَوَاد ماجِد . فإنْ رأىٰ ســيدُنا أن يتطوّل بإجراء عبده علىٰ كريم عادته فى تشريفه بمكاتبتِه ، وتصريفِه فى أمره ونهيه ، محقِّقا بذلك أمَلَه ، وزائدًا فى نِعَمه عنده ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

تهنئةٌ أخرى من ذلك، من إنشاء علىّ بن خَلَف أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

إنمــا يُهَنَّأ بالوِلَاية ــ أطال الله بقــاءَ الحاجب الجليل ســيِّدى ومولاى ــ مَنِ آنبَسطتْ إليها يدُه بعد آنقِبَاض ، وآرتَفَع لها قَدْرُه مِنَ آنخِفاض ، وأوجدَتْه الطريقَ إلىٰ إحراز جزيل الأجر والجزاء ، وآكتناز جميــل البركة والثنــاء ، وأفضتْ به إلىٰ آتِّساع السُّلْطان ، وآنتِفَاع الأعْوان ، فأمَّا من جعل الله يَدَه الطُّولىٰ ، وقَدْرَه الأعْلىٰ ، ورِيَاستَهُ حاصلةً فى نفسه وجوهره ، وسِيادَتَهُ مُجتناةً من سِنْخه وعُنْصُره ، فالأَوْلىٰ ــ إذا آستُكْفِيَ رَغْبــةً فى إنصافه وعَدْله ، وحاجةً إلىٰ ســدَاده وفَضْله ، وآفتقارًا إلىٰ فَضْل سِيرته ، وآضطِرارا إلىٰ فاضل سِياسَتِه ــ أن تُهنَّأَ الرعيَّةُ بوِلَايته ، وتُسَرَّ الخاصَّة والعامَّة بمــا عُلِق من أمورها بكفَايته ، وغيرِ بِدْعٍ ربْطُ[1] أمير المؤمنين بالحاجب الجليل أمْرَ حِجابته ، ونَصْبُه للزَّحمة[2] عن حَضْرته ، وجعلُه الوَسِيطَ والسفيرَ بينَه وبينَ خَواصِّ دَوْلته ، وقد وَثِق بيُمْنِ نَقِيبته ، وآطَّلع علىٰ خُلُوص نِيَّته ، وسكَنَ إلىٰ صِدْق طاعتِــه ، وعَرَف طهارةَ جَيْبه ، وسلامةَ غَيْبه ، وصِدْقَ لَهْجته ، وحَصَافَةَ أمانَته ،

(١) فى الأصول ارباط ولم نقف على فعله فيما بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) أى الدفع والذب يقال زحمه عنه أى دفعه انظر المصباح .

واعتمادَه للحقّ فيما يُورِد ويُصْـدِر ، ويُنْهِى ويُجيب ، وآبتلاه فعَرَف طِيبَ طُعْمته ، وخِفَّة وَطْأته ، ورأْفتَه بالضَّعيف المَهْضُوم ، وغِلْظَته علىٰ العَسُوف الظَّلُوم ؛ [فرأىٰ] أن يُحلَّه محلّ مَنْ لا يَغيب عمَّا شَهِده ، ولا يرتابُ بمـا سمعه ، علىٰ أنّى المهنّأ بكل نعمةٍ يجدّدها الله لديْه ، وسعادةٍ يُسْبِغُها عليه ؛ [ولو أنصفت] لسلَكْتُ من الصَّواب سَنَنا ، وآعتقَدْتُ جميلًا حَسَنا : لآستشعارى بالأنْفَس من لَبُوس سِيادته ، وتَحَلّى بالأنصَع من عُقُود رِياسته ؛ وإذا كانت رعيَّتُه أجدَرَ أن تُهنَّأ بولايته ، وتَعرِفَ قَدْر مالها من الحظّ فى نظـره ؛ فأنا أعْدِلُ من هنائه إلىٰ الدُّعاء له بأن يبارِكَ اللهُ تعـالىٰ له فيما قَلَّده ، ويُوفِّقَه فيما وَلَّاه ويُسَدِّدَه ، ويُلهِمَه آدّخارَ الثواب والأجر ، وآكتنازَ الحمد والشكر ، والهدايةَ إلىٰ سَنَن الآسـتقامه ، وما عاد بمحبّة الخاصّـة والعامه ؛ وإنهاضَه فى خِدْمة أمير المؤمنين ، والعَمَل من طاعته بما يُزْلِفُ فى الدنيا والدين ؛ واللهُ يستجيبُ فى الحاجب الجليل هذا الدعاءَ ويَسْمَعُه ، ويتقبَّلُه ويرفَعُه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الخامس — التهنئـــة بولاية القضاء .

التهنئة بذلك من كلام الأقدميـــن :

تهنئة من ذلك : من إنشاء علىّ بن خلف ، أوردها فى "مواد البيان" وهى :

أَوْلىٰ المِنَح أن يَتفاوض شكْرُها والتحدّثُ بها ، ويتقارضَ حمدُها والقيامُ بواجبها ؛ نعمــةٌ شَمِلَ عِطَافُها ، وعَمَّت ألطافُها ؛ وآشترك الناسُ فيها آشتراكَ العُموم ، وحلَّتْ منهم فى النفع محـلَّ الغيث السَّجُوم . وهــذه صورةُ النعمة فى ولاية قاضى القُضاة ـ أطال الله بقاءه ـ لمـا تتضمَّنه من إثبات العَـدْل والإنصاف ، وآنحسار الجَوْر والإجحاف ؛ وآعتِلاء الحقّ وظُهوره ، وآختلاءِ الباطل وثُبُوره ؛ وعِزّ المظلوم وإدالته ، وذُلّ الظَّلُوم وإذَالتِـه ؛ وتمكين المضْعُوف وآقتدارِه ، وآنخزال العَسُوف وآقتِسارِه .

وإنْ هَنَّأتُه حرس الله عُلَاه بموْهِبَة أَتَىٰ بارقُها بجميل الثَّناء ، وبجزيل الجَزَاء ؛ قـد ناء من تحمُّلها بباهظ الشيء ومتعبه ، وقام من سئلها بكل الأدب ومنصبه ، عدلت عن الأمثل وضَلِلْتُ عن الطريقة المُثْلىٰ ؛ لكنّي أهنّئه خُصوصًا بالمَواهب المختصّـة به آختصاصَ أطواقِ الحمـائم بأعناقِها ــ والمناقِبِ المُطِيفـةِ به إطافةَ كواكب السَّماء بنِطَاقها ، فى أنْ ألَّف اللهُ القلوبَ المتباينةَ علىٰ الإقرار بفَضْله ، وجمعَ الأفئدةَ المتنافيةَ علىٰ الآعتراف بقُصُور كلِّ محلٍّ عن محلّه ، وجعل كلَّ نعمةٍ تُسْبَغ عليه ، ومِنَّة تُسْدَىٰ إليه ، موافقةَ الآمالِ والأماني ، مُفْضِيَةً للبشائرِ والتَّهاني : لأنَّ مَنْ أحبَّ الحقَّ وآثره ، ولِبسَ الصِّدْق وآستشعره ، يَنْطِقُ بلسان الإرادةِ والآختيَار ، ومَنْ تركهُما وقلاهما ، وخلعَهُما وألْقاهمـا ، ينطِقُ بلسانِ الآفتقار والآضْـطرار ــ والخصائص التى هو فيها نَسِيجُ وَحْدِه ، وبِطُرُ يومِه وغدِه ــ والمحاسنِ التى هى أنَاسِيُّ عيونِ الزَّمان ، ومَصابِيحُ أعيانِ الحُسْن والإحْسان . ثم أعودُ فأُهنّئه عمومًا بالنِّعم المشتركةِ الشُّمُول ، الفَضْفاضَةِ الذُّيول ؛ التى أقرَّت القَضاءَ فى نِصَابه ، وأعادتِ الحكْمَ إلىٰ وطَنِه بعد نُجْعته وآغترابه ؛ وأعلتْهما فى الرُّتْبة الفاضله ، وقدَحتْ بهما أَنفَ الذِّروة العالِيَه . وأرفعُ يدى إلىٰ الله تعالىٰ داعيًا فى إمداد قاضِي القُضاة بتوفيقٍ يُسَدِّدُ مَرامِيَه ، ويُرْشِد مَساعِيَه ؛ ويهذِّب آراءه ويصحِّحها[(١)] ، ويُبْلِج أحكامَه ويُوضِّحها ؛ ويخلِّد عليه النعمةَ خُلودَها علىٰ الشاكرين ، ويُبَصِّره بحُسْن العقبىٰ فى الدنيـا والدِّيـن ؛ وهو سبحانه يتقبَّل ذلك ويرفعُه ، إن شاء الله تعالىٰ .

التهنئة بذلك ، من كلام أهل العصر :

تهنئة من ذلك : أوردها الشيخ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبيّ فى كتابه «زَهْر الربيع فى الترسُّل البديع» وهى :

(١) فى الأصل « يفضحها » وهى تصحيف لا يناسب المقام .

أنفَذ اللهُ تعالىٰ أحكامَه، وشكر إحسانَهُ وإنعامَه؛ وخلّده ناصرًا للشريعة المطهّرة وأدامه، وجدّد سَعْدَه وأسعد أيّامَه؛ وجعله المسترشِدَ والمقتفِيَ بأمر الله والرّاشدَ والمستنجِد والمستَنْصِر والنّاصِر والعاضِد، والحاكم القائم بأمر الله (١) من القُضاة الثلاثة الواحد .

المملوكُ يقبّل اليدَ العاليـة تبرُّكا بتقبيلها، وأداءً لواجب تعظيمها وتبجيلها؛ ويهنّئُ المَوْلىٰ بما خصّهُ الله تعالىٰ من مُضاعفة نَفَاذ كلمته ورَفْع منزلته ، وإمضاء أحكامه الشريفة وأقضيَته، وتقليده أمورَ الإسلام، وتنفيذ أوامره فى الخاصّ والعام؛ ويهنّئُ بالمَوْلىٰ مَنْ رُدّت أمورُه إليـه، وعُوِّل فى ملاحظة مصالحه عليه؛ فإنّ مَوْلانا مازال بالعِلْم والعَمَل مشهورا ، وسعْيُه فى الدنيا والآخرة سَعْيا مشكُورا؛ ويقظةُ مولانا جديرةٌ بزيادة الاهتمام، والاحتياط التامّ، بملاحظة طلبة العلم والمشتغلين، والفُقهاء والمدرِّسين ؛ وسَبْر أحوال النُّوّاب ، وأنْ لايكفيَهُ الاعتمادُ علىٰ حسن البزّة وطهارة الأثواب؛ بل يُمْعِنُ فى الاطّلاع علىٰ مايعتمِدُونه النّظَر، ويُلاحظ كلًّا منهم إن غاب عن مجلِسه أو حضَر؛ فمَنْ رآه يَهْدِى إلىٰ الحقّ وإلىٰ الطريق المستقيم، ولا يَقْرب إلا بالتى هى أحسَنُ مالَ اليَتِيم ؛ فيحقّق له من العِنَاية أملا ، ولا يُضِيع أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا ؛ حرس اللهُ المولىٰ ومتّع بحياته ، وأعاد علىٰ الكافّة بركة صِيامه المقبُول وصَلَاته؛ ونفع الإسلامَ بمستجاب دَعَواته، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف السادس — التهنئة بوِلَاية الدعوة علىٰ مذهب الشّيعة .

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدّولة الفاطميّة، بالديار المِصْرية، ذِكْرُ موضُوعها وعُلُوِّ رُتْبتها عندهم؛ وإنما ذكرناها حِفْظا للأصل ولاحتمال وُقُوعها.

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله حتى يكون من القضاة الخ .

تهنئةٌ من ذلك : من إنشاء علىّ بن خَلَف، أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

أطال اللهُ بقاءَ داعى الدُّعاة لصَباح من الرحمة يُبْلِجه ، وطريقٍ من الحكمة يُظْهِر بيانَه ، وليلٍ من السُّنَّة يَنْزِع طَيْلَسانَه ، وحَرسه علىٰ الإيمان يُجَدِّدُ ماأخلَقَ من بُرُوده ، ويُنَظِّم ماوَهىٰ من عُقُوده ، وعلىٰ المؤمنين يفتحُ لهم أبواب الرَّشاد ، ويُهْمِى إليهم سَماءَ الإفادة والإمْداد . ولا زالت الحقائقُ مقصودةً منه بالمِيزَة التى رشَّحته لحفْظ مَبانيها ، وأهَّلته للعبارة عن مَعانيها ؛ حتّى يرقُمَها فى الأَخلاد ، ويَمْحُوَ بهارُسومَ العِناد ، ويَنْشُر بُشْرَها فى الآفاق والبِـــلاد . أنا أعْدِلُ عن هَنـاءِ داعى الدُّعاة ـ أطال الله بقاءه ـ بما عُدِق به من أمرِ الدَّعْوة الهادِيَة العَلَويَّه ، ونُصِب له من فَرِّ مَضاحك المُشْكلات عن أسرار الحقائق الإلهيَّـه ، والترجمة عن غوامض الحِكَم الشَّرْعيَّه ، والتوقيف علىٰ مَوارد الهُـدىٰ ومَشارعه ، والإرشاد إلىٰ مَشارق الحق ومَطالعه ، إلىٰ هَنـاءِ الدَّعْوة وأهلِها بمـا قيَّضه الله تعالىٰ لهم من مَحَلّه الرفيع الذى ألحقه العقلُ نحوَ هذا الكمال ، ووطَّأ له مَدارجَ الترقِّى والاتِّصال ، فشَفَّتْ نفسُه وشَرُفَتْ ، وتطلَّعتْ علىٰ عالَمِ المَلَكوت وأشرفَتْ ، وجَنىٰ بيَدِ التَّبصِرَة ثِمـارَ الحِكْمه ، وآستنْزلَ بمَنْزِل المُوادّ غُيوثَ النِّعمه ، وجَرَّد الضِّـــياء من الظلام ، تجريدَ الأرواح من الأجسام إلىٰ دار السلام ، وآستمَدّ بلطيفته موائدَ علوم عالَمِ اللَّطافه ، وأمدّ بمُرَكَّب ألفاظها تحاكم الكافه ، وحَلَّ فى الغَبْراء محلَّ الغَرَّاء فى الخَضْراء ، إنْ أوضحَتْ سبيلَ سائرٍ بجنب طريقٍ جائرٍ تُوَصِّل بنزوعها غاشية إظلام ، حُسِر عن الحق قِناعُ إبهـام ، أوفعلَتْ[1] فى الجواهر زيادة وثمرة (؟) أخذت تعاديا(؟)فأدلّته للهمم العاملة شَرَفًا وسُمُوّا : لما أعلىٰ بذلك من قَدْرِها وقَدْرِهم ، وطيَّب من ذِكْرِها وذِكْرِهم ؛ وأعطِف إلىٰ الدعاء لداعى الدُّعاة بأن يجعل اللهُ تعالىٰ

(١) كذا فى الأصلين ولم نهتد الى تثقيفه تأمل .

ماخُوّله من هذه الرِّياسة راهنًا لا يُرتَجع، وما تَوله من هذه السيادةِ مستقرًا لايُنتزع؛ وأن يؤيِّده بالتوفيق، ويُعبِّد لهمَنَاهج التحقيق، ويُطْلِق لسانَه بالبيان، ويُمِدّه بُروح منه فى نُصْرة الإيمـان؛ وقد حتَم الله تعالىٰ باجابة داعيه، ولا سيمـا داعى الدُّعاة [فإنه] جدير بأن يُجاب الدعاءُ فيه، إن شاء الله تعالىٰ.

قال فى "موادّ البيان": و إنمـا أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ، لأن ألفاظ هذا الدّاعى يجب أن تكون مشتقّة من ألفاظ الدعوة، مناسبةً لمَذْهبها؛ ولولا ذلك لأُغنِىَ عنـه مثالُ تهنئة قاضى القضاة؛ ومن تأملهما عرف ما بينهما من الفُرْقان.

الصنف السابع — التهنئـــة بالتقدمة علىٰ الرجال.

رُقعةٌ من ذلك:

[من حلّ] محـلّ سيدى — أطال الله بقاءه — من السُّؤْدَد الناطقِ الشّواهـد، المنتظِم المَعاقِد، المُتضارِع الطارِف والتالِد، المنتقِل فى الوَلَد عن الوالد، والمجدِ الذى قَصُر عن مُطاولَتِه الطِّرازُ الأوّل، وتَطاطأَ له الإنعامُ المخَوّل، وحاز ماحازه من شَرَف الرِّياسه، وفَضْل السِّياسه، والاستقلالِ بحُقوق ماتولّاه، وتَسْديدِ ماتوله واستكفاه؛ فتشوفَتْ إليـه أعالى الرُّتَب، وتشوقَتْ إليه المنازلُ السنيّة من كَثَب، خطبَتْه العُلا سائقة عنه مَهْرَها، وتَطامَنَتْ له مُوَطِّئةً ظَهْرَها، فلم يَكْثُرْ له أن يتقدّم علىٰ [أهل] عَصْره فَضْلا عن قبيلته، ويتأمّر علىٰ جميع نَوْعه فضلا عن طائفته: لأنه المقدّمُ عليهم بالرُّتْبة والطَّبْع، لا بالاصطلاح والوَضْع؛ فشكَرَ المملوكُ اللهَ تعـالىٰ علىٰ بُزُوغ هِلاله وإبْراقه، وطُلوعه لميقات العز وتفاقه؛ وسأله أنْ يجعلَ ماأقرّ العيونَ من سـيادته، وحَقّق الظنونَ فى سـعادته، خالدًا راهنـا، ومُقيمًا قاطنا؛ وأن يَزيده من السعاده، ويُرقِّيَه كلَّ يوم فى دَرَج السياده: لتكونَ هـذه الرتبةُ علىٰ امتناع مَرْقَبها، وارتفاع

مَرْكَبِها ؛ أوّلَ درجة تخطّاها ، ومنزلةٍ فرعها وعلاها ؛ ثم لايزالُ راقيا فيما يتلوها حتّى يحتذِىَ بكواكب الجوزاء ، ويطحُودارةً على الخُلفاء ، مُهنّأً غيرَ منغّص ، ومُزيّدا غيرَ منقّص ؛ والله تعالى يجيب هذه الأدعيةَ الواقعةَ مواقعها ، والمستحقّات الموضوعةَ مواضِـــعَها .

الصنف الثامن — التهنئـــةُ بولاية الديوان .

رُقعةٌ من ذلك :

ويُنهِى أنّ من حلّ محـلّ مولانا — أطال الله بقاءه رافلا فى لَبُوس السّـعاده ، متحفّلا بسُلُوس السّياده ، متنقّلا فى رُتَب المجْد ، متوقّلا الىٰ غَدَنِ[1] الجَدّ ؛ مسـتوليا علىٰ شِعَاب العُلا ، متمكّنا من رِقَاب الأعداء — فى الاستقلال والاضطلاع ، والمعرفةِ بحقوق الاصطفاء والاصطناع ، ورفعة مذهبه على الكفاية والغَناء ، والنهوضِ بثقيل الأعباء ، خطبتْه التصرّفات حاملةً عنه صدَاقَها ، وتشوّقتْه الولاياتُ مادّةً إليه أعناقَها ؛ وقد اتّصل بالمملوك ماجدّده الله تعالىٰ من سعادته ، وأنجزه من مواعيد سيادته ، التى كانت واضحةً فى مخايل فضله ، لائحةً فى دلائل نُبْله ، مكتوبةً فى صفحات الأقدار ، مرقومةً بسواد اللّيل علىٰ بَياض النهار ؛ فجَذِل المملوكُ بذلك ، جذَلَ الحميم المُشارِك ، وسُرّ به سرورَ الخليط المُشابِك ؛ وليس ذلك لأنّ الذى تولّاه مولانا وجد [فيه] خَللا فرَقَعه ، وخُمولا فرفعه ؛ بل لأنّ الحقّ غالَبَ الحظّ فغلَبَه ، والواجبَ سالَبَ المُمْكنَ فسـلَبَه ؛ وأناخ رِكابَ الرّياسة فى المحلّ الخصْب الذى يحمَدُه ويرتَضيه ، والله تعالىٰ يتفضّل علىٰ رعيّته ، المتوطّنين بفاضل سياسته ، من حِبائه ولطفه ، ورأفته وعطفه ، بما يُسْبِـغ عليهم ظلالَ العَدْل ، ويقلّص عنهم سُدُولَ الجور والحَيْف ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى " اللسان " الغدن سعة العيش والنعمة .

قلت : وكتبتُ للمَقرّ البَدْرىّ محمودِ الكلستانى الشهير بالسّراى مهنّئا له باستقراره فى كتابة السِّرّ الشريف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية «برقوق» فى سلطنته الأُولىٰ :

رَفَعتَ للمَجدِ مُـــذْ وُلِّيتَ بُنيـانَا * وشِدْتَ للفَضْل بَعد الوَهْن أركانَا !

وأصـــبحَ المُلكُ فى زَهوٍ،ومالكُه * يَميسُ عُجْبًا، وهَنَّا التَّختُ إيوانَا !

قدِمْتَ مِصْرا فأمسَتْ مِنكَ فى فَرَحٍ * تَهُـزُّ بالبِشْرِ من لُقياك أردانا !

وغُودِرَ النّيــلُ مُذْ وَافيتَ مُبتَهِجًا * وقد رَمىٰ الصَّـدُّ والإبعادُ جَيْحانا !

ألفاظُكَ الغُرُّ صارتْ لِلْوَرىٰ مَثَلا * وكُتْبُكَ الزُّهْرُ بَعْــدَ اللّثْم تِيجانَا !

تَفُوقُ قُسّــا إذا تَبــدُو فصاحَتُها * وتَفضَحُ المِصْـقَع المَلّاقَ سَحْبانَا !

قد أفْحَمَتْ فى مَجَـازاتٍ بلاغَتُهـا * تُرْكًا ورُومًا وبعد الفُرْس عُرْبانا !

كلُّ المَوَالى إذا وَلّوا فلا أسَــفٌ * إذ أنتَ باقٍ، ويُبْــقِى اللهُ مَوْلانا !

مولًى به قَـــدْ تَشرَّفنـا وجَمَّلنـا * بوجهـــه، ولذِكْرِ القومِ أنسانَا !

الصنف التــاسع — التهنئـــةُ بولاية عمل .

أبو الفَرَج الببَّغاء :

عَرّف الله سيدى بركةَ هـذا العملِ الجَليل، بنبيلِ نَظَره الجميل، وحَميدِ أثَرِه المحروس ؛ وتَناصُرِ سياسته الشريفة بسِمَةِ رياسته ؛ ووفّق رعيّته لشُكرِ ما وَلِيَها من فائض عَدْله ومحمودِ فِعْله ؛ فالأعمالُ منه — أيده الله تعالىٰ — بالتهنئة أَوْلىٰ، وبالتَّطاوُل بمـا شَمِلَها من بركات تدبيره أحرىٰ ؛ والله بكَرَمه يُسمِعُ فيه صالحَ الدعاء، ويبلّغه أبلغَ مُدَد البقاء، فى أسبغ نِعَمه، وأرفعِ مَنْزِله، وأصدَق أُمنيّة، وأنجح طَلِبة، بمَنّه .

وله فى مثـله :

لولا ما يَشْرَكُ التَّهـانِىَ من بركات الدُّعاء الذى أرجُو أنْ يسمَعَ اللهُ فيك صالِحَه، ويُجيبَ أحسَنَه ؛ لأجلَلْناك عن التَّهنِئة بمستَجِدّ الأعمـال ، ومستَحْدَث الوِلَايات، لقُصُورها عن آستِحْقاقِك ، وآنحطاطِها وإن جلَّتْ عن أيْسَرِ واجِبـاتك ؛ وتحلِّيها بمأثُورِ كِفَايتك، وبَركاتِ نَظَرك، ومواقِع إنصافِك . فهنَّاكَ اللهُ نِعمةَ الفَضْل التى الولايةُ أصغَرُ آلاتِها ، والرِّياسةُ بعضُ صِفاتِها ؛ ولا أخْلاكَ من مَوْهِبَةٍ مُجَدَّده، ومِنْحةٍ مُؤَبَّده .

وله فى مثـله :

سيدى ـ أيده الله ـ أرفَعُ قَدْرا، وأنْبَهُ ذِكْرا ؛ وأعظَمُ نُبْلًا، وأشهرُ فَضْلا ؛ مِنْ أنْ نُهنِّئه بوِلَاية وإنْ جَلَّ خَطَرها، وعَظُم قَدْرها؛ لأنّ الواجبَ تهنِئةُ الأعمال بفائِض عَدْله، والرَّعِيّة بمحُمودِ فِعْله، والأقَالِيم بآثارِ رِيَاسته ، والولايات بسِمَات سِيَاسته؛ فعرَّفه اللهُ يُمْنَ ماتولَّاه، ورعَاه فى سائرِ ما آسْترْعاه؛ ولا أخْلاه من التوفيق فيما يُعانيه، والتسديد فيما يُبْرِمه ويُمْضِيه .

الأجوبة عن التَّهانِى بالوِلَايات

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكُتُب إذا ورَدَتْ، وجبَ علىٰ المُجِيب أن يستَنْبِط من كل كِتَاب منها المعنىٰ الذى يُجِيب به . قال : والطريقةُ المستعملةُ فيها أنّ كتابَ المجيب يجب أنْ يبنىٰ علىٰ أن المهنَّىَ قسيمٌ فى النِّعمـة المتجدِّده ، وشريكٌ فى المنْزِلة المسـتحْدَثة، وأن الحظَّ الأوفَرَ فيما ناله المهنَّى للهنِّى وببركةِ دُعائه، وتوقعه لمـا يَرِدُ

من حاجاته وتبعاته لينفذها ، نازلا على أخلص مخالصته ، وعاملا بشروط مودته ؛ ونحو هـذا ممـا يضارعه . فإن كان المجيبُ رئيسا أو مرءوسا ، وجب أن يرتّب الخطاب على ماتقتضيه رتبةُ كلٍّ واحد منهما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وردتِ المُشرِّفةُ الكريمـةُ ، أتمّ اللهُ على مُرسِلها نعمته ، وأعلى قدْره ومنزلتـه ؛ وجعل جَناحَ العـدا مخفوضا ، وعيْشَـه فى دَعَةٍ وخَفْض ، وقدْرَه للتمييز مرفوعا ، وعدُوَّه للتقصير فى انحطاط وخَفْض ؛ فتلقّاها باليمين ، وظنّها الريحَ الجنوب لما تحمّلته من رِقّة الحَنين ؛ وعلِمَ ما أبداه فيها من تفضُّلاته ، وآعترف بالتقصير عن مُجاراته ومُجازاته ؛ فشنَّفَ سمْعَـه بألفاظٍ كأنّهنّ اللُّؤلؤ والمَرْجان ، وبيّنتِ البَوْنَ الذى بينه وبين غيره تلكَ الفصاحةُ والبَيان ؛ وقابل أياديَهُ بشُكْرِ لسانه ، وجازاه بحُسْن الدُّعاء عن إحْسانه ؛ ولا يقومُ بشُـكْرِ فضـلِه اللسـانُ ولا الجُثمان ، وهل جَزاءُ الإحْسانِ إلّا الإحْسان؟ .

فأمّا ماأشار إليه من الهَنَاء بالمَكان الذى تولّاه ، وأبداه من المحبّـةِ التى اوجبَتْ عليه أن يتَوالاه ؛ فاللهُ تعالى يُعينه على ماهو بصَـدَده ، ويجعلُ الحقّ والخير جاريَيْنِ على لسانه ويَده ؛ ويرزقُه آتباعَ محكَمِ كتابِه وسنّةِ رسوله ؛ ويُحصِّلُ له من الرُّشد غايةَ سُوله ومأْموله ؛ فإن هـذه الولايةَ صَـعْبةُ المِرَاس ، وجَوادُها كثيرُ الشِّماس ؛ لٰكن ببركات المَولىٰ يحصُل من الله الأَرَب ، ويَسْهُل لأوليائه القصدُ والإسعادُ والطَّلَب ؛ أدام اللهُ ظلّ المولىٰ وأسـعَدَه ، وأوضح لَديْه طريقَ السـعادةِ ومَهَّـده ؛ ومنَحَه من الألطاف الخفيّة أفضلَ ماَودّه ؛ بمَنّه وكَرَمه .

الضـــرب الثـانى

(التهنئــةُ بكرامة السلطانــ وأجوبتُهـا)

وفيـــه ثلاثة أصـــناف :

الصنف الأول — التهنئةُ بالإنعام والمَزِيد ولُبْس الخِلعَ وغير ذلك .

من كلام الأقدمينـــ :

ويُنْهِى أنه آتّصــلَ بالمملوك ماأهّل مولانا السلطانُ مَوْلانا لَهُ : من المحلّ السَّنِيّ ، والمكانِ العَلِيّ ، الذى لم يزَلْ موقُوفًا عليه ، متشوّفا إليه ، نافِرًا عن كلِّ خاطبٍ سِواه ، جامِحًا علىٰ كلِّ راكبٍ إلّا إيّاه ؛ فأقرّ اللهُ عينَ المملُوك بذلك لِصــدْق ظنه ، وعلم أنّ ماأصاره اللهُ تعالىٰ إليــه من هذه المنْزِلة المُنِيفه ، والرُّتبة الشريفــه ؛ مدْرَجةٌ تُفْضِى إلىٰ مَدَارِج ، ومَعْرَجة تنْتهِى إلىٰ معَارِج ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُ مَعالِيَه عُلُوّا ، ويُضاعف محلَّه سُمُوّا ، بمَنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنه — ويُنْهِى أنه آتّصــل بالمملوك نَبأُ المَوْهبَة المتجدِّدة لدَيْهُ ، والنعمةِ المُسْبَغة عليه ؛ وما آختصَّه به مولانا السلطانُ من الاَصْطِفاء والإيثار ، والاَجتِباء والاَخْتِيار ، وتقديمه للرُّتْبة الأثِيره ، والإنافةِ إلىٰ المَنْزِلة الخطِيره ؛ فسُرَّ المملوكُ للرِّياســة إذْ أحلّها الله تعالىٰ فى محلّها ، وأنزلَها علىٰ أهْلِها ، ووصلَها بكُفْئِها وكافيها ، وسلَّمَ قوسَها إلى رامِيها ؛ والله تعالىٰ يجعلُ هذه الرتبةَ أوّلَ مَرْقاة من مَرَاقِى الآمال ، ومكيْنِ الرُّتَب التى يَفْرَعُها من رُتَب الجَلال ، إن شاء الله تعالىٰ .

من كلام المتأخريـــن :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

أدامَ اللهُ أنصارَه، وجعل التَّقوىٰ شِعَارَه، وألبَسه من المَحامِد أكرَمَ حُلَّة، وتولَّهُ من المَكارم أحمَدَ خَلَّة، ولا زالتِ الخِلَع تتشرَّف إذا أُفِيضتْ عليه، والمدائحُ تُستطاب بذكره لاسِيَّما إذا أُنشِدتْ بينَ يَدَيه .

الخـادمُ يُنْهِى إلىٰ عِلمِ المَوْلىٰ أنه اتَّصل به خَبرٌ أهدىٰ إليه سُرورا، ومَنَحه بَهْجةً وحُبورا : وهو ما أنعم به المولىٰ السلطانُ خلَّد الله سلطانَه، وضاعفَ إحسانَه : من تشريفه بخِلْعته، وما أسبَغَهُ عليه من وَارِف ظِلِّه ووافِرِ نعْمته، وأبداه من عِنايتـه بالمولىٰ ومحبَّته، وقد حصَلَ له من المَسَرَّة ما أجذَلَه، وبَسَط فى مُضاعفةِ سَعْدِ المولىٰ أملَه، فإنه بلَغه أنَّ هذه الخِلعـةَ كالرِّياض فى نَضارتِها، وحُسْن بَهْجتها، وأنها كُلَّما بَرَقَتْ بَرِقَ لهـا البصَرُ، وظَنَّها لحُسْـنها حديقةً وقد حَدَّق إليها النظَر، وقد جمعتْ ألوانَ الأزهار، وأرْبىٰ ناسِجُها فى اللُّطف علىٰ نَسَمة الأسحار، وأسكنتْ حُبَّها حبَّاتِ القلوب التى فى الصُّـدور، وسَمَتْ عن المَـدْح برائقِ المنظُومِ وفائقِ المنْثُور، وأن ابنَ سُلَيْمانَ(1) لو رآها، لاعترف بأنَّ فى لُبْسها لكلِّ فتًى شرفًا لاريْبَ فيه، ونَسَب البيتَ المنسوبَ إليه إلىٰ أعَاديه، وأنَّه لو نظَر نَضْرةَ نُضارِها لمـا جعل لها فى الحُسْن نَظيرا، ولو ألقاها علىٰ وَجْهه لارْتدَّ لوَقْته بَصِيرا، فلذٰلك أصدر هذه الخدمةَ مهنِّيَةً، ومُعْرِبةً عما حصل له من الفَرَح ومُنَبِّيَه، ولجِيدِ مَدْحه العاطلِ من مثل هذه الألفاظ مُحَلِّيَه، تولَّهُ اللهُ فى كلِّ يوم مَسَرةً وبُشْرىٰ، وأجرىٰ له علىٰ الألْسن حمـدًا وشُـكْرا، وجعله لكلِّ خيرٍ أهلا، وشَـكرَله تفضُّلا شاملًا وفَضْلا، ومتَّعه من العافية بلباسٍ لايَبْلىٰ، إن شاء الله تعالىٰ .

(1) مراده أبو العلاء المعرى أحمد بن سليمان .

الصنف الثانى — التهنئةُ بِرِضا السلطان بعد غَضَبه .

فمن ذلك :

وتُنْهِى أنه ٱتَّصل بى ماجَدّده اللهُ تعالىٰ لمولاى — أطال الله بقاءه — من حُسْن عاطفة مولانا أميرِ المؤمنين — خلّد الله ملكه — وٱنعطافه عليه بعْدَ ٱنْصرافه ، وإعادتِه إلىٰ رُتْبته التى نَشَزتْ عنه دَلالا لا مَلالا ، وهَجَرْته هَجْرَ المستصْلِح المستَعْتِب ، لا هَجْرَ القالِى المتجَنِّب ، وكَيْفَ تَقْلاه ، وهى لا تجِدُ لهـا كُفُؤًا سِواه ؛ ولتوقُّع المملوك بما وقع من هذه الحال ، وعلْمِه أنَّ عَوْدها إليه كعودة المُودَعِ [إلىٰ مُودِعه ،] لاعَوْدةِ المنتَجِع إلىٰ مَرْبَعه ؛ وأنَّ الذى وقَع من الاَنْحراف إصلاحٌ باديه تهذيبٌ وتَقْويم ، وخافِيه توقيرٌ وتعظيم : لِمَا فى عِتَاب أمير المؤمنين من شَرَف الرُّتْبه ، والدَّلالةِ علىٰ ٱستِقْرار الأُثْرة والقُرْبه ؛ وحُلُوله مَحَلَّ الصِّقال ، من أبْيِض النِّصال ، والثِّقَاف من العَسَّال ؛ ولا سيَّما ورِيَاستهُ محفُوظه ، وسيادتهُ ملْحُوظه ؛ وهيبتهُ فى النُّفُوس ماثلَه ، وجَلالته فى القلوب حاصِلَهْ ؛ ولْم[1] يرِ المملوكُ أجلَّ مَوْهِبَةً من الله سبحانه من شكرٍ يستَرْهِنُ هذه النعمةَ ويخلِّدها ، وحمدٍ يرتَبِطُها ويقَيِّدها ؛ ورغبتُ إلىٰ الله سبحانَه أنْ يجعلَ هذا العِزَّ الحادثَ لابِثًا لايتحوّل ، والسعدَ الطارِفَ ما كِثًا لايتنَقَّل ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من عادةِ الزمان أن يَكِفَ سَحابُهُ ثم يَكُفّ ، ويرِفَ نَباتُه ثم يجِفّ ؛ ويَدِرَّ حَلَبُهُ ثم ينْقَطِع ، ويُقْبِلَ خَيْرُه ثم يرتَجِع ؛ إلا أنَّه إذا سلَبَ النعمةَ ممن يَسْتوجِب إمرارَها عليه ، وٱنتزع المَوْهِبَة ممن يستحِقُّ ٱستمْرارَها لَدَيْه ؛

(١) لعل الواو زائدة و يكون متعلق اللام فى قوله «ولتوقع» الخ تأمل .

كانَ كالغالِط الذى يُراجِع نَفْسَه فيندَمُ علىٰ مافرَط، ولا يلبثُ أن يستَدْرِك الغَلَط، مُعقبا نَبْوته بإنابَتِه، متعقِّبا هَفْوته باستِقالَتِه، ماحِيًا إساءَته بِرَأب ماثَلَم، وأَسْو ماكَلَمْ، وإصْلاح ما أفْسد، وتأليف ماشرَّد . فلا جَرَم أنَّ النفُوسَ بإقبالِه علىٰ مَنْ هـذه صِفَتُه واثِقه، والآمالَ لِانصرافِه إلىٰ مَنْ هذه صورتُه متحقِّقه، وإذا سَلَبها هَرْولَ فى إيداعها لدَيْه، وأخذ [فى] إفاضَتِها عليه. وما زال المملوكُ ــ مُذْ عاملَ الزمانُ مولانا بسُوءِ أدَبِه، ونَأىٰ عنه بجانِبِه، وقبَضَ بنانَه، وغيَّر عليه سُلطانَه ــ عارفاً أنَّ هذه الفَعْلة فَلْتةٌ من فَلَتاته التى ينوقَّى شَرَّها، ولا يرجعُ إلىٰ مثلها، وأنَّ الاستِبْصار، يقُودُه إلىٰ الاعْتِذار، والاضطِرار، يحدُوه علىٰ ردِّ ماانتزعه بالإجْبار : لأنه لا يجدُ من يحُلُّ محلَّ مولانا فى ارتباطه بإيناسه، وتعهُّده بسَقْى أغراسه، وقيامِه بشُكْره، وتزكيته بِرِّه ــ متوقِّعا لأن تتيَقَّظ عينُه، وينْكشِفَ رَيْنُه، فيرىٰ ماصنعَتْ يَدَاه، ويبادِرُ لاستقالة ماجَنَاه، حتّى طرق البشيرُ بمـا سَهَّله الله تعالىٰ مِنَ انحِسار الكُرَبه، وعَوْد مولانا إلىٰ شَرَف الرُّتْبه، وصلاح مافَسَـد، وعَوْدِ السلطان أعزَّ الله نصره إلىٰ ماعَهِد، وركُونِه إلىٰ حضرته، وانْقلابِه عنه رافلاً فى تشريفه ومَكْرُمته، فكانَ معتقَدُ المملوك فيه هِلالاً فى السِّرار فأهَلّ، وجَنِينا فى الحَشَا فاستهَلّ، فاسـتَولىٰ علىٰ المملوك من السُّرور ما عَمّ جَوارِحَه، وعَمَر جَوانِحـه، وأطار بجنَاح المرَح، وألبس حُلَّة الفَرَح، إذ ما جَدَّده الله تعالىٰ له من السـعادة يحُلُّ به فى العُموم، محلَّ الغيثِ السَّجُوم، لأنَّه حرسَ الله عزَّه لايستأثِرُ بعوارِف الله عنـده، ولا يكُزُّ علىٰ عطاياه يدَه، بل يمنَح ممـا مُنِح، ويُولى ممـا تولّى، ولا يَضِنُّ بمـالٍ ولا جاهٍ، ولا يقْعُد عمن أمَّله ورجَاه، والله تعالىٰ يجعلُ ذٰلك ممـا أقرَّبه العُيونــ، وصدَّق فيه الظُّنون، لاتُخْلِقُه الأيام ولا تُبْليه، ولا تَزْويه الحوادثُ ولا تؤثِّر فيه، إن شاءالله تعالىٰ .

الصنف الثالث ــ التهنئة بالخلاص من الاعتقال .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جدّد اللهُ سعدَه، وضاعفَ جَدّه، وأنجح قَصْدَه، وأعذَبَ مَنْهلَه ووِرْدَه، ولا انفكّت الأيّامُ زاهيةً ببقائه، والأنفُس مسرورةً بارتقائه إلى رُتَب عَليائه . أصدرها تُفصح عن شوقٍ يَعجز عن سَوْقه الجَنان، ويقصُر عن طُوله اللّسان، وسرورٍ تزايدَ حتّى أبكاه، ولاعجٍ بمشاهدةِ طَلْعتِه السعيدةِ أغراه، وتُهنّيه بما جدّد الله له بعدَ الاعتقالِ من الفَرَج والفَرَح ، ومَنَّ به بعدَ ضيقِ الخواطرِ من الابتهاجِ والمَرَح؛ فهذه المسرّةُ ماءٌ زُلالٌ بَرَد بها الأُوَام ، وإنعامٌ عامّ، حمد اللهَ عليها الخاصُّ والعامّ ؛ فالحمدلله الذى عوّضه عن مأتمِ الحُزْن بما تمّ من السرور، و[عن] الهمّ المانع عن الوُرُود والصّدور بانشراح الصُّدُور ؛ فإنّ القلوبَ شَغَفَها حبُّه وشغَفَها ، وضاعفَ لتعويقه أسَاهَا وأسَفَها ؛ بحيث اعترىٰ المَناطِقَ قلقٌ وعلاها اصفرار، وعُطِّلت يدُ كل غانية من الحُليّ فما ضمّها قُلْبٌ ولا سِوَار ، ولبِس الخُطباء حزنا وأُلبِستْه المحابِر، وكادت لغَيْبته وفقد اسمه تندُبه الجوامعُ وتَبْكيه المَنَابر؛ خلّد الله سعادتَه، وسهّل له من خيْرَى الدنيا والآخرة قَصْده وإرادتَه؛ بمنّه وكرمه .

الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه

قال فى " موادّ البيان " : يجب أن تكون أجوبةُ هذه الرِّقاع مُودَعةً من الثناء علىٰ المهنّئ ــ لمحافظته علىٰ رُسوم المَودّة وقيامه بشُروط الخُلّة ــ ماتقتَضيه رتبتُه ورُتبةُ المُجيب ، وأنّه مشاركٌ له فى متجدّدِ النعمة ، مُفاوِضٌ فى حديث المَسرّة ؛ والتيمّن بالدعاء، ونحو هذا مما يحسُن موقعُه عند المبتدئ بالهناء؛ ويضَعُه بحيثُ وضَع نفسَه من الاختصاص بمَنْ كاتَبه .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع : [جواب] هناء بخِلْعة :

أدام اللهُ عَلاءه ، وشَكَر آلاءَه، وضاعفَ سَناءه ؛ وحمِد مِنَنَه التى أثقلتْ لكلّ مُعتفٍ ظَهرا وخففتْ همّا، وأنالتْ لكلّ ولىٍّ نصيباً من عَوارفها وقِسْما . المملوكُ يُنْهِى إلىٰ العلم الكريم وُرودَ المكاتبة التى كَسَتْها يدُه حُلّةَ جمَال ، وألبسَتْها ثوبَ إفْضال ؛ وأعدتْها بكَرَمِهـا ، وحسّنتْ وجْهَها بلسان قلمِها؛ فأمطرتْه سَحابَ جُودٍ أربىٰ علىٰ السَّحاب المَتُون ،وأوقفتْه منها علىٰ ألفاظٍ كأمثالِ اللُّؤلؤ المكْنُون؛ فاَجتنىٰ ثِمـارَ الفضائلِ من أغصانِها، واَجتلىٰ عَرُوسَ مَحاسنها وإحْسانِها؛ وفهِمَ ماأشار إليه من التهنئــةِ بالخِلْعة التى أنعم المولىٰ بها علىٰ خادمه[1] وتَصدّق، وحقّق الأمَل فى مكارمه وصَدّق ، وإنعامُه خلّد الله دولتَه ، وأعزّ نُصْرته ، قد كَثُر حتّى أخجله ، وميّزه علىٰ كثيرٍ من مماليكِ بيتِه العالِى وفَضّله ؛ وأنالَهُ من المنْزِلة ماسَمَابها علىٰ أمثالِه ، ورَقّى بها بعدَ رِقّةِ حاله ؛ فاللهُ يخلّد سـلطانَه، ويثبّت بالسعادة أركانَه ؛ وهذا بسعادةِ مولانا ومُساعدتِه ، ومعاونتِه ومعاضَدته : فإنه كان السببَ فى الاتّصال ببابه أوّلًا وآخِرا، وممّن أغاثَهُ بذٰلك وأعانَه عليه باطِنًا وظاهِرا .

وكلُّ خيرٍ تَوخّانِى الزّمانُ به * فأنتَ باعِثُــهُ لِى او مسبّبهُ

---

(١) فى الأصول أنم الله بها مخدومه، ولا معنى له تأمل .

الضـــرب الثـالث
(من التهانى التهنئـــة بالعَوْد من الحجّ)

وهذه نسخ من ذلك يُنْسَج علىٰ مِنْوالها .

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه طرقَ المملوكَ البشـيرُ بِعَوْد مولانا ـ أطال الله بقاءه ـ من مَقَـام الطائفين ، إلىٰ مَقَام المعتَفِين ؛ وأَوْبتِـه من كَعْبة الإحرام ، إلىٰ كَعْبـة الإكرام ؛ وتنقُّلِه من مَوْقِف الحُجَّـاج ، إلىٰ مَوْقِف المحتاج ؛ وحُلُوله بمنزله الذى هو قبلةُ ذَوِى الآمال ، ومحطُّ الرِّحال ؛ بالسَّـعْى المشكور ، والحجِّ المبرُور ؛ والنُّسُـك المقبُول ، والأجْرِ المكتُوب ؛ فحمدتُ الله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبته ، وسألتُه زيادتَه من مَكْرُمتـه ؛ وٱستنجحت هـذه المكاتبةَ أمامَ ما أرومُه من مشاهَدته ، وأرجُوه من الاستِسْعاد بملاحَظَته ، وبَرْد أُوَار الشوق بمحاضَرَته ، ومجدِّدًا عُهودَ التيمُّن بمباسَمَته ؛ فإن ٱقتضىٰ رأيُه العـالى أن يُعَرِّف المملوكَ جملةً من خبره فى بَدْئه وعَوْده ؛ ومنقَلَبه ومتوجَّهه ؛ وما تفضَّل اللهُ تعـالىٰ به من أمانِ سبيله ، وهِدايةِ دليله ؛ وتخفيفِ وَعْثاء سـفرِه ، وتسهِيل وَطَرِه : لِأَسْكُنَ إلىٰ ذلك إلىٰ حِينِ التمثُّل بنَظَره ، فله الفضـلُ فى ذلك ، والله تعالىٰ يبلِّغه سُوله ، ويوصِّله مرادَه ومأمُولَه ؛ بمنِّه وكرمه .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ مولانا لايزال حاجًّا إلىٰ كعبة الحرَم ، أو كعبَة الكَرَم ؛ وطائفاً بشـعائر الوُفُود ، أو بشَعائر الجُود ؛ وواقفًا بموقِف الاسـتِفْتاح ، أو موقِف السَّماح ؛ وناحِرَ البُدْن بِمنًى ، أوناثرَالبِدَر للمُنىٰ ؛ فلا يرتَفِع فى حالٍ من الأحوال بِرُّه ، ولا ينقطِعُ عن الله

تعالىٰ ذِكْرُه ؛ ومَنْ كان بهذه المَثَابه ، فى إحراز الأجْرِ والإنَابه ؛ فهو حقيقٌ أن تعمر بالتهنئـةِ أوقاتُه وأزمانُه ، كما عَمَرها سـعيُه وإحسانُه ؛ وقد عرَف المملوكُ انْكِفاءَه ـ أدام الله علُوَّه ـ عن مَقام الطائفين والعاكفين ، إلىٰ مَقام القاصدين والمعتفين ، وعوْدَه إلىٰ منْزِله المعمُور ، بعد قضائه فريضةَ السَّعْي المشكُور ؛ فعدَلْتُ فى مخاطَبته عن الهناء إلىٰ الدعاء بأن يتقَبَّل اللهُ تعـالىٰ نُسُكَه ويثقِّل ميزانَه ، ويُطْلِقَ فى حَلْبـةِ الخيرات عِنَانَه ، ويُحْيِيَه لأجرٍ يُحْرِزه ، وثوابٍ يكْنِزُه ؛ والله تعـالىٰ يُحِببُ ذٰلك فيه ، ويُرِيه فى نَفْسه وأحِبّته مايَرْتَضيه .

ومن ذلك :

وتُنْهِى أنّه قد طرَقَنِي البشير بآنكِفَاء مولانا إلىٰ مَقَرّ علَائه ، وآنْفِصاله عن مَلَاذِ النُّسَّاك والعُبّاد ، إلىٰ مَعَاذِ الزُّوَّار والقُصّاد ؛ فعرفتُ أنّ ذلك النسيمَ العليلَ من تِلْقائه ، وذٰلك النُّورَ الصادعَ من آلائه ؛ وذٰلك الآفْترارَ من أسِرَّته ومخَايِله ، وتِلكَ العُذُوبةَ من شِيَمِه وشمائله ؛ فكاد المملوكُ يطير ـ لو طار قَبْلِي غيرُ ذِى مَطَار ـ فَرَحا ، وأخْرِقُ الأرض وأبلُغُ الجبالَ لو أمكن ذلك مَرَحا ؛ وآنفتح قلبى حتّىٰ كادت مهجَتُه تَفيضُ سُرُورا ، وطاش حِلْمِى حتّىٰ تفرّق مجموعُه بَهْجَةً وحُبورا ؛ والله تعالىٰ يجعل نِعمَـه موصولةَ الحبل ، مجموعةَ الشَّمْل ، بمَنّه وكرمه .

أبو الفرج البَبَّغاء :

جعل اللهُ سَعْيك مشكورا ، وحجّك مبْرورا ، ونُسُكَك مقبُولا ، وأجْرك مكتُوبا ؛ وأجزلَ من المَثُوبة جزاءَك ، ومِنْ عاجِل الأجْر وآجِله عطاءَك ؛ وقرَن بالطاعات عَزَماتِك ، وبالسَّعْي إلىٰ الخير نَهَضاتِك ؛ ووفّقك من صالح الأعمال ، وزَكِيّ الأفعال ، لما يجمعُ كلَّ خيرِ الدارين . ولـمّا طرقَتْنِى البشارةُ بقُدومك ، بدأتُ بإهداء الدعاء ، وتجديد

الشكر لله تعالىٰ والثّناء، وآستنبتُ فى ذلك المكاتَبَه، أمامَ ما أنا [عازم] عليه : من المُشافَهَة والمُخاطَبه ؛ ولن أتأخّرعن حظّى من المسير إليك للتيمّن بالنظر إلىٰ غُرّتك، ومداواة ماعانيتُه من ألَم الشوقِ بمُشاهدَتِك .

الضـــرب الرابع

(من التهانى ، التهنئةُ بالقُـــدُوم من السَّفَر)

من كلام المتقدّمين :

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنّه آتّصــل بالمملوك خبَرُ توجُّهه(١) إلىٰ الناحية الفلانيــة، فعرَفَ المملوكُ أنه قصَــدَها لِيخُصّ قاطِنِيها ، بنصيبٍ من موَاهِبــه ؛ ويُفيضَ علىٰ ساكنيها، سِجالًا من رَغائبه ؛ ويُسوِّىَ بينهم وبين مَنْ راشَه بحِبَائه ، وجَبَره بنوافِله وآلائه ؛ فسألتُ الله تعــالىٰ أن يُطيلَ عُمُر المَكارمِ بإطالة بَقائِه ، ويجمَعَ شَمْل السُّؤدَد بدَوَام عَلائه ؛ ثم آتّصل بى عودُه إلىٰ مَقرّه ، خَفيفَ الحقائبِ من وَفْره ، ثقيلَها من ثَنائه وشُكْره ؛ فحمِد المملوكُ اللهَ تعالىٰ علىٰ إسْفارِ سَفَرِه عن بُلُوغ الأوْطار، وآنحسارِ أُمنيّته عن أذْيال المَسارّ؛ وما خصّه به من السَّــيْرِ الشّجيح، والسَّعْى النَّجيح ؛ والسَّلامةِ المفرِّقة علىٰ الوِجْهة والمنقلَب، والمفتَتَح والمعتقَب ؛ ولمّـا عرض للمَملوك ماقطَعه عن مُشافَهته بالدعاء ، رفعَ يدَه إلىٰ الله تعالىٰ ضارِعًا لدَيْه فى أن يتولّاه فى هــذا المَقْدَم الميمون ، بالسعْد المَضْمُون؛ وإنالة الأمانِىّ المُقِرّة للعيُون ؛ وأن يمنَحَه فى الحِــلّ والتَّرحال، والقَطْن(٢) والآنتِقال، توفيقًا يقارِنُ ويُصاحِبُ، ويُسايِرُ ويُواكِب ؛وأنْ يجعلَ ماخَوّله من نعمة راهنًا خالدا، وما أوْلاه من موَاهِبه بادِئًا عائدا؛ إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى الأصل وجهه وهو تصحيف إذ الوجهة الناحية والجهة وهو غير مراد كما لا يخفى .

(٢) مصدر قطن فى كتب اللغة التى بأيدينا علىٰ فعول لا علىٰ فعل .

وله أيضــا :

ويُنهِى أنه طَلَع عليه البَشير، طُلوعَ القَمر المُنير، مُؤذِنا بمَقْدَم حضرته ، ومُعلِما بظُهور طَلْعتـه ، وحُلوله فى مَعانه(١) الذى هو مَعَان الإقبـال ، وعَوْن الرجال، وقرارةُ الأقْيال، ومَحطُّ الرِّحال ، وقبلةُ الجُود، ومُعرَّس الوُفُود ، فسألتُ الله تعالىٰ أن يُبقِيه جمالًا للأيام ، وثِمَـالًا للأنام ، وعِمادًا للقُصَّاد، ومَرادا للرُّوَّاد، والله تعالىٰ لا يُخْلِيه فى تصرُّفاته، وجميع حركاته وسكَناته، من سَعْى سعيد، وعيشٍ رَغيد، بمَنّه وكرمه .

أبو الفرج البَبَّغاء :

مَن كانتْ غَيبـةُ المكارم مقرونةً بغَيْبته ، وأَوْبَةُ النِّعم موصولةً بأَوْبته ، سافرتِ الأنفُس حيثُ كانَ إليـه، وقَدِمتِ الآمالُ عند قُدُومه عليـه ، وما زالتِ الأنفُس إلىٰ الأُمنيَّة بقُربه متطلِّعـه ، ولوُرُود السُّرور بوُرُوده متوقِّعه ، إلىٰ أنْ أنِسَتْ بعد الوحشة بلقائه، وتنَسَّمَتْ أرَجَ مَنِّه ونَعمائه، فوصلَ اللهُ قُدومَه من الكَرامه، بأضعاف ما قَرَن به مَسيرَه من السَّلامه ، محروسًا من طَوارِق الغِيَر ، مبلَّغا أبعَدَ العُمُر .

وله فى مثـــله :

مَنْ كانت مادّةُ سُرُوره، بمَغيبه وحُضُوره ، لم يجِدْ مع بُعْدك مُؤنِسا يسكُن إليه، ولا عِوَضا يعوِّل فى السُّلْوة عليـه، وما زلتُ أيامَ غَيْبتك ـ لا أوحشَ اللهُ منـك ـ بالوَحْدة مستأْنِسا، وبالشَّوق إليكَ مُجالِسا، أُلاقِيك بالفِكْر، وأشاهِدُك باتِّصال الذِّكْر، إلىٰ أنْ منَّ الله مِن أَوْبتك بمـا عَظُمت به النعمه ، وجَلَّت لدىَّ معه المَوْهِبَه، فوصـلَ اللهُ بالسلامة نَهَضاتِك، وبالسعادة حَركاتِك، وبالتوفيق آراءَك وعَزَماتِك، وحرَسَنِى ببقائك وبقاءِ النعمة عِندك، وهَنَّأنى النعمةَ الجليلةَ بقُرْبك .

---

(١) فى القاموس واللسان «المعان المباءة والمنزل» وأورداه فى مادة م ع ن .

وله فى مثـــله :

مَنْ كنتَ نهـايةَ أمنيَّته، وقُطْبَ مَسَرَّته؛ كان من نَفْسه مستوحِشا مع بُعْدِك، وبدَهْرِه مستـأْنِسا مع قُرْبك؛ وما زِلْتُ معـك بالنِّيَّة مُسافِرا، وبالشَّوق سائرا؛ وبالفِكْرِ ملاقيـا، وبالأمانِيِّ مُناجِيا؛ إلىٰ أن جمعَ اللهُ شملَ سُرورِى بأَوْبتِـك، وسكَّن نافِرَ قلَقِى بعَوْدتِك، علىٰ الحـال السارّة من كمال السَّـلامه، ووُفُور الكُلْفه؛ فأسـعدكَ اللهُ بمَقْدَمِكَ سـعادةً تكونُ بها من الزمان محْرُوسا، وللإقبال مُقابِلا، وبالأمانِيِّ ظافرا؛ ولا أوحش اللهُ منـك أوطانَ الفضل، وعَضَّد إخوانَك ببقائك وبقاء النعمة عندك .

وله فى مثـــله :

لوكان القلبُ يجدُ عنـك مُنصَرَفا، أو يرىٰ منـك فى آكتسابِ المسَرَّة خَلَفا؛ لآستراحَ إليه من ألَمِ بُعْدِك، وآستنْجدَه علىٰ مَرارة فِرَاقك؛ لٰكنَّك أيَّدك الله جملةُ مسَرَّته، ونهايةُ أُمنيَّته، فليس تتوجَّه أمانيُّه إلَّا إليك، ولا تقِفُ آمالُه إلَّا عليك؛ فالحمدُ لله الذى أقرَّ بفَيْئَتك أعينَ إخوانك وأوِدَّائك، وآتاكَ اللهُ من السَّعادة فى أَوْبتك أضْعاف ما آكتنفَك من الكِفَاية فى ظَعْنك .

ابن أبى الخصال :

سَرَّ اللهُ مولاى ورئيسى، وربَّ تشريفى وأنِيسى؛ بلِقَـاء الأحْباب، وآتِّصال الأسْـباب، وأوْبةِ الغُيَّاب؛ ولا زالتِ الأيامُ تتصَنَّعُ لإقباله، وتُقَبِّـله أوجُهَ العِزِّ فى آقتباله؛ وتُوفيه علىٰ رغم الحاسد حَقَّ جَلَاله .

البُشْرىٰ ــ أدام الله آعتزازه ــ بمَقْدَم الوزير فلان قد أوضعَتْ ركابُها، وآتَّصل بالنفوس أعلاقُها وأسبابُها؛ فهنيئًا مَعْشَرَ الأولياء بسُبُوغ هذه النعمة الجليله، والمِنْحة

الجزيله، ولا أستوفى شكرَ مابه أتىٰ مُعظِّمَ قَدره، وملتزِمُ بِرّه، من ثناء كعَرْف الطيب يُهدىٰ ، ومَذْهَب فى الإنهاض لا يُقضىٰ واجبُه ولا يؤدّى ، ولا زالتْ حياةُ مولاىَ تُفدىٰ، وأفعالُ بِرّه تتعدّى، وقد لثمتُ مواقعَ أناملِه وُدًّا ، ووردتُ من محاسن بيانه مَنْهلا عَذْبا [ووردا] فأمتعني اللهُ بحياته العزيزةِ الأيّام ، الطيِّبة الإلمام ، الموصولةِ العهدِ والذِّمام، وأقرأ علىٰ سيدى من سَلامى مايلثِمُ يدَه، ويقضى حقَّ اليراع [الذى] أنشأ به البر وولّده، والسلامُ المعادُ عليه وعلىٰ جملته ورحمة الله وبركاته .

الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ عن نائب الشام إلىٰ القاضى علاءِ الدين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف ، بالأبواب الشريفــة بالديار المصرية ، عند عَوْده من الكَرَك إلىٰ الديار المصرية ، فى ســنةِ ثلاثٍ وأربعين وسبْعمائة ، مهنّئا له بعوده إلىٰ منزله بالديار المصرية ، وآســتِقراره وعوْدِه إلىٰ كتابة السرّ الشريف بالأبواب الشريفــة السلطانية، وهى :

تُقبِّل الباسطةَ الشريفةَ ــ إلىٰ آخر الألقاب ــ لازالَتْ خناصرُ الحمد علىٰ فضل بَنانها معقُوده، ومآثرُ البأس والكرم لهــا ومنها شاهدةً ومشْهوده، وبواتِرُ السُّيوف مســيَّرةَ القصد إلىٰ مُناظرةِ أقلامها المقْصُوده ، تقبيلاً يودُّ لو شافَه بشِفاهه مَوْرِدَ الجُود من الأنامل، وكاثر بثَغره عند المثُول للتقبيل ثُغورَ الأماثِل ؛ فكان يُشافِهُ بشَوْقه مَوْردا كثيرَ الزّحام ، وكان يُكاثِرُ بعِقْد قُبَله علىٰ يد الفضــل عُقُودا جزِيلةَ الانتظام ، وكان يُحاكِم جَوْرَ الضَّيم إلىٰ مَنْ أبىٰ اللهُ لجار مشاهدته أنْ يُضَام . ويُنْهِى ماوصــل إليه وإلىٰ الأولياء من السُّرور، وما رُفِــع بينهم وبين الابتِهاج من السُّتُور، وماطُولِــع فى أخبار المَسَرّة من السُّطور، بوُصُول مولانا ومَنْ معه إلىٰ مَسَاكِن العزّ ساكِنين، ودُخُولهم كدُخُول يوسُفَ عليه الســلام ومَنْ معَه إلىٰ مِصرَ آمنين ؛ وآستِقراره

فى أشرف مكانٍ ومَكانه، واستِنْصار مصرَ بأقلامه علىٰ العادة فإنَّ هــذه سِهامٌ وهذه كِنَانه؛ وإسفارِ غَمَام السَّفْرة عن كَوْكبٍ عَلَا طالمَا حَرَس بيَمينه أُفُقَ المُلْك وهداه وزانَه؛ وما كانت إلا غيبةً أحمدَ اللهُ عُقْباها، وغَيابةَ بُعْدٍ مَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ وجلَّاها؛ وفترةً ثنىٰ الله فترَتَها فتنفَّس خِناقُ المَنْصب المشتاقِ لوجهه الكريم، وهِجْرةً صرَفَ الله هَجِيرهَا فسَــقىٰ طِرْسَ الإنشاء الذى ٱبيضَّتْ عَيْناه من الحُزْن فهو كَظِيم؛ وما محَاسن مولانا إلّا زينةٌ من زِيَن الدنيا فعليها يتَشاكَسُ المتشاكِسُون، وما مزاجُ كلماتِه إلّا من تسنيم ﴿ وفى ذٰلِك فَلْيَتَنَافَسِ المُتنافسُون ﴾ .

فالحمدُ للهِ علىٰ أنْ أقرَّ العُيونَ بمُعاودة ظِلِّه الوَرِيف، وعلىٰ أنْ شَــفىٰ الصُّدُورَ بقُرْبه وأوْلهــا وأوْلاها صَدْرُ السرِّ الشريف؛ وعلىٰ أنْ أجزَلَ الهَناء وقد شَمِلَ ظِلُّه، وقد كَلُ بابْن الفضل فَضْــلُه؛ وقد بَهَر سَنَاؤه وسَنَاه، وقد تسعَّب القريبُ والبعيدُ فإنْ أجدىٰ علىٰ مِصْرَ مَوْرِدُه فقد جادَتْ علىٰ الشام سَمَاه . وقد أخذ المملوكُ حظَّه من هذه البُشْرىٰ، ووالىٰ السُّجود لله شُكْرا؛ وجَهَّز خِدْمَته هذه نائبةً عنه فى تقْبيلِ بَنَان إنْ سَمَّــاه مَوْلىٰ الكَرَم بحرا،فقد سَمَّاه مربِّى الملك برًّا؛ لازالتِ الممــالكُ متحفَةً بيُمْنِ مولانا ظاعِنًا ومُقيما،متَّصفةً بحمده وحمدِ سَلَفِه الكريم حديثًا وقديما؛ تاليةً علىٰ مُهِمَّات المُلكِ بصُحْبة بيتِه الشريف ﴿ وكانَ فَضْلُ اللهِ علَيْكَ عَظِيما ﴾ .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى تهنئة بقدوم من سفر :

أدام اللهُ ظِلَّه، ورفَعَ محَــلَّه، وشكَرَ إنعامَهُ وفضْــلَه؛ وأعزَّ أنصارَه، وضاعفَ ٱقتدارَه؛ ولا زال مؤيَّدا فى حَرَكاتِه، مسَــدَّدا فى سائرِ فَعَلاتِه؛ مصحُوبًا بالســلامة فى المَهَامِه والقِفَار، مخصوصًا من الله تعالىٰ بالأعوان والأنْصار .

الملوكُ يُنْهِى بعد تقبيلِ الأرض ، والقيام بمـا يَجب من سُنَنه والفَرْض ، علمَه بحلُول ركابه العالى بِفَنَاه ، واستقرارِ خاطرِه الشريف فى مَحلّه ومَثْواه ، وجَمْع الشَّمْل بالأهل بعد طُول الغَيْبه ، وبَعْد القُفُول والأَوْبه ، فتضاعف لذلك فرحُه وسرورُه ، وزال عن قلْبه قليلُ الهمّ وكثيرُه ، فالله يمتعُ المولىٰ أطيبَ المنازل ، وأَسرّ الرَّواحل ، ويجعلُ تجارةَ مجْده رابحه ، وأوامرَ دوام عزّه لائحــه ، حتّى تُنْشد نفسُه الكريمةُ قولَ أبى الطيّب :

أنا من جَميع النّاسِ أطيبُ مَنْزِلًا * وأَسَرُّ راحِــلةً وأرْبَحُ مَتْجَـرَا !

لازالتِ الأَعيُنُ قريرةً برُؤيتِه ، وقلوبُ الإخوان قارّةً بمشاهدَتِه ، والأوجهُ وسِمَه ، والنِّعم الطاعِنةُ مُقِيمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالقدوم من السفر

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تُبْنىٰ علىٰ الاعتراف للمَهَنَّىٰ بحقّ تعهُّده ، وكرمِ تفقُّده ، وإطْلاعه علىٰ الحالِ فى السَّـفَر ، وما أفضتْ إليـه من السـلامة ، والتأسُّف علىٰ ماانقضىٰ من الأيّام فى مُباعدَته ، والتخلُّف عن مُباسَمَتِـه ؛ وأنه لم يزَلْ يدَّرِع الإدْلاج ، ويَقْطَع الفِجاج ، رغبةً فى القُدوم إليه ، والوفادةِ عليه ، وبَلِّ الغُلّة برُؤْيته ، وترويح النفس بمحاضرته ، وما يليقُ بهذا النَّمَط من الكلام .

الضـــرب الخامس
(من التهانئ التهنئةُ بالشهور والمواسِم والأعياد)

وهى على ثمـانية أصـناف :

الصنف الأوّل — التهنئـةُ بأوّل العامِ وغُرّة السَّنة .

من كلام المتقدّمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء أبى مسلم محمد بن بحر :

أسـعدَ اللهُ سـيِّدى بِعامِه ، والفضل منه وما حَوىٰ من الأعياد والأيّام الخَطِيرة وسائر شُهوره وأيّامه ، ومتصرَّف أحواله ، و بمـا يأتى و يكُرُّ عليه من زمَانه ؛ سعادةً تَسُوقُ إليه حظُوظَ الدِّين والدنيا كامله ، وتجمَعُ له فوائدَ الأمَدَيْن تامَّة وافِيـه ؛ وترتَهِنُ إليـه النِّعَم فلا تزالُ لدَيْه زائدةً نامِيه ؛ و بلّغه بهـا الأمَلَ ، ومدّ له فى البقاء إلىٰ أنفَس المُهَل .

ولأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ مَوْلاىَ بركةَ الشهر والسنةِ المتجدِّدَيْن ، ووهَبَ له فيهما وفيما يتلُوهُما من أيام عُمُره ، وأزمان دَهْره ، سعادةً تجمع له أشْتاتَ الحُظُوظ ، وتصل لدَيْه مَوادَّ المَزِيد ، وتُيَسِّر له بُلوغَ الأمـل فى كلِّ ما يُطالع ويُنـازِع ، والأَمْن من كلِّ ما يُراقِبُ ويُحـاذر .

وله فى مثـله :

عَظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى بركة الشهر والسَّنة ، وأعاشَهُ لأمثالها مُدَّةَ اختلافِ الجديدَيْن ، وتَجاوُر الفرقَدَيْن ؛ ممتَّعا بالنِّعم السابِغـه ؛ والمَواهب المتَرادفه ؛ والسَّـعادة والغِبْطه ، والعزّ والمَسَرّه .

وله فى معناه :

جدّد اللهُ لسيِّدى فى الأيّام الحاضرة والمستقبَله (١) ، والأحوال الراهنَة والمُتنقّـلة ؛ حظُوظًا من السّـعادات ، وأقسامًا من الخيرات ، لايُحصَى عددُها ، ولا ينقضى مَدَدُها .

وله فى مثـــله :

عَظّم الله [علىٰ مولاى] بركَة الشهر والسـنة المَتجدّدين علَيْـه ، وعَرّفه فيهما وفى الأيّامِ بعدَهما من حادث صُنْعه ، ولطيف كِفَايته ، ماتَدُوم فيه السعاده ، وتَعظُم به المِنّه ، وتحسُن فيه العاقبَه .

وله فى مثـــله :

عظّم الله علىٰ مَوْلاىَ بركَة هـذا الشهر : المـاضى [من] أيّامه و باقيها ، وهـذه السنَة ، وجعلها أيمَن سنةٍ حالَتْ عليه وأسعَدها .

ومنه : ويُنْهِى أنّ المملوكَ يُهنِّئ غُرّة الأيّام ، بغُرّة الأنَام ، وصـدْرَ العام ، بصَدْر الكِرَام ؛ بل يهنّئ الزمن كلّه نعم وأهلَه بالحَضْرة التى واسَتِ المَعَالِى .

الصنف الثـانى — التهنئـــةُ بشهر رمضانَ .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحُسَيْن بن سعد :

جمع اللهُ لمولاىَ فى هذا الشهر الشريف شُروطَ آماله وأحكامَ أماليه ، فى حاضِر أمرِه وعاقِبتِه ، وعاجلِ دُنْيـاه وآخرتِه ؛ وأبقاه لأمثاله بقاءً لايتناهىٰ أمَدُه ، فى ظلّ عيش يرضاه ويحمَدُه .

---

(١) فى الأصول السابقة تأمل .

وله فى مثـــله :

عرّف الله سيدى بركةَ هذا الشهر الشريف وأعاشَهُ لأمثاله ، ما كرّ الجَديدان، وآختلف العَصْران؛ممتّعًا بسَوابغ النِّعم ، محروسًا من حَوادِث الغِيَر، ومُوَفَّقًا فى شَهْره، وأزمان دَهْره؛لأزكىٰ الأعمال ، وأرضىٰ الأحوال ،ومقبُولًا منه مايُؤدِّيه من فَرضه ، ويتنفَّل به قُرْبةً إلىٰ رَبِّه .

وله فى مثـــله :

عرَّفه الله بركةَ إهْلاله ، وأبقاه طويلًا لأمثالِه ؛ موفّقا فيه من عمل الخـير، ومُراعاةِ الحقِّ، وتأديةِ الفَرْض؛ والتَنَفُّل بالبِرِّ، لمـا يُرْضيه ،ويستحِقُّ جزيلَ المَثُوبة عليه؛ ممتَّعا بعده بسَنِيِّ المَواهِب، وجَسِيم الفوائد ؛ مع آتصالِ مُدّة العُمُر، وآجتماع أُمْنِيَّات الأمل .

وله فى مثـــله :

عَرَّف اللهُ مولانا بركةَ هذا الشهر الشريف وأيَّامِه، وأعانَك علىٰ صيامِه وقِيَامه؛ ووصـل لك مايَزيدُ من فَضْله وإنعامه؛ وتابع لك المزيدَ من مَنَائحه وأنْعامه؛ وختَمَ لك بالسعادة العُظْمىٰ بعد الأنتقال [فى الجاه والرياسة إلىٰ] أبعد المدىٰ ؛ وفى العزِّ والثَّروة إلىٰ أقصىٰ المُنىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

جعلَ اللهُ ماأظلَّه منهذا الصيامِ مقرُونًا بأفضل قَبُول،مُؤْذِنا بإدراك البُغْيةِ ونُجْح المأْمول؛ ووفَّقه فيه وفى سائرِ أيَّامه، ومستأْنِف شُهوره وأعوامِه؛ لأشْرَف الأعمال وأفضَلِها، وأزكىٰ الأفعال وأكملِها؛ ولا أخْلاه من بِرٍّ مَرْفُوع، ودعاءٍ مسمُوع؛ وسَعْى مشْكُور، وأمرٍ مَبْرور؛ إلىٰ أن يَقطَع فى أجمَلِ غِبْطةٍ وأتمِّ مسرَّةٍ أمثالَه .

وله فى مثـــله :

عرّفكَ اللهُ بركةَ هـذا الشهر المعظَّم قَدْره ، المشرَّف ذِكْرُه، ووفّقكَ فيـه لصالح الأعمال،وزكّى الأفعال، وقابَلَ بالقَبُول صِيامَك،وبتعظيم المَثُوبة تهجُّدَك وقيامَك، ولا أخلاك فى سائرما يَتْبعـهُ من الشُّهور ، ويَليه من الأزمنَـةِ والدُّهور ؛ من أجرٍ تَدّخره، وأثرٍ تَشْكُره .

قلت : وممـا كتبتُ به تهنئـةً بالصوم للمَقرّ الأشرفِ الناصرىّ محمدِ بن البارزىّ كاتبِ السرّ الشريف المؤيَّدىّ بالممالك الإسلامية، فى سنة ستّ عشْرةَ وثمانِمائة نَظْمًا:

أَيَا كاتبَ السِّرِّ الشَّرِيفِ ومَنْ بِهِ * تَميسُ نَواحِى مِصْرَ بِهَا مَع الشَّامِ!

ومَنْ جَلَتِ الحُلَى كَاتِبُ كُتْبِـهِ ، * ومَنْ نابَ عن وَقْعِ السُّيُوفِ بأقلامِ!

تَهَنَّ بهٰذَا الصَّوْمِ والعِيدِ بَعْـدَه، * ومِنْ بَعْدِه بِالعِيدِ والْعَـامِ فالْعامِ!

وتَرْقَ رُقِيَّ الشَّمسِ فى أَوْجِ سَعْدِها * وتَبْقَ بَقاءَ الدَّهرِ فى فَيْضِ إنْعامِ!

الصنف الثـالث ــ ما يصلُح تهنئةً لكلّ شهرٍ من سائرالشُّهور .

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم الله بركةَ إهْلاله ،وأعاشه لأمْثاله ،أطْولَ المُدّة،ممتّعا بأدومِ النِّعمة،ومشفَّعا(؟) بأفضل الأَمل والأُمْنيَّه .

وله : أسـعد اللهُ سيِّدى بانْصِرامِه وإهْلالِ ما بعـده ، وأبقاه مابَقِيَ الزمان ممتَّعا بالعِزِّ والنِّعمه، محروسًا من الآفات المَخُوفة، والحوادث المحْذُوره .

وله : عَظَّم اللهُ علىٰ سيدى بركةَ الماضِى والمستقبَلِ من الأيام والشُّهور [والأعوامِ] والدُّهور، ووصلَ له السعادةَ باتّصالها، وجدّدَ له النِّعمةَ بتجدُّدِها .

وله : عظَّم الله بركةَ انسلاخه ، و إهلالِ مايتلوه ، مُجَدِّدا لك بتجدُّده فوائِدَ الخيرات ، وأقسامَ البركات ، تَدُوم فيها المُدّه ، وتطُولُ بها النِّعمه .

وله : أسعَدَك الله بإهلاله ، وأعاشك أبدًا لأمثالِه ، ممتّعا بدوامِ العزِّ والنعمه ، واجتماعِ أسبابِ الرَّخاء وشُروط المحبَّه ، إنّه جَوَادٌ كريم .

[وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولاَى بركاتِ هذا الشَّهر ومايتلُوه ، و بلَّغه مايُحاوِله ويَنْحُوه ، فى مستأنَفِ الشُّهور ، ومؤتَنَف الدُّهور ، مُضاعَفًا له العِزُّ والتأييد ، ومَوْصولًا له أصلُ النعمةِ بحُسْنِ المَزِيد] (١) .

وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولاَى بركةَ الشَّهر ، وأدامَ له سَلامةَ الدَّهر ، مَوْفُورا من العِزِّ والسلطان ، غيرَ مذْعُورٍ بنَوائِبِ الزَّمان .

وله : عظَّم الله علىٰ سيدى بركةَ الأيَّامِ والشُّهور ، والسِّنينَ والأحقاب ، و جمع له المواهِبَ كامِلَه ، والفَوائد فاضِلَه ، دِينًا ودُنيا ، وحاضِرةً وعُقبىٰ .

وله : عظَّم اللهُ عليكَ بركَتَه ، وعرَّفَكَ يُمْنَه وسَعادتَه ، وجدَّدَ لك الخَيْرات ، بتَجْديدِ الأوقاتِ والسَّاعات ، حتّى تحوزَ منها أسنىٰ الحُظُوظ وتبلُغَ مما تَمَنَّاه أقصىٰ الغايات .

الصنف الرابع — التهنئة بعيد الفطر .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى بركةَ هذا العِيد ، واعاشَه لأمثاله ، من الأعْيادِ المَشْهُوده ، والأيَّامِ الجَدِيده ، [فى] أهنإ عيش وأرْغَدِه ، وأطْوَلِ مدًى وأبْعَدِه .

(١) الزيادة فى بعض النسخ .

أبو الفرج الببغاء :

أسعدكَ الله بهـذا الفِطْرِ الجَديد ، والعيد السَّعِيد ، ووَصَـل أيّامَك بعدَهُ بأكمل السّـعادات ، وأجْمَل البرَكات ؛ وجعل ما أسلَفْتَه من الدُّعاء مقبُولا مسْمُوعا ، ومن التَّهجُّد زاكِيًا مَرْفوعا ؛ ولا أخلاك من نِعمةٍ يحرُسُ الشكْرُ مُدّتَهـا ، ولا يُخْلِقُ الدّهْرُ جِدّتَها .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

المولىٰ أدامَ الله نِعمَه ، وحرَسَ شِيَمَــه ، هو سيّدُ الأفاضل ، ورئيسُ الأَمَاثِل ؛ وحَسَنَةُ الزّمان ، ولَيْثُ الأقْران ؛ وهو فى الأَنَام ، كالأعيادِ فى الأَيّام ، فإنَّ الأنامَ ليلٌ والمولىٰ المِصْباح بل الصَّبَاح ، وسائرَ الأيّام أجسادٌ وسائرَ الأعيادِ هى الأرْواح ؛ فإذا كان المولىٰ قد زُهِىَ علىٰ أبناءِ جِنْسِه ، ويومُ العِيـد علىٰ غَدِه وأمسه ؛ فقد صار كلٌّ منكما إلىٰ صاحبه يتَقرَّب ، ويلزَم ويلْزَب ، وهو أحقُّ الناس بأن يُبْهِجَه مَقْدَمُه ، وأن يُهنَّىٰ بيَومِه الذى هو مَجْمَعُ السُّرور ومَوْسِمُه .

والخادم يُهنِّئُ المولىٰ بهذا العيد ، واليومِ السَّعيد ؛ فإنه وافىٰ فى أَوانِ الرَّبيع وزمانِه ، لِيُبَاهِىَ بغُصْن قَدِّه أغصانَ بَانِه ، ويَسْتَنْشِقَ فى صَدَرِه ووِرْدِه ، رائحةَ رَيْحانه ووَرْدِه ؛ ويختالَ فى رِيَاضه وحَدائِقه ، ويُلاحِظَ بَهجةَ أزْهارِه وشَقائِقه ؛ والعيدُ والرَّبيعُ ضَيفانِ ومكارِمُ المولىٰ جَدِيرةٌ بإكرام الضيف ، والتمتّع بالمَلاذِّ فيهما قبلَ رَحيلهما وقُدُوم حَرِّ الصَّيْف ؛ وأن يُحَسِّنَ وجْهَ عِيـده ، بحُلُوله فى مَغْناه ووُجُوده ؛ بمـا يُولِيه لِعُفَاته من إنعامِه وجُوده ؛ لازالتِ الأعيادُ تُهَنَّىٰ بَبقائِه ، وألْســنةُ الأيام تَشْكُر سوابِغَ نَعْمائه ، وتَحْمَدُ جزِيلَ عَطائِه ، وتَنْطِق بوَلائه وثَنائه ، أبدًا ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : ومما كتبتُ به مهنّئا للمقرّ الأشرف الناصرىّ محمد بن البارزى صاحب دَواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية فى الدولة المؤيَّدية «شيخ» بعيد الفِطْر نظمًا، بعد أن سألته حاجةً فقضاها، وأسنىٰ لى الجائزةَ علىٰ نَثرٍ كتبتُه له .

سأَلْتُ نِظامَ المُلْكِ كاتِبَ سِرِّه * إزالَةَ ضَنْكٍ أرهَفَ الدَّهرُ حَدَّه!

فمَنَّ بجاهٍ زَعْزَعَ الأرْضَ وَقْعُه، * وجادَ بمالٍ لايُرىٰ الفَقْرُ بَعْدَه.

وبالبارِزِىِّ آزدانَ وصْفُ مَكارِمٍ * فأشبَهَ فى فَضْلٍ أباه وجَدَّه!

فَيَهْنَاهُ صَوْمٌ ثُمَّ عِيدُ مَسَرّةٍ * وطالِعُ إقْبالٍ يُقارِنُ سَعْدَه!

ورَفْعُ دُعاءٍ لايُغِبُّ تَتابُعًا، * وطِيبُ ثَناءٍ خامَرَ المِسْكُ نَدَّه!

الصنف الخامس — التهنئة بعيد الأضحى .

من كلام المتقدمين :

أبو الحسين بن سعد :

كتابى والنحر — نحرَ اللهُ أعداءَ مَوْلاىَ وحُسَّادَ نعمتِه ، وأمْتَعه بمَواهِبه عنده ، وبارك لَهُ فى أعيادِه ومتجدِّد أيَّامه ، بركةً تَنْتَظِم السَّعادات ، وتتضمَّن الخَيْرات ؛ متصلةً غير مُنْقطعه ، وراهنةً غير فانِيَه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

تَهَنَّ فأيَّامُ السُّرورِ أواهِلُ * وكُلُّ مَخُوفٍ عن جَنابِك راحِلُ

ونَجْمُك من فَوْقِ الكَواكبِ طالِعٌ، * ونَجْمُ آمرِئٍ يَشْنَا سُمُوَّك آفِلُ!

أَلَا أيُّهـا المَوْلىٰ الّذِى عَمَّ جُودُه: * فَدَتْكَ العَوالِى والجِيادُ الصَّواهِلُ!

تمتَّعْ بِعِيدِ النَّحْرِ، وافاكَ خاضِـعًا * يُحَقِّقُ مِنْ دُنْيـاكَ ماأنْتَ آمِـلُ!

ودُمْ كابِتَ الأَعْداءِ وأَبْقَ مُخَـلَّدًا * علىٰ المـالِ عا ٍ، بالرعِيَّـةِ عادِلُ!

لَقَدْ راقَ مَدْحِى فى مَعَالِيكَ مِثْلَما * صَفَتْ منكَ أوْصافٌ ورَقَّت شَمائِلُ!

جعلَه اللهُ أبركَ الأعياد وأسْعدَها، وأيْمَنَ الأيّام وأمْجَدَها، وأجْمَلَ الأوقاتِ وألَذَّها وأرْغدَها، ولا بَرِحَ مَسْرُورا مستَبْشِرا، مَنْصُورا علىٰ الأعداء مقْتَدِرا؛ مسْعُودا محْمُودا، مُعـانًا بملائكة السماء مَعْضُودا؛ مُهَنًّا بالسُّعود الجَديده، والجُدُود السَّـعيده؛ والقُوّةِ والناصِر، والعُمُر الطويل الوافِر:

ولا زالَتِ الأعيـادُ لِبْسَكَ بَعْـدَه * [فَتخْلَع][1] مَخْرُوقًا وتُعْطىٰ مُجَـدَّدا،

فذَا اليومُ فى الأيَّامِ مِثْلُكَ فى الوَرىٰ * كما كُنْتَ فِيهِمْ أوْحَدًا كانَ أوْحَدَا!

وأعاده علىٰ المولىٰ فى صِحّةٍ دائِمه، وسلامةٍ مُلازِمه؛ وأصار عِيدَه مُطِيعا لأوامِرِه كسائرِ العَبِيد، وعَبِيدَه فى كلِّ يوم من المَسَرّة ببقائِه لها كالعيد، والأيّامَ به ضاحِكةَ المَبَاسم، والأعوامَ جميلةَ المَوَاسم؛ ومتَّعنا بدَوامِ حَياته، وآستِجْلاء جميلِ صِـفَاتِه، وآستِحْلاءِ مدائِحِه بإنْشادِ عُفَاتِه؛ وأراهُ نَحْرَ أعاديه، بينَ يَدَيْه كأضاحِيه، وأصار الحجَّ إلىٰ بابه غافِرًا سيِّئاتِ الإفلاسِ والإعْدام، ومُبِيحًا لُبْسَ المَخِيـطِ من إنعامِهِ العـامّ؛ ألبسهُ اللهُ من السعادةَ أجملَ حُلّه، ومنَحه من المكارِمِ أحسَنَ خَلّه.

الصنف السادس — التهنئة بعِيد الغَدِير من أعياد الشِّيعة:

وكان لهم به آهتِمامٌ فى الدولة الفاطميّـة بالديار المِصْريّة. والطريقُ فى التهنئةِ به علىٰ نحو غيرِه من الأعياد.

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام.

مايصلح تهنئةً لكلّ عيد .

أبو الفرج الببغاء :

لولا العادةُ المَشْهوره، والسُّنّةُ المأثوره ، بالإفاضةِ فى الدّعاء ، والمشافهةِ بالتهنئةِ والثّناء، فى مثلِ هذا اليومِ الشريف قَدْرُه، الرفيع ذِكْرُه، لكان أيّده الله دُونَ رُؤساء الدّهر، وملُوكِ العصْر يَجِلُّ عن التهنِئَة : إذ كانتْ سائرُ أيامه بما يُودِعُها من أفعال الخير مُعَظَّمه، وبما يَبُثُّها من المَحاسن مُكَرَّمه، فبلَّغه اللهُ أمثالَه محرُوسًا فى نَفْسه ونِعْمته، محفُوظا فى سُلْطانه ودَوْلته، مُوفِيًا علىٰ أبْعد أمَانيه، مُدْرِكا غايَتها فيما يؤمِّلُه ويَرْتَجِيه .

وله فى مثله :

عرّفكَ الله يُمْنَ هذاالعيد وبركَته، وضاعفَ لك إقبالَه وسعادتَه ، وأحْياكَ لأمثاله فى أسبَغِ النِّعم وأكمَلِها ، وأفسحِ المُدَد وأطْوَلِها ، وأشرفِ الرُّتَب وأرفعِها ، وأعزّ المَنازل وأنْفَعِها ، وحرَسَ مِنْحَتكَ من المحذُور، ووَقىٰ نِعمتَك من عَثَرات الدُّهُور .

الصنف السابع ـــ التهنئــة بالنَّـيْرُوز .

وهو من أجلّ أعيادِ الفُرْس ، علىٰ ماتقــدّم ذكره فى الكلام علىٰ أعيــاد الأمَم ، فى المقالة الأولىٰ . وكان للكُتّاب به آهتمامٌ فى أوائل الدَّوْلة العبّاسـية بالعِراق، جَرْيا علىٰ ما كان عليه الفُرْس من قديم الزمان .

وفيه لأبى الحسين بن سعد :

هذا يومٌ شرَّفَتْه العجم ، ورَعىٰ ذِمَامَه الكَرَم ، وهو من أسلافِ سيّدى ذوى النَّباهة، وأخلافه ذَوِى الطَّهارة ، بين مُنْشِئٍ رَسْمه ، ومؤدّى حقّه ، وكاسٍ له بقَبُول

ٱنتسابِه إليه جمالًا يبقىٰ علىٰ الأيام، وحالًا ينفق بهـا لدىٰ الأنام ؛ فليس أحدٌ أحقّ بالتهنئة [به] ممن سنّه آباؤه ، وشـيَّدته آلاؤه، فصارتْ إلىٰ أوّليتــه نِسبتهُ ، وبكرم سجيّته عِصْمتُه .

وفيــه له : هٰــذا ــ أيد الله سيّدى ــ يومٌ عظَّمه السَّالف من العَجَم ، وسيِّدى وارِثُ سُــنَّة الكَرَم ؛ وللسادةِ علىٰ العَبيد فى هذا اليوم رَسْم فى الإلطاف ، وعليها لهمْ حقٌّ فى القَبُول والإسعاف ؛ وقد بعثْتُ بمـا حضَر جارِياً علىٰ سُنَّة الخِدْمه، وعادلًا عن طريق الحِشْمه ؛ ومقتَصِرا علىٰ ما ٱتَّسعتْ له الحال ، وما يُوجِبُــه قَدْرُ سيِّدى من المبالَغةِ فى الاحتفال، فإنْ رأىٰ أن يُشرِّف عبده بالاحتمال إليه، وإجرائه مُجْرىٰ الأُنْس عنده، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه للكرخىّ :

هــذا يومٌ تسْمُو له العَجَم ، ويُسْتَعجَمُ[1] فى العَرَب؛ تشريفًا له وٱعترافًا بفضــله ؛ وٱقتِداءً بأهله ؛ وأخذا بسُنَّتهم فيه ، فليهنِ[2] لإحراز الدولة فى العِزِّ [منزلا] بحيثُ لا يُرام، ولا يُضَام؛ ولا ترْقىٰ إليه الأمانى، ولا يطْمَع فى مساواته المُساوِى؛ وإنّهم بعد تَصَرُّم الدولةِ علىٰ حَميــدِ آثارها ، وجميلِ الذِّكر فيها ، أعلامٌ تُضْرَب بهم الأمثـال، وتَزْهو بأيّامهم الأيّام، وآثارُهم تُقتفىٰ، وأعيادُهم تُنْتظر، يُتأهَّب لها قبْلَ الأوان، ويُعْرَفُ فيها أثرُ الزمان ؛ وإنّك منهم فى الذِّرْوة الساميَه ، والرُّتبة العاليه؛ وبمحلٍّ لا عارَ معــه علىٰ حُرَّة فى الخُشُوع لك، والتعلُّقِ بحبلك. وقد وجَدتُ الأتباعَ عندَ ساداتها فى مثل هــذا اليومِ علىٰ عادةٍ فى الإلطاف جشَّمَتْها ، وسيَّرتْ بهـا علىٰ أقوام منحَتْهم ظُهورَ الدَّعوىٰ فيها ، فأقبــل قائلهم يقول : « لو كان بابُ الإهداء مفتوحا غيرَ مسْدُود ،

(١) مراده أن العرب أتبعت العجم فى تعظيمه تأمل . (٢) قد بلغ التحريف من هذا مبلغه حتى لا يكاد يفهم والمراد أن دولة الفرس أحرزت من العز منزلا بحيث الخ تأمل .

ومُباحًا غير ممنوع ، لأتحفتُ بالغُراب الأعصَم ، والكِبريت الأحمر ، والأبلَق العَقُوق ، وبَيْض الأنُوق» . وقد بعثتُ بهديّة لا تُردّ (يعنى الدعاء) .

وفيه : من كان مَحَلّك من العِزّ ، ونَبَاهة الذِّكر ، وآرتفاع الدَّرجه ، وعُلُوّ المَنزله ، وسَعة البَلَد ، وبُعْد الأمَد ، لم يتقرّبْ متحلٍّ بالعلم والأدبِ إليه فى يوم جديد إلّا بصالح الدُّعاء ، وحُسْن الثناء .

وفيه : لو أخّرْنا هذا آنتظارًا لوجُود ماتستحقّه ، لآنقضَتْ أيّامُنا ، بل أعمارُنا ، قبل أنْ نقضِىَ لك حَقّا ، أو نُؤدِّىَ عن أنفُسنا فرضا : لآرتفاعِ قَدْرك عمّا تحويه أيدينا ، وعُلُوّ حالك عما تبلُغه آمالُنا ، وقد آقتديتُ بسُنّة الخَدَم والأولياء فى الأعياد ، وأوضحْتُ العُذر فى ترك الآجتهاد ، وبعثْتُ فى هذا اليوم ، الذى أسألُ الله أن يُعيده عليك ألفَ عام ، فى نَماء من العِزّ ، وعُلُوّ من القَدْر ، وتمامٍ من السُّرور ، ومزيد من النِّعمة ... ...

الصنف الثامن — التهنئة بالمِهْرجان .

وهو أحدُ أعيادِ الفُرْس ، على ماتقدّم ذكره فى المقالة الأُولى ، فى الكلام على أعياد الأُمم . وكان للكُتّاب من الآحتفال بالتهنئة به فى أوائل الدولة العبّاسيّة مالهم بالنَّيروز .

فيه — لأبى الحسين بن سعد :

لسيِّدى علىّ فى الأعياد المشْهُورة ، والأيّام الجَديدة ، عادةٌ آخترَلَنِى عن بعْضها فى هذا الفصل ، كَلالُ الطَّبع عن البعْض ، ووقُوعُ الخطر (؟) بعرضه من الثناء نَظْما ونَثْرا ، ومن الإهداء عرضا وبرا ، دعاءً تزيد قيمتُه على الأعلاقِ الثَّمينه ، وموقعُه على الذخائر النَّفيسه ، ولُطْفُه على التُّحَف البديعه ، فأسعدَ الله سيدى بهذا اليوم سعادةً تُقيم ، ولا تَرِيم ، وتَزِيد ، ولا تَبِيد ، وتستوطِن ، ولا تَظْعَن ، وتجمع حظُوظًا من

الخيرات، وفوائدَ من البركات، يتّصِلُ ستنُّها، ولا ينتهي أمدُها، وأبقاه في أسبغ عزٍّ وأرفع رُتبـة وأرغَدِ عِيشة، مكنوفًا بحراسةِ تقيه [وآلَه] عَوادِيَ الزمان، وتصرِفُ عنهما طوارِقَ الحَدَثان، ما طَرد الليلُ النَّهار، وطلع نَجم وغار، وعلىٰ ذلك ـ أيد الله سيدى ـ فإنَّ الحِرص علىٰ إقامة الرَّسم والتطيُّر من إضاعةِ الحقِّ بعثانى علىٰ مُراجعة القَريحه، وآستِكْداد الرَّويّه، فأسعفا بمـا قَبِلتْه الضرورة، ولم أُطِعْ فى إهدائه سُلطانَ الحِشْمه ؛ وفضلُ سـيدى يتّسِع لقَبُول الميْسُور، وتحسينِ القَبِيح ؛ والله المعينُ علىٰ تأدية حقِّه، والقيامِ بواجب فرْضه .

وله فيه أيضا، إلىٰ مَن منع أن تُهْدىٰ إليه فيه هدية .

لو كنتَ فتحتَ باب الإلطاف، ونَهجْتَ إليـه سَبِيلا ؛ لتنازعَ أولياؤُك قصبَ السَّبْق وتنافَسُوا فى السَّرَف، فبان للمجتهِد فضْلُه ، وآلتَمس العذْرَ فى التقصير ملتمِسُه ؛ وعمَّت المنحةُ كافّتهم بمـا يظْهَر من مَوَاقعهم، وينكَشِف من أحوالهم ؛ لكنّك حظَرْت ذلك حَظرا آستوىٰ فيـه الفريقان فى الحُكْم ، وآمتـدّ فيه علىٰ ذَوِى الخَلَل السَّـتْر ؛ ولم تحظُر الدُّعاء ، إذ حظَرْتَ الإهداء ؛ فأنا أُهْـديه ضَرورةً وآختِيارا ، وإعلانًا وإسْرارا ؛ فأسعَدَكَ الله بهذا العيد الجديد ، الذى زادَ بك فى قَدْره ، وشرَّفه بأن جعلك من أرْبابه ووُلاة أمْرِه .

أبو الفَرج البَبَّغاء :

هذا اليومُ من غُرَرِ الدُّهُور المشهُوره، وفضائِلِ الأزمنـة المذْكُوره ؛ معَظَّمٌ فى العَهْد الكِسْرَوِىّ ، مستطْرَفٌ فى العَصْر العَرِبىّ ؛ باعثٌ علىٰ عِمـارة المَوَدّات ، مخصوص بالآنبِساط فى الملاطَفَات، ولستُ أسـتَزيدُه ـ أيده الله ـ من بِرٍّ يُولِيه، ولا تَطَوُّلٍ إلىّ يُسْـدِيه ؛ غيرَ إدخالى فى جُملة من بسطَتْه الأُنسـه ، وثقّفته المحبّه ؛

وتقرّبتُ منه بوكيد الخدمه، فى قبول ما إن شرّف بقبوله، كان كثيرًا مع قلّته، جليلًا مع نزارته؛ فإنْ رأىٰ أنْ يقوّىَ منـه ثقتِي، ويُقابِلَ بقبولِ ما أنفذتُه رغبتِي، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

قد أطعتُ فى الانبساط إليـكَ دواعىَ الثقـه، وسلكتُ فى التحرّم بك سُـبُل الأنَسه، وتوصّلت بملاطفتِك إلىٰ حسْم موادّ الحشْمه؛ فاستشهدتُ علىٰ ثقتى بك فيما أنفذتُه بمفارقة الحفْله(١)، وكُلَف المكاثره؛ فإنْ رأيتَ أن تكلَنى فى تقبّله إلىٰ سعة أخلاقك، وتسْلُكَ فى ذٰلك أخصرَ طريقٍ إلىٰ ما أخطُبـه من مودّتك، وأزاحمُ عليه فى إخائك، فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

هذا اليومُ ـ أيّد اللهُ سيدى ـ من أعياد المُرُوه، ومواسِم الفُتُوّه، وأوطانِ السرور، ومحاسن الأزمنة والدُّهور؛ بلّغه [الله] أمثالَهُ فى أنضر عيش وأسبغ سَلَامه، وأبْسط قُدْره، وأكمل مسَرّه؛ وقد توثّبت إلىٰ الاقتداءِ فيه بأدَبِه، والأخذ بمعرفة فُروضـه بمذهَبه، وأطعتُ فى الانبساط إليـه دواعىَ الثّقة، وأنفذتُ ما اعتمدْتُ فى قبوله علىٰ مكانى منه، عائذًا بالتقليل من كُلَف المكاثَره، ومستثقل الكُلفه؛ فإن رأىٰ أن يأتِىَ فيما التمسته ما يُناسبُ شرَفَ طبعه، وسَعَة أخلاقه، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

لو كانت الملاطفات بحسَبِ الرُّتَب وقدْر المنَازل، لمـا انبسَطتْ قُدرةٌ ولا اتّسع إمكانٌ لِمَا يستحِقّه نُبْلُ محلّه، وواجباتُ رِياسـتِه؛ ولكُنْتُ من بين خدَمه ضعيفَ المُنّة عن خِدْمته فى هذا اليومِ السعيد؛ بلّغه اللهُ أمثالَه فى أفسح أجَل، وأنجح أمَل،

---

(١) كذا فى الأصل ولعله «الكلفة» .

بما يَخْدُمُهُ به ذَوُو الخِدَمات الوكيدةِ عنده، المَكِينةِ لدَيْهْ ؛ غير أنّى أثِقُ منه ـ أيده الله ـ بحَمْل قليلى على علمه بإخلاصى فى وَلَائه، وٱنتسابِى إلى جُمْلته، وٱختلاطى بأنسابه ؛ فإنْ رأى أن يُجرِيَنى فى قَبُول ذلك على سُــنَّة أمثاله من ذَوِى الجَلَالة ، عند أمثالى من الأولياءِ والحاشية، فعل .

وله فى مثـــله :

لو كانَت الهَدايَا لا تُتَقَبَّل مالم تُناسِبْ فى نَفَاسة القَدْر، وجَلَالة الذكر، مَحَلَّ من يُتَقَرَّبُ بها إليه، ومنزلةَ من أهداها إليه عليْه، لَـمَا سَمَتْ هِمَّة، ولا ٱتَّسعتْ قُدْرة، لِـمَا يستَحِقُّه ـ أيده الله ـ بأيْسَرِ واجباته ، وأصغرِ مفتَرَضاته، غير أنَّ الأَنَسةَ بتَفَضُّـله، والاعتدادَ بسالف تَطَوُّله، والتحقُّق بخِدْمته ، والانتسابَ إلى جُمْلتــه ؛ بَسَطَنى إلى إنفاذ ما إن شرَّفنى بقَبُوله كان مع قِلَّتــه كثيرا ، ومع نَزَارته جليلًا ؛ فإنْ رأى أن يقوِّى بذلك منه ثِقَتِى، ويحسِمَ مادَّة ٱحتشامى، فعل .

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكتُبُ والرِّقاع مضمُونُها الهَنَاءُ بالمَوْسِم الجديد، والدعاء للهنإ فيه بتَمَلِّيه . قال : وهذا المعنى مُفَاوَض بين المهنِّى والمهنَّى، وينبغى أن تكون أجوبَتُها مشتقَّةً منها . ثم قال : وقد يتَصَرَّف الكُتَّاب فيها إذا كاتبوا الرُّؤساء تَصَرُّفا يخرج عن هذا الحكم .

وهـــذه أمثلة من ذلك :

أبو الفرج الببغاء :

سَمِع الله دُعاءَك، وبَدَأ فى تقبُّل المسألة بِك، وأجْزَل من أقسامِه حظَّك، وبلَّغك أمثـالَه فى أفسح مُدَد البقاء، وزاد فيما خوَّلكَ من المواهب والنَّعْماء ؛ ولا أخْلانِى من بِرِّك، وأنهضَنِى بواجِبَاتك .

وله فى مثـله :

كلُّ يوم أسعَدُ فيه بمشاهَدتك، وأقطَعُه فى ظلّ مودّتك، حقيقٌ بالإحماد، مُوف علىٰ محاسن الأعياد؛ فسمِعَ اللهُ دُعاءَك، وأطال ماشئْتَ البَقاء بقاءَك؛ وجعل سائرَ أيّامك مقرونةً بالسّعادات، موصولةً بتناصُر البَركات .

من زهر الربيع :

يخدُم المجلسَ العالىَ جعـل الله قَدْره علىٰ الأقدار سامياً ، وجزيلَ نَواله علىٰ مَنْ هامَ به من العُفَاة هامياً ؛ ونصَره نَصْرا عزيزا ، وأسـكنه من حِراسَته حِصْنا حَصينا وحِرْزا حريزا ؛ ولا زالتِ الأيّام حاليـةَ الجِيدِ بوُجُوده ، والأيْدى تَهَشّ إلىٰ تَنـاوُل أياديه وَجُوده ؛ وأخبارُ المكارمِ عنه مَرْوِيّة وإليـه مَعْزوّه ؛ وآياتُ فضله وفضائله بكلِّ لسانٍ متلُوّه .

ويُنْهِى إلىٰ علمه وُرُودَ مشرِّفته التى حلّتِ الأسمـاعَ عند ماحَلّت ، وسَمَتْ عن الرِّياض لَمّـا جُلِّيَتْ عَروُس فضلها وجَلّتْ ؛ وزهَتْ علىٰ زُهورها ، برَقْم سُطُورها ؛ وطيب عَرْفها ونَشْرها ، بمـا فاحَ من طَيِّها عِند نَشْرها ؛ وفائِق حُسْنها وبَهْجَتها ، برائق بَراعةِ عبارَتِها ؛ ومعامَلتها بمـا يجبُ من فُروض إكرامها والسُّنَن ، والمَشْيِ فى تَجْبِيلها علىٰ الطريقِ المألُوف من مُوالاته والسَّنَن ، وعِلْمَه بمـا أشار إليه من الهَنَاء بالعيد ، واليوْمِ السعيد ؛ وقد تحقّق بذٰلك إحسانَه الذى ما بَرِح متَحقِّقا بجميـله وجزيله ، وشاكرًا لكثيره وقليله ؛ وحصلَتْ له البُشْرىٰ ، والمَسرّةُ الكُبْرىٰ ؛ ليس للعيد بمُفْرَده ، ولا لهذا الهناءِ بمجرّده ؛ بل لبقاءِ المَوْلىٰ ودَوامِ سـعادَته ، وتخليد سيادَته ؛ فإنّه لكلِّ إنسانٍ عينٌ ولكلِّ عين إنْسان ، وهو رُوحٌ والأيّام والأنَامُ جُثْمان ؛ فالملوكُ ببقائه كلّ

يوم يتجدّدُ له عيـدٌ جديد ، ويتضاعَفُ له جَدٌّ سَـعيد، حرسَ اللهُ شرَفَه الرفيعَ من الأذى، وأراه فى عَيْنِ أعاديه جِذْعا ناتئًا وسـلّمَ لحظَه المحروسَ من القَذىٰ ، وأصار أيّامه كلّها أيامَ هَناء، وبدايةَ سعادتِه بغير حدٍّ وانتهاء .

الضرب السادس

(التهنئـــة بالزواج والتســـرّى)

من كلام المتقدّمين :

أبو الفرج الببغاء :

وصلَ اللهُ هـذا الاتّصال السعيد ، والعَقْد الحَميـد ، بأحمدِ العَواقِب ، وأجملِ المِنَح والمَواهِب ، وجعل شَمْـلَ مَسَرّتك به ملتئمًا ، وسبَبَ أُنْسِك بإقبـاله منتظمًا ، وعرّفك به تعجُّلَ البركات ، وتناصُرَ الخَيْرات ، ولا أخلاكَ فيـه من التّهانِى بنُجَبـاء الأولاد ، وكبَتَ بكَثْرة عدَدِك سـائِرَ الحُسّاد ، وهنّأنِى النعمـةَ الجليلةَ بإخائك ، وعضّدنِى وسائِرَ إخوانِك ببَقائك .

وله فى مثـــله :

قرنَ الله بالخيرةِ ما عقَدْتَ، وبالسـعادةِ ماجَدَّدْت ، وبجميلِ العاقِبة ما أفدْت ، وعرّفك برَكاتِ هذا الاتّصال، ولاأخلاكَ فيه من مَوادِّ السعادةِ والإقبال، وعضّدك بالبَرَرة من عَقِبك، والسادة من ذُرِّيّتك .

وله فى مثـــله :

إنِّى وإن كنتُ ملتحفا بلُحف مودّتك ، ومتَمَسِّكا بعِصَم أُخُوّتك، أَوْلىٰ بالتهنئـة بمـا يحدُث لك من وُرودِ نِعْمه ، واتصالِ مَوْهِبـه ؛ فإنّى ما أجِدُ فرضَ الدعاءِ لك

ساقطا ، ولا واجبَ الشكر لله تعالىٰ علىٰ ما أَوْلانى فيك زائلا ؛ فعرَّفك اللهُ بركةَ هذا الاتّصالِ الحميد ، والاقترانِ السَّعيد ، وجعله للسُّرورِ مُكَثِّرا ، وباليمن مبشِّرا ؛ وأحياكَ للتهانى بمثله فى السادةِ من وَلَدك ، والنُّجباء من ذرّيّتك .

وله فى مثـــله :

وصل اللهُ هذا الاتّصالَ الميمونــ بأرْجَح البركات وأفضلِها ، وأنجح الطَّلِبات وأكملِها ؛ وأحمدَ بدأَه وعُقْباه ، وبلَّغك الآمالَ فى سائرِ ما تَهْواه ؛ وأحياكَ للتّهـانِى بأمثاله فى البَرَرة من وَلَدك ، والنُّجباء من عَقِبك .

من كلام المتأخريــن :

للشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

جعلَ الله الخيرَةَ له فيما يَذَرُه ويأتيه ؛ والنجاحَ مقرونًا بما يُعيده من الأوامر ويُبْديه ، والألســنةَ شاكرةً مايُوليه من الإنعام ويُسْديه . صدرَتْ هــذه الخدمةُ معْربةً عن ثناءٍ تأرّج عَرْفُه ، وولاءٍ أعجزَ الألسنةَ شرْحُه ووَصْفُه ؛ وتهنئةٍ بهذه الوُصْلة المباركةِ جعلهـا الله للاتّصال بالســعادةِ سَبَبا ، ومحصِّــلةً من الخيراتِ مَرَاما وافِرًا وأرَبا ؛ وعَرَّفه بركةَ هــذا العُرْس الذى أصبحَ الخيرُ بفِنَائه مُعَرِّسا ، ونُورُ الشمس من ضياء بهجَتِه مقتَبِسا ؛ فنحمدُ اللهَ علىٰ هذه الوُصْلة سِرًا وجَهْرا ، ونشكُره أنْ جعــلَ بينه وبينَ السَّعْد نَسَــبا وصِهْرا ؛ منحَ اللهُ المولىٰ الرِّفاءَ والبنِين ، والعُمُر الذى يُفْنِى الأيامَ والسِّــنين ، ورَزَقه إسعافًا دائمًـا وإسْعادا ، وأراه أولادَ أولاده آباءً بل أجْدادًا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالزَّواج والتَّسَرِّى

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجب أن تكون شكرا للمهنِّئ علىٰ العِناية والآهتمام، و[مشتملة علىٰ] الإبانة عن موْقِع دعائه من التبرُّك والتيمُّن به ، إلا أن تكون البِدايةُ بمعنًى يخرُج عما هذا جوابُه، فينبغى أن يُجابَ عنه بمـا يقتضى الإجابةَ عن ذٰلك .

الضـــــرب السابع

(من التَّهانِى التهنئةُ بالأولاد، وهو علىٰ ثلاثة أصناف)

الصنف الأوّل — التهنئــةُ بالبنيــن .

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

إنّه ليس من نِعَم الله وفَرائدِ قِسَــمه و إن حَسُنَ موقِعُها، ولَطُف محلُّها، نعمــةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الوَلَد، لنَمائها فى العَدَد ، و زيادَتها فى قُوّة العَضُــد ؛ وما يُتعَجَّل من عظيمِ بَهْجتِها ، ويُرْجىٰ مِن باقِى ذِكْرها فى الخُلُوف والأعقـاب، ولا حق بركتِها فى الدعاء والآستغْفار .

ومنــه : إنّه ليس من النِّعَم نعمةٌ تُشبِه النعمةَ فى الولد، لزيادَتها فى قُوّة العَضُد، وحُسْن موقعها فى الخَلَف والعَقِب ؛ وآتصلَ بى خَبَرُ مولودٍ فسَرَّنى ماوصـلَ اللهُ به من العارِفةِ إليك، وشَرِكْتُك فى جميل المَوْهِبة فيه شَرِكَةَ مَنْ له مالَكَ وعليه ماعلَيْك؛ وسألتُ اللهَ أن يُوزِعَك شُكْرَ النِّعمة ويُؤْنِسَ بهذا المولُود رَبْعك، ويُكثِّر به عدَدَك، ويعظِّم بركَتَه ويُمْنَ طائِره علَيــك، ويَزِيدَ به فى النعمــة كذلك، ويفْعلَ اللهُ ذٰلك، بمنّه وطَوْله .

وفيه لابى الحسين بن سعد إلىٰ أبى مُسْلِم بن بحر يهنئه بابنٍ حدث له :

فأمّا ماجدّد اللهُ من النعمة فى القادم والموهوب لك وَلَدا وأُنْسا، ولنا سَنَدًا وذُخْرا، فقد جلّ قدرُ هذه المَوْهِبَة عن أن يُحاط لها بوَصْف، أو يُوفىٰ لها بشُكْر.

وفيه لعلى بن خلف :

ويُنْهِى أنه آتّصل بالمملوك بُزُوغُ نَجْمِ سعدٍ فى مَشارِق إقباله، مُؤْذِنٍ باتِّساق سُمُوّه وجَلاله؛ فأحدَثَ من الجَذَل والاستبشار بمَقْدَمه، والتبرُّك والتيمُّن بقدمه؛ ماتلألأَتْ علىٰ المملوك أنوارُه، وحسُنَتْ عنده آثارُه؛ وسألتُ اللهَ تعالىٰ راغباً إليه فى أنْ يُعرِّفَه سعادةَ مَوْلِده، ويُمْنَ مَوْفِدِه؛ ويجعلَه شادّا لعَضُده، ومُورِيا لزَنْده؛ ويَشْفَعه والسادةَ السابقين، نُجباءَ مُتلاحِقين؛ يتبلّجُون فى نِطَاق سعادتِه، ويُتَوسَّمُون فى آفاق سِيادته؛ ويَصُونَ سِلْكَهم من الانفصام، وشَمْلَهم من الانْهِدَام؛ ويُبقِيهم غُرَرا فى وُجُوه الأيّام، وأقمارا فى صَفَحات الظَّلام؛ بمنّه وفَضْله، إن شاء الله تعالىٰ.

وفيه له : ويُنْهِى أنّ المملوكَ يشكُر الله تعالىٰ علىٰ ما أنزلَهُ عِنْد مَوْلانا من عَوارِفه، وآختصّه به من لطائِفه؛ شُكرَ مَنْ شارَكَه فى النعمة المُسْبَغَة عليه، وآنتهىٰ إلىٰ خبرُ السّنَد المتجدّد لمَوْلانا، فطار المملوكُ بقَوَادِم السُّرور ومَقادمه، وأخذَ من الابْتِهاج بأوفىٰ قِسَمه؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أنْ يُبارِكَ له فى عطيّته، ويُرْدِفَه بزيادتِه؛ ويُوفِّرَ عدَدَه، ويشُدَّ بصالِح الوَلَد عَضُده؛ ويُجْنِيَه من هذا القادِم ثِمارَ المَسَرّة، ويُرِيَ عينَه منه أقرّ قُرّة؛ ويَشْفَع المِنْحة فى مَوْهِبَته بإطالة مُدّته.

وفيه : ويُنْهِى أنّ أفضلَ النِّعَم مَوْقِعا، وأشرفَها خَطَرا ومَوْضِعا؛ نِعمةُ الله تعالىٰ فى الولد : لزيادتها فى العَدَد وقُوّة العَضُد؛ وما يُتَعَجَّل من عِظَم جَمالها وزينتِها، ويُرْجىٰ من حُسْن مآلها وعاقِبَتِها؛ فى حفظ النَّسب والأصْل، وحُسْن الخِلافةِ علىٰ

الأهل، وجميلِ الذِّكْرِ والثَّناء، ومتقَبَّل الاستِغفارِ والدُّعَاء، وقد اتصل بالمملوك بُزُوغُ هلال سماءِ المَجْد، ومتعلَّق الإقبال والسَّعْد، فأشرقَتِ الأيامُ بإشراقه، ووثِقَتِ الآمالُ باجتلائه واتِّساقه، فقام المملوكُ عن مولانا بشُكْر هذه النعمة المتجدِّده، والمَوْهِبة الراهنة الخالدَه، وهنَّأْتُ نفْسِي بها، وأخذت بحظِّي منها، والله تعالىٰ يعرِّفه يُمْنَ المولودِ من أطهر والدة وأطيبِ والد، ويعمِّر به منزِله، ويؤْنس ببقائه رَحْلَه، ويبلِّغ محبِّيه، من الآمال فيه، مابلَّغهم فى المـاجد أبيه، إن شاء الله تعالىٰ.

وفيه: ويُنْهِى أنَّ نِعمَ الله تعالىٰ وإن كانتْ علىٰ مولانا متَظاهِره، ولديه مُتناصِرَه، فقد كان المملوك يرغَبُ إلىٰ الله تعالىٰ فى أن يُجمِّل الأيامَ من نَسْله، بمَنْ يحفَظُ عليها شرفَ أصْلِه، ويخلُفُه بعد العُمُر الطويل فى نُبْله وكَرَم فِعْله، ولمَّا اتَّصل بالمملوك نبأُ هذا الهلال البازغ فى سَمَائه، المُقرِّ لعُيون أوْليائه، المخيِّب لظُنُون أعدائه، حَمِدتُ الله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبتَه، وسألتُه إقرار نِعْمته، وأن يُعرِّف مولانا بركةَ قَدمه، ويُمْن مَقْدَمه، ويوفِّر حظَّه من زيادَتِه، وسعادة وِفادته، وأن يجعلَه بَرًّا تقيًّا، مباركًا رَضيًّا، ويُفسِّح فى أجَلِه، ويبلِّغه فيه أملَه، إن شاء الله تعالىٰ.

من كلام المتأخرين:

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي:

هُنِّئْتَ بالإسعافِ والإسْعادِ * ونَفَاذِ أمْرٍ فى العِدَا بنَفَادِ!
وبَقِيتَ مابقِيَ الزمانُ مهنَّأً * ووُقِيتَ شرَّ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ!
يامالكَ الرِّقِّ الّذِى أضْحىٰ لنا * من جُودِه الأطْواقُ فى الأجْيادِ!
خُلِّدتَ فى عَيْش هَنِيٍّ أخضَرٍ * يَسْطُو ببِيضِ ظُبًا وسُمْرِ صِعَادِ،
حتّىٰ يخاطِبَك الزمانُ مُبَشِّرا: * مُتِّعتَ بالإخوانِ والأوْلادِ!

جدّدَ اللهُ فى كلّ يوم له مَسَرّةً وبُشرىٰ ، وأطابَ لعَرْفه عَرْفا ونَشْرا ، وشدّ له بولده السعيدِ الطلعةِ أَزْرا وأَسْرا ، وسَرّىٰ به الهُمومَ عن القلوب وأصارَها لديْه أَسْرىٰ ، ورفَع درجَتَه إلىٰ سماء المَعالى ليُقال : سُبْحانَ الذى بعَبْده أَسْرىٰ .

المملوك يَخْـدُم المولىٰ ويهنّيه ويشكُره ، ويُطْلِعه علىٰ ماحصل له من الابتهاج للسبَبِ الذى يُنْهِيه ويذْكُره ؛ وهو أنه اتّصـل به قُدومُ المسافر بل إسفارُ البَـدْر ، وظهورُ ميْمُونِ الغُرّة الذى جاء لأهـله بأمانٍ من صُروف الدَّهْر ؛ وهو الولدُ العزيز الموفّق النّجيب ، فلان ، أبقاه اللهُ تعالىٰ ليَحْيا مشكُورًا محمُودا ، منصُورا بسَيْف مَجْده وسِنَان سعدِه مَسْعُودا ، وأدام عِزَّه وعُلَاه ، وأعلىٰ نَجْمه وخلّد شرَفَه وبَهَاه ، وضاعف سَنَاءَه وسَنَاه ؛ وأرانا منه ماأرانَا من السعادة فى أبِيه ، فسُرَّ وابتَهج بهذه النعمةِ غايةَ السُّرور والابْتهاج ، واتّضح له فى شُكْرِ إحسانِ المولىٰ وحُسْن ولدِه كلُّ طريقٍ ومِنْهاج ؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُطوِّل له عُمُرا ، ويجعلَه لإسعادِ والدِه وإسعافِه ذُخْرا ، ليَرْتَعَا فى رِيَاض الدَّعَة فى صِحّةٍ وسلامه ، ويَحُلّا فى فِناء العُلا لهما دارَ إقامه ؛ ويبْلُغا من السـعادة درجةً لا تَرِيم عاليةً ولا تُرام ، وتَخْضعَ لهما الليالِى والأيّام ؛ ويرشُقاهما بِسهام الصُّروف ويَطْعَناهما بأسنّتها ، ويَفْهما دعاءَ الأيام لهما من صدورها ويسْمَعاه من ألسِنَتها ، مخاطِبةً لأبيه ، ومنشدةً لسائرِ أهلِه ومحبِّيه :

مَدَّ لكَ اللهُ الحياةَ مَـدّا ، * حتّى ترىٰ نَجْلكَ هذا جَدّا

الصنف الثـانى — التهنئـةُ بالبَنَات .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

النّعمةُ نِعْمتان : إحداهُما تُعجّل الأُنْس ، والأُخْرىٰ تدّخر الأجر ؛ وعلىٰ حَسَب

ماتُتَلقَّى به من الشُّكر علىٰ ظاهر المحبوب، والتّسليم فيما يَجْرِى مَجْرىٰ بعض المكْروه، يكون المتاعُ عاجلا ، والثوابُ آجلا ؛ وما قَدَّمتُ القولَ [إلَّا] لِمَا ظننته يَعْرِض لك من الوُجُوم فى هذه المَوْهِبَة، فى المولُودةِ التى أرجُو أن يعظِّم اللهُ بركتها، ويجعلها أيمَنَ مولُودٍ فى عصرها، ودالَّةً علىٰ سعادةِ أبيها وجَدِّها؛ و[لَئِنْ] كان فى الطبع حُبُّ الذُّكور والشَّغف بالبَنِين، فإنَّ البنينَ من البَنَات، وهُنَّ باليُمْن معْرُوفات؛ و بالبَرَكات مَوْصُوفات، و بالذُّكور فى أثرِهنَّ مُبَشِّرات ؛ فهَنَاكَ اللهُ النعمةَ فيها تهْنئةً لاتنْقضى سعادتُها، ولا يعترِضُ النقصُ والتقدير[(1)] شيئًا منها؛ وابقىٰ هذه الصبيّةَ ممتَّعا أبُوها بها، ومُنْشأً له الحظُّ من حَدَاثتها؛ و بلَّغها أفضلَ مَبالِـغ الصالحاتِ القانتات من أُمَّهاتها؛ وجعلَ فى موْلِدها أصدقَ دليل علىٰ طُول عُمُر أبيها وسَعادة جَدِّه، وتضاعُف نِعَم الله عِنْده؛ إنه لطيفٌ جَوَاد .

أبو مسلم محمد بن بحر :

مَرْحبًا بِبِكْر النِّساء، وبِكْر الأوْلاد ، وعَقِيلة الخِباء ، والمأمُولةِ للبركة، والمشْهورةِ باليُمْن ؛ وقد جرَّبنـاه فوجدْناه معْهُودًا مسْعودا؛ والله يعرِّفُك أضعافَ ماعَرَّف مَنْ قَبْلك ، ويُبَـاركُ لك فيما رزَقك ؛ ويُثَـنِّى لك بأخٍ للمولودةِ ويجعَـلُه رديفَها، وفى الخير قرينَها وشريكَها .

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنَّ المملوكَ اتَّصل به ارْتِمَاضُ[(2)] مولانا بمَقْدَم الكريمةِ الوافِده، بطـالعِ السّـعادةِ المتجدِّده ؛ فعجِبَ المملوكُ من وُقُوع ذٰلك من مثل مَولانا مع كمال نُبْله ،

---

(1) المراد به التضييق انظر القاموس .

(2) يريد قلقه وعدم انبساطه .

وشرف عقله وعلمه ؛ فإنّ الله تعالىٰ جلّ اسمُه يقول : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وإن ما جدّده اللهُ تعـالىٰ من مواهبه جديرٌ أن يُتلقّى بالسُّرور والفَرَح، لا بالاستياءِ والتَّرَح؛ لاسيَّما والذَّكَرُ إنما يتفضَّل علىٰ الأنثىٰ بنجابته، لا بحليته وصُـورته ؛ وقد يقع فى الإناثِ مَنْ هو أشرفُ من الذكور طَبْعا ، وأجزَلُ عائدةً ونَفعا؛ وقد رُوِى أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال : " إذا رُزِقَ العَبْـدُ الأُنثىٰ نادىٰ مُنادٍ من السماء : ياأهْـلَ الدار أبْشِروا بالرِّزْق ؛ وإذا رُزِقَ ذكَرًا نادىٰ منـادٍ من السماء : ياأهل الدار أبشِروا بالعِزّ" فليستقبل مولانا الرِّزْقَ بالشُّكر فإنّ العِزّ يتْبَعه، ولا يعارِضُ اللهَ تعالىٰ فى إرادته ؛ ولا يستقِلُّ شيئا من هِبَته ؛ والله تعالىٰ يُعرِّفه يُمْنَ عُهودها، وسعادةَ قُدومها؛ وأن يَسُرّه بعـدها بإخوةٍ متتابعين متلاحقين ؛ يؤيِّدون أمْرَه، ويُحيُون بعد العُمُر الأطولِ ذِكْرَه .

أبو الفرج الببغاء :

لو كان الإنسـانُ متصرِّفًا فى أمره بإرادته ، قادرًا علىٰ إدراك مَشيئته ؛ لبطَلتْ دلائلُ القُدْره، واستحالَتْ حقائقُ الصَّنْعه؛ ودَرَسَتْ معالمُ الآمال،وتساوىٰ الناسُ ببلُوغ الأحوال؛ غيرَ أنّ الأمرَ لمّا كان بغير مشيئته مَصْنُوعا، وعلىٰ ماعَنَه ظهر فى الابتداء مَطْبوعا؛ كان المُخْرِجُ له إلىٰ الوُجود من العدمِ، فيما ارتضَاه له غيرَ متَّهَم؛ ومولانا ــ أيده الله ــ مع كمالِ فضْلِه ، وتناهِي عَقْله ؛ وحِدَّة فِطْنته، وثاقب معْرفته؛ أجلُّ من أن يجهـلَ مواقِعَ النِّعم الواردةِ من الله تعـالىٰ عليه ، أو يتسخَّط مَواهِبَـه الصادِرةَ إليه؛ فيرمُقَها بنواظِر الكُفر ، ويسْلُكَ بها غيرَ مذاهِبِ الشكر .

وقد اتّصلَ بالمملوك خبَرُ المولودة كرّم الله غُرّتها ، وأطال مُدّتَها ؛ وعَرّفَ مولانا البركةَ بها، وبلّغه أملَه فيها؛ وما كان من تغيُّره عند اتّضاح الخبَر، وإنكارِ ما اختاره

له سابِقُ القَدَر، فعجِبَ المملوكُ من ذلك وآستنكره، من مولانا وأنكره؛ لِضيق العُذْر في مثله عليه . وقد علِمَ مولانا أنهن أقربُ إلى القُلوب ، وأن الله تعالى بدأ بِهِنّ في الترتيب فقال جلّ من قائل : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وما سمّاه الله هبةً فهو بالشكر أولى، وبحُسْن التقبّل أحرى ؛ ولكم نَسبٍ أفدْن ، وشرف آستحْدَثْن ، من طُرق الأصهار، والآتصال بالأخيار. والملتمسُ من الذكَر نجابتُه ، لاصورتُه وولادته ؛ ولكمْ ذكرٍ الأنثى أكرمُ منه طَبْعا ، وأظهرُ منه نفْعا ؛ فمولانا يُصوِّر الحالَ بصُورتها ، ويجدِّدُ الشُّكر على ماوُهِبَ منها ؛ ويستأنِف الآعترافَ له تعالى بما هو الأشبهُ ببصيرته ، والاولى بمثله ، إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث — التهنئةُ بالتوْءم .

أحسَنُ ما رأيتُ من ذلك قولُ بعض الشُّعراء مما كَتَب به إلى بعض أصحابه ، وقد وُلِد له ذكَرٌ وأُنثى من جاريةٍ سوداء، وهو قوله :

وخَصَّكَ رَبُّ العَرْشِ منها بتَوْءَم * ومِنْ ظُلُماتِ البَحْرِ تُستَخرَجُ الدُّرَرُ!

وارِكَ أضحى وارثًا عِـلْمَ جابرٍ * فأعطاكَ من ألقابه الشَّمْسَ والقمَرَ!

الأجوبة عن التهنئةِ بالأولاد

قال في "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع يجبُ أن تُبْنى على شُكر آهتمام المُهَنِّئ ورعايته، والآعتدادِ بعنايته ؛ وأنَّ الزيادة في تجدّد المهنَّى [به] زيادةٌ في عَدَده، وأن نصيبَه من تحرُّك السرور فيما يخلُص إليه من المَوَاهب كنصيبه : لتناسُبِهما في الإخاء، وتَوافيهما في الصَّفاء، وأن تراعى مع ذلك مرتبة المهنِّئِ والمَهنَّى، ويبنى الخطاب على ما يقتضيه كلٌّ منهما .

وهـــذا مثالٌ من ذلك :

زهر الربيـــع :

ويُنهِي ورودَ الكتاب الذى تَشرَّف المـــلوكُ بُورُوده ، وأشرقَتِ الأيَّام بكمالِ سُعُوده، وأرغَمَ ببلاغته مَعطِس مُناوِيه وحَسُوده، فشكَر أيادِىَ من أنعم بإرساله ، وآكتسىٰ بالوقُوف عليه حُلَّة من حُلَل فَخْره وجَمــاله ، وبالغَ فى إكماله ، حتّى وقف إجلالًا له بين يَدَيْه ، ثم تلا آياتِ حُســنه على أُذُنَيْه ؛ فوجده مشتملا علىٰ إحسانٍ لم يَسبِقه إلىٰ مثله أحَد، ومِنَنٍ أودَعها فيه فلا يُحصِيها حَصر ولا عَدد؛ فهَيَّج بُورُوده رَسِيسَ الأشواق، وتقلَّد بإنعامِ مُرْسِـله كما قُلِّدت الحمـائمُ بالأطواق، ووجدَ لَوْعةً لا يُحْســن وصفَها لسانُ اليَراع فى الأوراق ؛ وعلم ما أشارَ إليــه المَوْلىٰ من التهنئة بالولَد الجديد، بل بأصغَر الخَــدَم والعَبيد، وما أبداه من الإبتهاج لِميلادِه، وأظهره من التفَضُّـــل المعروفِ من آبائه الكرامِ وأجداده ؛ ولِمَ لا يكونُ الأمرُ كذلك والوالدُ مملوكُه ، وهو مملوكُ السادةِ الأجِلَّاء أولادِه؛ حَرَس الله مَجــدَه ومتَّعه بثَوب مكارِمه، وخَفَض قَدرَ مُحـارِبه ورفَع كلمةَ مُسالِمه ؛ ولا زال ممـاليكُه تتزيَّد تَزيُّدَ الأيَّام، وســعادتُه باقيةً بقاءَ الأعوام ، وعينُ العنايةِ تحرسه فى حالَتَيِ السفرِ والمُقام؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثامن

(من التهانى التهنئةُ بالإبْلال من المَرَض والعافيةِ من السَّقَم)

فمن ذلك :

ويُنهِى أنه مازالَتْ أجسامُ أهل التَّصافِى، تشتَرِكُ فى الأسْقام والعوَافِى، كما تشتَرِكُ أنفُسُهم فى التخالُص والتَّوافى ؛ ولـمَّا ألَمَّ بمولانا هــذا الألَمُ الذى تفضَّل الله تعــالىٰ

بإماطته، ومَنّ فيه علىٰ السُّؤدد بحِراسةِ مولانا وحياطَته ؛ فرأيتُه حالًّا فى جَوارحى، مُحْرِقًا لجوانحى ؛ ممازِجا لأعضائى، متملِّكا لأنوائى(١) ؛ ولئن كنتُ قد تحمّلت من ذٰلك عِبْئًا، وآرتقيت من تحمُّله مُرْتقًى صَعْبا ؛ فلقد فَخَرْتُ بمماسّته، وأحمَدْتُ طبْعى علىٰ مُشاكلته ؛ وشكَرْت الله تعالى إذْ جعَلَنى شُعْبة من سَرْحته، وجِبِلّة من طينَته ؛ وعلىٰ ماسَرّ به من إقالته وإنعاشه، ومُصافاته وإنْشاشه ؛ وسألتُ الله تعالى أنْ يبقيَه نُورا يُوضّح مَغرِبَ الدّهر ومَشرِقه ، ودُرًّا يُرصّع فَوْد المجْد ومَفرِقه ؛ ويُحْسن الدِّفاعَ عن حَوْبائه، وهو سبحانهُ يُجيب ذلك ويتقبَّله ، ويرفَعُه ويسْمَعُه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

الملوكُ يُهَنَّأُ مولاه خاصَّةً إذ جعله الله تعالىٰ من صَفوةِ أوليائه، وخالِصة أحبّائه ؛ الذين يبتليهم آختبارا، ويتَنابُهــم آختيارا : ليجمع لهم بين تمحيص وِزْرهم، ومضاعَفة أجْرِهم ؛ والحضّ علىٰ طاعته، والآنصراف عن معْصيته ؛ ويُهَنَّأ الكافّة عامّة بالمَوْهبة فى نُوره المُطلِعــةِ لامَلِ الإقبال ، المُرْويَة لمَـاحِل الآمال ؛ ثم أعطفُ علىٰ حَمْد الله علىٰ مامَنّ به من إبْلاله ، ويَسّره من آستِقْلاله ؛ والرَّغبة إليه فى أن يمنَحَه صحةً تُخَلَّد وتُقِيم، وعافيةً تَرْهَن ولا تَرِيم ؛ وأن يحمِيَه من عَوارض الأسْقام، ويصُونه من حوادثِ الأيّام ؛ بفَضْله وجُوده، إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أفضلُ ما يَفْزَع إليه العبدُ المُخْلِص، والمَوْلىٰ المتخصِّص ؛ فيما ينُوبُ سيِّدَه ويُهِمُّ وَلِيَّ نعمته، الدعاءُ المقتَرِن بصدْق النيه، وصَفَاء الطوِيّه [فالحمد لله الذى منَّ بالصحَّة] وتصدّق بالإقالة، وتدارك بجميل المُدافَعة ؛ وعَمَّ سائرَ خدَمه أيّده الله بالنِّعمه، وأعادَه

(١) كذا فى الأصل ولعله لأحشائى أو نحو ذلك .

إلى أجمل عاداته من السلامة والصحه، فائزا بمدّخر الأجر، متعبّدا بمستأنف الشكر، فلا أخلاه الله من زيادة فيما يوليه، ولا قصدنا بسماع سوء فيه ؛ وحرس من الغير مهجته، ومن المحذور نعمته .

وله فى مثله :

ما كنتُ أعلم أنّ عافيتي مقرونةٌ بعافيتك، ولا سلامتي مضافةٌ لسلامتك؛ إلى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالتي الألم والصحه، والمرض والمحنه؛ فالحمدلله الذى شرّف طبعي بمناسبتك، وجمّل خُلُقي بملاءمتك؛ فيما ساء وسرّ، وإياه تعالى أشكر على ماخصّني به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك وسرعة إقالتك ؛ وبه ــ جلّ آسمه ــ أثق فى مزيدك من تظاهر النعم، وتوفّر القسم .

وله فى مثله :

ولولا أنّ متضمّن كتابك قرن ذكرَ المرض الهاجم عليك، بذكر ما وهبه اللهُ لك من عود السلامة إليك؛ لما آقتصر بى القلقُ على[ما]دون المسير نحوك ، والمبادرة لمشاهدتك؛ غيرأنّ السكون إلى ماأدّاه كتابُك سابقَ الجزع، والطمأنينةَ إلى ماوهبه اللهُ من كفايتك حالتْ دون الهلع ؛ فالحمدُ لله الذى منّ بالإقالة، وتصدّق بالسلامة وعمّ بالكفايه؛ وهو وليُّ حراستك وحراستي فيك .

وله فى مثله :

سيّدُنا فى سائر مايذكّره اللهُ من هجوم ألمٍ مؤذن بصحّه، وآعتراض محنةٍ مؤدّيةٍ إلى منحه؛ مرموقٌ بالعافيه، محروسٌ من الله جلّ آسمه بالحفظ والكلاءة؛ فهو مع العلة فائزٌ بذخائر الأجر، ومع العافيــة موفّقٌ لآستزادة الشكر؛ فالحمدُ لله الذى عقدَ الكرم ببقائه، وشفى مرضَ الآمال بشفائه؛ وكفاه آعتراضَ المخوف، وعوارضَ الصروف .

وله فى مثـــله :

ماآنفردَ جِسْمُك بالعِـلَّة دُونَ قَلْبى، ولا آختصَّت نفْسك ـ حرسها الله تعالىٰ ـ بمُعاناةِ المرَض دُون نَفْسى؛ ولم أزلْ بالقَلْب تاليا، وفى سائر ماشكوتَهُ بالنِّية مُساوِيا؛ إلىٰ أنْ كشفَ الله الغُمَّه ، وأقال العَثْره، ونَفَّس الكُرْبه ؛ ومَنَّ بالسلامه، وتَصَدَّق بالكِفايه؛ وأوجبَ بالعـافيةِ علينا جميعًا فُروضَ الشكر، بعد ما ادَّخره لك بالألَم من كثْرة الأجر؛ فالحمـد لله علىٰ ذٰلك حمدًا يؤدّى إلىٰ حِراسة ماخَوّلك، ويُؤْذِن بالمَزيد فيما منحك .

ومن كلام المتأخرين :

أعْلىٰ الله قدرَ الجناب الفُلَانِى، ولا زالتْ شُموسُ أيامه لاتخَافُ كُسُوفا ولا أُفُولا، وأقمارُ لياليه تَغرِس فى قلُوب أوليائه ومحبِّيه فُروعًا وأُصُولا .

المملوكُ يَخْدُم خدمةَ مَنْ تحمَّل جميلا، ونال من تَفَضُّل الجناب الكريم جزيلا .

ويُنْهِى ما حصل له من السُّرور بعافيـةِ مولانا، فالشكرُ لله علىٰ ماجَدّد من النِّعمة التامَّه، وسَمح به من الكرامة العامَّه ؛ حين أعاد البَـدر إلىٰ كَماله ، والسُّرورَ إلىٰ أتمّ أحواله ؛ وما كانتْ إلا غَلْطةٌ من الدَّهر فاستَدْركها، وصَفْقةٌ خارجةٌ عن يدهِ فَمَلَكها؛ فقَرَّتْ بذٰلك العُيون ، وتحقَّقت فى بُلوغ الأمل الظُّنون ؛ وآنجبَرَ قلبُـه بعدما وهَن، وعاد جَفْنُه بعد الأرَق إلىٰ الوَسَن ؛ وقال : ﴿ الحمدُ للهِ الَّذى أذهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ﴾ . ولقد كان يَتَمَنَّى المملوكُ لو فازَ من الرُّؤْية الشريفةِ بحظِّ السمع والبَصَر، وتَمَلَّى بمشاهدة وجْهه الكريم فإنَّ فيه البُغْيةَ والوَطَر .

والمملوك فمـا يَعُدّ نفْسَه إلا من المحبين الذين بذَلُوا نُفوسَهم لمحبته وأعَدُّوها ؛ والله تعالىٰ يَسُرّ الأولياء بتضاعُف سُعُوده ، ويُديم بهجةَ الأيَّام بميمُون وُجُوده ؛ ويُطيل

فى مدّته ويحرُسُها من الغِيَر، ويحرُس أحوالَ مِزَاجه الكريم علىٰ القـانُون المعتَبَر، ويَكْفِى أولياءَه ومحبِّيه فيه كلَّ مكروهٍ وحَذَر؛ إن شاء الله تعالىٰ .

من زهر الربيع :

ولمَّـا شَكَوتَ، آشتكىٰ كُلُّ ما * علىٰ الأرض وآهتزَّ شرقٌ وغربُ!

لِأنَّك قَلْبٌ لِجِسْم الزَّمانِ * وماصَحَّ جِسْمٌ إذا آعتَلَّ قلْبُ!

حرَسَ الله جَنابَه، وأسبَلَ عليه رِداءَ السعد وأثوابَه؛ ومتَّعه ببُرود العافية وجلبابها، وفتح له إلىٰ نَيْل السعادة سائرَ أبوابها؛ ومنَحه الكِفايَةَ والأمْنَ فى سِرْبه، والعافيةَ فى جِسْمه من قَلَق كلِّ مرَضٍ وكَرْبه؛ وجمع له بين الثَّواب والأجْر، وجازاه بجزيل الغُفْران عن جميلِ الصَّبْر .

المملوكُ يبَشِّر نفْسَه ومولاه بمـا مَنَّ الله به من صِحَّة مِزَاجه الكَرِيم، والإبلالِ من مرضٍ كاد يُدِير كُئُوس الحِمَام علىٰ كلِّ صـديقٍ حَمِيم؛ ويحمدُ الله علىٰ عافيتِه حمدًا جزيلا، ويشكُره عليها بُكرةً وأصيلا؛ فإنَّه قد عُوفِى لعافيتِه المجدُ والكَرَم، وزالَ عنه إلىٰ أعدائه الألَم؛ فالمولىٰ حفِظ الله(١) صِحَّته من السَّقَم، وحَمَاهُ من ألمَ ألمَّ؛ وجعل سعادتَه تتزايَدُ علىٰ ممَرِّ الأنفاس، وجسَدَه سالمـا من الأذىٰ كسلامةِ عِرْضه من الأدْناس؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وقىٰ اللهُ من الأسواء شَخصَه الكريم، وشَمْلَه النَّظِيم؛ وقلْبَ محبِّه الذى هو فى كلِّ وادٍ من أوديةِ الإشفاقِ يَهِيم .

---

(١) لعله حفظ الله على المولىٰ صحته الخ .

ولا زالتِ الصحةُ قرينَه حتّى لا يعتلّ فى منازله غيرُ مُرورِ النّسيم . ويصفُ شوقا يَزِيد بالأنفاسِ وَقْدا ، ويجدّد للأحشاءِ وَجْدا ، ويباشرُ القلبَ المُغْرَمَ فيمدّ له من عذاب الإنتظارِ مَدّا .

وينهى أنه جهّز هذه الخدمةَ نائبةً عنه فى ٱستجْلاءِ وجه أكرمِ الأحِبّه ، وتُصافِحُ اليَدَ التى أقلامُ كُتُبها فى شكوىٰ البِعادِ أطِبّه ، مبديةً إلىٰ العلم الكريم أنّه معَ ما كان يكابِدُه من الأشواق ، ويعالِجُه من خَوَاطر الإشفاق ، بلَغه ضَعْفُ الجسد الموَقّى ، وعارِضُ الألم الذى ٱستطار من جَوانح المحبّين بَرْقا ؛ فلا يَسْأَلُ الجنابُ الكريمُ عن قلْبٍ تألّم ، وصدْرٍ صامتٍ بالهُموم ولكنّه بجراح الأشجان تكلّم ، ولسانٍ أنشد :

ألا لَيْتَنِي حُمِّلْتُ ما بِكَ من ضَنًى * علىٰ أنّ لى منه الأذىٰ ولكَ الأجْرُ!

ثم لَطَف اللهُ تعالىٰ وعَجّل خَبَرَ العافية المأموله ، والصحةِ المُقْبِلة عَقِيبَ الدّعوات المقبوله ؛ فيالها مسَرّة شمِلتْ ، ومبَرّة كَمُلت ؛ وتهنِئة جمعتْ قلوبَ الأوِدّاء وجَمُلتْ ، وأعضاء فَدَتْها[1] عُيونُ المَهَا فنقَلَتْ عنها صِفاتِ السَّقام وحَمَلَتْ ؛ وعافِيَة حوّلتْ إلىٰ قلوب الأعداء المَرَض ، وجَوْهَر جسدٍ طاهرٍ زال [عنه] بأسُ العَرَض ؛ فهنيئاً له بهذه الصحةِ المتَوافِرة الوافيه ، والحمدُ لله ثم الحمدُ لله علىٰ أنْ جمع بين حُصُول الأجْرِ ووُصُول العافيه ، وعلىٰ أن حفِظ ذاتَه الكريمة وحفْظُها هو المقدّمةُ الكافيةُ الشافيه :

وتقاسمَ الناسُ المسرّةَ بينهم * قِسَماً فكانَ أجلُّهم قِسْما أنا !

واللهُ تعالىٰ يُسْبِغ عليه ظِلَال نِعَمه ، ويحفَظُه حيثُ كان فى نَفْسه وأهلِه وخَدَمه ؛ وكما سرّ الأحبابَ بخَبرِ عافِيَته كذلك يسُرُّهم بعِيَان مَقْدَمه .

---

(١) فى الأصل قيدتها ولا معنى له .

أجوبة التهنئة بالابلال من المرض والعافية

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجبُ أن تكونَ مبنيّةً علىٰ وصف الألَم وصُورته وما تفضّـل الله تعالىٰ به من إمَاطتِه ، وشكر المهنِّى بٱهتمامه وعِنَايَتِه .

وهذه أمثلة من ذٰلك :

من زهر الربيع :

أدام اللهُ نعمتَه ، وشكر مِنّته ، وأدالَ دَوْلَتَـه ، وأعلىٰ قدْرَه وكلمتَـه ، وختّم علىٰ الألسنة شُكْرَه والقلوبِ محبّتَه . ولا زالتِ التهانِى من جِهته وافِده ، والبشائرُ وارِدَه .

ويُنْهِى وُرودَ الكتاب الذى أعدّته يدُ المَعالى فعادَ كَرِيمـا ، وشاهدَ حُسْنَ منْظَرِه فصار وجْهُه وَسِيما ، وأنه وقَفَ عليه ، وأحاط عِلْما بكلّ ماأشار المَوْلىٰ إليه ، فذكّره أُنْسا كان بخِدْمتِه لم يَنْسَه ، وجدّد له وَجْدا ما زال يَجِدُ فى قلبه ونَفْسه عينَه ونفسه ؛ ونَشر من مآثِرِه المأثوره ، وفضائله المرقومةِ فى صَـفَائح الصّحائِف المسطُوره ؛ ماشنّف به وشَرّف ، وشوّق إلىٰ لِقـائِه وشَوّف ، وأقامَ البُرهانَ علىٰ ذَكِىّ فِطْنته ، وزَكِى فِطْرته ، وعلِمَ ماأنعَم به وتفضّل ، وأحسَنَ وتَطَوّل : من تهنئة الملوك بالإبلال من مَرَضه ، والبُرءِ من سَقَمه ، والتخلُّص من يدَىْ وجَعِه وألَمه ؛ وسُرّ بوُرودِ كريم مُشَرّفته ، أعظَمَ من سُرورِه بلِباس ثَوبِ عافيَتِه ، وبدَوامِ مَجْده وسعادتِه ، أكثَرَ من صِحّةِ مِزاجه وٱستِقامتِه : فإنّ مكارمَ المَوْلىٰ كالحدائقِ النّاضِره ، ومنزِلتَـه أعز فى القلوبِ من الأحداقِ الناظِره .

فالحمدُ لله الذى مَنّ بالعافية من ذلك المَرَض ، والداءِ الذى ألمّ بعرَضَيْه فاحتوىٰ منهما علىٰ الجَوْهَر والعَرَض ، وطالَ حتّى أسأمَهُ من نَفْسه وعُوّاده ، وآيَسه من الحياة

لولا لطف الله والله لطيف بعباده ؛ وهـذا ببركة المولى ودعائه الذى كان يرفعه ، والخواطر والأسماع مع بعد الشقة تشهد به وتسمعه ؛ جعل الله التهانى مع الأبد واردة منه وإليه، وشكر إنعامه وأتمّ نعمته عليه، إن شاء الله تعالى .

قلت : وكتبتُ للقرّ العلائى علاء الدين الكركى وهو يومئذ كاتب السرّ الشريف فى الدولة الظاهرية «برقوق» فى سلطنته الثانية، وقد برأ من مرض نظما :

أَفْدِيهِ مِنْ جَسَدٍ قدْ صحّ مِن سَقَم * فبَاتَ جَوْهَرُه خالٍ من العَرَضِ!

فاستَبْشَرتْ بعَلِىّ القَوْمِ شِيعَتُه * وماتَ حاسِدُه بالسُّقْمِ والمَرَضِ!

الضرب التاسع
(التهنئـة بقُرْب المَـزار)

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

قرّب الله مَزاره ، وأدنى جِوارَه ، وأعانَ أعوانَه ونَصَر أنصارَه . ولا زالت الأنفُس لقُربه مَسْروره ، وراياتُ مجدِه فى الملإ الأعلىٰ وأحزاب الإسلام بهيبته علىٰ اعداء الدّين مَنْصُوره .

المملوكُ يقبِّل الباسطةَ العاليةَ بسَطَ اللهُ ظِلَّها، وشكَرَ علىٰ الأولياء فَضْلَها . وينْهِى أنه اتّصل به طَيِّبُ أخباره ، وقُرْبُ مَزاره ، فتَضاعفَ شَوْقه، وتَزايد توَقُّه ، وهيَّجتْ صَبَابتُه لاعِجَه ، وسَهُلتْ إلىٰ نَيْل المَسرَّة طُرُقَه ومَنَاهِجه :

وأَبْرَحُ مايَكُونُ الشَّوقُ يَوْمًا * إذا دَنَتِ الدِّيارُ مِنَ الدِّيارِ!

فاللهُ يقرّبُ من أمَدِ التَّلاقِى بَعِيدا ، ويجعَلُ رِداءَ الاجتماع بخِدْمته قَشِيبا جَدِيدا .

الضـــرب العـاشر
(التهنئـــة بنزول المَنـازل المستجدّة)

فمن ذلك [من إنشاء] علىّ بن خلف :

أشرَفُ المَنازل رُقْعه ، وأتْرَفُها بُقْعه ، وأرفَعُها رفعـه ؛ ما اتَّخذه مولانا لنفسـه موْطنًا ، وجعله بنزوله فيه حرمًا آمنا ؛ وصيَّره بخِصب مكارمه للعُفَاة مَرادًا ومَقْصدا ، وبعُذب نوافـله للظُّماة مَشْرَعا وموْردا ؛ وللسُّؤدَد بمجده مَعْقلا ، وللرِّياسـة بشَرَفه مَنْزِلا ؛ والله تعالىٰ يجعلُ هذه الدارَ التى تديَّرها وحَلَّها ، وحطَّ بها رحْلَه ونزلها ، مأهولةً ببقائه ، آنسةً بسُبوغ نَعْمائه ، عامرةً بسعادته ، مَشيدةً بتناصُرِ عزِّه وزيادته ، لاتُخطِئُها حوائمُ الآمال ، ولا تتخطَّاها دِيَمُ الإقبال ، ويُعرِّفُه من بركتها ، ويُمْنِ عَتَبتِها ، مايقضى بامتدادِ الاجل ، وانْفِساح الأَمل ، وبلوغ الأمانِى ، واتِّصال التَّهانى ؛ بمنِّـه وكرمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنه قد اتَّصل بالمملوك تحوُّلُ مولانا إلىٰ المنْزِل المنْشَإ الجَديد ، ذى الطالع السـعيد ، والطائر الحميد ؛ فسألتُ الله تعالىٰ أن يُبَوِّئَه منه المُبوَّأَ الكَريم ، ويمتِّعه فيـه بالدَّعَة والنَّعيم ، والنَّمـاء والمَزيد ، والعَيْش الرَّغيـد ؛ ويجعَلَه واصـلًا لحبله ، مأهولًا بأهله ؛ ويعرِّفَه بركةَ عَتَبته ، ويُمَلِّيه بَبهائه ونَضَارته ؛ وحصل للمملوك السُّرورُ بأن بلَّغه الله الوَطَر ، فى سُكْنىٰ ماعَمَر ، وأناله الأمَل والالتذاذ بخِدْمته ، والسُّرورَ باقْتِضاض عُذْرته ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

مولانا ـ أمتع الله بوجوده ـ غنىّ عن الهَنَاءِ بمنْزِلٍ ينْزله ومَحَلٍّ يحُلُّه ، إذ الله سـبحانَه وتعالىٰ قد كَثَّر أوطانَه وآدُرَه ، وبلَّغه فى تمـامِ عِمارَتها وانفِساحها وطَرَه ؛

وخصَّه بأفضلها مَعَانا ، وأشرفها مَكَانا ؛ والمستوجبُ فى الحقيقة للهنَاء هو الموضعُ الذى آختاره دَارًا ، وآرتضاه مستقرًا ؛ وعرَف الملوكَ آنتقالَه ـ لازال يتنقَّلُ فى بُروج السَّعْد ، ويأوِى إلىٰ ظلٍّ ظليلٍ من المجد ـ إلىٰ الدار الفلانية لازالتْ جامعةً لشمْله ، مأنوسةً بأهْله ؛ فعدَلَ عن خِدْمته بالهناء ، إلىٰ إخْلاص الدُّعاء ، بأن يعرِّفه الله تعالىٰ يُمْنَها وبركَتَها ، ويُرِيه إقبالَها وسعادَتَها ، ويقْرُنَ تحوُّله إليها بأيْمنِ طائِر ، وأبركِ طالِع ؛ فإنَّ للحرَكات أوقاتاً محمودةً ومذْمومة : فإذا آعْتنىٰ اللهُ تعالىٰ بعَبْد من عَبِيده ، وفَرَضَ له نصيبًا من تأييده ، وفَّقه للحركة فى الزَّمن السعيد ، والوقتِ الحميد ، لتكُونَ مَصايِرُه مُشاكلةً لَمبَادِيه ، وأعجازُه مشابِهةً لهَوَادِيه ؛ والله تعالىٰ يجعَل بابَها محطًّا للقُصَّاد ، ومناخًا للوُفَّاد ، ومَزارًا للعُفَاه ، وملاذًا [للعُنَاه](1) ويصلُ بها حَبْله ، ويُنْشِى بها طِفْله ؛ ويضاعِفُ بآستيطانِها أُنْسه ، ويسر بتبوُّئِها نَفْسَه ، إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أسعدُ المنازِل وأشرفُ المواطِن ما آستَوْطنه أيده الله وتبوّاه ، وتخيَّره لنَفْسه وآرتضاه ؛ فغدا بشَخْصه وطَنَ الإقْبال ، وبفائِض كَرَمه حَرَمَ الآمال ؛ وبشَرفه للسُّؤدَد مَعْقِلا ، وبنُبْله للرِّياسة مَنْزِلا ؛ فعرَّفه الله يُمْنَ هذه الدارِ المعمورةِ بحُلُول البركات ، المحفوفةِ بتَناصُر السَّعادات ؛ وجعلها وكلَّ رَبْع يقْطُنُه ، ومحلٍّ يسكُنه ، مبَشِّرا بآمتدادِ بقائِه ، وآهِلاً بالزِّيادة فى نَعْمائه .

وله فى مثله :

كلُّ وطن يحُلُّه ـ أيده الله ـ ويقْطُنه ، ومحلٍّ يتخيَّره ويسْكُنه ؛ مقصودٌ بالشُّكر والثناء ، آهِلٌ بالحمدِ والدُّعاء ، لا يتخطاه مُتوارِدُ الآمال ، ولا تنْقطِع عنه موادُّ الإقبال ؛

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ولذلك صار هذا المنزلُ السعيدُ من فضائلِ الأرض ومحاسِنها ، ونُجَع الآمال ومَعادِنها ؛ فعرّفه الله يُمْنَه و بركتَه ، و إقبالَه وسعادتَه ؛ وقرن ٱنتقالَه إليــه بأسبَغ نِعْمه ، وأكمل سَلَامة وأبسط قُدرةٍ وأعلىٰ رُتْبه .

وله فى مثـــله :

عرّفه الله [من] بركةِ هذا المنزِل المَوْرود ، والفِناء المقصُود ، ما يُوفِى علىٰ سالف ماأولاه من تكامُل البركات ، وتناصُر السّــعادات ؛ وجعل مستقَرّه فيــه مقرونًا بنُمُوّ الحال ونتابُع الإقبال ؛ فى أفسَح المُدَد وأطولها ، وأنجح المطالِب وأفضَلِها ؛ وعمّر أوطانَ المكارم بإقباله (١) ، وعَضَد الأمانِىَّ بٱتّباع نَعمائه .

أجوبة التهنئة بقُرْب المَزار ، ونُزولِ المنازل المستجدّة

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هــذه الرِّقاع يجب أن تُبْنىٰ علىٰ الاَعتداد للمهنِّئ بتعهُّده ، والشكر له علىٰ تَوَدُّده ، والاَبتهاج بهَنائه ، والتبرُّك بدعائه ؛ وأن المستجدّ غير مبايِنٍ لمنْزِله ، ولا خارجٍ عن أحكام محله ، وأنّ تمــامَ بركته ، أن يُؤْنِس فيه بزيارته ؛ وما يشابه هذا .

الضرب الحادى عشر

(نوادِر التّهانِى ، وهى خمســـةُ أصــــناف)

الصنفُ الأوّل — تهنئـــةُ الذّمىّ بإسلامه .

فمن ذٰلك ماأورده أبو الحُسَين بن سعد فى ترسُّله ، وهو :

وما زالتْ حالُك ممثّــلةً لنا جميلَ ما وهبَ اللهُ فيك حتّى كأنّك لم تزَل بالإســـلام مَوْسُوما ، و إن كنتَ علىٰ غيره مُقِيما ؛ وقد كُنّا مؤمِّلين لِمَــا صِرْتَ اليه ، ومُشْفقين لك

(١) لعله بقبائه ليناسب السجع الذى بعده .

مما كُنْتَ عليه ؛ حتّى إذا كادَ إشفاقُنا يستعْلى علىٰ رجائنا، أتتِ السعادةُ فيكَ بما لم تزلِ الأنفُسُ تَعِدُ منك ، ونسألُ اللهَ الذى نوّرَ لكَ فى رأيك، وأضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك ؛ أنْ يؤهِّلك لصالحِ الأعمال، وأنْ يؤتِيَك فى الدنيا حسنَةً ويَقِيَكَ عذابَ النار .

ومن ذٰلك، من كلام أبى العَيْناء :

ولْتَهنِئْكَ نِعمةُ اللهِ عليك فى أُخُوَّة المهاجرين والأنصـارِ والتابعين بإحْسـانٍ ؛ والحمدُ لله الذى فوَّزَ قِدْحَكَ [وأ] علىٰ كَعْبك، وأنقذَ من النارِ شِلْوَكَ ، وخلَّصَكَ من لَبْسِ الشَّك، وحَيْرة الشِّرْك ؛ فأصبحتَ قد آستبدلتَ بالأدْيارِ المساجد، وبالآحادِ الجُمَع ؛ وبقِبْـلة الشام ، البيتَ الحَرَام ؛ وبتَحْريف الإنجيـل ، صِحَّةَ التـنزيل ؛ وبأوْثانِ المشركين ، قبلَةَ الموحّدين ؛ وبحُكْمِ الأُسْقُفِّ رأسِ المُلْحدين [حكمَ] أميرِ المؤمنين وسيِّدِ المرسلين؛ فهنّاكَ الله ماأنعمَ به عليـك، وأحسَنَ فيه إليك ؛ وذكَّركَ شُكْرَه ، وزادكَ بالشُّكْرِ من فَضْله .

أجوبة التهنئة بإسلام ذمىّ

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تكونَ مبنِيَّةً علىٰ شكرِ المهَنِّئِ للهنَّىء، وآعترافِه بنعمةِ الله تعالىٰ عنده، وآبتهاجِه بممازَجتِه فى الدِّين، الذى جعلَ اللهُ أهـلَه إخوانًا متصافِين، وخُلّانًا متوافِين، ومَنَّ عليهم به، وبإماطةِ الحسائِف[1] من قلوبهم، ونحو هذا .

الصنف الثـانى ــ التهنئة بالخِتَان وخروج اللِّحية .

فن ذلك تهنئةٌ لأميرٍ بخِتَان ولَدَيْن له :

فمن خَصائص ما حَبَاه اللهُ بعدَ الذى قدّم له فى نَفْسه ــ نفَّس الله مُدّتَها ؛ ووسَّع له مُهْلتها، وأفنىٰ الأعدادَ دُونَ فَنائها، والأعمارَ دُونَ تصرُّمِها وآنتهائِها : [من] الفَضائل

(١) الحسائف جمع حسيفة وهى الضغينة والسخيمة أنظر اللسان فى ج ١٠ مادة ح س ف .

المشهوره، والمحاسن المذكوره، والمناقب المأثوره، وأقسام الفضل الذى ينقضى دُونَ تصرُّم(؟) منازله وصْفُ الواصف إذا أفرط، وينتهى دون أيسرها أملُ الآمل إذا اشتطّ — ما وهبَ اللهُ له من أولادٍ سادةٍ فضَّلهم فى الأخلاق والصُّوَر، وأكملهم فى الأجسام والمِرَر، وقدمهم فى العُقُول والأفهام، والقرائح والألباب، ولم يجعل للمعايب فيهم سمه، ولا للإناثِ بينهم شركه؛ حتّى يكون مسلَّما لهم قصبَ العُلا والمَفاخر، وصُدُورَ الأسِرّة والمَنابر، من غير منازِع، ولا مُقَارع، ولا مُساهِم، ولا مُقاسِم، وزادهم من النّماء فى النَّشْء والبركة واليمن بما يُؤذِن الحاضرُ منه بالغابر، ويدلُّ البادِى علىٰ الآخِر، وعْدًا من الله تعالىٰ ذكره لهم بأوْفىٰ السعادات، وأكمل الخيراتِ وأعْلىٰ الدَّرجات؛ أرجو أن يجعل اللهُ النُّجْحَ قرينَه، والنجاةَ ذَريعتَه، وما أَوْلاه فيهم فى هذه الحال الحادثةِ التى يَعْدق الله بها أداءَ الفريضة، وكمالَ الشريعه، ويقع التطهيرُ بالختان، الذى جعله الله من شُروط الإيمان، وفرَضَه علىٰ جميع الأديان: من السّلامة علىٰ عِظَم الخطَر، وشِدّة الغرَر، فى إمضاءِ الحديد علىٰ أعضاءٍ ناعمه، وإيصال الألَم إلىٰ قلُوبٍ وادِعة، لم تُقَارِعْ نَصَبا، ولم تُعانِ وَصَبا، وآجتمع فيه إلىٰ رقّة الصِّبا، وضَعْف الأَسْر والقُوىٰ، آعتيادُ الرحمه، ومخالفةُ الترفُّه والتنقُّل بين الشهوات، علىٰ أن كلّ واحد من الأميرين شَهِد المعْرَكة أعزَلَ حاسِرا، وباشر الحرْبَ مغترّا مُخاطرا، فثبت لوَقْع السِّلاح، وصَبَر علىٰ ألَم الجراح، وأبلىٰ بَلاءَ الفارس المُدَجَّج، والكَمِىّ المقنَّع، ثم خرج خُروجَ شِبْل الليْث، وفرخ العُقاب، كالقِدْح المُعلَّى والشِّهاب الساطع، والنَّجْم الثاقب، وكان فلان أكثرَهما تغيُّرا فى وجه قِرْنه، وسطْوةً علىٰ مُنازِله، وكلٌّ قد حصّل فوق الخصْل، وحوىٰ فضيلةَ السَّبْق، وآستحقّ آسمَ البأْس والشّدّه، وحِلْيةَ البَسالة والنّجْده.

ومن ذلك ماأورده أبو الحسين بن سعد فى كتابه :

الحمدُ لله الذى كَسَاك بالَّحيــة حُلّةَ الوَقار ، وردّاك رِداءَ ذى السَّمْتِ من الأبرار والأخْيار ، وصانَكَ عن مِيَسم الصِّبا ، ومَطامع أهــل الهوىٰ ؛ بمـا جَلَّلك من اللحية البهيّه ، وألبَسَك من لِباسِ ذَوِى اللُّبّ والرّوِيّه ؛ وألحقَك فى متصرَّفاته بمن يستَقِلُّ بنفسه ساعِيا ، ويستغنِى عمّن يصحبه حافِظا ؛ وجعل ماجَمَّل من صُورتك ، وكَمَّل من أداتك وآلَتِك ، قِرنًا لمن جاذَبك ، وخَصْمًا لمن نازَعَك ؛ ونفىٰ عنك ذِلّةَ الاحتِقار ، من أهل المَراتِب والأخْطار ؛ تستوِى [بهم] فى المجالس الحافِله ، وتجرِى مَجْراهم فى المَشاهد الجامعــه ؛ مسمُوعا قولُك إذا قُلت ، ومُصْغًى إليك إذا نطَقت ؛ آمنًا من آنصراف الأبصار عنك لقُرْبِ وِلادك ، ومن [عدم] الاستماع لحديثك لقِلّة الثِّقة بسَدَادك ؛ وجاريًا مَجْرىٰ كَمَلة الرجال علىٰ الجمله ، إلىٰ أن يكشفَ اللهُ مَخَابِرَك بالمِحْنه ؛ وتعطىٰ المَهابةَ من الدّاعِر العادِى ، ومن السَّبُع الضارى ؛ ولو كان عاريًا من هذه الكُسْوة الشريفه ، والحِلْية الملحُوظه ؛ لسبقَتْ إلىٰ الازدراء بالأعين ، والاستِصغارِ بالقلوبِ والألْسن ؛ أصنافُ الحيوان : من البهيمة والإنسان ؛ ثم لا يُحِسُّ من نفسه قوّةً علىٰ الدَّفع عنها ، ولا من صرعته ثباتا(؟) علىٰ يدها فيه . وتلك نعمةٌ من الله جل وعزّ حَبَاك بمرتبتها فى جَمَال غَشَاك[1] ، وكَمالٍ أتاك ؛ فَلْيُصدِّق بها آعترافُك وشكْرُك ، وليحْسُن ثناؤك ونَشْرُك ؛ قضاءً لحق الله عليك ، وآستِدْرارا فى المزيد من إحسانِه إليك .

الصنف الثالث ـ التهنئــة بالمــرض .

أبو الفرج الببغاء :

فى ذِكْر الله سيدى بهذا العارِض ـ أماطه اللهُ وصَرَفه ، وجعل صحةَ الأبَد خَلَفه ـ مادلّ علىٰ ملاحظته إيّاه بالعناية ، إيقاظًا له من سِـنَةِ الغَفْلة ؛ إذ كان تعالىٰ لا يُذَكِّر

(١) غشى فلان فلانا أتاه كغشاه يغشوه . قاموس .

بطُرُوق الآلام، وتَنْبِيه العِظَات ، غَيْرَ الصَّفْوة من عِبَاده، الخِيرَة من أوليائه ؛ فهَنَّاه الله الفوزَ بأجرِ مايُعانيه ، وحَمَلَ عنــه بألْطافه ثِقْلَ ماهُو فيــه ؛ وأعقَبَ ماآختَصَّه من ذَخائر المَثُوبةِ والأجْرِ بعافيةٍ تقْتَضِيه؛ ولاسلَبَ الدنيا جمالَ بَقائه، ولا نَقَلَ ظِلَّه عن كافَّة خَدَمِه وأوْليائه .

الصنف الرابع — التهنئة بالصَّرْف عن الوِلَاية .

أبو الفرج الببغاء :

مَنْ حَلَّ مَحَلَّه — أيده الله تعالىٰ — من رُتَب الرِّياسة والنُّبْل ، كان معظَّما فى حالتَي الولاية والعَزْل ، لايقْدَح فى قَدْره تغيُّر الأحوال، ولا ينقُله عن موْضِعه من الفضل تنَقُّل الأعمــال ، إذ كان آستيحاشها للفــائت مِنْ بَركات نَظَره، بحسَبِ أُنْسها كان بمــا أفادَتْه من محُود أثَرِه . فهَنَّاه الله نعمةَ الكِفاية ، وأوزَعَه شكْرَ ماآحتــازه من النَّزاهــة والصِّــيانه ، ولا أخْلاه من التوفيق فى سائِرِ متَصَرَّفاته ، والخِيرةِ الضامنــةِ لعَوَاقب إراداته .

وله فى مثـــله :

لَو كانــ لمستحْدَث الأعمال ومســتَجِدِّ الولايات زيادةٌ علىٰ ماآختصَّــك به من كَمال الفَضْل، ومأْثُور النُّبْل، لحاذرنا آنتقالَ ذٰلك بآنتقالِ ما كنْتَ تتولَّاه بمحمود كِفايَتِك ، وتحوُطُه بنواظر نَزاهتك وصِيانَتِك ؛ غير أنَّ الله تعــالىٰ جعلك بالفضــل متَقَمِّصا، وبالمحامِدِ متَخَصِّصا ؛ فالأسَفُ فيما تَنْظر فيه عليك لامِنْك، والفــائدةُ فيما نتقَلَّده بك لالك ؛ ولذٰلك كُنْتَ بالصَّرف مهَنَّأ مسْرورا، كما كُنْتَ فى الولاية محمودًا مشكورا ؛ فلا أخْلاكَ اللهُ من تَواصُــل آلائه، وتظــاهُرِ نَعْمائه ؛ فى سائرِ ما تُبْرِمه وتُمْضِيه، وتعتَمده وترْتَئِيه .

أبو الحسين بن سعد ـ عمّن تولّى عملًا إلىٰ من صُرف عنه :

قدقُلِّدتُ العملَ بناحيَتِك، فهنَاكَ الله تجديدَ ولَايَتِك، وأنفذْتُ خليفَتِي لخلافَتِك؛ فلا تُخْلِه من تبصيرك وهدايتك، إلىٰ أن يمُنَّ اللهُ بزيارَتِك .

تهنئة بصرف عن ولاية :

لو كانتْ رِياسةُ سيِّدى مجنيَّةً من عُرُوش الولَايات، وسيادتُه خارجةً عن سانِح التصرُّفات، لأشفقَ أولياؤُه من زوالها بزِايلَتِهما، وحَذِرُوا من آنتِقالها بنَقْلهما؛ لٰكن ماوُسِم به من الكمال، وعَلَا به من رُتَب الجَلَال ؛ موجُودٌ فى غريزته وُجودَ الفِرِنْد فى السيفِ المأْثور، واللَّألاء فى النور؛ وإذا تَصرَّف،أورد الله الرعيَّةَ من مَشارِعها نِطَافا ، وأسبغ عليهم من ظِلِّها عِطَافا ؛ وإذا آنصرف نخيرٌ مُسْبَلٌ تقلّص، وعيشٌ رائعٌ تنغَّص؛ والأسفُ علىٰ العمل السَّلِيب من حُلَل سياستِه الفاضله ، العاطِلِ من حِلىٰ سِيرتِه العادله ؛ ولهذا أصبح ـ أيَّده الله ـ بالعَزْل مبتَهِجا مسْرُورا ، كما كان فىالولاية محُودًا مشكُورا ؛وآنطلقتْ ألسنةُ أوليائِه ،فى هَنَائه ،بما وَهَبه الله من الرَّفاهِيَة والدَّعه ، وحَطَّه عنه منالأثقال المُقْلقه ؛ولا سِيَّما وقد علِمَ الخاصُّ والعامُّ أنَّ الأعمال إذا رُدَّت إليه ، وعُوِّل فيها علَيْه ؛ تَسلَّمَ المودع ودِيعتَه ، والناشدُ ضالَّتَه ؛ وإذا عُدِل فيها إلىٰ غيره تناولها تناوُلَ الغاصب ، وآستولىٰ عليها آستِيلاءَ السَّالِب ؛ فلا تزال نازعةً إلىٰ رَبِّها ، متطلِّعَة إلىٰ خِطْبِها ؛ حتّٰى تعودَ إلىٰ محلِّها ، وتَرجِعَ إلىٰ نَصْلِها ؛ واللهَ تعالىٰ أسال أن يقْضِيَ لمولانا ببُلُوغ الأوطار، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالصرف عن الولايةِ والخِدْمة

قال فى "موادّ البيان" : يجب أن تكون أجوبتُها مبنيَّةً علىٰ شُكر الاهتمام والاعتداد بالمشار له فى الأحوال، مع وُقُوع ما وَرَد من الخطاب المَوْقِعَ اللطيف ، وما ينتظم فى هذا السلك .

جواب مَنْ ورد عليه كتابُ من وَلِى مكانه فى معنىٰ ذلك .

فمن ذلك :

ما انصرفتْ عنّى نعمةٌ أُهديتْ إليك ، ولا خلوْتُ من كرامةٍ اشتملتْ عليك ؛ وإنّى لأجِدُ صَرْفِى بكَ ولايةً ثانيــه ، وحُلَّةً من الوِزْر واقِيه ؛ لمـا آمُلُه بمكانك من حميـد العاقِبة وحُسْن الخاتمه .

الصنف الخامس — تهنئــةُ من تزوّجتْ أمُّه بزواجها .

قد تقدّم فى أوّل المقالة الأُولىٰ فى حكاية حائِكِ الكلام مع عمرو بن مَسْعدةَ وزير المأمون(١)، أنه قال يُكتَب إليه :

أما بعدُ، فإنّ الأمور تجرِى علىٰ خلافِ مَحابِّ المخلوقين [والله يختار لعباده](٢)، فخارَ الله لك فى قَبْضِها [إليه؛ فإن القبور أكرم الأكفاء](٢) والسلام .

أبو الفرج الببغاء: وقد أمره سيفُ الدولة ابنُ حَمْدانَ بالكتابة فى معنىٰ ذلك امتحاناً له :

مَنْ سلَك إليــك ـ أعزَّك الله ـ سبيلَ الانبِســاط ، لم يستوْعِر مَسْلَكا من المخاطَبة فيما يحسُنُ الانقباضُ عن ذِكْر مثله . واتّصل بى ما كانَ من خبَرِ الواجبةِ الحقِّ عليك، المنْسُوبة بعد نِسْبتِك إليها إلَيْكـ وفَّر الله صيانَتَهاـ فى اختيارِها ما لَوْلا أنَّ الأنفُس تتناكَرُه، وشرْعَ المُروءة يحْظُره ؛ لكنتَ فى مثله بالرضا أوْلىٰ ، وبالاعتداد بمـا جدّده الله فى صِيانتِها أحرىٰ ؛ فلا يُسْخِطَنّك من ذلك ما رضِيَه وجوبُ الشَّرْع ، وحسَّــنه أدبُ الدِّيانة ، ومُباحُ الله أحقُّ أن يتّبع ، وإيّاك أن تكونَ ممن لمّـا عدِم اختياره تسخَّط اختيار القَدَر له ، والسلام .

---

(١) تقدم فى ج ١ ص ١٤٢ "وزير المعتصم" .

(٢) الزيادة ممـا تقدم فى ج ١ ص ١٤٥ .

النـوع الثـانى
(من مقاصـد المكاتبات التّعازى)

قال فى " موادّ البيان " : المكاتبةُ فى التعزيَة بالأحداث العارضةِ فى هذه الدنيا واسعةُ المجَال : لمـا تتضمّنهُ من الإرشاد إلىٰ الصَّبْر، والتسليم إلىٰ الله جلّت قدرتهُ، وتسليَةِ المعزّى عما يُسْلَبه بمشاركة السابقين فيه، ووَعدِه بحُسْن العِوَض فى الجزاء عنه؛ إلىٰ غير ذلك مما ينتظم فى هذا المعنىٰ . قال : والكاتبُ إذا كان جيِّدَ الغَريزة حسـنَ التأتِّى فيها، بلغ المراد . ثم قال : وحكمُها حكم التّهانِى من الرئيس إلىٰ المرءُوس ومن المرءوس إلىٰ الرئيس ومن النظير إلىٰ النظير .

ثم التعـزيةُ علىٰ أضْرُب :

الضـرب الأوّل
(التعـزيةُ بالابن)

أبلغُ ما كُتِب به فى ذلك ما كتب به النبيُّ صـلّى الله عليـه وسلم ، إلىٰ مُعاذِ بن جَبَل، معزّيًا له بابنٍ له مات، فيما ذكره أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله، وأبو جعفر النحّاس فى صناعة الكُتّاب، وهو :

«من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ مُعـاذِ بْنِ جَبَـل :

«سـلامٌ عليكَ، فإنّى أحمَـدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو »

«أما بعـد، فعظَّم اللهُ لكَ الأجْر ، وألهمَكَ الصَّبْر ، ورزَقَنا وإيّاكَ»

«الشُّكر . ثم إنَّ أنفُسَنا وأهلينا ومَوَالِينَا من مَوَاهِبِ الله السنِيَّة، وعَوارِفِه[(١)]»

---

(١) فى أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية .

«المستَوْدَعة ، تمتّع بها إلىٰ أجلٍ معدود ، وتُقبَضُ لوقتٍ معلوم ؛»
«ثم افترض علينا الشُّكرَ إذا أعطىٰ ، والصبرَ إذا ابتَلىٰ ؛ وكان ابنُك من»
«مَواهبِ الله الهنيّة ، وعَوارِفه[1] المستَوْدَعة ؛ متّعكَ به فى غِبطةٍ وسُرور ، »
«وقَبَضَه منكَ بأجرٍ كثير : الصلاةِ والرحمةِ والهُدىٰ إن صبرتَ»
«واحتسَبْت ؛ فلا تجمَعنَّ عليكَ يامُعاذُ خَصلتَيْن[2] إنْ يُحْبِطْ جَزَعُك»
«صَبْرَك فتندَمَ علىٰ مافاتَك ؛ فلو قَدِمْتَ علىٰ ثوابِ مُصيبتِك قد أطعْتَ»
«ربَّك وتنجّزتَ موعُودَه ، عرفتَ أنّ المصيبةَ قد قَصُرت عنه . واعلَمْ»
«أنّ الجَزَعَ لايَرُدُّ ميتا ، ولا يَدفَعُ حزنا ؛ فأحْسِن الجزاءَ وتنَجَّزِ الموعُودَ ؛»
«وليُذهِب أسَفَكَ ماهو نازلٌ بك فكأنْ قَدْ . »

من كلام المتأخرين :

تعزيةٌ بولد . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ ، وهى بعد الألقاب .

وأحسنَ عَزاءه بأعزّ فَقيد ، وأحبِّ حبيبٍ ووَليد ، وعوّضَ بجميلِ الصبرِ جوانحَه التى سُئِلت عن الأسىٰ فقالت : ثابتٌ ويَزيد . صدرَتْ هـذه المفاوضةُ تُهْدى إليه سلاما يَعِزُّ عليه أن يُتْبَع بالتعزيَه ، وثناءً يَشُقُّ عليـه أنْ يطارِحَ حمائمَ سَجْعه المُطْرِبةَ بحمائم الشَّجْو المُبْكِيَة المُنْكيه ، وتوضّح لعلمه وُرودَ مكاتبته المؤلمة ، فوقفْنا عليها إلا أنّ الدَّمعة ماوقفَتْ ، وخواطرَ الإشفاق عليه وعلىٰ مَنْ عنده طفَت حُرَقُها وما انطفَتْ ؛

(١) فى أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية .

(٢) أى فقد الثواب وفقد الولد . وإليه يشير من عزىٰ عمر بن عبد العزيز بابنه فقال :

وعوضت أجرا من فقيد فلا يكن * فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

وعلمنا ماشرَحه ولم يَشرح الصَّدْر علىٰ العادة - مِنْ وفاة الولد فلان، سقىٰ اللهُ عهدَه ولحْدَه، ونَضَّر وجهه وتغمَّد بالرِّضوان خالَه وخَدّه؛ ومابقِىَ إلاَّ التمسُّكُ بأسباب الصبر، والتفويضُ إلىٰ مَنْ له الأمر؛ والدُّنْيا طريقٌ والآخرةُ دارٌ ودِهْليزها القَبْر؛ وللمرء من تَثَبُّته وازع، والاجتماعُ بالأحِبَّة الراحلِينَ واقِع؛ إن لم يَصيرُوا إلينا صِرْنا إليهم، وإن لم يَقْدَمُوا فى الدار الفانية علينا قدِمْنا فى الدار الباقية عليهم؛ نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يجمَعَنا فى مستقَرّ رحمتِه، ويُحْضِرَنا مع الأطفال أو مع المتطفِّلين ولائمَ جَنَّته؛ واللهُ تعالىٰ يُدارِكُ بالصبر الجميل قلبَه، ولا يجمعُ عليه فقْدَ الثواب وفقْدَ الأحِبَّة .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

رزقه الله تعالىٰ ثَبَاتا علىٰ رَزِيَّته وصَبْرا ، وجعلَ له مع كلِّ عُسْرٍ يُسْرا ؛ وأبقاه مُفَدًّى بالأنْفُس والنَّفائس، وكان له أعظَمَ حافظٍ من نُوَبِ الدهر وأجلَّ حارس .

المملوكُ يُنْهِى علمَه بهذه النازلة التى فتَّتِ القلوبَ والأكباد ، وكادَتْ أن تُفَرِّق بين الأرواح والأجْساد؛ وأذالَتْ ذخائرَ العُيون، وابتَذَلَتْ من المَدامع كلَّ مَصُون؛ وأذابتِ المُهَج تحرُّقًا وتلَهُّبا ، وجعلت كلَّ قلب فى نارَي الأسىٰ والأسف متقلِّبا؛ وهى وفاةُ ولده الذى صَغُر سنُّه، وتزايَدَ لفقْده همُّ المملوكِ وحُزْنُه :

ونَجْلُك لا يُبْكىٰ علىٰ قَدْرِ سِنِّه * ولٰكنْ علىٰ قَدْرِ المَخِيلة والأصل!

وكان الأمَلُ يحدِّث بأنه يَشُدُّ لمولىٰ أزْرَه، ويشرَح بِرِّه صدْرَه؛ ويؤثِّل مجدَه، ويُبقِى الذكْرَ الجميل بعدَه؛ ففُقِد من بين أترابه، وذَوىٰ عند ما أينَعَ غُصْنُ شَبابِه؛ وغُيِّب مَنْظَرُه الوسيمُ فى لحده وتُرابه؛ وسيِّدُنا يعلم أنَّ الموتَ مَنْهَلٌ لابدّ من وِرْده(١)، وابْنَ آدم زَرْعٌ لابدّ من حَصْده؛ وأنَّ المنية تَشمَلُ الصغيرَ والكبير، والجليلَ والحقير،

(١) هو مصدر كالورود عن ابن سيده أنظر اللسان (ج ٤ ص ٤٧١) .

والغنيّ والفقير ؛ فينبغى له آستعمالُ صَبْرِه ، والاستبشار بمضاعَفةِ أجْره ؛ والله يمتعه بأهلِه وطُول عُمُره .

وله :

لَهْفِى وما لَهْفِى عليكَ بنـافعٍ! * كلّا ولا وَجْـدِى ولا حُرُقاتِى!
يامَنْ قَضَىٰ فقضَىٰ سُرورِى بعْدَه * وتحـدّرتْ أسَـفاً له عبَرَاتِى!
عُقَدُ التجلُّدِ حَلَّهـا فَرْطُ الأسىٰ * والقلبُ موقوفٌ علىٰ الحَسَرات!
لو كُنْتَ ممَّن يُشْترىٰ أو يُفْتَدىٰ * لفَـديتَ بالأرواح والمُهجاتِ!
كُنْتَ المُعَدَّ لنُصْرتى فى شِدَّتى * فقَضىٰ الحِمـامُ بفُرقةٍ وشَتَاتِ!
واللهِ لا أُنسِيتُ نَدْبَك والبُكا * أبدًا مَدىٰ الأنفاس واللَّحَظاتِ!
ويَسوءنى أن عِشْتُ بعدَك ساعة * أسَـــفا لفَقْدك ميِّتًا وحَياتِى.

أعظم اللهُ أجْرَ مولانا ومَنحه صَبْرا جميـلا، وأجرا جزيلا، وثنـاءً عريضَ الشُّقَّة لثبَاته علىٰ هـذه الفادِحة طَويلا ؛ وجعل هذه الرزِيَّةَ خاتمةَ الرَّزَايَا، وممحِّصةً جميعَ الذنوب والخَطَايا؛ ولاجَمَعه بعدها فى قُرَّة عين، ولاأورد محبوبًا شُغِف به قلبُه الكريمُ مَنْهلَ الحِمَام ولاسقاه كأسَ الحَيْن .

المملوك يقبِّل البِساطَ الذى مافَتِئَ لنَشر المَعْدِلة مبْسُوطا، وكلُّ أمل ببِرّه مَنُوطا .

ويُنْهِى إلىٰ العلم الشريف علْمَه بهذه المُصيبة التى أصابتْ فُؤادَكلِّ محبٍّ فأصْمَتْه، وطرقَتْ سمعَ كلِّ ولىٍّ فأصَمَّته ؛ وولَجَتْ كلَّ قلبٍ فأحرَقَتْـه صَبابةً وحُزْنا ، ومرّت علىٰ الصَّلْد فصَدَّعته ولو كان حَزْنا ؛ وهى وفاةُ فلان سقىٰ الله عهْدَه ، وأسكنَ الرحمةَ ثَراه ولَحْده؛ فشَقّ أسفًا علىٰ المفقُود جيبَ كلِّ جَنَان وطوىٰ الأكبادَ علىٰ جِراحها ، وحَسَّر الأجساد علىٰ أرواحها :

ومَا هِيَ إلَّا نَكْبَةٌ أَىُّ نَكْبَةٍ * أهاجَتْ سَـــعِيرًا فى الحَشَا يتلَهَّبُ!
فَلا جِسْـــمَ إلّا بالتحَـرُّق ذائِبٌ * ولا قَلْبَ إلّا فى الأَسىٰ يتقَلّبُ!
بَكىٰ كُلُّ جَفْنٍ مَصْرَعِ السيف فأعتدَتْ * عيونٌ علَيْه فى الأَبَاطِح تَسْكُبُ!
لقَـــدْ هال عُـــذَّالى بُكائِى تعجُّبا * وإنَّ بُكائِى بَعْـد فَقْـدِيه أعْجَبُ!
فلَو رَامَ قُسٌّ وَصْــفَ حُزْنِى ولَوْعتِى * لقَصَّر فى أوصافه حِينَ يُسْهِبُ!
فَواللهِ لا جَفَّتْ جُفُونِى مِنَ البُكَا * وإنْ زادَ عُذَّالِى العِتابَ وأطْنَبُوا!

ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعةَ يدعُو لمولانا فيها ويُعزِّيه، ويندُب فقيدَه بألسِنَة الأقلام ويبْكِيه؛ ويُبشِّره بمـا وعدَ الله الصابِرِينَ علىٰ مثل هــذه الرَّزِيَّةِ ويُسَلِّيه؛ فيالها نازلةٌ لجعتْ بغُصْنٍ رَطِيب، وقمرٍ يَرْفُلُ من الشَّبيبة فى ثوبٍ قَشِيب، وصَدَعتِ القُلُوبَ بفَقْدِ حبيبٍ وأىِّ حَبِيب:

والمــــوتُ نَقَّادٌ علىٰ كَفِّه * جَواهِرٌ يَختارُ مِنْها الجِياد!

وبعدُ، فالمملوك فى هــذه الرزِيَّة مشارَكَة كادتْ تُبايِنُ بينَ رُوحه والجَسَــد، وهو المُصِيب لهذه المصيبةِ ماتجِدُه الوالِهةُ علىٰ فَقْد الولَد؛ لايَستقرُّ به قَرار، ولا يُجِيه من يَدِ الحُزْن فِرار؛ دأْبُه البُكاء والعَوِيل، وحُزْنه العريضُ الطَّوِيل؛ فوا ضَــعْفَاه عن حمل هذا المُصَاب، ووا أَسَفاه علىٰ مُسافِرٍ لا يُنْتظَر له قدُومٌ ولا إيَاب؛ وواعَجَباه لِضِدَّين آجتمعا لوالده الكريم الجَنَاب!

تَخُونُ المَنَايا عَهْـدَه فى سَـلِيلِه * وتَنْصُره بَيْنَ القَوَارس والرَّجْل!

وعلىٰ كلِّ حال فهو أجْدَر من آستعانَ علىٰ هذه الحادثة بصَبْره، وشرحَ لمـا قد قُدِّر فَسِيحَ صَــدْره، وشكر اللهَ علىٰ حُلْو القضاء ومُرِّه؛ فـما كان إلا أحَدَ العُمَرين فُقِد نخلفه عُمَر، وثانِىَ القَمَرين أفَلَ فقام مَقَامه هلالٌ قَدِم من سَـفَر؛ وفى بقاء المولىٰ

مايُوجب التسليم للقَدَر والقَضاء، والشكرَ لله تعالىٰ فى حالتى الشِّدّة والرَّخاء، جعله الله فى حِرْز لايزالُ حَريزا مَكِينا ، وحِصْن علىٰ ممَرّ الأيامِ حَصِينا .

وله : أعظمَ اللهُ أجره ، وأطال عُمُره، وشرح صَدْره ، وأجزل صَبْره ، وسخَّر له دَهْره .

المملوك يُنْهِى أنه اتّصل به خبرٌ صدَع قَلْبه ، وسَرَق رُقادَه ولُبَّه ، وضاعف أسَفَه وكَرْبه ، وهو [موت] فلان تغمَّده الله برحمته ، وأهمىٰ عليه سحائبَ مَغْفرته ، وعامله بلُطْفه ، وجعل الخيرةَ له فى حَتْفه ، فشَقَّ ذٰلك قَلْبَه وعَظُم عليه ، وقارب لشديد حُزْنه أنْ يَصل إلىٰ ماوصَل المرحومُ إليه ، لٰكنَّه ثبّت نفْسَه وثبَّطها ، ورفع يدَه بالدعاء للولىٰ وبَسَطها ، وسأل الله أن يُطيلَ بقاءه ، ويُحْسِن عَزَاءَه ، ويَحْرُسه من أزَمَات الزمان ، فإنه إذا سلِمَ كان الناسُ فى السَّلامة والأمان ، ويجعلَه عن كل فائتٍ عِوَضا ، كما أصاره جَوْهرا وجعل غيْرَه من الأنام عَرَضا ، ولقد جلَّت هـذه الرزيَّةُ علىٰ كلّ جَناب ، ودخَل حُزْنُها إلىٰ كلّ قلبٍ من كلّ باب ، جعل اللهُ أجره للولىٰ من أعظَم الذخائر ، ومنَحه الحياةَ الأبديَّةَ التى لا تَنْتهِى إلىٰ أمدٍ ولا آخِر ، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـانى

(التعـــزية بالبنت)

من كلام المتقدّمين :

ابن أبى الخصال المغربى :

الشيخ فلان عَزَّاه الله علىٰ احتسابه ، وجعـل الثوابَ المرتقَبَ أفضـلَ اقتنائه واكتِسابه ، مُعزِّيه عن فِلْذة كَبِده ، ومساهمُه فى أرَقه وسُهْده ، والفاتُّ فى عَضُد صـبرِه الجميـلِ وجلَده ، فلان . فإنّى كتبتُه ـ كتب اللهُ لكم خيْرا يُذْهِب جزَعكم ،

وحَسّن مَنجاكم بالتفدّى الجميل ومَنْزعكم- عند ماوصلَنِي وفاةُ ابنتِكم المرحومة نفعها الله بإيمـانها، وتلقّاها برَوْح الجنّـة وريْحانها؛ وهى ـ أعزّك الله ـ وإن آلمكَ فقدُها، وأوجعكَ أنِ استأثرَبها لَحْدُها ؛ فليُعزّك عنها مُصابُنا بنبينا عليه السلام، وعلمُك بأنّا جميعًا بمَدْرجة الحِمَام؛ أتجِد علىٰ الأرض خالدا ، وقديمًـا ثَكِلنا وليدًا نَجيبا ووالدا ، فمَنْ خُلِق للفَناء، واختُلِس بمَرّ الساعاتِ والآناء، جديرٌ أن يتّعِظ بنفْسه ، ولا يحْزَنَ لذَهاب من ذهب من ذَوِى أُنْسه ؛فاحمدِ اللهَ عزّ وجلّ إذ رجّحتْ ميزانَك،وضَمِنتْ لك يومَ المَعاد جِنانَك؛ والله عز وجل يرزُقنا احتسابا جميلًا وصبْرا ، ويُؤنسك وقد اختار لك الصِّهر قَبْرا ، ويعظِّم لك ثوابا جزيلًا علىٰ مُصابك وأجْرا ؛ ويعُمّ فقيـدَتك بالرُّحمىٰ، ويسْكُب علىٰ جدَثها مُزْنَها الأوكَفَ الأهْمىٰ، ويُؤويك إلىٰ كَنَفه الأعظم الأحْمىٰ؛ بمَنّه ورحمته، لا ربّ غيره ؛ والسلام عليك ورحمةُ الله وبركاته .

الضــــــــرب الثـالث

(التعـــزية بالأب)

من كلام المتقدّميـــن :

ابن أبِى الخصال معزّيا بوزير :

ياسيّدى وواحدى، ومَحلّ الإبن المبْرور، والأخِ المشْكور، عندى؛ أعزّك الله بالتقْوىٰ،ورَضّاك بما قَضىٰ، وأمدّك بالنُّعمىٰ،وشَمِلك بالحُسْنىٰ؛ كتبته ـ أعزك الله ـ وقد وصلَ كتابُك الكريم بما نفذ به القَدَر الذى هو فى العِباد حَتْم ، وله فى كلِّ عُنُق خَتْم ؛ فى الوزيرِ الفقيهِ الشهيد أبيك كان، رحمه الله وأكرم مَثْواه، وجعل الحُسنىٰ التى أعدّها لأوليائه مَقرّه ومأْواه؛فاسِفْتُ كلّ الأسَف لِفقْدانه، وقد كان عيْنَ زمانه،

وعُمدةَ إخوانه ؛ تغمَّده الله بغُفرانه ، ونقـله إلىٰ رِضْوانه ؛ وتلك ـ أعزك الله ـ غايةُ الأحْياء، وسبيلُ الأعداء والأحِبَّاء ؛ كان علىٰ ربِّنا ـ جلّ وعلا ـ حَتْما مقْضيّاً ، ووَعْدا مَأْتِيّاً ؛ والأسوةُ ـ أعزّك الله ـ فى غَمْره القَضْفاض ، وبِرّه الفَيّاض ، وأنه خُتِم له بالخير والاَنْقباض ؛ وكان آخرَ ذٰلك [الحسب] القَديم ، والجيل الكريم ؛ وقد أمَرَكَ الخير فافعَلْ ما أُمِرت به وكُنْ كما ظَنّك وقَدّرك وتَركك ؛ وإنك بفضل الله تَسُـدّ مَسَدّه ، وتبلُغ فى كل فضيلةٍ حُضْرَه السابقَ وشَدّه ، وتُعِدُّ للأيام من الجِدِّ والاَعتزام ماأعدّه ؛ وإخوتُك ـ أعزك الله ـ لك أظْهـارٌ وأعْضاد ، وفيهـم غَرْزٌ ومُضَـادّ ؛ فآشتَمِلْ عليهم ، وآرْفُق بهم ؛ فإنهـم يُنْزِلُونك منزلةَ أبيهم ، وتَجِدُ أخلاقَه وعَوْنَه فيهم ؛ وأما ماأعتقِدُه من تكريمك ، وأراه من تفضيـلك وتقديمك ؛ فشىء تَشْهَدُ به نفْسُـك ، ويُدْرِكه يقينك وحَدْسُك ؛ أشدّ به آعتناء ، وأجمـلُ له آستواء ، وأوفى عنك رِدءا وغَنَاء ؛ جعلنـا الله من المتحابّين فى خلاله ، والمتقلّبين فى ظِلاله ، وأمّننا من الزمان وآختلافِ أحوالِه ؛ بمنّه والسلام .

الضـــــرب الرابع

(التعـــزيةُ بالأم)

أبو محمد بن عبد البر المغربى :

مَا ماتَ مَنْ أنتَ بعْـدَه خَلَفٌ * والكُلُّ فى البعضِ غيرُ مُمتنِـع !

كتب عبدُه القِنّ ، من الأسىٰ لأجله بعضَ ما يُجِنّ ؛ المُنْطوِى علىٰ قلبٍ تطْمَئن القلوبُ سُلُوّاً ولا يطْمَئن ؛ فلان : بعدَ وصول كتابِه الكريم بصَدْعٍ يُصْمِى القُلُوب ، ويَقُدُّ أقوياء الجُيُوب ، ويتركُ الأحبابَ مصَرَّعين علىٰ الجُنُوب ، فوقَفَ العبدُ عليه مترقْرِقَ المَدامع ، متحرّق الأضَالـع ، رانيًا سامِعًا بَجَا الأبصارِ وأسىٰ المسامع ؛ فياأسفِى

لخطب ضَعْضَع رُكْن الِجدّ وكان وَثيقا ، وصَوَّح روضَ الفضل وكان وَرِيقا ، ونقّص حَسَنَ الصبر ولم يزَل صَديقا ، وترك العبدَ خليقًا بهذا القول ومثله معه حَقيقا ، فآهٍ لدينٍ ومروءة فُقِدا فى قَرَن ، وعلىٰ صونٍ وعَفَاف أُدرِجا فى كَفَن ، وحَصَانٍ رَزَانٍ لا تُعرفُ بوَصْمة ولا تُزَنّ ، لقد أَصَمّ بها النـاعى وإن كان أسمع ، وأرّق ماشاء الفؤادَ وأراقَ المدْمَع ، ولم يُبْقِ قلبا للصبْر إلاصَدَعه ، ولا أنفا للسُّلُوّ إلا جَدَعه ، ولا بابا للتعزِّى إلّا أرتجه ، ولا عَقِيا للتأسُّـف إلا أَنْتجه ، ولو قُبِـل فى الموتِ فِدًا وصَحّ أن يؤخَذَ فيه فِداءٌ لمـا خَلَص إليكم ولا ألَمّ ، ولا عَدَاكُمْ فى صُروف المَنـايَا المخيفـة مَسلَمْ ، لكن أبىٰ الله إلا أن تَعُمّ الحُرَقه ، وتستولىَ علىٰ الوقت الفُرَقه .

الضـــــرب الخامس

(التعـــزية بالأخ)

أبو محمد بن عبد البر :

وكتبتُ والأنْفُس مرتَمِضه ، والعينُ غيرُ مغتَمِضه ، والانفاسُ تتصعَّد ، والأحزانُ تتأكّد ، أسَـفًا لمُصاب الذى عَمّ وغَمّ ، وأسمعَ نَعيُه فأصَمّ ، وقال للفرح : كُفّ من عِنَانك ، وللتَّرَح آنتظرْ لأوَانك ، بوَفَاة [الفرد] الذى فى رأسه نُور ، وسَدَاد الآراء المختلفة وسِـدَاد الثُّغور ، والفَــذّ الذى شَهِد الرجالُ بفضله ، وعَقِم النساءُ فـا تَجِىء بمثله ، أبى فلان صِنْوِكم ، السابِق الذى لا يُجارىٰ ، والشارِق الذى لا يُسارىٰ ، والغيث الذى عَمّ المُنِيـل والمستَنِيل ، والليث الذى ورَدَ الفُراتَ زئيرُه والنِّيل ، فإنّا لله وإنّا إليـه راجِعُون ! تسليماً للقَدَر وإنْ ساء ، وشَمَلَ المرءُوسين والرؤساء ، فيالَهُ مُصاباً ترك كلّ رأس أميماً ، وأودعَ صميمَ كلّ فؤاد ثُكلا صَمِيما ، لقـد أنصلَ السُّمْرَ اللّهاذم ، وأغمدَ البِيضَ الصَّوارِم ، وعطّلَ الكتائبَ والمَقَانب ، وأوحشَ المَفاوِزَ والسَّباسِب ، ولم يُبْقِ مَشِيدَ

عُلًا إلا هدّه، ولا مَديدَ ثناء إلا صدّه؛ ولِمَ لا وهو الشخص يموت بموته بشر كثير، ويَبكيه قلمٌ وحُسام ومِنبَر وسَرير؛ وعندَ الله نحتَسِبه جميعا، ونُوسِعُه بمحْض الصَّفاء وصَفْو الثناء تَوْبيعا وتَشْييعا، ونُفارِقُه فِراقَ الصَّدْر خَلَدَه، والمُصابِ جَلَده؛ فَوَاأسفىٰ لِرُزْئه ما أَقْطَعَه مَوْقِعا! وواحَرَبا ليومه ما أظلَمَه مَطْلَعا! وواحَزَنا لنَعْيِه ما أشْنَعَه مَرأَى ومسْمَعا!!! فلئن جَرَتِ الدموعُ له دِما، وأضمرت الضلُوعُ به مُضْطَرما؛ لما أدّت حقّه ولا كَرَبَتْ، ولا دانتْ بعضَ الواجب فيه ولا اقتربَتْ؛ ولولا أنَّ المنيّةَ مَنْهَلٌ لا يُحَلّأُ وارِدُه، ومَعْلَمٌ يَهْدِىٰ إليه علىٰ أهدىٰ سَمْتٍ مُباعِدُه؛ لم يبقَ فى أُنسٍ مَطْمَع، ولا لِحُزْنٍ مستَدْفَع، ولكان الثاكلُ غيرما ترىٰ وتَسْمَع؛ وما أنتم أيُّها الشيخ المكَرَّم ممن يُنَبَّه علىٰ ذُخْرٍ من العمل الصالح، يكْتَسِبُه، وصبرٍ فى الرُّزْء الفادح، يحتَسِبُه، فصبْرًا فالمَنُون غايةُ المُمْسِين والمُصبِحين، والنبأ الذى يُعْلَم ذَوْقًا ولو بعد حين؛ وهو تعالىٰ المسئُول أن يرْقَع بمكانكم هذا الخَرْق المتَّسِع، ويصل بحنايكم ذلك الشَّمْل المنْصَدِع .

ابن أبى الخصال :

الشيخ فلانٌ أبقاه الله يتَلَقّى الأرزاء بحُسْن الصبرِ، وجميلِ الاحْتِساب، ويتقاضىٰ بالتعزى مرتَقَب الأجر، ومُنْتَظر الثَّواب، مُعزِّيه فى أخيه الكريم علينا، العظيم مُصابُه الفادحُ لدَيْنا، فلان : فإنى كتبْته - كتبَ الله لكم صَبْرا تجِدُون ذُخْره، وأوجب لكم عَزاء تَحْمَدُون يوم القيامة شأْنَه وأمْرَه - عنْدَ ما وصل من وفاة الشيخ أبى فلانٍ أخيكم رحمه الله تعالىٰ ما كدَّر العيشَ ونغَّصه، وجَشَّم جُرَعَ الحِمَام المَقْطُوعةَ وغُصَصَه؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعُون!! استِسْلامًا لقَدَره وقضائه، وأخْذًا فيما يُدْنِى ويقَرِّب من إرْضائه؛ وما نحنُ إلا بَنُو الأمواتِ الذين دَرَجُوا، وسَنَخْرُج من الدُّنيا كما قبْلَنا خَرَجُوا، جعلنا اللهُ جميعًا ممن ينظُر لمَعَاده، ويجعلُ التقوىٰ خيرَ ما أوْعاه بجداده؛

وسلكَ بنا نَهجَ هدايته وطريقَ رَشاده . وهو جلَّ وعلا يُجزِل لكم على مُصابكم ثوابا عَميا موفُورا، ويجعلُ فقيدَكم بين أيديكم فى يومِ القيامةِ نُورا، ويُلقّيه فى دار الفِردَوْس مُلْكا كبيرا وحُبُورا؛ ولولا كذا لسِرْت إليكم لأُعَزِّيَكم شِفاها، وأحدّثكم عن ضُلوع أحرقَ هذا المصابُ حَشَاها؛ لكن امتثالُ أمره المُطاع، حملَ على البِدَار إلى ما أمَرَ به والإسراع؛ والله عزّ وجل يُديم لنا بكم الإمْتاع، بمنّه وكرمه، والسلام .

الضـــــرب السـادس

(التعــزية بالزوجة)

من كلام المتقدّمين :

أبو محمد بن عبد البر :

وقد تقرّرَ عند ذَوِى الألباب، وثبَتَ ثُبوتا لا يعلَّل بالارتياب، أنَّ الدنيا قنطَرةٌ دائره، ومَعْبَرة إلى الآخره، وأنَّ ساكنَها وإن طال عُمْره، وطار فى الخافقَيْن أمْرُه، لَديغ سَمِّها، وصريع سَهْمِها، فما تُضحِك إلّا لتُبكِى، ولا تُؤنِس إلا لتُنكِى؛ وقد نفَذَ القَدَرُ الذى ماله رَدّ، ولا منه بُدّ؛ بوفاةِ فلانةَ ألحقها الله رضوانَه، وأسكنها بفَضْله المرجوّ جِنانَه؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!! تأسِّيا بالسَّلَف الصالح، وتسَلِّيا عن ماء الدَّمع السَّافح، وزَنْد القلب القادِح . وعندَ الله نحتَسِبها عقيلَةً معدُومةَ المَثِيل، مفقُودةَ الدِّين والعِفّة فى هذا الجيل؛ متحلِّيةً من دُعاء الفُقَراء، وثَناء الصُّلَحاء، بالغُرّة الشادخة والتحْجيل؛ لقد ذهَبَ لذَهَابها الرِّفق والحَنَان، وعُدِم لعَدَمها الشِّيَم البَرّة والأخلاقُ الحِسَان؛ وإنّ فقْـدَها لحَرق لايُرقَع، وغُلّة لاتُنقَع، وخَطْبٌ لايَزَال الدهرُ يُتذَكَّر فيَصْـدَع، ولولا العِلْمُ بأن اللَّحاقَ بها أمرٌ كائن، وأن المخلّف فى الدُّنيا لا محالةَ عنها

بائن ؛ وأن التنقّل للآخرة مالانفكّ نسمعُه ونُعاين، لَمَا بقيتْ صُبابةُ دمْع إلا ٱرفضّتْ، ولا دِعامةُ صَبْر إلا ٱنقضّت ؛ ولكانَ الحُزْن غيرماتَسْمَع وترىٰ، والوجدُ فوقَ مايَجْرِى وجَرىٰ، لٰكنْ لامعنىٰ لحُزن لما يقَعُ فيه الاشتراك، ولا وجْهَ لأسَف علىٰ مالايصحُّ فيه الاستِدْراك . وما أنتمْ بحمدِ الله ممن يُذَكَّر بما هو فيه أذْكَر، ولا ممن يُنَبَّه علىٰ ما هو بالتنبيه عليه أخلَق وأجْدَر ؛ ولولا أنَّ التّعازِىَ بما اطّرد به العمَل ، وسَنّة الصالِحُونَ الأُوَل ، لما سُلِك سبيلُه معَكم وأنتم ممن قَدَر الأُمورَ قَدْرَها ، وعلم أنّ الحياةَ ولو طالت فالموتُ آخِرَها ؛ وإذا لم يكُنْ من الموت بُدّ، ولم يَمْنَع منه صَدٌّ ولا سَدّ ؛ فالصبر خيرٌ من الجَزَع، وأدلُّ علىٰ كرم المَنْحىٰ والمَنْزَع، وأحْرىٰ بأن يكون الثوابُ جَزِيلا ، والجزاء حَسَنا جميلا ؛ والله يبقيكم أتمَّ البقاء، ويرَقِّيكم أتم الارتقاء .

ابن أبى الخصال :

الشيخ الأجلُّ فلان ـ آنسَ اللهُ وَحْشَتَه ، وجدّد علىٰ فَقِيدته رحمتَه . معَزّيه عن أهله الهالكةِ وسَكَنه ؛ ومساهِمُه بأوجَبِ حُزنٍ فى القلوب وأسْكَنِه . فلان : فإنا كتبْناه عن دُمُوع تَصُوب وتَنْسَرِب ، وضُلوع تخْفق من وَجِيبِها وتضْطَرِب ، وأُنْس يَشْرِدُ منا ويحتَجِب، بموت فلانة رحمها الله التى أودعَتْ فى جَوانحنا من الثُّكْل ماأودعَتْ، ورضَّتْ أكبادَنا بمُصابها وصدّعت، عَزّانا الله جميعًا فيها، وأوْلاها نعيمًا فى الفِرْدوسِ الأعلىٰ وترْفِيها، وأعقَبَنا من الوَحْشة أُنسا، وعَمَر بالرُّحمىٰ جَدَثًا مباركا ورَمْسا ؛ وجعلَنا كُلًّا ممن يَرْدَع عن الانحطاط إلىٰ الدنيا نَفْسا، بمنّه وكرمه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

لمَّا علم مملوك المجلس السامى أطال اللهُ بقاءَه، وأعظَم أجْرَه وأحسن عَزَاءه، وفاةَ السيدة المرحومةِ سَقَىٰ الله عَهْدَها عَهْدا يبُلُّ الثَّرىٰ ، وجعل الرحمـةَ لمن نزلَتْ به لها القِرىٰ؛ تألَّمَ لفقْدِها غايةَ الألَمْ، ووجد حُرْقةً كَسَتْه ثوبَىْ ضَنًى وسَقَم؛ وحُزْنا لا يعبِّر عنه بعبارةِ بَيانِه، ولا يستوعِبُ وصفَه بلسانِ قلمِه وبَنانِه :

ولَوْ كانَ النِّساءُ كَمَنْ فقَدْنا * لفُضِّلتِ النِّساءُ علىٰ الرِّجالِ!

والمَولىٰ أولىٰ من عَزَىٰ نفْسَــه، وآستحْسَن رِداءَ الصبرِ ولُبْسَه ؛ وعلِمَ أنَّ الموت غريم لا يُنْجِى منه كثْرةُ المِطَال ، ولا يُدَافَع بالأطلاب والأبْطَـال؛ وأنه إذا طالب بذِمَّة كان ألدَّ الخِصام، وإذا حارب فعلَ بيدِه مالا تفعَلُه الكُماةُ بحَدِّ الحُسَام .

الضـــــرب السـابع
(التَّعازى المطلَقةُ ممـا يصلُح إيرادُه فى كلِّ صِنْف)

من ذلك، من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

مَن صَحِب الأيامَ وتقلَّب فى آنائها، آعتَوَرتْه أحداثُها، وآختلَفتْ عليه أحكامُها: بين مَسَرَّة ومَساءة يعتَقِبان، وفَرْحة وتَرْحة يتَناوبان [وكان] فيما تأتيه من محبُوبها علىٰ غير ثِقَةٍ من دوامه وآتِّصاله ،ولا أَمْنٍ من تغيره وآنتقاله ؛حتّى تعقُب السلامةَ حَسْرة، وتستحيلَ النعمةُ مِحْنـة ؛ والسعيدُ مَنْ وُفِّق فى كلِّ حال لحظِّـه ، وأُعِين علىٰ مافيه سَلامةُ دِينه : من الشُّكر علىٰ المَوْهِبة، والصبرِ علىٰ النازِلة ، وتقديم حقِّ الله تعـالىٰ

فى حال الغبطة والرزيّة . ولم تكن بالفجيعة به مُفردا عنّى وإن كان النّسبُ يقرّبه منك، والرّحم تصلُه بك : لما كنتُ أوجبه من حقّه، وأرعاه من مودّته، وأختصّه بالاعتداد فيه دون أدانى أهلى والثّقة من إخوانى ؛ فمضى رحمهُ الله أقوى ما كان الأملُ فيه، وأكمل ما كان عليه فى لُبّه وأدبه، واجتماع فهمه وكمال هَذْيه، وانتظام أسباب الخير وأدوات الفضل فيه .

ومنــه : لايُنكَر للعبد أن يتناول مولاه عند وُقوع المحنة فى أهل خاصّته، وتخوّن رَيْب المنُون من حاشيته، بالتّعزية عن مُصيبته، والإخبار عما يخصُّه من ألم فجيعته وعُظم رزيّته، لاسيّما إذا كان بحيثُ لايُرى شخصه فى الباكين، ولا تُسمع صرخته بين المتفجّعين، ولو سعيت على حَدَقى .

ومن ذلك :

إنّ الله تعالى أمرَ أهلَ طاعته، بتنزيل هذه الدنيا بمنزلتها من إهانته، وسوّى بين البَرّ والفاجر فى رغائبها ومصائبها، ولم يجعل العطيّةَ دليلًا على رضاه، ولا الرزيّةَ دليلًا على سُخْطه، ولكنّه ألزم كلّ واحد من أهـل الرّضا والسُّخط من نعمها بنصيب، وسقاهم من حوادثها بذَنُوب : ليبتلى أهلَ رضاه فى أهون الدارين عليه، ويُحسن لهم الجزاءَ فى أكرمهما لديه ، ولذلك حبّب إليهم الزّهادةَ فى زهيد فائدتها، وممنوح زَهرتها ، وسمّاها لَعِبا ولَهْوا : لئلا يعتقوا بحطامها ؛ وينغمسوا فى آثامها ، وختمها بالموت الذى كتبه على خليقته ، وسوّى بينهم فى سكرته : ﴿ لِيَجْزِىَ الّذِينَ أَساءُوا بِما عَمِلُوا ويَجْزِىَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنىٰ ﴾ . ويُقرّبهم بدار يفنى الموتُ ويبقون فيها بعده ، كما فَنُوا فى هـذه الدار وبقى الموتُ بعدهم ؛ فإن تأخّر الأجل فإلى غاية ، وإن تطاول الأمَدُ فإلى نهاية ؛ ولابُدّ أن يلحق التالى الماضى، والآنف بالسالف، وهذه حالٌ نُصبَ الأفكار، وتلقاءَ الأبصار، لاتحتاج أن يرتاض الصبرُ على آلامها،

والتحمل لمُعْضلات سِهامِها، والجزَعُ عند وقُوعِها قادحٌ فى البصائر والأفهام، دالٌّ علىٰ الجهـل بالليالِى والأيّام؛ وقد طرق المملوكَ ناعى فلان فهدَّ جلَدى، وفتّتَ كَبِدى، لا آرتياعا للحادثة : لأنّها لولم تكن فيه لكانتْ فى المملوك، ولو لم تتطرّقْ إليه لتطرّقت إلىٰ المدرك(؟) ولٰكن الأسفُ علىٰ عَطَلِ الزمان من حِلْية فضلِه، وتعرّيه من حُلّة نُبْله، وخلُوّ تَراصه من الأُنس بمثله، ومانالَ سيّدى لفقْده، وتحمّلَه من بُعْده؛ و إلىٰ الله تعـالىٰ يرغَبُ المملوك أن يَرْبُطَ علىٰ قلْبـه بالصبر، و يوفّقه لتنجُز ماوعد به الصابرين من الأجْر؛ إن شاء الله تعالىٰ .

على بن خلف :

رقعـــة : ليس عند المُصيبة ـ أطال اللهُ بقاء سيدى ـ خيرٌ من التسليم إلىٰ الله والرِّضا بقضائه، والصبرِ علىٰ بَلَائه؛ فإنه تعـالىٰ مَدَح الصابرين فى كتابه، ووعدَهُم بصَلَواته . فقال جل قائلا : ﴿ الّذِينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبةٌ قالُوا إنّا لله وإنّا إليْه راجعُون أُولٰئكَ عليهِمْ صَلَواتٌ من رَبّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولٰئكَ هُمُ المُهْتَدُونَ ﴾ . وقال جل قائلا : ﴿ وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ الّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهـم والصّابِرِينَ علىٰ مَاأصابَهـمْ ﴾ . ولم تزل الأولياءُ من القُدَماء يحُضُّون علىٰ الصـبْر وهم لايَرْجُون عليه ثوابا؛ ويَنْهَوْن عن الجزَع ولا يخافُون عليه عِقَابا؛ ومَنْ عرفَ الأيّام وتداوُلَها، والأحوالَ وتحوُّلَها، وسَّع صدْرَه للنوائب، وصبرَ علىٰ تجرُّع المصائب، ومن آغترّ بطول السّلامه، وطَمِع فى الآستمرار والإقامه[(١)] .

رُقعـــة : وقد آتّصـلَ بالمملوكِ خبرُ الفَجِيعـة بفلانــ ، فأُفيضتِ المَدَامع، وتضَعْضَعت الأضَالِـع؛ وزَفَرت الأنفـاس، وهَمَدت الحَوَاسّ؛ وأذابَ الطرفُ

(١) لم يذ كر فى الاصل لهذا الشرط جوابا ويعلن أخذه من المقام أى «فقد حاول محالا، وضل فى سعيه ضلالا» أو نحو ذلك .

سَوادُهُ علىٰ الوَجَنَات بدَلًا من الأنفاس، وخلَعَتِ القلوبُ سُوَيداءَها علىٰ الأجساد، عِوضًا عن جلابِيبِ الحِدَاد؛ وعُضَّت الأنامِلُ جَزَعا، ومُزِّقت الثيابُ تفجُّعا وتوجُّعا؛ وكل هذا وإنْ فارقَ حيدَ التّماسُك، ووافق ذَميم التّهالُك، غيرُ مُوفٍ بحقِّ ذٰلِك الدارج الذى بلغ المَعالِيَ وهو فى مَهْـده، وشدّ دَعائم الفضل ولم يبلغ أوانَ رُشْده؛ وعلِمَ سيدى أنّ غايةَ الجازِع وإن صدَعتِ المصيبةُ قلْبَه، وأطاشَتِ الفجيعةُ لُبَّه، الصبرُ والسُّلُوّ؛ وأنّ نِهايةَ القَلِقِ وإن هجمَتْ عليه الحُرْقة بما لاتتوفّر عليه الأضالِع، ولا تتماسَكُ معه المَدامِع، القَرارُ والهُدُوّ، واللهُ تعالىٰ لايُرِيه بعدَ هذا الرُّزْء رُزْءًا بفِنائه، وينقل ذٰلك عنه إلىٰ حاسِدِيه وأعدائه .

رقعـة : مَنْ علِمَ أنّ الأقضِيَةَ لاتُخطِئ سِهامُها ، والأقدارَ لاتُرَدُّ أحكامُها، سلّم الأمرَ فى السّراء والضَّراء، ورَضِى بما مَنَاه فى البَلاء والابتلاء؛ ولا سيّما فى مُصيبةِ الموت التى سوّى بين الخليقة فى تجرِيع صَابِها، واقتِحامِ عِقَابِها؛ وقد اتّصل بالملوك خبرُ الحادثِ القاصِم لعُرىٰ الجَلَد، البـارح[1] فى الجلد . فاستحالَتْ فى عين المُلُوكِ الأحوال، ومالَتْ عنه الآمال، ورأىٰ السماءَ وقد تكدّر جوّها، والشمسَ وقد تعكّر ضَوْءُها، والسّحائبَ وقد أخلف نَوْءُها، والنّهارَ وقد أظلم، والليلَ وقد ادْلَهَمّ، والنسيمَ وقد رَكَد، والمَعِينَ وقد جَمَد، والزمانَ وقد سُهِمَتْ وجنته، وسُلِبتْ حِليَتُه، وأفْرِجت قبضَتُه عن التماسُك، وقبَضَتْ علىٰ التهالُك، وعدلَتْ عن التجلُّد، إلىٰ التبلُّد؛ ثم أفاقَ من غَمْرة فَجيعته، وهَبِيب سِنَة رويّته، فسلَّم لله راضيا بأقضيَته، راغبًا فى مَثُوبته .

---

(١) لعله البادح والبفح والبدح بالاهمال والاعجام الشق والمراد ظاهر .

أبو الفرج الببغاء :

إذا كان أيده الله أهدىٰ فى النّعم إلىٰ سُبُل الشكر، وأعرفَ فى المِحَن بطُرُق الصبر، فكيف نُحاذِرُ عليـه من المَصائِب ، ونذَكِّره التسليمَ لمحتوم النَّوائب، والمصيبةُ بفلانٍ أعظمُ من أن نهتدى فيها إلىٰ سَلْوةٍ غيرِ مستفادةٍ منه ، أو نقتَدِىَ فى العَزَاء بغير ماناُخُذُه عنـه، إذ كانتْ قلوُبنا تَبَع قلْبـه ـ سَرَّه الله ـ فى طُرُوق السَّراء والضَّرَّاء، وحالَتِى الشِّـدّة والرَّخاء . وأحسن [الله] عن الفَجِيعة عَزَاءه، وأجزَلَ من المَثُوبة عطَاءه، ولا شغَلَه عن حَلاوة شكر النِّعم بمَرارة الصبْرِ علىٰ وُرُود المِحَن، وجعل مانقَلَ المـاضِى إليه، أنفَعَ له ولسيِّدى من الجَزَع عليه .

وله فى مثـــله :

اتّصل بى خَبرُ المصيبةِ لجدّدَ الحَسْره، وسكَبَ العَبْره، وأضرَمَ الحُرْقة، وضاعَفَ اللَّوعة، وكان الأسـفُ عليه، بقَدْر تشوُّف الآمالِ كانتْ إليه : فإنَّا لله وإنَّا إليـه راجعُون ! ! أخذًا بأمْرِه، وتسليمًا لحُكْمه، ورِضًا بمَواقع أقضيَتِه، وأحسَنَ الله فى العَزَاء هِدَايته، وحرَس من فِتَن المَصائب بَصيرتَه، وحَمَل عن قَلْبه ماأظلَّه من ثِقَل المصيبة وعِظَم الرزِيَّة .

ولا أزالُ علىٰ جمـلةٍ من القَلَق إلىٰ أن يَرِدَ علىّ كتابُه ـ أيده الله ـ بما أكونُ فيه بأدَبِه مقْتديا ، وبهدايَتـه إلىٰ سَبِيل العَزاء والصـبْرِ مُهْتديا ؛ فإن رأىٰ إجرائى من تشريفه بذٰلك علىٰ مشكُور العادة ، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله

اشتراكُ القلوبِ فيما ألَمَّ بقلب سيِّدى بحسَبِ تَساوِيها فى المَسَرّة بما سَرَّه ، إذ كان لايختصُّ دُونَ أوليائِه بِنعمه ، ولا ينفَرِدُ دُونَ مؤمِّليه بحلُول مَوْهبه ، والمصيبةُ بفلان

ـ وإن جَلّ موقعُها وعظُمت الفَجيعة [بهـا] ـ جَلَل[1] مع سُقُوط الأقدارِ دُونَه ، وتجاوُزِها عنه ، ومُسامحتِها به ، فلا شغَلَ الله قلبه بعدَها بمَرارة الصبر عمّا تُوجبه النِّعم من حَلاوةِ الشُّكر، ولا جاوره برزِيّة فى حميم ولا نعمه .

وله فى مثـــله :

بصيرتُك إلىٰ العزاء تَهْديك ، وآغتباطُك بثَواب الله يُسلِّيك ، وعلمُك بقلّة الغَنـاء عن الجَزَع يَثْنِيك ، وجمُعنا بك فى الصبْر مقتدُون ، ولرأيك فى الرِّضا بمـا آختاره الله تعالىٰ متّبِعُون ؛ فحَمَلَ الله عن قلبك ثِقَلَ المُصيبة ، وحرَسَ يَقينَـك من آعتراض الشبهة ، وأحسن إلىٰ جميل الصبر هدايَتَك ، وتولّى من فِتَنِ المِحَن رِعايَتَك ، وجعل ماتَقَل المـاضى إليه ، أنفعَ لك وله من الأسَف عليه .

وله فى مثـــله :

اتّصل بى خبَرُ المصيبةِ فأضرمَ الحَسْره ، وسكَبَ العَبْره ، وقَدَح اللَّوعه ، وآمترىٰ[2] الدَّمْعه ، وكانتْ مُشاركَتِي إيّاك فى المُصيبة به ، والفَجيعةِ لفَقْده ، بحسَبِ آختصاصِي بمواهِب الله عِنْدك ، وآغتباطِي بِمِنَحِه لدَيْك ؛ فإنّا لله وإنّا إليـه راجعُون ! ! تسليمًا لأمْرِه ، وآنقيـادًا لحُكْمه ، ورضًا بمَواقع أقْدارِه ، وأحسن اللهُ علىٰ العزَاء توفيقَك ، وإلىٰ السَّلْوة إرشادَك ، ولا أخلاك فيما تطْرُقك به مصيبةٌ من مصاحَبةِ الصبر ، وفيما تَفد به عليك نعمةٌ من الآستزادةِ بالشكر ؛ وحَرَسك فى نفْسك وأحبّتِك ، وذَوِى عنَايتِك ونِعمَتِك .

(١) أى يسير هين على حدّ قول امرئ القيس لمـا قتل أبوه :

بقتل بنى أســد ربهم * ألا كل شىء سواه جلل

(٢) فى القاموس « ومرىٰ الشىء آستخرجه كامتراه » .

وله فى مثـــله :

قدرُك أكبَرُ، وبصيرتُكَ أنْوَر، وثقتُك بالله تعـالىٰ أعظَمُ من ٱعتراض الشُّكُوك عليك فيما يَطْرُقُك من عِظَاته بالحوادث وإن عظُمتْ، والمِحَنِ وإن جَلَّتْ، ٱختبارا بالمَصائب لصَبْرِك، وبما يُظاهِرُه عليك من النِّعم لشُكْرك، ومثلُك أيَّدك الله مَنْ قابَلَ الفجيعةَ بفلان ـ إذ كانتْ من الواجب المحتُوم ـ بأحسَنِ عَزاءٍ وأفضل تسليم، غيرَ مرتابٍ بمـا ٱختاره اللهُ له ولَكَ فيه، فعظَّم الله به أجْرَك وحَرَسك وحَرَس فيك .

الأجوبةُ عن التَّعازِى

قال فى "موادّ البيـان" : أجوبة التَّعازى يجبُ أن تُبْنىٰ علىٰ وُقُوف المُعزِّىٰ علىٰ كتاب المعزِّى، وأنَّ إرشاده نقع غُلَّته، ووعْظه نقَع عِلَّته، وتبصـيره سكَّن أُوَاره، وتذكيره أخمَدَ نارَه، وتنبيهه أيقظَ منه بحُسْن العَزاء غافلا، وهدىٰ إلىٰ الصبر ذاهِلاً، وحسَّن عنده الرزِيَّةَ بعد جَهَامتها، ودمَّث نفسه للصيبة بعد فدَامتها، فسلَّم لله تعالىٰ متأدِّبا بأدبه، وعَمِل بالحُكْم مقتَديا بمذْهبه، وغالَبَ الرُّزْء بالعَزْم، وأخذَ فيه بالحَزْم، وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُحْسِن له العِوضَ فى ردّه، ويجعَلَه له خَلَفا ممن أُصيب بفَقْده، ونحو هذا ممـا ينخرط فى سِلْكه .

جواب عن تعزية : من زهر الربيع :

أعزّ الله سيدَنا وأسعَدَه، وسهَّلَ له طريقَ المَسَرَّة ومهَّدَه، وصانَ عن حوادث الأيّام حِجابَه، وعن طوارِقِ الحَـدَثان جَنـابَهَ، وجعـله فى حِمىً عن عوارض الغِيَر والغِرَر، وأصار أيّامه محسَّنةً لوجُوه الأيّام كالغُرَر .

ورد الكتابُ الذى أنعَمَ بإرساله ، بل المَشرِّف الذى كَسَتْه اليدُ العاليةُ حُلَّةً من حُلَل جَمَاله ، فوقَف عليه وفهِمَه وتذكَّر به إحسانَه الذى لايَنْساه ، وتفضُّلَه الذى لايَعْرف سِواه ؛ فأما التعزِيَةُ بفلان، فإنه ردّ بعَذْبِ لفظها قُوّتَه ، وبَلَّ بماء حُسْنِها غُلَّته ؛ وصبْره على حادثته بفلان بعد أنْ عزّ عليه العَزاءُ وأعْوزَه ، وطلَبَ وعْدَه من صَبْره فما أنجَزه : لأنه كان وَجَد لموْتِ المذكور حُزْنا ما آستطاعَ له تَرْكا، وفقَدَ لموته خِلًّا مثلُه يُناحُ عليه ويُبْكىٰ ؛ وفى بقاءِ مولانا مسرّةٌ تطْرُد كلَّ حَزَن ، وفى بهاء طَلْعته عوضٌ عن كل منْظَر حَسَن ، جعله اللهُ سامِياً علىٰ أتْرابه ، مقدَّما علىٰ أضْرابه ؛ ماسَمَتِ الأسماءُ علىٰ الأفعال، وتقدّم الحالُ علىٰ الآستقْبال .

آخر : ضاعَفَ اللهُ بقاءه وأطال عُمْره، وشَرَحَ لإسْداء المَكارِم صَدْره، وأنفَذَ نَهْيَه وأمْرَه ، ولازالَ إلىٰ أوليائه مُحْسِنا، وفضلُه يحصِّل لمحِبِّيه غايةَ السُّول والمُنىٰ ؛ ورد مشرَّفُه المعزِّى بوفاة فلان سقىٰ الله عهدَه عِهَادَ رِضْوانه ، وأسكنه فى غُرَف غُفْرانه ، بخبرٍ مُصابا، وفَتَح إلىٰ الصَّبْر أبْوابا، وهدىٰ إلىٰ طريقِ الخير وقال صَوابا ؛ وسكَّن نَفْسَه ، وذكَّره إحسانَه الذى لم يَنْسَه ، وأزال الوَحْشَةَ وزاد أُنْسَه، بعد أنْ كان فَقْدُ المذكور قد هَدّ رُكْنَه وفَتَّ عَضُدَه ، وأوصله إلىٰ أمَد الحُزْن وضاعف علىٰ الأيام أمدَه ؛ وألبسه رِداءَ الآكتئاب ، علىٰ تِرْبه الذى أصبح تحتَ التُّراب ، وصديقِه الموصوفِ بالصدق ، الذى فاق سناه ذٰلك الأُفُق ؛ جعله الله أصْلا فى تحصيل المسَرَّة إذا ذوَتِ الفُرُوع ، وسيْفًا يقْهَر به وليُّه الحوادثَ التى ترُوع ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخر : جعل الله أجْره عظيما كقَدْره ، والقلوبَ مجمعةً علىٰ حُبِّه كإجماع الألسنة علىٰ شُكْره .

الملوك يُعْلِمه بوُرُود كتابه الكريم المعزّى بفلان ـ قدّس الله رُوحَه، وأمطر سحائبَ الرحمة ضَرِيحه ـ عليه، وعِنْده من شديد الحَزَن، ماأعدمه لَذيذَ الوَسَن ؛ ومن زائد الاكتئاب، ما كاد يَحْرِمُه التقمُّص بثوب الثَّواب؛ بحيث إنّه عُوِّض بالزَّمن الأسودِ عن العيش الأخْضَر، وذاق من موجب لُبْس الأبيض طَعْمَ الموتِ الأحْمَر، وأنه ضَمَّه إليــه ضَمَّ المحبُوب، وآبتَهج به آبتِهـاجَ من ظَفِر بغَايةِ السُّول والمطْلُوب ؛ فاغمدَتِ الكآبةُ خوفًا من قَلَمه سَــيْفَها، وأزالتِ الدنيا الدنيَّةُ عنه حَيْفَها ؛ وعزَّى نَفْســه وسلَّاها، وشغله إحسانُه عن محاسنَ محا الموتُ سَنَاها ؛ فرفَضَ من توجُّعه مافرضَتْه حادِثتُه، وسلَكَ مَنْهجا غيرَ المَنْهج الذى فُتِّنَت فيه حَشَاه ومُهْجَته ؛ فالله تعالىٰ يَكْفينا مانحاذِرُه فى المجلس ويحْرُس سَناه، ويُديم سعْدَه وعُلَاه .

النـــــوع الثـالث

(من مَقَاصد المكاتَبات التَّهادِى والمُلاطَفة)

قال فى " موادّ البيان " : رِقاعُ التَّهادى يجب أن تُودَع من الألفاظ المستَحْسَنة مايُمَهِّد لقَبُول الملاطَفة والمَبَرَّة التى تميز فى المودّة. قال : وينبغى أن يُطْرِف الكاتبُ إذا كان مُهْدِيا أو مستَهْدِيا؛ وقد جرتِ العـادةُ أن تُودَع هــذه الرقاعُ من أوصاف الشىء المُهْدىٰ مايحسّــنه فى نَفْس المُهْدىٰ إليه . قال : وينبغى لمن نَحَب هــذا المذهَبَ أن لايعتمِدَ تفخِيمَ هدِيتّه، ولا الإشارةَ إلىٰ جَلَالة خَطَرها، فإنَّ ذلك يُخِلُّ بشروط المُرُوءة ويَتحاماه الكُرَماء .

ثم هى علىٰ ثلاثة أضـــرب :

الضـــــــرب الأوّل

(مايُكْتَب مع التَّقادم إلىٰ المُلُوك من أهل مملكتهم إلىٰ القائمين بإيصال التَّقْـــدِمة إلىٰ المَلِك وكاتب السِّرّ ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن نباتة : إلىٰ كاتبِ السِّرّ بالأبواب السـلطانية صحبةَ تَقْدِمة من نائب الشام إلىٰ السلطان :

لازالتْ أقلامُها لنَتائِج الفَضْل مُقدِّمه ، ولمَراكض الكَرَم والبَأْس جيادًا مُسوَّمه ، ولكَتائِب المَلِك من كُتُبه أعلامًا بشِعارها العبَّاسِيِّ مُعْلَمه ، وفي يد صاحِبها من أصحاب المَيْمَنة ، والذين كَفَروا بآياتِ الله ونِعَمِها من أصحاب المَشْأمه ؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُفْسَخُ عُقُودُ وَلائه المُحْكَمه ، ولا تُنْسَخ إلَّا فى الكُتُب عقودُ ثَنائه المنظَّمه ، ولا تطوفُ الأشواقُ ببَيْتِ قلبه إلَّا وهى من مَلَابس السُّلْوان المحرَّم مُحْرِمه .

ويُنْهِى أنه قد اختارَ مِنْ عِنَاية مَوْلانا بمَقاصِده أحسَن الخِيَر ، وبُورِك له فى قَصْدها (ومَنْ بُورِكَ لَهُ فى شَىْءٍ فَلْيَلْزَمْه) كما جاء الخبر، وقد جَهَّز فلانا إلىٰ الأبواب الشريفةِ خَلَّد اللهُ سلطانَها بتَقْدِمته علىٰ العادةِ فى كلِّ سنة ، واتَّبع سِفَارةَ مَوْلانا بين يدَيِ المواقِفِ الشريفة فاتَّبَع من القَوْل أحْسَنه ؛ وسأل حُسْنَ نظر مولانا الذى إذا لاحظَ قَصْدا أعْلَنَه وسَعْدا عيَّنه ، وقد جهَّز المملوكُ برَسْم مولانا ماهو بمقتضىٰ الوَرَقة المجهَّزة عطفها ، المؤمِّلةِ وإن كانتْ ورَقةً قَطْفَها ، وسأل مقابلتَها بالجَبْر الذى يَحْسُب الأملُ حِسابَه ، ويستفتِحُ ببَنانِ القَلَم بابَه ، والإصغاءَ لما يُملِىٰ من رَسائل الشَّوْق فإنَّها من رسائل إخْوان الصَّفا المستطابَه ، لابَرِح القاصِدُون مَرِحِينَ بأيَّام مولانا وحَقَّ لهم أن يَمْرَحُوا، تالينَ نسبة بيته ورُحْمىٰ الله علىٰ يَدِه :﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ .

وله إليه أيضا مع الجَهَاز الشريف السلطانى :

أمتعَهَا اللهُ من خيْرِى الدنيا والآخرة بكَرَم الأَمْرَيْن ، وبشَرَف الذِّكْرَين ، وسرَّها بمـا يجهَّز فى الثَّناء والثَّواب من الوَفْرَيْن ، وأعلىٰ مَنـارَها المحلِّق إلىٰ السماء علىٰ وَكْر النَّسرين . ولا زالَتِ الآمالُ لاتبَرح حتّى تبلُغَ من تلك اليدَيْنِ مَجْمَعَ البحْرينِ؛ تقبيلَ مخلِصٍ فى الوَلَاء والدُّعاء، مستشهِدٍ بالخَواطِرِ الكريمةِ علىٰ ثُبُوت الأَدِّعاء، واردٍ لموارد النِّعم قبل صُدُور بل قبل وُرُود الرِّعاء .

وينهى أنه ليس للملوكِ فيما يؤمِّله ويتأمَّلُه ، ويفَصِّلُه من عُقُود المَطالب ويُجْمِله ؛ غيرُ إحسانِ مولانا الذى لا يُمَـلُّ علىٰ طُول الإينـاس والإلباس ، وعوارِف بيتـه المستجدة تالية : ﴿ إنَّ اللهَ لَذُو فَضْـلٍ علىٰ النَّاسِ ﴾ . وقد جهَّز المملوكُ الولدَ فلانا بالجَهَاز المبارَك إلىٰ الأبوابِ الشريفةِ خلَّد الله سـلطانَها ، ومَلَأَ به جَواهرِ حَبَّات القلوب ورَيْحانَها ، وهو علىٰ قَدْر المملوك ومِقْداره ، لاعلىٰ قَدْر مُرادِه واَختيارِه ؛ ولو أن المُرادَ ممـا يحمِلُه العبدُ إلىٰ سيِّده ، ويقدِّمُه من سَبَدِ الحال ولَبَدِه ، علىٰ قدر المحمُول إليه ، والمقدَّم بين يدَيْه ، لضعُفَتْ قُوىٰ أكثر العبيدِ عن ذٰلك ، ويَئِس من الرِّضْوان جُهْدُهم المـالِك ؛ وإنمـا علىٰ العَبِيدِ أن تَنْصِبَ علىٰ قُدْرتِها الحال ، وعلىٰ السادا تِ أن تُصَرِّف بعَوَامل الخبر مستقبَلَ الأفعال . وعِلْمُ مولانا الكريم مُحِيطٌ بتنقُّل المملوك فى هذه السِّنينَ من بلَدٍ إلىٰ بلَد ، ومن أَمَدٍ كُلِّفَه إلىٰ أَمَدٍ ، وبمـا حَصَل فى ذٰلك من التمَحُّق فى إقطاعاتٍ كاد أنْ يُخْنِيَ عليها الَّذِى أَخْنىٰ علىٰ لُبَد . وكان المملوك يودُّ لو كان هـذا المحمولُ من الجَهَاز من جواهرِ النُّجوم المنثُوره ، وأَخْبِيةِ السُّـعُود المأثُورَه ، وجميع مازُيِّنَ للناس من الشَّهوات المذْكوره ، أضعافَ أضعافِه الآن، بل أضعاف أضعاف ماحَمَلَ الأوَّلُون من فُلانٍ وفلان ؛ كالحَسَن بن سَهْل مع الجهة المأمونيَّة التى حَلَا ذِكْرها ، وابنِ طُولونَ مع المعتَضِديَّة التى كاثر هـذا الغَيْثَ قَطْرُها ، والسَّامانِيِّ

وما أدراك، والسَّلْجُوقِ وما أشراك، وجميع ماتضمَّنته التَّواريخُ التى لو عاينَتْ تاريخَ هذه الدولةِ الشريفةِ عنَتْ فى الحال لمجده، وكان كلُّ مجلَّد منها يموتُ للهَيْبة فى جِلْده : لمـا خلَّدته أيامُها الشريفـةُ من أخبـار حُكْمها وخَيْرها، وكَرَمها و برِّها، وعَطْفها علىٰ مماليك بيتِها الشريف: تتَقبَّلُ ميْسُورَهم، وتُكَمِّل سُرورَهم، وتملأ بجُيُوش الاَنشراح صُـدورَهم، وتبلِّغهم من هِمَم مطْلُوبهم، وتُقبِل علىٰ زاهرات نَجَايَاهم ورياحِينِ قلوبِهم :

ولو لم تُطِعْه نِيَاتُ القلُوب ﴿ لَمَـا قَبِـل اللهُ أعمالَهَا.

والمملوك يسأل من إحسانِ مولانا الذى أَلِفَـه، ومعروفِه الذى عَرَفه، ملاحظةَ الولد فلان بين يدَيِ المواقِف الشريفة خلَّد الله سلطانها، و إقامةَ عُذْر المملوك بعبارتِه التى أحلَّ اللهُ سحْرَها و بيانَها ؛ فـا للملوك فى مَقاصِـده مثلُ مودّةِ مولانا الوافيـةِ المُتَوافِيه، ومقدّمة عبارتِه الكافيةِ الشافِيَه ؛ والله تعالىٰ يُعِين علىٰ شُكْر مِنَنه، والقيامِ بفرائض حَمْده وسُنَنه ؛ والنهوضِ بأوصاف أياديه التى يُغرِّد بها قلَمُ الكُتَّاب كما يُغرِّد القُمْرِىُّ علىٰ فَنَنِه .

الضـــرب الثـانى
(ما يكتب مع الهـدِيَّة عنـد بعْثها)

وهو علىٰ عَشَرة أصنـاف :

الصنف الأوّل ــ مايكتَبُ مع إهداء الخيل .

على بن خَلَف : فى إهداء جَوَادٍ أدهَمَ أغرَّ محجَّل .

وقد خدم المملوكُ رِكابَه الأكْرَم ، بجوادٍ أدهَمَ مُطَهَّـم ، قد سَلَبَ الليـلَ غَياهِبَه وَكَواكِبَه ، فٱشْتَمَلَ بأدِيمه ، وتحلَّى بنُجُومه ، وأَطْلَع من غُرّته السَّاذَجة قمرًا متَّصِـلا

بالمَجَرّه ، وتحلّى من رُثْمَتِه[1] بالثُّرَيَّا أو النَّثْره ، صافِى القَمِيص ، ممحُوض الفُصُوص ، حديد الناظر ، صليبِ الحافر ، وَثِيق القَصَب ، نقِيِّ العَصَب ، قَصِير المَطا ، جَعْد النَّسا ، كأنما آنتعلَتْ بالرِّيَاح الأربَع أربعُــه ، وأصْغَىٰ لآستراق السَّمع مَسْمَعُه ، إنْ تُرِكَ سارْ ، وإن غُمِز طَارْ ، وإن ثُنِيَ آنحرَف ، وإن آسْـتُوقِفَ وقَف ، أديب نَجِيب ، مَتِين صَلِيب ، صَبُورٍ شَكُور ، والله تعالىٰ يجعلُ السعادةَ مطلعَ غُرَّته ، والإقبالَ مَعْقِدَ ناصيتِه .

من كلام المتأخرين :

كتاب عن نائب الشام إلىٰ الملك الصالح : شمس الدين صاحب ماردِينَ قرِينَ خيل مُنْعَم بها إليــه ، عن السلطانِ الملِك الصالح : عمادِ الدين إسمـاعيل بن الناصر محمد آبن قلاوُون ــ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتَةَ ، وهو بعد الألقاب .

وأجرى بالنَّصر جِيَادَه ، وبالظَّفَر مُرادَه ، وعلىٰ عوائد السَّعْد مَطالِعَ شمسِه التى يُسَمِّيها عُرْفُ المملكةِ بلادَه ، ولا زالتْ مُنيرةً بسعادةِ شمسِه الأحْلاك ، نَظِيمةً بدُرّ مَحامِده الأسْلاك ، مائلةً خيولُ سعدهِ حتّى حُمْر السَّوابِق من البُرُوق والشُّهُب السَّوانح فى الأفلاك .

المملوكُ يقبِّل اليدَ التى إذا بُسِطتْ فلأنْ تجُودَ وتُسْتَلَمَ ، وإذا قُبِضت فعلىٰ سَيْف أو قَــلَم .

ويُنْهِى بِعَدَولاءٍ وثناءٍ للإخلاص شارِحَيْن ، وفى الضمائرِ والآفاقِ سائحِيْن ، وآشتياقٍ وعهدٍ كانا أحقَّ بالآنتمــاءِ لآسمه ونعتِه وكان أبواهما صالحَيْن ؛ أنّ المرسومَ الشريفَ زاده الله تعالىٰ شرَفا ، وردَ يتضمَّن تشريفَ مولانا علىٰ العادةِ وإعظامَه ، وآستقرارَ مكانته من الخواطرِ الشريفــةِ فى دار مُقَامه ؛ وآستمرارَ كرامتِه من الآراء المعظَّمة

(١) هى بالضم بياض فى طرف أنف الفرس . قاموس .

ولا يُنكَر بين الصالح والصّالح استمرارُ الكَرامه ، وأنَّ الصَّدقاتِ الشريفةَ أنعمَتْ علىٰ مَولانا بثلاثةِ أرؤُس من الخيل كثلاثة الراح ، إلا أنَّ حَبابها عرَقُ سبْقِها ، وثلاثة الشجر(؟) كما قال الطائى تساوى شَرَف ثَمَرها وزَهَرِها وعَرْفها؛ مامنها إلا من[١] تقصُر الرِّياح أن تَسْلُكَ بَقْه ، والبُروقُ أن تتْبَع نَهجَه . ومَن تَودُّ الثُّريَّا أن تكونَ لِجامَه والهلالُ أن يكونَ سَرْجَه . ومَنْ يَتمطَّر[٢] كالغَمام و يركُضُ كالسَّيل . ومَنْ كَمُلت حِلاَه ولبِس حُلَّةَ الفَخار فمشىٰ علىٰ الحالتين فى الحُلّتين مُسْبِلَ الذَّيْل . ومَنْ عُقِد بناصيَته كلُّ الخير وعُقِـد له لواءُ الفَخار علىٰ كلِّ الخَيْل : من كلِّ خَضراءَ مُعْجبة فهى علىٰ المَجاز حَديقه ، وكل أحمرَ سابِقٍ فهو البَرْقُ علىٰ الحَقيقه ، وكلِّ أصفرَ شَفَقٍ إلا أنَّ الرياحَ من مُجاراته علىٰ نَفْسِها شفيقه . وكيف لا يُشَبَّه بالشَّفَق وهو من الأصائل ، وكيف لا يفتَخِر العسكرىُّ بهذه الخيلِ وخَناصِرُ عَدَدها فى الحُسْن أوائل ، قد صُرِفَتْ وجوهُها المقْبِلَه ، لبابِ مولانا أحسنَ المَصارف ، وكُتِبتْ عوارفُ الفضل فى مَعارفه المُسْبَلَه ، فناهيك منها بكتاب عَوارفِ المَعارف؛ ووصل لمولانا بذٰلك مثـالٌ شريف؛ ورسم للملوك بتجهيزها مع مَنْ يراه؛ وقد جهَّز المملوكُ لخدمةِ مولانا الخيلَ المذكورةَ مع المثال الشريف صحبةَ فلانـ ، ومولانا أدرىٰ بنَفَحات رياض الحمدِ بهذه الدِّيَم المُطِلّه ؛ وبالتقبيل فى الأرض التى هى سَمـاءُ حوافرِ هـذه الخيل التى هى أهلُه ؛ وأولىٰ أن يشَرِّف المملوكَ بمُهمّاته ، ويؤنِسَ لحظَه بطيفِ اليَقَظـة من مشرّفاته ، والله تعـالىٰ يجدِّد لمعاليه فى كل قصـد نُجْحا ، ويعلى لمجده[٣] فى كل حال قِدْحا؛ ويُروِّع الأعداءَ

(١) كذا فى الأصل باستعمال من فى غير العاقل .

(٢) فى الأصـل يخطر كالغام ولعله مصحف عما أثبتناه يقال تمطرت الخيـل إذا جاءت مسرعة يسبق بعضها بعضا تأمل .

(٣) فى الاصل وجاد مجده تأمل .

من خَطَوات خيْله فى بلادهم بالمُغيرات صُبْحا ، ومن خَطَرات ذكْره فى قلوبهم بالمُوريات قَدْحا .

وفى معنـاه :

يقبّل الباسطةَ الشريفة أعلىٰ اللهُ شانَها ، وجمّـل ببقائها زَمانَهـا ، وضاعفَ علىٰ الأولياء برَّها وإحسانها .

وينهى : أنه ٱبتاع جَوَادًا أعجبه ، وطِرْفا ٱنتخَبَه ، وقدْ قدّمه لوَلِيِّ نِعْمتِه ، ومالك عُهْدته : لأنَّ الكِرامَ لا تكونُ إلا عند سـيِّد الكِرام ، والذى يصلُحُ للولىْ علىٰ العبـد حَرَام ، فالله تعالىٰ يجعَلُ التوفيقَ ضياءَ غُرَّته ، واليُمْنَ مَعْقِدَ ناصيَته ، والإقبالَ تحجيل أوْظفَته ، والسعادةَ موضِعَ الجلوس من صَهْوته ، والمملوكُ يسأل الإنعامَ بقَبُوله ، و[أن] يبلّغه من ذلك [غاية] مأموله ، مضافًا إلىٰ ماسبَق به سابقُ إحسانه العميم ، وفضلِه الجَسيم ، والله تعالىٰ يحرُسه بعينه التى لا تَنام ، آمين .

الأجوبة بوصول الخيـــل

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ أميراخور بالأبواب الشريفـة ، عن وصُول خيـل إليـه من الإنعـام الشريف ـ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعـد الألقـاب :

لا زالَتْ مبَشِّرةً بأعظَم الخير وكِرام الخيل ، ميَسِّرة النعماء(1) بسوابِق السَّـيْر كَدوافِق السيل ، مُسْفِرةً عن إيجاد سوابِحَ إلا أنهـا فى الفَخَار والشِّيَة ضافيةُ الذَّيْل ، سـفيرة فى الجَوَادّ بكلِّ جَوَادٍ تبتسمُ غُرَّتُه ٱبتسامَ النهار ويُدرِك طَلَبه إدْراكَ الليل ، تقبيلًا يستَبِقُ ٱستِباقَ الجِياد ، ويتَّسِق علىٰ الدَّرج ٱتِّساقَ العُقُود علىٰ الأَجْياد .

(1) النعيم والنعمة والنعمى والنعماء ماينعم به فلعل الصواب الانعام .

ويُنْهِى بعد ثناء وولاء : هذا يَهِيمُ فى كل واد، وهـذا يَهِيم بمثله كلُّ وادّ، وُرُودَ مشَرَّفةِ مولانا الكريمة بما ملأ القلبَ مَسَرّه، والعينَ قُرّه، ودرَجَ عامَ الفيل من نُجُب الخيل السيارة مستَهَلّ وغُرّه، فقابلها الملوكُ بتقبيله ، وقام لهـا علىٰ قَدَم تبجيله ؛ ثم قام إلىٰ الخيل الشريفة المنعَم بهـا عليه فقبَّـل من حوافرها أهلّةً ثم من غُرَرها نُجُوما، وتأمَّل شِياتِها البرقيّة واستمطر من السُّعود غُيوما ؛ فأدْنَتْ له من الإقبال أمَدَ قاصيها، وظلّ بمنزله الخيرُ المعقُودُ بنواصيها ؛ وتضاعفتْ أدعيتُه الصالحةُ لهذه الدولة القاهرة الصالحيّة زادها اللهُ من فضـله ، والوقتِ الذى ملأ الدنيا بسَحَاب جُوده ورياح جِيَـاده وريِاض عَدْله ، والملكِ الذى لاينبَغِى لأحدٍ من بعده، ولولا شُهودُ العهد الشهيدىّ لقال ولا لأحدٍ من قبْله ؛ وأعدَّ الملوكُ هذه الثلاثةَ من الخيل ليُغْنِي عليهـا بالقتال أهلَ التعطيلِ والتَّثْليث ، ويستَخِفُّ بهـا آجالَ الأعداء بين يدَىْ مالكه : فإنها من ذَواتِ العِزّ والعزم الحَثِيث ، وما هى إلّا كوا كبُ سَعْد تمدها أسِنّتُها الوَقّاده ، وزَهَراتُ حسن حيّتْ بها علىٰ البُعْد سِفارتُه المعتاده ؛ لابَرِح مولانا يقَلّد بعنايتـه وإعانَتِه المِنَنَ الجسام، وينصُر بعزائمِهِ القاطعة، وكيف لاينصُرُ ويَقْطع وهو الحُسَام ؟ .

وله فى جواب وصُول أكديش وبازٍ [وكوهية] :

لا زالَ جزيلاً سَمَـاحُه ، جميلاً من الحمد رَبَاحُه ، جليلًا بِرُّه الذى يشْهَد به طائرُ الخير ويمنُه وطائلُ الخيل ونَجاحُه . هذه المفاوضة تُهدِى إليه سلاماً يخفِقُ جَنَاحُه، وثناءً تُشْرِق غُرَره وأوضاحُه ، وتوَضّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبتِه سريعةَ الإِحْثِثاث، طائرةً بيُمْن طِرْسها وهـدِيَّتِها بأجْنِحةٍ مَثْنَى وثُلَاث، فحصَـل الوقُوفُ عليها ، وتجدَّدَ عهدُ الارتياح لِدَيْها، وفَهِمْنا ما لم نزَل نفهَمُه من وُدّ الجناب العالى، وبِرّه المُتعالى؛

ووفاءِ عَهْده الذى نتلقّاه المحامدُ بأمالِ المحبّ لا بأمالِى القَالِى ،ووصل الأكديش الايكر ظاهرًا حُسْنُه ، سافرا عن وَفْق المُراد يُمْنُه ، تتجمّل به المَوَاكِب ، وتُمـاشيه الرِّياحُ وبعضُها من خَلْفــه جَنائِب ، وكذٰلك وصــل البازى والكُوهِيّة ، وكلاهمــا بديعُ الأوصاف ، سريعُ الاقْتِطاف لأزَاهِرِ الطيرِ والاخْتِطاف ، يَسْبِقُ الطَّرْفَ بجناحِه اللَّمُوح ، ويستَعجِل من الأُفُق وارِدَ الرِّزْق الممْنُوح ، ويُواصِلُ الخيرَ والمَيْرَ إلىٰ المَطْبَخ ، فكأنّ حوائج كاش تغْدُو إليه وتروح ؛ لا بَرِحَ إحسانُ الجناب العالى واصِلا ، وذِكْرُه فى ضمير الاعتداد حاصِلا ، وحكْمُ سماحتِه وشجاعتِه باستحْقاق الثناء فاصِلا .

جواب بوصول جَوَارح :

كُتِب به عن نائب الشام ، جوابًا لمطالَعةٍ وردَتْ علىٰ نائب الشام من الصالح صاحبِ مارِدِينَ من بَقَايا بنى أُرتُق ، صحبةَ سَناقِرَ ، هديّةً للصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون : صاحب الديار المصرية . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة :

وأيّد هِمَمه السَّــوابح ، ونِعمَه السوابغ ، وشِيَمه التى تنتظم منها مايــه دُرَرُ المحامد والمَـادح ؛ وشكَر هــدَاياه التى منها جَوارِحُ طيرٍ تخْفُقُ لفَرْط ٱستِحْسانها الجَوارِح . ولا زال من أجنحة نَصْره حتّى السِّماك الرامح ، ومن جُنُود سـعدِه للأولياء سـعْدُ السُّعود ، وفى الأعداء سَعْدُ الذابح ؛ ومن جِياد رِكابه الشُّهبُ إلا أنها شُهبُ الأفلاك السَّوابِح ؛ ولا بَرِح سلطانُ البسيطةِ مكافِئًا عملَ قلبِه الوفِىّ ، ولا يُنْكَر العملُ بالقلوب بينَ الصالح والصَّالح .

الملوك يقبِّل الأرضَ التى تستمِدُّ السُّحُبُ من سَمائها ، وتستعِدُّ منازِلُ الأنجُم للتعلُّم من أنوائها ؛ تقبيلًا يُودِع ورَقَ الرسائل أزاهِرَه ، ويُطْلِـع فى ليالى السُّطُور زَواهِرَه ، ويَلْتَجِرُ فى أيدى الحُروف إلىٰ أن تَصِلَ إلىٰ أجياد المَنَابر جواهِرَه .

ويُنْهِي ـ بعد دعاء صالح، إذا جُدّد تجدّد، وولاء ناجح، إذا انعطف تأكّد، وثناء سانح ، إذا سرىٰ لا يتوقّف إلا أنّ نسيمه فى الآفاق يتردّد ، وآرتياح لما يَرِدُ من أخبار دياره السارّة إذا شاقَهُ سرورُه سَمْعَ الوليّ شهد وسَمْعَ الحاسد تشهّد ، حيثُ يتلقّىٰ ببلاده النُّجح والمَقاصد ، وصلاتِ البِرّ والعوائد ، ووُفودَ الآمال من كل أَوْب : فديارُ بكر ديارُ زيد وعَمْرو وخالد ـ وُرودَ المشرّف الكريم ، بل الغيثِ السائرِ بخصب المُقيم ، علىٰ يَدِ فلان ونِعْمَ اليدُ العائلةُ لأيادِى البِرّ العَميم ، ونِعم المشرّفُ الوارد عن مَقَرّ : هذا للأمل كَهْف وهذا للتأميل رَقيم ؛ ففَضّه المملوكُ عن علامةٍ آسم لحُسْنها وُسُوم ، ولها رُسُوم ، وآستجلىٰ مواقعَ تلك الأنامِلِ المُضِيّة وأقسمَ علىٰ فَضْلها بمَواقِع النُّجوم ؛ وآنتهىٰ إلىٰ الإشاراتِ العاليه ، وعلِمَ ما كان القلبُ يعلَمُهُ من ضمائر الوُدّ الحاليّة لا الخالية ، وقابل كلَّ أمْرٍ حسنٍ بما يجب من مَذاهب الوُدّ المُتواليه ، ووصلت السّناقرُ المُنيرُ سَنَا فضلها ، المُبِيرُ فى مَعَارك الصيد شَبَا نَصْلها ، القائمةُ فى كَواسرِ الطير مقَامَ الملوك الأكاسرةِ إلّا فى حُكْمها وعَدْلها ؛ لا جرمَ أنها إذا دخَلَتْ آفاقَ طَيرٍ أفسدَتْها وجعلت أعِزّة أهلِها أذِلّه ؛ وإذا آنقضّتْ علىٰ سِرْبِ وحْشٍ جذَبَتْها من دَمِ الأوردة بأرسانٍ حيثُ كسَتْها من قَوادِم الأجنحة أجِلّه ؛ لا يُسْأَلُ كاسِرُها فى الطُّيور بأىّ ذَنْب قُتِلتْ ، ولا يحمِلُها جانب الطير والوَحْش إذا عاندَتْه فياعَجَبا لها علىٰ أيْدِى البَشَر كيف حُمِلَتْ ؛ تُظِلُّ الصيدَ فلا عَجَبَ أن يَفْزَع بها من ظِلّه ، وتكتُبُ علائِمَ اليُمْن والظَّفَر بما فى لَوْنها من شَبَه الخَطِّ وشَكْله ، نِعْمَ الجالبةُ للخَيْر والمِيَر ، والسائرةُ بما يُخيف المتصيَّدات وكيفَ لا ؟ وعلىٰ رُءُوسِها الطير، أزاهِرُ حُسْنٍ لابِدْعَ أن يكونَ لها كَمائِم ، وبَوارِقُ العزم لاجَرَم أنّ أجنحتَها غَمائِم ، ونواقِلُ البأس والكَرَم عن مُرْسِلها فهما جَمَعتْه الشّجاعةُ فرّقتْه المَكارم . آستجْلاها المملوكُ بعد ألفاظ المشرّف الكريم فقال : (تِلكَ الرياضُ وهذه السُّحُب،

وتلكَ الأنوارُ الهاديَةُ وهذه فى أُفُقِ مَطَارِها الشُّهُب) ؛ وجهَّز الملوك المطالعةَ المُحضَرة للأبواب الشريفة أعلاها اللهُ وشرَّفها على يد فلان المذكور فقُوبِل بالإكرام والكَرَم، ومَثَل بالمَوَاقف الشريفـة مُثُولا رقىٰ بهمّتـه إلىٰ الكواكب لا جَرَم ؛ وذَكَّر بصالح بيتِ الأرتقاء صالحَ بيتِ أُرْتُق حتّى أنشد :

فَهَلْ دَرىٰ البيتُ أنّى بعْدَ فُرْقتِه * ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلَّا إلىٰ حَرَمِ!

وقد عاد مُعْلَما من البِشْر بما يَراه مولانا عليه ، مُعْلِما بمـا تقدّمَ من نجوىٰ الإنعام بين يدَيْه ؛ حاملًا من كَرَمٍ وجاهٍ يُعَدّان للأولياء فى يومِ نُزُلٍ وللأعداء فى يَوْمِ نِزَال، قائلا برجاء سَعْيه المؤمّن : (يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا) ولن تَزال؛ والله تعالىٰ يُجرى كَرَم مولانا علىٰ عوائدِ إسعاده، ويحرُس بعيْنِه وملائكته نَفَاسة نَفْسه وبِلادِه؛ ويُدْخِله بآسْمِه ومُسَمّاه لدىٰ الدُّنيا والآخرةِ فى الصَّالحين من عِبَاده .

وله جوابٌ بوصول بازِيَيْنِ :

ولا زالَتْ بُزاةُ كرمه علىٰ الحمد مُطِلَّه ، وسحائبُه مستهِلّه ، وهِمَمُه مسـتقِلّةً بأعباء المكارم وإن كانتْ لكثيرِ مايُهْدِيه مستقِلّه . هذه المفاوضة تُهدى إليه من السلام أجَلَّه ، وتُوضّح لعلمه الكريم وُصولَ مكاتبته العاليةِ فوقفْنا عليها ، وعوّذناها بكلماتِ الثناء التـامّة من خَلفِها ومن بين يديْهـا ؛ وعلمنا مالم نزل نَعْلَمُه من مُوالاته وآلائه المُسْنَدَ فى الشكر عنها والمستندَ فى الوَلاء إليها؛ ووصل كِلَا البازِيَيْنِ الحسَنَين المُحسِنَين كأنّهما فرقَدَا سماءٍ قد آجتَمعا، وقمرَا حُسْنٍ طلَعَا، وعلىٰ محاسن الصيد آطَّلَعا؛ يَسُرّان القلوبَ والأبصار، ويُحمَلُ كلٌّ منهما علىٰ اليمين فيحْصُـل به اليَسَار؛ وما هما بأوّل إحسانِه الأسنىٰ، وبِرّه الأهنىٰ؛ وأياديه التى أبىٰ الكرمُ إلا أن تَرِد مَثْنىٰ مَثْنىٰ . وعلِم آعتِذارَه عن الكُوهِيَّة التى كان آدّخرها فنفَقَتْ ، ولو أُقيمتْ بها أسواقُ الصيد

نَفَقَت، وأرسل بروايتها تحقيقًا لدَعْوىٰ المكارم التى من زمانٍ تحقَّقتْ ؛ واللهُ تعالىٰ يشكُرُ بِرّه، ويملأ بِذِكْره بحرَ الثناء وبَرَّه .

وله جوابٌ بوُصُول كُوهيَّتين علىٰ يدِ شخصٍ آسْمُه باشَق :

لازالتِ المحامدُ من مَصَايِد إنعامه، وفوائدِ أيّامه ؛ وثمراتُ البأس والكَرَم من قُضُب سُيوفه وأقلامه؛ تقبيلَ معترِفٍ بإحْسانها، مغترِفٍ من مَوَارد آمتِنانها؛ متحَف منها بعالي تُحَفٍ تدُلُّ علىٰ مكانِها فى الفضل وإمْكانِها .

ويُنْهِى ورُودَ مشرَّف مولانا الكريم علىٰ يدِ الولد « باشَـق » فياله باشَـقٌ جاء بكُوهيَّتين جميلتين، وطار للسُّرعة وهو حاملٌ مِنَّتين جليلتَين؛ وقد وصلَتَا و[كلْتا] هما حسنةُ الخُبْرِ والخَبَر، حميدةُ الوِرْد والصَّدَر، يحْسُن مَسْرىٰ كلٍّ منهما وسَيْره، ويتجمَّلُ بهما بابُ الشَّكْر خاناه وصدْرُها ويكْثُر خيرُ المَطْبَخ ومَيْره، فمدّ المملوكُ إليهما اليدَ المتحمِّلة الحـامِلَه، وإلىٰ المشرَّف الكريم اليدَ المتولِّيَـةَ المُتناوِله ؛ وعلم ماتضمنه من الحُسْن والإحسان، وذِكْرِ الموالاة التى يحكُم بها القلب العالِمُ قبـل شَهادةِ اللِّسان ؛ وآعتِذارِ مَوْلانا عن تعـذُّر وُجُودِ الشاهين ؛ وكلُّ إحسـانِ مولانا شهِيٌ كافٍ، وكلُّ مَوَارد نِعَمه هَنِيّ صافٍ؛ ومافات مَقْصَدٌ وإنعامُ مولانا وراءَ طَلَبه وإنْ طال الأمَد، ولاقَرَّ مطلوبٌ حتّى يأتِيَ به سعْدُ مولانا مقْرُونا فى صَفَد؛ والله تعالىٰ يشكُرُ عوائدَ فضـله، ولا يُضْحِى[(١)] الآمال الملتجئة [إليه] من ظِلّه .

جواب بوصول طيور، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وشكَرَ هدَاياه المتقبَّله، وسَجايَاه التى هى بأفواه المحامد مُقَبَّله ؛ ولا زال بدرَ سعادته المأمولةِ وطائرِ هديَّته المتأمَّله .

(١) مراده لا يحرمها ولا يخليها .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهدى إليه من السلام أتمّه، ومن الثناء أنمّه، وتوضّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتَبَته الكريمه، ومكارمِه العَميمه، وطُيورِ هديّته التى كلٌّ منها فى الحُسْن بدرُ تمّ، وظهرَتْ ظُهورَ البدْرِ لِتَمامه فأبتْ محاسِنُها أنْ تنكتِم، فحُسْنَ ورُودُها، ورُعِى بفضـل التلطُّف والتودُّد مقصودُها؛ وأقبلت تلكَ الطيورُ التّمّيّة تامّة الإنعام، دالّةً يُمْن طائرِها علىٰ بَركة عامّة وكيف لا؟ وقد جاءتْ بيضاءَ عدَدَ شهور العام؛ واللهُ تعالىٰ يزيده من فضله، ويُجْرى الأقدار بالسُّعود الشاملة لجمعه الجامعةِ لشَمْله؛ إن شاء الله تعالىٰ.

جواب فى المعنىٰ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ أيضا:

لازالتِ الجَوارحُ شاهدةً بِبِرِّه، والجوانحُ حائمةَ الجَناح علىٰ شَريفِ ذِكْره؛ والمحامد من مَصايِدِ أقلامِه ورِماحه فى السِّلْم والحَرب: فإمّا بقَوادم شُمْره، وإما بمَنـاسِر سُمْره؛ تقبيلًا يبعثُه علىٰ أجنحةِ أوراقِ الرّسائل، ويتصـيَّدُ به علىٰ البُعْـد مشافَهةَ تلك الأنامل الجلائل.

ويُنْهِى بعـد دعاءٍ، تُحلِّق إلىٰ السماء كلماتُه الحَسَنه، وولاءٍ وثنـاءٍ: هذا تَخْفِق بتشوّقه أجنحةُ القلوب، وهذا تخفِقُ بذِكْره أجنحةُ الألْسنه ـ أنَّ كتابَ مولانا وردَ علىٰ المملوك فأوردَ عليه المَسارّ، و[ملأ] يده بالمَبَار، ومصايِدَه بالمَيْر، ومنازِلَه بالخَيْر؛ وآماله بأمانِى الكَرَم لذى السرحات المنشرح بآيةِ ﴿وعُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ فقابله المملوك بتقبيله؛ وواصلَ فضلَ الاعتِقادِ بتفضيله، وحصل من هَدَاياها وهُدَاها علىٰ جملة الإحسانِ وتفصيـله؛ وانتهىٰ إلىٰ الإشارات العاليـة التى زكَتْ علىٰ العِيَان وتأمُّله وأربتْ علىٰ الجَنَان وتأميله.

فأمّا الإنعام بالكوهيّتين اللتين ماقذف البحرُ إلى الساحلِ أبهى من دُرَرِهما المكْنُونه ، وأزْهَرَ من وُجوهِهما المباركةِ الميمُونه ، فقد وصل كلا الطائرينِ بيُمْنه ، والسابقين بمَنّه ؛ والغاشين فى جَوّ السماء الآتِيَيْنِ من الصُّيُود بأوْفىٰ من قَطَرات مَوْنه ، وآستقبل المملوكُ منهما وُجوهَ المَسارّ ، وحملتْ يمينُه الثَّروةَ وحملتْ على اليَسار ؛ وتناولتْ يدُه يدَىْ إحسانٍ يَسُرُّ الناظرين والسامعين ؛ وآستُخْدِمَا للشُّكْر خاناه والحفْظ مِطْبخ يملأ عُيونَ المُشبَعين والجائعين ؛ وقال صُنْعُ الله لصِناعتهما : ائْتِيَا بصُيُود السماء طَوْعا أو كَرْها ﴿قالَتَا أتَيْنا طائِعِين﴾ . قد كتبَتْ باليُمْن فى مَطاوِى رِيشِها أشباهَ الحُروف ؛ وقضى الجُودُ لتلك الأحْرُف أن تَقْرِىَ ماتقتَرى عَوَاصى الطير له بطاقة تقيِّد السابحَ فى طَلَقه ، و يعودُ مُطلِقُها وقد ألزَمَ نجاحَ الطير طائرَه فى عُنُقه ؛ فشكر الله إحسانَ مولانا الذى ألحَفَ الأملَ جَنَاحه ، والقصدَ نَجاحه ؛ و بِرّه الذى أحمدَ فى سوانح الطيرِ وبَوَارِحه مَسَاءه وصَبَاحه ؛ وعلِمَ ما أشارَ مولانا إليه فى أمر فلان وأمْرُهُ علم الله تعالىٰ فى الخاطرِ حاضر ، وما يؤخِّرُ شُغْلَه عن إهمالٍ وعائبُ الإمْهال غادِر ؛ وما أشار إليه فى أمْر فلان أمير شكَاره وأمير شكر المملوك ، وتقدّمَ بخَلاص حقّه ، وآستنزل بهديّته فضاءَ الشُّغْل من أُفُقه ؛ لابَرِح مولانا ممتَثَلَ الأوامر ، هامِىَ سُحُب البِرِّ الهَوَامر ، مجدِّدا فى كل وقتٍ نُعْمىٰ ، مالئاً بهداياه قلوبَ[1] محبيه و بيُوتَهم شَحْما ولحْمًا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله جواب فى وُصول طُيُور العَقْعَق :

لا زالتْ متّصلةً مِننٌ إرفاقِها و إرْفاقِهــا ، نازلةً على حُكْمِها [الأشــياءُ] حتّى الطّيرُ العاقّة من آفاقها ؛ خافقةً أعلامُ نصرها بالأجنحة مؤمِّنةً لظُنُون القاصدين من

---

(١) لعل المناسب « بطون » .

إخفاقها، تقبيلَ مُطْلِقٍ لسانَ الحمد علىٰ عوائدِ إطْلاقِها ، مُجْتَنٍ لثَمرات الإحسان من غُصُون أقلامِها وغُضُون أوْراقِها .

ويُنْهِي وُرُودَ مشرِّف مولانا العالى علىٰ يَدِ الولد فلانٍ فوقَف المملوك عليــه ، وعلم من جميل الاحتفالِ ماأشار إليه ، وأنه موقِّع علىٰ المقصود من طُيور العقْعق فأوقعها من مَطَارها ، وٱستنزلهــا مــن أوكار أفقها وأُفُق أوكارِها ، وأرسلَها قرينَ مشرِّفه الكريم، وقلد عُنُقَ الأمل بعِقْدها النَّظيم؛ ووصلتْ سبعةٌ كعدَد أيام الجُمعة الكامله ، والكواكِبِ المــائله ؛ والسَّــمٰواتِ لاجَرَم أن تُحَبَّ يُمْنها هامله ، حســنةَ الشَّكْل الموصوف والوَصْــف و إن كان مع عُقُوقه المألُوف، طائعةٌ لأوامرِ توقيعه فــاعَقّ منها شيءٌ غير تضَعُّف ٱسمِها المَعْروف، لابرِحَ إحسانُ مولانا متنوِّعا، و بِرُّه الجزيلُ متبَرِّعا، وغُصنُ قلمه بأنواع المكارِم متفرِّعا .

وله جواب بوصول ثِمــاتٍ، و إوزٍّ صِينىٍّ، وطلبِ إمرةِ عشرة :

حمىٰ اللهُ تلك النِّعمةَ من الغِــيَر، وأطلعَها عليه بأيْمن الغُرَر، ولا بَرِح طائرُ مَنِّــه كوصفه أبيضَ الخُبْر والخَبَر . هذه المفاوضةُ إلىٰ الجناب الكريم تُهْدِى إليه ســلامًا يَشُوق الصَّــباح، وثناءً خَفَّاق الجَنَاح؛ وتُوضِّح لعلمه الكريم ورُودَ مكاتبتــه الكريمة جميلةَ الفَوائد، جليلةَ المَصَايد، تِمِّيَّة البُدُور المتناوَلةِ منمَنَال الفَراقِد، فوقفْنا بالأشواق عليها، وعطَفْنا علىٰ العادة بتأكيد الوَلاءِ إليها ؛ ووصلتْ تلك التِّمّاتُ واضحةَ الأنوار، لائحةً كبياض النُّوَّار، تامّةً تمــامَ مِيقاتِ مُوسىٰ عليه السلام إلا أنَّها لبياضِها كأربعينَ نهار؛ وكذلك البَطُّ الصِّينىّ كأيّام الحجِّ عشرةٌ كامله، مفترَضا علىٰ عَشْرتها ولاءُ القلوب المتأمِّلة الآمِلَه ؛ صــينِيَّةٌ مملوءةٌ بمَحاسن الألوان التى هى بغير مَثَــل مائله ؛ وحصل الاعتدادُ بِبِرِّه، والازدياد لحمده وشُكْره، وفهِمْنا ماذكره من إمرة العَشَرة التى ٱنحلّت

عن فلان، وقد طالَعْنا بأمرها، وعجَّلنا بذكرها، ونرجو أن يعجِّل بأمانيِّها المنتظَره، وأن يقابلَ بخوافقِ أعلامها خوافقَ بَطِّـه فتقابلَ عشرةٌ بعَشَره، والله تعالىٰ يعجِّل لمَآليه الصُّعود، ويؤكِّد لمَساعيه السُّعود، إن شاء الله تعالىٰ .

الأجوبة عن وصول الصُّيود ولحومها

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ نائب حلَبَ بوصول [لحم] طير صيد قَديد وصحبته بِطِّيخ أخضرُ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ . وهو بعد الألقاب :

لازالتْ تُقتَنصُ المحامدُ بعَطَاياه المكرَّره، وأوابِدُ الصيد برمَاياه المُقتَرِرة، ورقابُ الإنس والوَحْش : إمَّا بسهام نِعَمه المتواترة، وإمَّا بسهام قِسيِّه المُوتَّره؛ ولا بَرِحتْ نَفَحات مكارمه، تشهَدُ أنَّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزال، وسَرَحات عزائمه، تمتدّ فى صَيْد الوَحْش لقِرىً نَزيل أو فى صيد الأعداء لتقرير نَزال؛ تقبيلًا تنعطف أجيادُ الظِّباء لمحاولةِ عُقُوده، وتزدَحمُ أفواهُ الأولياء علىٰ مشافهة وُرُوده .

ويُنْهِى بعد وَلَاء تقومُ الخواطرُ الكريمةُ فى دَعْواه مَقامَ شُهوده، وشوقٍ لا تزال النَّسَماتُ الشَّماليَّةُ قاضيةً باستمرارِ وُفُوده ـ أنّ مشرَّف مولانا الكريم وردَ علىٰ المملوك علىٰ يد فلان وصُحبتَه الإنعامُ المتجدّد، وإن كان قديمًا فى المعنىٰ، واللحم القديد، وإن كان أطرىٰ من الروض النَّضِير حُسْنا، والسَّمين المحبوب وإن كان كحال عِداه الذين تُقدَّد جسومهم فى الحياة قبل الممات حُزْنا، فقابل المملوكُ المشرَّفَ الكريمَ، بتقبيل أحْرُفه، والإنعامَ العميم، بقَبُول مُسْعده ومُسْعِفه؛ وعانقَهما بجوانح آماله، وأخذ الكتابَ والبِرَّ كما يقال بيمينه وشِماله، فيالَمَا من ظباءٍ تُعْشَق وإن بليَتْ محاسنُها، وغِزْلانٍ تُغازَل وإن بادَتْ عيونُها إلا أنه ماباد حُبُّ من يعاينُها، وصُيودٍ تُوصَف وإن قصدَتْها قصدُ السِّهام بطَعْن، ويُتَّقى بقُرونها القتالُ والقِسىُّ تالية :

﴿كَمْ أهلَكْنَا من قَبْلِهِم مِنْ قَرْن﴾ . سلكَتْ خيولُ مولانا لقَنصها المَصَاعِبَ واتَّخَذها الآكِلُون سَهْلا ، وتَصَيَّدها من الفَلاة واصطادَها القاعدُون من المِقْلىٰ ؛ ووصل معه البِطِّيخ الأخضرُ فشبهه بثِمار الجنة المشَبَّهُون ، وقيل : هكذا ترتيبُ مآكلِ الجنةِ لهم فيهـا فاكهةٌ ولحمُ طَيْرٍ مما يَشْتَهُون ؛ لا زالتْ مِنَنُ مولانا مشرُوحةً مشْرُوعه ، وثمراتُ نِعَمِه من الدنيا كثَمَرات أهلِ الجنـة غيرَ مقْطوعة ولا ممنُوعه ؛ بمَنّه وكَرَمه .

أجوبة هَدَايا الفَوَاكه وما فى معناها

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

جوابُ وُصُول مشْمِش لُؤلؤِىّ ودَغْمِيشِىّ من حَمَاة ..

بَسطَ الله ظِلَّها ونَدَاها ، وأطلع باليُمْن نُجومَ هديِّها وهُـدَاها ؛ ولا زالتْ مواهِبَ بحرِها لُؤلُؤِيّه ، وشواهد يُمْنِها كَوْكَبِيّة ، وثمراتُ جُودها فضّيةَ الأعيان ذَهبِيّه ، تقبيلاً حلَتْ مواقعه ، وجلَت مَطالِعُه .

وينهى بعـد ولاءٍ وحمدٍ : هذا قد ثبَتَتْ فى القلب شريعتُـه وهـذا قد عذُبَتْ فى السمع مشارعه ، أنّ مشرّفـة مولانا الكريمةَ وردَتْ علىٰ المملوك تتضمّن الحُسن والإحْسان ، ويَمينَ البِرِّ الشامِل لكلِّ إنسـان ؛ وعَهْدَ المحبّة التى حكمتْ فيـه بعِلْمها القلوب فما تحتاج إلىٰ بيِّنةٍ لِسان ؛ فقابلها المملوكُ مقبِّلا ، واستجلىٰ وجهَ الوُدّ والإحسان مُقْبِلا ؛ ووصل المِشْمِشُ الذى شغفىٰ لُؤلؤيُّه نظَرَ الناظرين ، ونوعُه الآخَرُ الدغميشى الذى هو الشهد بحسنه ولا يُدَغْمَش باسمه علىٰ الحـاضرين ، فتناوَلَ المملوكُ عوارِفَ بِرِّه المعروفِ والمبتكَر ، واستضاء نجُومَه المتردِّدةَ مُنْشِدا قولَ المَعَرِّىّ : (كَمْ دُرْن ، وكم يُدْرنَ هـذه الأُكَر) ، وقال : شكَرَ اللهُ هـذه المِنَنَ الحُلْوةَ الثمرات ، المتّصلةَ

الخَطَرات ؛ وهذه المَجانِىَ التى طابَتْ أصولُها وفروعُها فلا أبعَدَهنَّ اللهُ من شَجرات، وحَيَّا حمـاةَ وما جلَبت، وجَنَبَاتِ ذٰلك الوادى وما أنجبَتْ ؛ وحدائقَ ذٰلك العاصى الذى أطاع ببركة مولانا فأنبت أحلىٰ وأحَلّ ما نبَتْ ؛ وقد جهَّز المملوكُ هذه الخدمةَ منْطوِيةً علىٰ وظائف الحمدِ المُستَجاده، ولطائف الحُبِّ المستفاده؛ وحَمْد المِنَنِ التى لاتزال من مولانا عادَة ومن المحبين شَهادَه . لابرِحتْ يدُ مولانا الكريمةُ إن بُسطت فبِعوائد إنعـامها ، و إن قُبِضتْ فعلىٰ سُيوفِها لمَصالح الدُّول وأقلامِها ، و إن زهَتْ(١) فروع المكارم ،تساقطتْ ثمراتُ بِرِّها من زَهَرات أكمامِها .

جواب بوصول مِشْمِش وبِطِّيخ حلَبِىّ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة .

وينْهِى بعد ولاء وثناء : لهذا فى الأسماع أزهىٰ وأزهَرُ ثمره، ولهـذا فى القلُوب أرسىٰ وأرسَخُ شجرهـ وُرودَ المشرَّف الكريم علىٰ يدِ فلان بمـا مَلأ السَّـمْعَ من أخبار مولانا المرتَقَبة سُرورا ، والعينَ من آثارِ يَدِه الكريمةِ نُورا؛ والفَمَ من هَدَايَا المِشمِش الحَمَوىّ كُئُوس لَذّة كان مِزاجُها كافُورا ؛ فقبَّـل المملوكُ أسـطرَه مستحلياً مَواقعَ رَشَـفَاته، وقابله بعَوائد المحامِد مستَجْلِيًا عوائدَ ٱفتِقاداته وصِلاته؛ ومدّ يدَه وفكرَه فالتقط النُّجومَ المُشْرِقةَ من هَدَاياه وكلِماته، وتقلَّد جواهِرَ المَبرَّات الحسنة المُحسَّنه، والثمراتِ التى جاءت بدَرِيَّةَ القُدُوم و إن كانتْ نُجوميَّةَ الهيئاتِ المكوَّنه؛وٱستَصْوب نتائجَ الغيث فقـال : لعَلَّ هـذه بنادِقُ قوْس السماء المُلَوّنة، وصَفَا وطاب ظاهرُها وقَلْبُهـا وكذا تكونُ صِفاتُ ذَوى القلوبِ المُؤْمِنه؛ والمُؤْمِنُ حَلَوِىٌّ لاجَرَم ، والحَموِىُّ علىٰ عَجَمِه الخُراسانِىِّ أوْلىٰ بفَصَاحة الفَخار والكَرَم ؛ لا زالتْ فَعَلَاتُ مِنَنِ مولانا مستَجادَه، ونِعَمُه لاسيَّمـا المِشمِشيَّة مستَزاده ؛ وٱفتِقاداتُه المشهورةُ لدىٰ ممـاليكه

(١) لعل الصواب وان هزت، كما لايخفى .

ومحبّيه منه عادةً ومنهم شهاده، وجاءتْ فاكهةُ البِطّيخ الحلبيّ وقد رَضع حَلَب الغَمَام فانجب ، واستوىٰ باطنُه وظاهِرُه فى الحُسْن فأعْجَب من حينَ أعْشَب ، واستطابَ الذوقُ والشمُّ مَطعَمه وأنفاسَــه ، ووُصِف بالرُّءوس فضَمّه كلُّ متلقٍّ وقبّل راسَه ، وقال : نِعْمَ الهديّة السريّه، والفاكهةُ التى طَلَعَتْ حُزَز[ها] هلاليّة وثمرتها بَدْريه .

جوابٌ عن وصول بِطّيخ حلَبىّ، من إنشائه أيضا، [وهو] بعدَ الألقاب :

وشكَر سَجَاياه التى حلَتْ، وهداياهُ التى تكرّرتْ فخلَتْ، وافتقاداته التى طابَ ظاهِرُها وباطنُها فكأنهــا من أخلاقه الجميــلةِ نُقِلَتْ ، أصدرناها تُهدى إليــه سلامًا يتقدّم كهديته نَسيمُه العاطِر، وثناءً يُنْتِج أطايِبَ الثَّمَر مقدِّماتُ غيثِه الماطِرْ، وتُوضّح لعلمه الكريم أنّ مكاتبتَه الكريمةَ وردَتْ فحسُنتْ بالوُدّ مشافهتُها، وأقرّتْ فى الأسماع فاكِهتَها ومُفاكَهتَها، ووصل البِطّيخ فلله درُّ حَلَبــه ودُرُّ جلَبِه ، لقد حسُنَت فى مَلاذِّ المَطاعم طريقتُه المرضــيّه، ولقد أشبه القناديلَ بتكوينه وفتيــلةِ عِرْقه فلا جرمَ أنّ قناديلَه عند الشُّكر مُضيّه، ولقد ملأ خَبَره وخُبْرُه عينَ البصر وأذُنَ المُصيخ، ولقد خُلِق دواءً للأجسام حتّى صحّ قولُ الحلَبيين للأرمَد : دَواؤُك البِطّيخ؛ فشكَر اللهُ إحسانَ الجناب العالى، وبِرّه المُتوالِى؛ وعلىٰ الوالد والولد ومن عِنْدَهمــا سلامُ المحبّ المتغالِى، والله تعالىٰ يحفَظُ عليهم من الفضل ماوَهَب ، ويرزُقُهم بغــير حساب ويرْزُقُ الظنّ فيهم ماحسِبَ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله أيضا جواب بوصول بِطّيخ حلبىّ، وهو بعد الالقاب :

وشكر إحسانَه الذى حلَا مَذَاقُه، وزكَتْ أعراقُه، وحيّا علىٰ البُعْد تحيّــةً طيّبةً نَفَحَتْ بها أزهارُ الكتاب وأثمرَتْ أوراقُه ، هــذه المفاوضة تُهدى إليه سلامًا طيّبا كهديّته، وثناءً زاكيًا كطَويّته ، وتوضّح لعلمه الكريم وُرُودَ مكاتبتــه الجامعة حَسَن

الأقوال والأفعال، المطلعة بوارِدِ غَمَامها أطيبَ الثمر فى الحال؛ فأحيَتْ وَلاءً حاشىٰ لوجوده من العَدَم، وجدَّدت عهد البِشر ـ وما بالعَهْد من قِدَم ـ ووصل البِطّيخ الحَلَبيُّ أصلُه، الحموِيّ فضلُه، الدِّمَشْقِيُّ ضَمُّه وشَمُّه وأكلُه، الملَكِيُّ ولا سِيَّما من الأهلَّة المجتمعةِ شَكْلُه؛ فكَرُم مَطْلَعا، وحَسُنَ من الأفواهِ مَوْقِعا؛ وعَمّ الحاضرين نَوَالا، وآشتملهم بعَطْف الإحسان آشتِمالا، وأخذ الغلامُ السِّكّين :

فقطَّع بالبَرقِ شَمْسَ الضُحىٰ * وناولَ كُلَّ هلالٍ هلالَا

لابَل أهلَّةً كثَّر تَعدادَها، وكرَّر تَرْدادَها، ورَصَد قُربَها ولا نقول كما يقول أصحابُ الهيئة أبعادَها؛ فشكَرَ اللهُ إحسانَ الجناب العالى حاضِرًا وغائبا، وبِرّه الذى يُطْلِع كلَّ وقت من هَدَاياه وكُتُبه أهِلَّةً وكواكِبا، ومَرْباه الذى نقل عن ملوكٍ كانتْ منازلُهم للحامد رَوْضا وكانتْ أيديهم للكَرم سَحائبا؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله جوابٌ بوصول قَصَب سُكَّر وأُتْرُجّ وقُلْقاس :

لازالَتْ أوصافُ شِيَمِها، تُطْرب كما يُطْرِب القَصَب، وألطافُ كَرَمِها، ممّا يغَذِّى الجسدَ ويُنْعِش الرُّوحَ ويَشْفِى الوَصَب، وأصنافُ نِعَمِها من الحُلْوِ إلى الحامض ممّا يُعْدِى الأيدىَ المتناوِلة فهى علىٰ الأعداء تَنْتصب، تقبيلَ محِبٍّ حلَتْ له المِنَنُ فتناولَها، ومواقِعُ اللَّثْم فعاجَ إليها وعاجَلَها .

ويُنهِى ورُودَ مشرَّف مولانا الكريم، علىٰ يَدِ فلانٍ يتضمّن الحُسْن والإحْسان، والبِرَّ المأثُور بكلِّ فَمِ المشكُورَ بكلِّ لسان، فقابله المملوكُ بما يجب من الخِدْمة لمثله، ولاقاه بعوائدَ تحمَدُ عوائدَ فضْله، ووصل قرينَه الإنعامُ الذى تنوّع فُنونا وأفنانا، وملأ فَمَ الشراب خاناه سُكَّرا ويدَ المَطْبَخ إحسانا، وذكَّر نباتُه الطرابُلُسِىُّ عُهُودَ الديار المِصْريه، وأوقاتَ الأُنس بخِدْمة مولانا السنِيّه؛ سَقْيًا لها من أوقاتٍ وعُهُود، وشُكْرا

لجود مولانا الذى هو فى كلّ وادٍ موجود ، ولتدبيره الشمسىّ الذى أحيا اللهُ به علىٰ عباده عناصرَ هذا الوُجود ، ولا برحتْ مكارمُه متنوّعه ، ونِعَم أياديه متفرّعه : فمنها ماحَلَا فرعُه فأصبح لكلّ حُلْوٍ أصلا ؛ ومنها ماطاب رِيحه وطَعْمُه فكان للؤمن مثلا ؛ ومنها مالَذَّ طعامُه الشهِىّ فما هو مما يُهْجَر و إن كان ممـا يُقْلىٰ .

وله جواب بوصول باكُورة خِيَار ومُلُوخِيَّة :

لازالتْ تشْرَح بمكارمها الصُّـدو ر ، وتفْتَح بركاتِ الأعوامِ والشُّهور ، وتَمْنَحُ من لَطائِف مِنَنِها كلَّ جماعةِ السُّرور ، وتلْمَح فى هـدَاياها المستبقة إلىٰ الأوليـاء خيارَ الأمور ؛ تقبيـلَ مُحِبٍّ لاتُغيِّر ولاءَه الدُّهور ، ماشٍ من طريقِ المُصافاة والمُـوافاة فى نُورٍ علىٰ نُور .

و يُنْهِى وُرودَ مشرِّفةِ مولانا علىٰ يدِ فـلانٍ تتضمَّن المَعْهُودَ من وَلَائِه وآلائِه ، والمشهودَ المشهورَ من إحسانِ نَدَاه قبْلَ نِدَائه ؛ فقابلها المملوكُ مقابَلَةَ الشَّيِّق إلىٰ قُرْب الديار ، المُمضِى فى المحبَّة قَلْبَـه لمولاه قَبْل شَرْط الخِيار ، ووصلَتْ لطائفُ هديَّتـه الخَضِرة النَّضِره ، وطَرائفُ الفضـل الباكرةُ كمَعَانِى اللفظ المبتَكَره ؛ فتنَجَّز المـملوكُ الفاكهةَ قبـلَ أوانِها البَدِيع ، و رصَـدَ من أفلاكِ العُلَب فى ذى الحِجَّة غُرَّةَ رَبِيع ؛ وتفاءَلَ بالهديَّة المَجْمِعة الأحباب فى أن يَعُودَ الشَّمْلُ وهو جَمِيع ؛ وقد عاد فلانٌ حاملًا من رسائِل الشوق والشُّكر مايُؤدِّيه بينْ أيْدِى مولانا الكريمه ، ويجَـدِّدُ بذِكْراه عُهودَ الأنْس القديمه ؛ لابَرِحَ مولانا سابقَ الكَرَم ، مُخْضَرَّ المَرابِع بِبِيض النِّعم .

قلت : وكتبت جوابًا لبعض الأصحاب وقد أهدىٰ لِى سَمَكا :

أهدىٰ لَنَا سَمَكًا قَدْ طابَ مَطْعَمُه * أكْرِمْ به سَمَكًا لم يَسْكُنِ البِرَكا !
لا شَكَّ أنَّ له بالبَحْر شا كلةً * والبحْرُ عادتُه أنْ يُهْدِىَ السَّمَكا !

الضـــــرب الثـانى

(من كُتُب التهـادى الاَسْتهْداء)

وآعلم أنّ كلّ ما يُكْتَب مع إهدائه قد يُكْتَب مع آستِهْدائه، إلا أنَّ الغالب ممـا جَرَتْ به عادةُ الكُتَّاب فى الاِستهداء طلبُ الأشـياء المستظْرَفة الخفيفةِ المِنَّـة دُونَ ما يعظُمُ خَطَرُه، أللهـم إلا أنْ يكونَ الاَستهداءُ من المـلوك ونحوِهم فيطْلَب فيـه ماجلّ وعظُم .

والذى جرت عادة الكُتَّاب بالكتابة فى آستِهدائه علىٰ أصناف :

الصنف الأوّل ـــ آلاتُ الكِتابة : من الأذوِيَة[1] والمِدَاد والأقلام : ممـا تقدّم ذكره فى الإهداء .

أبو الفَرَج البَبَّغاء فى آستهداء دواة :

أنفَسُ الذَّخائرِ وأشرفُ الآمال ما كان للفَضْل نَسَبا، وللصِّناعة والحُظْوة سببًا؛ وبالدُّوِيِّ تجتنىٰ ثمرةُ الصِّناعة، ويحتَلَبُ دَرُّ الكِتَابة، وقد أوحَشَ الملوكَ الدَّهْرُ ممـا كنتُ أقتَنِيه من نفائسها، وضايقَه فى وُجود الرِّضيِّ علىٰ الحقيقةِ منها، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُميطَ ببعض مايستخدِمه من حالِيها أو عاطِلها سِمَةَ عُطْلة المملوك، ويَسْمَحَ بإهدائها إلىٰ أهلِ تصْرِيفه ويقابِلَ بالنُّجْح والتقبُّل رغبَتَه، فعل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى آستهداءِ مِدَاد :

التَّنـافُسُ ـ أيدك الله ـ فى أدوَات الكِتَابة وآلاتِ الصِّـناعة بحسَب التَّفـاخُر فى ظُهُور النعمة، والتخيُّرُ لبيانِ الإمكان والقُدْرة، وإلا فسـائرُ الدُّوِيِّ سَواءٌ فيما تُصْدِره

(١) لعل الصواب من الدوىّ انظر القاموس .

الأقلام عنها ، وتستَمدُّه بُطونُ الكتُب منها؛ وأَوْلَىٰ آلاتها بأن نتوفَّر العنايةُ عليـه، وينصرف التّخيرُ بالضَّرُورة إليـه؛ المِدادُ الذى هو يَنْبُوعُ الآداب، وعَتادُ الكُتَّاب، ومادّةُ الأفهام، وشِرْب الأقلام؛ جعلَها اللهُ بواجب القضيَّة والحُكْم، فى حَيِّز وصْفه من الحمد والذّم؛ ومازلْتَ لنفائس الأخلاق مَوْطنا، ولنُجَع الإخوان فى المَحْل مَعْدِنا؛ ولا مَعْدِلَ بِى عن ٱستماحة خزائنك عَمَرها اللهُ المُمكِن من جَيِّده، فإن رأيتَ أن تستنقذ دَواتِى من خُمول العُطْلة ، وتُنَزِّه قلمِى عن ظمإ الغُلّة ، وتكشِفَ عنها سِمةَ النّقْصان والخَلّة، فعلتَ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

علىّ بن خلف، فى مثله :

أولىٰ ما أنبسط فى ٱستهدائه، وتسمَحُ [نفسى] فى ٱستماحته وٱستجدائه، ما كان ناقعًا لغُلّة الأقلام ، مقيِّـدًا لشَوارد الأفهام ، مُحَبِّرا لبرود البَيان ، حاليًـا فى معارض الحُسْن والإحسان، وكتبتُ هذه الشَّكوىٰ أطال الله بقاء سيدى :

الصنف الثـانى — الشَّراب .

فى ٱستهداء مشروب .

أبو الفــــرج الببغاء :

أنا ـ أيدَ اللهُ سيِّدى ـ ومن سامَحَنِى الدَّهْر بزيارته من إخوانى وأوليائه، عضَّداللهُ جمعَنا ببقائه، وُقُوف بحيث يَقِف بنا ٱختيارُه : من القَبُول والآنْبساط، و يرتَضيه لنا إيثارُه: من الهَمّ والسُّرور، لأنَّ الأمرَ فى ذلك ممـا يُولِيناهُ من المساعدة بالممكن من المشْرُوب إليه، والاعتمادَ دُونَ كلِّ أحد فى ٱجتماع شمْلِ المَسَرَّة لَنَا بِهِ عليه، فإن رأىٰ أن يكِلَنِى إلىٰ أوْلىٰ الظّنين به وأحقّهما بمأثور فُتُوّته، فعل .

وله فى مثـــله :

ألطَفُ المِنَن موْضعا ، وأجَلُّها من الأنفُسِ مَوْقِعا ، ماعَمر أوطان المَسرّه ، وطَرد عوارضَ الهَمّ والفِكْره ؛ وجمَعَ شَمْل المَودّة والأُلفـة ، وأدّى إلىٰ آجتِناء ثَمرة اللّذّة ؛ وبذَخائرِك من المشْرُوب مع هـذه الأوصاف [ما] يستَرِقُّ حُرَّ الشكر، ويُحْرِز قصبَ السَّبْق إلىٰ الثناءِ وجميـلِ الذِّكْر ؛ فإنْ رأيتَ أن تُجْدِ بالممكن منه مُرُوَّتى، علىٰ قضاءِ حقّ من أوجبَ المِنّةَ علىّ بزِيارتى ، فعلتَ .

وله فى مثـــله :

مَنْ كان للفضل نَسَبا ، ولفَلَك الفُتُوّة قُطْبا ، لم تَفزَع القلوبُ من الهَمّ إلّا إليه ، ولم تُعوّلِ الأنفُسُ فى آستِمـاحة المَسَارّ إلّا عليـه ؛ وقد طرَقنى من إخوانى مَنْ كان الدّهرُ يُمـاطِلُنى بزِيارَته ، ويَنْفَسُ[1] علىّ بقُرْبه ومُشاهَدته ؛ فصادَفنى من المشْرُوب مُعْسِرا ، ووجدتُ الانبِساط فى آلتِمـاسه من غيرك علىّ متعَـذِّرا ، وإلىٰ تفضُّلك تَفزَع مُرُوءتى فى الإسعافِ منه بمـا يَلُمُّ شعَثَ الأُلفة ، ويجمع شَمل المَسَرّة ؛ ويجعلنا لك فى رِقّ الاعتدادِ بالمِنّة ، ويقضى عنى بتفَضُّلك حقُوقَ المودّة .

علىّ بن خلف :

قد آنتظَم لنا ـ أطال الله بقاءَ سيدى ـ مجلسٌ واقفٌ بينَ النّشاط والفُتُور ، والكآبة والسُّرور : لغُرُوب نُجوم الخمر عن سَمَائه ، وعَطَله من حُلِىّ نُوره ولألائه ؛ وقد عوّلنا فى إطلاقه إلىٰ إحدىٰ الجهتين عليه ، وجعَلْنا زِمامَه بيدَيْه ، فإن رأىٰ أنْ يُروّحَ أفكارَنا بشىءٍ من راحِه المُشابِهة عَبَقا وعِتْقا لأخلاقه وأعْراقه ؛ فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى "القاموس" مادة ن ف س « ونفس به كفرح ضن وعليه بخير حسد » .

وله فى مثـــله :

أفضلُ ماأهدىٰ سيدى ماأهدىٰ السُرورَ إلىٰ أحِبّته، ونظَمَ شَمْلَ المتحَقّقين بخِدْمته، وحَسَم عنهــم هوَاجِسَ الفِكْر، وأعْداهم علىٰ الدَّهْر؛ وقد جمَعَنا مجلسٌ وهَبْناه للثناء عليــه، وزُفَّتْ عرائسُ الخمر إليه، فإنْ رأىٰ إيثارَنا بمـا يُكمِّل نَشاطَنا، ويَتمّمُ آنبِساطَنا، فليَغفِرْ همُومَنا بشيءٍ من عُقَاره، ويَنْظِمْ [جمعَنا] فى سِلْك أياديه ومَبَارِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الرابع

(الشّـــفاعات والعنـــايات)

قال فى "موادّ البيان" : وهذه الكتُب إنما تَصْدُر عن ذَوِى الرُّتَب والأخْطار، والمَنازل والأقْدار، الذينَ يُتوسَّل بجاههم إلىٰ نَيْل المطْلُوب ودَرْك الرغائب .

قال : والملتَمَس فيها ممن تُنَفَّذُ إليه أحدُ ثلاثةِ أنواع : إمَّا بَذْل مالهِ ولا يَبْــذُل مالَهُ إلا ذُو مُروءة يَفرِض علىٰ نَفْسه حقًّا فيــه لقاصِديه؛ وإما بذْل جاههِ وفى بَذْل الجاه إراقةُ ماء الوجه والتعرُّضُ لموْقِف الرَّدّ؛ وإمَّا الآسـتِنْزالُ عن سَخِيمةٍ ومَوْجِدة فى النزول عنهما كفُّ حَدّ الغَضَب وغَضُّ طَرْف الحَنَق، وهما صَعْبان إلاّ علىٰ من فَضَل حِلْمُه، ولَطُف فهْمُه .

ثم قال : والكاتبُ يحتاجُ إلىٰ التلَطُّف فيهما وإيداعِهِما من الخطاب ما يَخْرُج به الشافِعُ عن صُورة المتقِّل علىٰ المشفُوع إليه بما كَلَّفه إيَّاه، ويؤدِّى إلىٰ بلوغ غَرَض المشفُوع له ونجاح مَطْلَبه؛ ثم أتبع ذلك أن قال : وسبيلُ ما كان فى آستِماحة المـال، أن يُبْنى علىٰ الإبانة عن مَوْقِع الإفضال، وفضيـلة النّوال؛ وآغتنامِ فُرَص الاقتِدار،

فى مَعُونة الأحْرار، وما جارىٰ هذا ـ وسبيلُ ما كان منهما فى طلبِ الآنتفاعِ بالجاه أن يُبْنىٰ علىٰ هَزِّ الأرْيحيَّة لاَصطِناع الصَّنائع، وتحمُّل المَشاقّ فى تقليدِ المِنَن، وآدّخارِ الفِعل الحسَن، وآغتنامِ الأجروالشُّكْر ـ وسبيل ما كان منهما فى الآستِنْزال عن السَّخائم أن يُبْنىٰ علىٰ الملاطَفَة، والإشارةِ إلىٰ فضيلة الحِلْم والصَّفح عن الخاطِئ، وما فى ذٰلك من حُسْن السُّمْعة فى العاجله، ومتوفِّر المَثُوبة فى الآجله، ونحو ذٰلك .

وذكر أنَّ أحسن ماقُصِد فى هذا الفَنّ مَسْلَكُ الإيجاز والآختصار، وأن يُسْلَك به مَسْلَكَ الرِّقاع القِصار المجمَله، لاالكُتبِ الطِّوال المفَصَّله، وأنْ يُرْجَع فيما يُودَعه إلىٰ قَدْر الشافع والمشفُوع فيه، والكاتبُ إذا كان مُرتاضا ماهِرا لم يضِلَّ عن تَنْزيل كلِّ شىء [فى] منزلته، وترتيبه فى مرتبته .

قلتُ : ومن أحسن مايطابِقُ هذا النوعَ مارأيتُه فى بعض المصنَّفات : أنَّ عمروَ آبنَ مَسْعدةَ وزيرَالمأمون كتب إلىٰ المأمون فى رُقْعة :

أما بعدُ، فإنَّ فلانا سألَنِى أنْ أشفَع له إلىٰ أميرِ المؤمنين، فأخبَرْته أنّى لم أبْلُغ عند أميرِ المؤمنين مَبْلَغَ الشَّفاعة ـ فلمَّا وصلَتِ الرُّقعة إلىٰ المأمون وقَّع عليها بخطِّه : قد فهِمْنا تصريحَك به وتعْريضَك بنَفْسِك، وأجَبْناك إليهما وأتحَفْناك بهما .

من كلام المتقدمين :

الحسن بن سهل :

كتابى إلَيكَ كتابُ معتنٍ بمن كتَب له واثقٍ بمَنْ كتَبَ إليه، ولن يَضيعَ حامله بين عنَاية وثِقَة، والسلام .

أبو الحسَين بن سَعْد :

وقد توجّه إليك فلانٌ بقَصْدِ فيهِ مستَجْمِع ، وأملٍ فيما قِبَلَك مُنْبَسط ، وايس بعدَ إصابتك عنده مَوْضِعا وعندَنا متحمَّلا لليَد الحسَنَة إلا آفتراضُ ذلك منه ومنًّا فى أمره علىٰ يُسْر فى حاجته ، وتخفيف من مَئُونته ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تأتِىَ فى ذلك بما يشبه أملَه وظَنَّه ، وتُوجِب عليه الحقَّ به ، ونشكر لك منه مايبقىٰ عندنا ، بأنك بحيثُ تأتى الفضل وتتوخّى الصِّلَة ؛ [فعلت] إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : معْرفتى بأنك لا تجاوَزُ فى العُقُوبة سبيلَها من مَوَاقع الأدب ، تَحْملنى علىٰ مُسَاءَلَتك ماأنت مُوجِبٌ له والذِّكرىٰ تنفعُ المؤمنين ، ولولا ذلك لآستغنىٰ صاحبُ كتابى عنه ؛ فإن كان ذَنْبُه صغيرا فالصغيرُ يُخْرِجه من حَبْسه ، وإنْ كان كبيرا فالعفو يسَعُه . وكتابى متقاضٍ لك تقديمَ العَفْو علىٰ العُقُوبة ، والحسَنةِ علىٰ السيِّئة ، والآستصلاحِ علىٰ القُوّة فى التأديب .

طِفَال بن شَـبّة :

وأحقُّ من يَعْطِف علىٰ أهلِ البُيوتات ، ويجُودُ لهم بما يَبْقىٰ ذكْرُه ، ويَحْسُن به ذُخْره ، مثلُك ؛ وقد وجّهت إليكَ فلانا ، وهو من ذَوى قَراباتى ، وذَوى الهيئة من أُسْرتى ، وعَرَّضْته لمعْروفك ، وأحببْتُ أن تُلْبِسه نعمتَك وتَصْرِفَه إلىّ وقد أودعْتَنى وإيّاه ماتجِدُه باقيًا علىٰ البِشْر (١) الجميل فى الغَيْب والحَضَر .

ولغــيره :

وقدجعلكَ اللهُ غياثًا ، وجعل عِنْدكَ لمؤمِّلِك وراجى رِفْدك ، أبلغَ ذَريعةٍ من كرمك وفَضْلك ؛ وقد أصبحْتَ مفْزَعَ كلِّ ذى همٍّ ، ومَلْجأَ كلِّ ذى أرَب ، وموضِعَ كلِّ أمل ، وأصبحتَ ملتقىٰ السُّبُل ، ومجمعَ الأصناف المختلفةِ ، والطوائف المتصرِّفة .

(١) لعله على نشر الجميل الخ .

أبو مسلم محمد بن بحر :

قد شَهّرتَنِي باصطناعك [حتى] تكافأ فى معرفة خبرها أهلُ بُلْدانِ المَشْرِق والمَغْرِب . والذين عرفُونى فصديق منهم مُغتبط بذلك لِى ، وشريكٌ فى النعمةِ به عَلَىَّ ، وقوىُّ الظهر بما مَنَحَنِيه اللهُ من رَأْيك ؛ وإذا نابتْ بعضهم نائبةٌ يرجُوك لكَشْفها ولم يَكُنْ له إليك طريقٌ يُدْنيه ولا حرمةٌ تقربه وتَعْطِفك عليه ، سألنى الشفاعَةَ له إليك ؛ ففعلْتُ ذلك مُدِلًّا بما أعتقده من الشُّكْرِ على نعمتك عندى ، والإخلاص فى طاعتِك المفروضةِ علىّ ؛ واثقًا بتَسْويغك إياىّ مارُقِّيتُ إليه من درجة الشافع لغيره ، والسائل (؟) فى طريقه وذَوِى الحقّ عليه : لتكونَ قد أكملْتَ علىّ النِّعمةَ ، ووَكّدت لَدَىّ العارفة ، وآستَمَمْت عندى الصَّنِيعة .

أبو الخَطَّاب بن الصابى :

أبْسطُ الشفاعة وَجْها ، وأقربُها نُجْحا ، وأوْقَعُها فى القلوب ، وأسرَعُها إلى القَبُول ، ماوقَعَ من أقسام ثلاثة : من إدلال السائل بحُسْن الظنّ ، وآرتياح المسْئول إلى فعل الخَيْر ، وآستحقاقِ المسْئول فيه لقَضاء الحقّ ؛ فإذا آجتمع لها ذلك كانت الثِّقةُ بها زائده ، والفُتُوّة لها رائده ، والفضلُ عليها قائما ، والنُّجْح بهاقادِما ؛ وكان الشُّكْر من أقلّ موجُوداتها ، والمِنّةُ من أجَلّ مَذْخُوراتها .

وله : إنْ دَلَّ المملوك فبِصِدْق المودّة ، أو عَوّل فعلى حُسْن النيّة ، أو آستظهر فبقديم الحُرْمة ، أو آستنصر فبكريم الرِّعاية ، ووراءَ ذلك هِمّةٌ من مولانا بعيدةُ المَرَامى ، طويلةُ المساعى ، شامخةُ الأنْف ، سابقةُ الطَّرْف ، تُوجد الآمال سِراحا ، وتُوسِعُها نِجاحا ، وتأخُذُها خِماصا ، وتَرُدُّها بِطانا ، وتُورِدُها هِزالا وتُصْدِرها سِمانا(١) ؛ وثِقةٌ منّى

(١) لم يرد هذا الجمع فى كتب اللغة التى بأيدينا والقياس على بطان وسمان لا يأباه .

قد أحكم عَقْدَها الزّمان، وأوثق شَدَّها الاِمتِحان،فصارتْ لأعراض المملوك رائده، وفى قُوّة نَفْســه زائده؛ فالمملوكُ من ٱجتماع هذه الأقْسام، ووُجُوب ماتقتضيه من الأحكام، بين ظَنٍّ جميلٍ لامجالَ للشكِّ عليه،ويقينٍ صحيحٍ لاوُصولَ للاَرتياب إليه .

آخـــر : ولئن كانَ المملوكُ أسْرف فى مَجارِى التثقيل علىٰ مولانا ، فإنّ المملوك لم يردّ بعضا من دواعى الأمل فيه، فإنّ المظنونَ من فُتُوّة مولانا رائدُ الثِّقة بجميلِ نيّته، ولن يعدَمَ النجاحَ من ٱعتمدَ علىٰ الفُتوّة والثِّقة .

آخـــر : ويُنْهِى أنّ المملوكَ إن ٱدَلَّ، فبحقٍّ لدىٰ مولانا أكّده، أو ٱسترْسَل، فبفضْلٍ منه عَوّده،وبين الدالّة من المملوك والعادة من مولانا موضعٌ لنَجاح الحاجة، وبلوغ الإفادة، وقد فعـل المملوكُ ماتعلّق به واثقًا بالكرم من مولانا؛ فليَفْعَل مولانا مايتعلّق به محقّقا للأمَل فيه .

آخـــر : وينهى أنّ المملوك إن ٱنبَســط، فمُدِلٌّ بالحرمة الوكيدة، ومعَوِّل علىٰ النية الكريمة، أو ٱنقبض، فلهَيْبة الإقدامِ علىٰ مولانا ومُراعاةِ التخفيف عنه، ولفضله فيما بيـــن ذلك مَسْلَك وغلبة تسلُّط يَدْعُوان إلىٰ حُسْن الظن بمولانا، ويُوثّقان من وُجُود النجاح لدَيْه .

آخـــر : بذْلُ الجـاه فى إعانةِ الضـعيف ، وإغاثة الملْهوف ، والترويح عن المضْغُوط، والتفريج عن المَكْروب المكْدود؛ كبَذْل المـال فى إسعاف المُعْسر، وإسعاد المُقْتر،ومُواساةِ المحروم، والتعطُّف علىٰ المَرْحوم،وما فى الحالتين إلّا ماالدِّيانةُ له ضامِنه، والمُروءة له قائمة؛ والحقُّ به مستَوْجَب، والأجرُ به مكتَسَب، والصنيعةُ به معتَقَده، والمَثُوبة به مُدَّخَره .

آخـــر : وينهى أنّ حُرْمَةَ الجوارِ من أوْجبِ الحُرُماتِ حقّا، وأحكمِها عَقْدا، وأخصِّها بالعِنايه ، وأحقِّها بالرِّعايه ، وما رعَاها إلا ذُو قـَـدْرٍ عظيم ، وخُلُقٍ كريم ، وأصلٍ عريق ، وعَهْدٍ وَثِيق . وفلان ممن يَضْرِب بدالَّتِها، ويَمُتُّ بوسيلتِها، ويَتَخَفَّرُ بذِمّتها، ويتعلّق بعِصْمتِها، ويعتدها وَزَرا مانعا، وذُخْرا نافعا ، وعُدّةً موجودةً عند الحاجة؛ وله أمْرٌ يذكره مشافَهَة، فإن رأىٰ مولانا أن يحقِّق من ظنّه ما كان جميلا ، ويصـدِّقَ من أمله ما كان فَضْلُ مولانا إليـه سَبِيلا ، فهو المعهُود من إحسانه ، والمؤمَّل من فَضْله .

آخـــر : مَنْ سافَر إلىٰ سـيِّدي بأمله ورَغْبتـه ، ومَتَّ إلىٰ حضرته بوِفَادته وهِجْرته ، فقد آستغنىٰ عن الشافع، وكُفِيَ أمْرَ الوسائل والذَّرائع؛ وحاملُ كتابِي هذا قد تجشّم القُدُومَ إليه، وتمسّك بذِمام[1] الوِفَادةِ عليه؛ مع ما يَتَحقَّقُ به من حَقِّ المشاركة في الصِّناعة، ويستوجبُه بفضيلة الكِفَاية والأمانة؛ وإنما أصدر المملوكُ هذه الخدمةَ علىٰ يده ممهِّدة لأُنْسه ، ومقوِّيةً لنفســه ؛ وإذا مَثَل بحضرته ، ونظَره بعَيْن نَبَاهته ، فقد غَنِيَ عن الشفاعة وبلَغ الإرادة .

آخـــر : ويُنْهِي أنّ ما يَفْرِضه مولانا لمن أمّه بالرجاء، ومَتّ له بإخلاص الحمد والثناء : من إدْرار أخْلاف الإفضال ، وتحقيق الرَّغَبات والآمال ، يُغْنِي قاصـدِيه عن الشَّفاعات والوسائل، ويكفي آمليه تحمُّلَ الذَّرائع والمَسائِل؛ والواصلُ إليه بهذه الرُّقْعـة فلانٌ؛ ومولانا يَعْرِف حقَّه علىٰ المملوك وماله من المَواتِّ لديه ؛ وقد توجّه إلىٰ حضرته، راجيًا أن يُتْحِفه من ظلِّ سـعادتِه ما يتكفّل بمصلحته، ويقضي علىٰ الزمن بإعْدائه ومعُونته ؛ ومولانا أحقُّ من تَوَلَّاه بحسن خلافته فيه ، والتفضُّل علىٰ المملوك بتحقيق ما يُرجِّيه .

(١) الذمام بالذال المعجمة الحق والحرمة.

آخر فى معتقل : عِلْمُ المملوكِ بأنَّ مولانا لا يتعدَّى فى العِقاب موضِعَ الإصلاح والتأديب ، ولا يتجاوَزُ فى الغَضَب موقِعَ التقْويم والتهذيب ؛ عملًا بالعَدْل ، وتمسُّكا بالفضــل ؛ يبعثُــه علىٰ تنبيهِ لمــا أغْفَله ، وانقيادِه لمــا أصَّــله ؛ وفلانٌ قد تطاوَلَ اعتقالُه : فإن كان جُرْمه صغيرًا فقد ظُلِم فى القِصاص ، وإن كان كبيرًا فقد استحقَّ الخَلَاص؛ والمسئُولِ من إحسانه أنْ يُعاوِدَ جميــل عادتِه، ويُراجِعَ كريمَ شيمتِــه ؛ فيَعْمَلَ فى أمره بالعَدْل ، إذا لم يَرَه أهْلا للفضــل ؛ وإنْ كانت حقوقُه متأكِّده ، وحرمته مؤكده؛ فلا يحسن أن يُضاعَ ويُخْفَر، ولاينبغى أن يُجْحَد ويُنْكَر؛ وهو حَرِىٌّ أن يحقِّق الظنَّ فيه، ويقابل هذا السُّؤال بمــا يقتضيه .

آخــــر : علىٰ حَسَب أخطار الودائع يكونُ الإشفاقُ عليها، والشكرُ ممن صرفَ رعايتَــه إليها ؛ وقد كان المملوكُ أودَعَ كَنَفَ مُروءَته، وفِناءَ همَّته، فلان؛ وهو دُرَّة المَحاسن الفريده، ونادِرةُ الدَّهْر الشريده؛ والجامعُ لأسبابِ المَحامدِ بفضائله ومَناقبه، والناظمُ لِنثَار المآثر بخُلُقه وأدَبه؛مع ماخُصَّ به من المعرفة بقَدْر الصنيعة،والتعويض بالشُّكرِ عن قليــل العارفة ؛ والمملوك يرجُو أن يكونَ مولانا قد أحسَن خِلافَتَه فيه ، ونَزَّله من حياطتِه وتولِّيه ، بما يُوجبه مكانُه من المملوك ويقتضيه ؛ متعوِّضا من شكر المملوك وشُكْره بمــا هو خليقٌ أن يطوِّق أجيادَ مَعَاليه، وينتظِمَ فى سِلْك مَساعيه .

رقعــــة ــ وينْهِى أن الأيَّام ، إذا قعدَتْ بالكِرام ، فأنزلَتْهم بعد السَّعة ضيقا ، أوجَدَتْهم إلىٰ التثقيل علىٰ من يمُتُّون إليه بسالف الخِدْمة طَريقا؛ وممن تحدَّاه الزمن بنكَده، وعوَّضه ببُؤســه من رَغَده، فلان ؛ وكان قد فَزِع إلىٰ جماعة من الخُلَّان ، واثقًا منهم بالامتنان والإحسان ، فالفىٰ وَعْدا جميــلا ، ومَطْلا طويلا ؛ فعدَلَ عنهم

إلىٰ سيدى وعزل عَنْهم إليــه، وتوجَّه إليه معتمدًا بعــدَ الله فى مَقْصده عليه، ثقةً بفَضْــل غَيْره[١]، وحُسْن أثَره، وتحمّلَ عبوديّةَ المملوك هذه ذريعةً تبْسُط له من مولانا مُحيَّاه، وتوصِّــله إلىٰ مايرجُوه من معروفــه ونَدَاه . وما أوْلىٰ مولانا بأن يحقِّق ظنَّ المملوك وظَنَّه، ويحوز شُكْره وشُكْره، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــــة — وينْهِى أنَّ رَغْبة ســيدى فى إسْداء المعروف، وغَوْث الملْهوف، تبعَثُ علىٰ السَّــفَر إليه، والتقدُّم بالرَّغَبَات عليــه؛ والله تعالىٰ يواصل المِنَح لدَيْه، كما وصَــلَها من يدَيْه؛ وقد ســبقتْ له عَوَارفُ لايَنْساها المملوك، ولا يؤمِّل جزاءَها إلا بمرفُوع الدعاء، وكريم الثَّناء؛ حتَّى تقتضى ضَرائرَها، وتستدْعى نظائرَها، وحاملُ عبوديَّتى هــذه، فلان؛ والمملوك يَرضىٰ لمولانا لسانَ شُكْره، كما يَرْضاه لتحمُّل برِّه؛ وقد رَكَض ظهْرَ الأمَلِ إلىٰ حَضْرته، ووَثِق ببُلُوغ الوَطَر من جِهَتــه؛ وأن يُنْظَم فى سِلْكِ من أُسْبِغتْ عليه عَوارِفُه، وعَمَّته لطائفُه؛ وعزَّز ذلك بٱستِصحاب كتاب المملوكِ إلىٰ بابِه، وتقديمِه ذريعةً فى الترامِ حقِّه وإيجابِه .

رُقْعــــة — مَنْ كان سيدى شافعَه ٱنْبَسط فى المُنَىٰ، ولم يَرْض بغير العُلا؛ وقد علم مولانا أنَّ للشَّــفاعة أحوالًا ثلاثا؛ حالًا تخُصُّ الشافعَ، وحالا تخُصُّ المستشفع؛ وحالا تخص [المشفُوع إليه][٢] ولكلِّ حدّ يجب الٱنتهاءُ إليه، ولا يجوز التقصير فيه؛ فعلىٰ المستَشْفِع ٱرتيادُ أخصَبِ جَنَاب، وأسْكَبِ سَحَاب، وقَصْدُ الجهةِ التى لا تصُدُّ عن البُغْية سائِلا، ولا تردُّ عن الأمَلِ آمِلا، وأن ينْهض بالشُّكر علىٰ العارفه، ويُحدِّث بالنِّعم عنــه فى الأحوالِ الطارِفه؛ وعلىٰ الشافعِ أن يُهَرِيق ماءَ وجْهــه فى السُّؤال،

(١) غار الرجل يغوره و يغيره نفعه فالمراد بفضل نفعه تأمل .

(٢) فى الاصل الشفيع وهو غير مناسب .

ويجرِّد رَغْبَته فى تسهيل المَنَال ، ويعتقدَ أنَّ ذلك من الدَّين المقترَض، والدَّين المفترَض ، ويتكفَّلَ بالقيام بما يستدْعى منه من المكافاه ، ويُلتمَس من العوض والمجازاه . وعلىٰ المشفُوع إليه أن يعلَم أنَّ الشافعَ والمستَشْفِع ما قصَدَاه إلَّا بعدَ الثِّقة بأحَدِيَّته ، ولا اعتَمَداه إلَّا بعد السُّكون إلىٰ أرْيَحِيَّته ، وأنه لاينبَغِى أن يُخسِر مَتْجرهما، ولا يُضيع سَفَرهما ، وقد اجتمعتْ هذه الأحوالُ الثلاثُ للرئيس المشفُوع إليه، ولسيِّدى الشافع، ولخادمه المستَشْفِع به ؛ ولم يبقَ إلا عَزْمةٌ منه تَهُزُّ أفنانَ الإقبال فتَسَّاقطُ أثمارُها، وتُنْشئُ عَوارِضَ الآمالِ فيَتَهافتُ قِطارُها .

أبو الفرج الببغاء :

ومُوصِّل كتابِى هذا غَنِيٌّ عن شفاعتى له بما يَمُتُّ من حُرُمات الرَّغْبة إليك، والوُقُوفِ دُونَ كلِّ مَقصِدٍ عليك، وبما يشْفَع ذلك من التقدُّم فى الصِّناعة، والتوصُّل بوجيه الكفاية؛ وإنما زوّدتُه هذه الأحْرُفَ لأفتح له باب الأُنْسة، وأُسَهِّل السُّبُل إلىٰ التعلّق بالخُلّة ؛ وأدُلّ بها علىٰ ما تكْشِف منه المُطاولَة والخِبرة ؛ وأنتَ أيدَك الله وليُّ التطوُّل بالتقدّم فى إيناسِه وبَسْطِه فى الخِدْمة بما يستَزِيد له محمودَ الأثر فيها من حُسْن النظر وجميل الرأى .

وله فى مثله :

ومُوصِّل كتابى فيما يؤمِّله منك ويبلُغُه بك متَمَسِّكٌ من رجائك بأوكَدِ ذِمَّه ، ومن شفاعَتِى بأوجَبِ حُرْمه، ومهما مَتَّ به بعدَ ذلك من ظهُورِ كفَايةٍ أو تقدُّمٍ فى صناعةٍ كان غيرَ ضائعٍ عند رِعايَتِك ، ولا مجهولٍ مع تيَقُّظِ عِنايتك ؛ وأرجو أن يَحُلَّ من تقبُّلك، بحيث أحلَّه حسْنُ النظر تطوُّلك .

وله فى مثـله :

وفى علمك ماآخذ به نفسى ، وأروض به أخلاقى : من الانقباض عن التسرع إلى مسألة ، والاحتشام من الانبساط فى حاجة ، مادلّك على موضع فلان ومكانه من إيثارى بواجبات حقوقه، وسالف مواتّه، ولذلك سمحت بالكتاب له إليك، وفارقت رسمى بالتثقيل فى قضاء حقّه عليك، وقد قصد نحوك بأمله ، واختارك لرجائه، وقدّر بك بلوغ البغية، واختصر بشفاعتى إلى تفضّلك السبيل إلى إدراك المحبّة[1] ، فإن رأيت أن تأتى فى بابه مايشبه فضلك ، ويناسب وكيد ثقته بك ، وأنى أشركه فى الشكر وأساهمه فى الاعتداد، فعلت .

آخر :

رأيت المساكين قد أجمعوا * على أنك الوزر المعتمد !
فأنت لطفلهم والد * وأنت لشيخهم كالولد !

السلام العميم ورحمة الله وبركاته على من جعله الله للمساكين ظلاًّ يقيهم، وطلاًّ يسقيهم، ونعمة تعمّهم، ورحمة تضمّهم، أبوفلان، أبقاه الله فى عزّة تالدة طارفه، وسعادة لاتزال طارقة بكلّ عارفه .

من أقامه الله مقامك أيها الشيخ المبرور بالترفّق بالفقراء، والإحسان إلى الضّعفاء، لم يعدم مريضا يقصده فى الشّفاء ، ولا يعدم فيضا يعتمده للاكتفاء، لاسيّما إذا توسّل وحده، وتشفّع بمن لايضيع عمل عامل عنده ، ومتحمّلها فلان قصّ الفقر جناحه، وأخنى عليه الدّهر واجتاحه، ولما رأى الفقراء ببرّكم مرتفقين، وعلى

---

(١) لعله الطّلبـه .

شكركم متّفقين، أمّكم حسنَ الظنّ بالمنّ، ولم يُقدِّم شفيعًا دُنْيويًا، ولا طريقًا واضحا سَـوِيّا ؛ وأنتم أيُّها الشيخُ الموقّر تُنْزِلونه منزلة سِـواه ، ممّن نوىٰ مثواه ؛ ونوىٰ فيكم من الأجرِ والشكرِ مانَواه ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ ، والسلام الكريمُ العميمُ ، يخصُّ جنابكم ورحمةُ الله وبركاتُه :

فالله سُبْحانَه يُبْقِيـــكَ فى دَعَةٍ * وحُسْنِ حالٍ وتيْسيرٍ وإقْبالِ !
مُقَـــدَّم المجـد فى عِزٍّ وفى كَرَم * مؤمَّلَ النَّفْع من جاهٍ ومن مالِ !

الشفاعات من كلام المتأخريـــــن :

الشيخُ شهاب الدين محمود الحلبي :

شـــفاعةٌ فى آســتخدامِ كاتبِ دَرْجٍ :

جعل الله تعالىٰ دُورَه رَحْبَة العِراص، وسعادَتَه فى الآزدياد وأعاديَه فى الآنْتِقاص؛ والدعاءَ لإحسانه مقرونًا بِصِدْق النيّة والإخلاص :

وهـــذا دعاءٌ لو سَكَتُّ كُفِيتُه * فإنّى سألْتُ اللهَ فِيكَ وقَدْ فَعَل!

صدرَتْ هذه الخِدْمةُ تستَمْطِر سَحابَ كَرَمه ، وهامِيَ دِيَمِه، وتسألُ جميلَ شِيَمِه ، فى معْنىٰ مملوكِ المَوْلىٰ وداعِيه، والشاكِرِ لأيَادِيه، والمُلازِم علىٰ رِوايةِ أخبـارِ فضائله وبَثّها ؛ ونَشْرِ تفضُّـلاته ونَثّها ؛ فإنّه من بيتِ كريم النِّجَار ، زائِد الفَخَار ؛ وله علىٰ مولانا حَقُّ خِدْمة ؛ وهو يمُتُّ بسالف مَعْرفة ؛ ومحبةُ المملوك له شَديده ، والصُّحبةُ بينهما قديمةٌ وشُقَّة المَودّة جَديده؛ ولولا ذٰلك ماتَقّل علىٰ خِدْمته، وتهجّم علىٰ المولىٰ بمكاتَبته ، وقد توجّه إلىٰ بابه العالى مُهاجِرا، وناداه لسانُ جُوده فلبّاه وأجابه مبادرا؛ وغرضُه أن يكونَ كاتبًا بين يدَيْه ، ومملوكًا تقع عينُ العِناية عليــه ؛ وهو من الكِرَام

الكاتبين، والراغبين فى الآنتظام فى سلك خدمه والمؤثرين، وصفاته بالجميل موصوفه، وفصاحته معروفه، وقلمه الذى يقلم ظفر المهمات ويكف كف الحدثان، ولسانه الذى يغنى بشباته عن حد السنان، ورأيه المقدم فى الهيجاء على شجاعة الشجعان، فإذا أنعم المولى باستخدامه، وتحقيق مرامه، كان قد وضع الشىء فى محله، وصنع المعروف مع أهله، وبيض وجه المملوك وشفاعته، وصدق الأمل فى إحسانه ومروءته، ورأيه العالى، إن شاء الله تعالى.

وله شفاعة فى آستخدام جندى :

لازال بره مطلوبا، وجوده مخطوبا، وذكر إحسانه فى الملإ الأعلى مكتوبا، ولا برحت رياض جوده أزهر وأنضر من روض الربا، ويده البيضاء ترقم له فى سواد القلوب سطور حمد أحسن من نور تفتحه الصبا. هذه الخدمة صدرت على يد فلان تهدى إلى المولى سلام المملوك وتحيته، ودعاءه الصالح الذى أخلص فيه نيته، وتشفع إليه فى تنزيله فى الحلقة المنصورة وآستخدامه، وترتيبه فى سلك جيشه المؤيد وآنتظامه، فإنه من الأجناد الجياد، وذوى الجلد على الجلاد، وهو الغشمشم الذى لا يرد، والشهم الذى لا يصد، والباسل الذى لا تحصر بسالته بوصف ولا تحد، والنقيب الميمون الغرة والنقيبه، الموصوف فى الهيجاء بحزم الكهول وجهل ذوى الشبيبه. والمولى وإن كان بحمد الله غير محتاج إلى مساعد، ولا مفتقر إلى معاضد، فإن أسنته لا تحتجب عن روح محتجب، ونفسه الشريفة تقوم وحدها يوم الكفاح مقام عسكر لجب، وقلبه يغنيه عن الأطلاب والأبطال، وجيوش سطوته لا تكلفه المقام فى منازل النزال، فإن المملوك يعلم أن نفسه الشريفة تهوى تزيد عسكره وجنده، وترعى حرمة قاصده وقصده، فلهذا توسل بشفع وتر الشفاعه، وتوصل إلى إزالة

ضَرَع حالِه بكَثْرة الضَّرَاعه؛ فإذا أنعَم المولىٰ بقَبُول شفاعة المملوكِ فيه، وحقّق له من العِنَاية ما يؤمِّله و يرتَجِيه؛ كان قد شَـدّ للشار إليه ما أضعفَتْه العُطْلة من مُنَّته، وقلّد المملوكَ للولىٰ جميلَ مِنَّته .

شفاعة فى ردّ معزول إلىٰ وِلَايته :

يقبِّل اليدَ العالية لازالتْ مقبَّله ، ولإسداءِ الخـير إلىٰ أهله مؤهَّله ، و بأياديها علىٰ الكافّة متفضِّله .

و ينهِى ملازمتَه علىٰ شُكْر مَواهِبِه ، ونشْرِ فضائله الجسيمة ومَناقِبه؛ وحمْدِه كريمَ شِيَمِه، والاعتذارِ من تثْقِيله علىٰ خِدْمة المولى بخِدَمِه، وسؤالِ إنعامه بوجُوه مكاتَبتِه ولِسانِ قلَمِه ؛وما ذاكَ إلا لِمَـا يحقّقُه من كريم نِجَاره،وشدّة تطلُّبه لإسداء العَوارِف و إيثارِه؛ والموجبُ لهذه الوسيلةِ وسُؤالِ مَكارِمه، واستمطارِ سحائبِ مَراحِمه، مابلَغَه من عَزْل مملوكِ المولىٰ وعبْدِه، وواصفِ جميلِ أوصافه بلسانِ شُكْرِه وحمْدِه، فلان؛ أفاض اللهُ عليــه إحسانَ المولىٰ و إنعامَه ، وخلَّد لنا وله دَوْلته وأيَّامَه ؛ فإنه صاحبُ المملوكِ وصــديقُه، وشريكُه فى الدُّعاء لمولانا ورَفِيقُه ؛ وهو من العُــدُول الأُمَناء ، والثِّقَات الأتقِياء،وهو قليلُ الجِدَة كثيرُ العِيال، لايجِد حِيلةً إذا بَطَلَ بخلاف مايُحكىٰ عن البَطَّال؛ وقد تشفَّع بالمملوكِ ومكاتبتِه فى ملاحظةِ المولىٰ له بعيْنِ عِنَايته، والتقدُّمِ بردِّه إلىٰ جِهـــةِ وِلَايته؛ فلهذا كتَبَ إليه وأكَّد فى معناه السُّؤال، وعلَّق بتحصــيل أملِه الآمال؛ يعلم ذٰلك موفَّقا .

شفاعة فى خلاص مسجون :

فسَّح اللهُ فى مُدّته ، وسهَّل أداءَ مايجِبُ من شُكْرِ نعمتـــه ؛ وألزم الألْســـنةَ بحمْدِه والقلوبَ بمحبَّته؛ وجعله مفرِّجا كلَّ كرب، ومسهِّلا من المقاصد كُلَّ صَعْب .

وبعـد، فإنّ كافّة الأمّة قد تحقّقت رحمةَ قلبِ المولىٰ ورأفته، وتيقّنتْ إحسانه ومُرُوءتَه، وأنه يُؤْثِر إعانةَ كلّ عانٍ وإغاثَةَ كلّ ملْهُوف، وأنه لايُمْسك إلّا بالإحسانِ ولا يُسَرِّح إلّا بالمعْروف، بحيثُ سارتْ بحُسْن سِـيرته الرّكاب عوضًا عن الرُّكْبان، ودرأتْ مكارِمُه(١) عن الأولياءِ نُوَبَ الزّمان ، وعَلَا علىٰ حاتمٍ فلو تَشَبَّه بكَرمه لقُلْنا له : (مَرْعًى ولا كالسَّعْدان) . وللمملوكِ من إحسانِه أوفَرُ نَصيب، وهو يَرْفُـل من جُودِه فى ثَوْبٍ قَشِيب ، وقد اشتَهَر مايُعامَلُ به من الإكْرام ، وأنّ قِسْمه من العِنَاية أوفَرُ الأقسامِ ، وكان يُعدُّ من جملة العَبِيد فأصبحَ مُضَافا إلىٰ الألْزام ، وهذا ممـا يُوجِب علىٰ المملوكِ أنْ يبتَهِل إلىٰ الله فى تخليدِ دَوْلتِه ويتضَرَّع ، وعلىٰ حِلْم مولانا أنه إذا شَفَع إليه فى مُذْنِب أن يُشَفَّع ، وهو يَشْفَع إليه فى مملوكه وعَبْدِه ، والملازمِ علىٰ رفْع راياتِ مجده وتِلَاوةِ آياتِ حَمْده ، فلان ، رزقَهَ اللهُ رضا الخواطِرِ الشريفه ، وأسبلَ عليــه حُلَّةَ عفوِه المُنيفة علىٰ الحُلَل بظِلَالها الكَثِيفه ، فإنه قد طالَتْ مدّةُ حَبْسه ، واعترف بأنه الجانِى علىٰ نَفْسه ، والمعترِفُ بذَنْبه كمن لاأذْنَب ، والمغْترِفُ من بحرِ جُودِه يَرْوىٰ دُونَ أن يَشْرَب ، والطالبُ لبِرِّه ينال سُؤْله والمَطْلَب ، فإنْ حَسُن فى رأْيه العالى زاده اللهُ عَلاء ، وضاعَفَ له سَناء ، المشىُ علىٰ مَنارِ جُوده ومِنْهاجِه ، وبُروزُ أمرِه المُطَاع بإطْلاقه وإخْراجه ، اغتَنَم أجرَه ، وجَبَرَ كَسْره ، ورَبِح فى هــذا الشهر المبارَك دُعاءه الصالحَ وشُكْره ، وكان قد أنعَمَ علىٰ المملوك بقَبُول شفاعتِه إليــه ، وفعلَ مايُوجِب علىٰ كلّ مسلمٍ الثناءَ عليه ، واللهُ الموفِّق .

شفاعة بسبب خلاصِ حقّ :

يخدُمُ المجلسَ الساميَ لاقَتِيَ بالتحيات مَخْدُوما ، وحبلُ سَعده مَبْروما ، ودُرُّ المَدائح لجِيـدِ جُودِه منظُوما ، وعدلُه بين الأخصام قاضِـيًا فمـا يَتْرُك ظالمًـا ولا مظلُوما .

(١) فى الأصلين «ودارت مكارمه على الأولياء» ويظهر أنه تصحيف من الناسخ .

ولا زالتِ الآمالُ متعلِّقةً بهمّته ، مَنُوطةً بسعيد عَزْمَته ؛ راجيةً خَلاصَ كلِّ حقٍّ ممن هو فى جِهَتِه . وتُوضِّح لعلمه أنَّ فلانا أدام اللهُ سعادتَه ، وخلَّد سِيادتَه ، ذكر أنَّ له دَيْنًا فى جهةِ غريمٍ مُمَاطِلٍ مُدافِعٍ ، وخَصْمٍ مُمانِعٍ ؛ وقد جعل هذه الخدمةَ ذريعةً إلىٰ خَلَاص حقِّه ، وخالَهَـا إلىٰ الوصُول إلىٰ عِنَاية المولىٰ أقْرَبَ طُرُقه ؛ وهو جديرٌ بالتقـدُّم بإحضار غَرِيمه ومحاقَقتِـه ، وأخْذِ ماللملوك فى ذِمَّتـه ، وأن لا يُفْسَح له فى تأخيره ؛ ولا يُسْمَح بقليلِ الصبْرِ ولا كثيرِه ؛ فإنه يعـلم أنَّ المولىٰ المشارَ إليـه واجِبُ الخدمه ، وافِرُ الحُرْمه ؛ وقد تعلَّق أملُه فى خَلَاص حقِّه بالمولىٰ ، ولا يُجاوِبُ عن هذه الخِدْمة بلَوْ ولَوْلا ، بل يَبْـذُل جُهْدَه ، ويُطلِقُ فى تحصيـل الغَرَض لسانَ الاَجتهاد ويَدَه ؛ ويعتمد من الاَهتمام مايليقُ بأمثاله ، ويبيِّض وجْهَ الشافع وسُؤاله ، موفَّقا . شعر :

وَلَوْكانَ [لى] فىحاجَتِى ألْفُ شافِعٍ * لَمَـا كانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودِكَ شافِـعُ

شفاعة فيمن ٱسمه سراجُ الدِّين إلىٰ من ٱسمه جمالُ الدين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وينهى بعدَ ولاءٍ يحكُم علىٰ القُلوب شافِعُ جَمَالِه ، وثناءٍ يجُرُّ علىٰ أكمامِ الزَّهْرِ فضلَ أذْيالِه : أنَّ العلومَ الكريمةَ مُحِيطةٌ بإيجابِ حقِّ منْ هاجرَ إلىٰ بابها ، وشكا غُلَّةَ الفاقةِ إلىٰ مَنْهَلٍ مُنْهَلِّ سَحَابِها ؛ وأنَّ المـائِلَ بهذه الخدمة ، فلان ؛ ذكر ٱحتياجَه إلىٰ عاطفةٍ من عَواطِفِ مولانا التى شَمِلَتْ ، وعارفةٍ من عَوَارِفه التى لو ٱستمدّتْ من غُرَرِها الليالى لمـا أظلمَتْ ولا ظَلَمَتْ ؛ وأنَّ بيده وظيفةَ شَهَادةِ بيتٍ لَهُمْ بتواقيعَ شريفةٍ نظرَتْ فى حاله ، ونشرَتْ حالَ عيالِه وأطفاله ، وأنَّ ثَمَّ من يُنَازعه فى جِهَته المعتاده ،

ويَقصد نَزْعَه والنّزع عن تلك الشهادةِ المسطَّرةِ أخَفُّ من نَزْع الشَّهاده[1] ، ومولانا أولىٰ مَنْ رَحِم منبه ضَعْفا ، وآشْتَمَلَ عليه عَطْفا ، ودارَكَ بكرمه هذا السِّراجَ قبل أن يُطْفىٰ ، ورعىٰ سيرةَ مباشرتِه الحسنةِ الآثار ، وآغتنَم أدعيتَه وأدعيةَ أولادِه الذين هم كقِطَع الشِّطْرَنْج صِغارٌ وكِبار ، وكَفَّ يدَ التعرُّض إليه فى أيام عَدْله فإنها أيامٌ لاضَرَرَ فيها ولا ضِرار ؛ وعلىٰ الجملة فقد تركَتْه الأيَّامُ قطعةَ لحم ، فمباشرةُ بيتِ لحم أَوْلىٰ به ، ورجالُه فِرجانية وأخواتُها أحقُّ أن يتعلَّق سببُها بأسبابه ، والله تعالىٰ يُنير بِمَنّ مولانا أحوالَ المَضرورين فإنَّها ظَلَام ، وينصُرُهم علىٰ حَرْب الأيَّام بسُيُوفه التى هى أقلام ، ويُمتِّع بأيامِ عدْله وإحسانِه التى تتنافَس فيها أعمارُ الرعايا فإنهم يَبْتَغُون أيَّامًا بأعوام .

وله إلىٰ شخص اسمه شمس الدين :

ويُنْهِى بعدَ قيامٍ بوظائِف ثناءٍ يتَمسَّك بنفحاته [المتواليه] ، وولاءٍ يتمسَّك بحباله المتينةِ وما كلُّ شمسٍ حبالُها واهيه : أنه يرتادُ الأوقاتَ لخطاب مولانا بالأقلام ، حيثُ حبَس البعدُ خطابَ الكلام ، وتخيَّر حَمَلةَ رسائل الشَّوْق ، وإنْ أضعفَ عَطْفُ النَّسيم رسائلَ السَّلام . ولما حضر من مكان كذا ، عارض هذه الخدمة فلان ، وذكر توجُّهَه إلىٰ حِمىٰ حماةَ المحروسه ، وقصد كتاباً يكون فى وَحْشة الاغتراب أنيسه ، فوافق ذٰلك غرضَ المملوك ، وسلَك طريقَ مُرادِه ولا يُنكَر من جهةِ هذا الرجُل الصالحِ السُّلوك ، فأعلمته أنّ المَكارمَ الحمادية لاتحتاجُ غيرَ الحمد والأجْرِ شافعًا إليها ، والمنازلَ الشمسيَّةَ لاتفتقر إلىٰ دليلٍ ينبِّه عليها ، وطالَمَا جمعتْ لقاصدِها الفعلَ والقولَ السخى ، وطالما قال يوسف رحمه الله أخو مولانا أبقاه الله للقاصد : أنا يُوسفُ وهذا أخى ، ولكنِ المملوكُ يذكِّر الخاطرَ الكريمَ بهذا القادمِ فإنه من

(١) فى الاصل عند وهو تحريف من الناسخ .

أهله ، ويلقاه قبـلَ ذلك بالبِشر المنشد * أُضَاحِكُ ضَيْفِى قَبْـلَ إنْزال رَحْلِه * فإنَّه من أصحا ب ولىٍّ لله طالمَـا فاضَ وَلِىُّ معرُوفه ، وآسـتفاضتْ نِسبتُه المُرْشِديَّة فكان وليًّا مُرْشِـدا قامتْ صفتُه مَقامَ موصوفِه ؛ وإنَّ آثارَ هذه البركات علىٰ هـذا القادمِ لائحه ، وإن علىٰ يده تجارةَ ذكر وأجروهى فى سُوقِ هِمَمِ مولانا تجارةٌ رابحه ، والله تعالىٰ يجعل له فى كلِّ ثناءٍ وثواب نَصِيبا ، ويُدِيم قلَمَه الكريمَ مَقصِدَ رِفْد وجاه (فطَوْرًا رِشاءً وطَوْرا قَلِيبا) .

وله : عن نائبِ الشامِ إلىٰ نائبِ حماةَ شفاعةٌ فى شخصٍ آسمه شهاب الدين، وهو بعد الألقاب :

لازالتِ الأقدارُ تُسْعِده، والملائكةُ تُنْجِده، ومَواطِنُ النصر تجرِّدُ حدَّ بأسه ومَوَاطِنُ الحلْم تُغْمِده، والجُناةُ تلُوذُ بظلِّه : فأىُّ جانٍ ذَنْبٍ مايعفو عنه ، وأىُّ جانى بِرٍّ مايَرِقُّ عليه ويَرْفِده، تقبيلًا يترادَفُ مَدَدُه، ولا تنتهى فى القُرْب والبُعْد مُدَده .

وينهى بعـد ولاءٍ وثناء : هـذا لايَبْلىٰ جَدِيدُه وهـذا لا تخفىٰ جِدده ؛ وشوق وآرتياح كلاهمـا يُرْوىٰ عن آبن شِهاب توقُّدُه ، ويحمل علىٰ يد شِهاب سـنَدُه : أنَّ العلوم الكريمة محيطةٌ بمقدار الحِلْم وفضـله ، والعَفْو ومحلِّه ، والتجاوُزِ عن هَفَوات المخطئين من القوم، وطلبِ العفو من الله غدًا بالعفو عن عباده اليَوْم، قال الله تعالىٰ : ﴿وَلْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ . ولـمَّا سَمِـع الصدِّيقُ رضى الله عنه هـذه الآيةَ ، قال : (بلىٰ واللهِ إنِّى لَأُحِبُّ أن يَغْفِرَ اللهُ لِى) ثم عَفَا عمن زلَّتْ بسببه ، ومملوك مولانا أعزَّ الله أنصاره فلان ، قد آعترف بهَفْوة بَدَتْ منـه، وزَلَّة نُقِلتْ عنه؛ ما يسَعُها إلَّا عفوُ مولانا ومَرَاحِمُه ؛ وقَدِم علىٰ المملوك فكأنَّه ماخرجَ عن ظلِّ مولانا ولا فارقتْـه مَعالمُهُ ؛ وسأل سُؤالَ مولانا أن يشْـمَله بالعفو، ويتجاوَزَ له

عن السَّهْو، ويَرْحَمَ كِبَرَ سِنِّه وكبيرةَ جَهْله، ويرعىٰ قِدَمَ هجرته لخدمة هـذا الباب الذى نشأ عُمُرًا طويلا فى ظِلِّه، أهْلا لأن تشمَلَه عواطفُ أهله، وهو ـ كما عرَف المملوكُ واطّلع عليـه حيثُ كان فى نيابة حمـاة ـ مشكورُ السِّيرة بالاعتبار، ناهضُ الخدمة بالاختبار، ملازمٌ لثرىٰ الباب بعزْمٍ ماعليـه غُبَار، وله علىٰ المملوك بالأمْس حَقُّ خِدمـة وباليوم حقُّ سؤال يشفَعُ بهما فى القلوب وهى كِبَار، والمسئُول من صَدَقات مولانا تجاوُزُه عن هَفْوته، وردُّه إلىٰ أَمْنـه ووظيفته، وإجراؤُه علىٰ عادة إقطاعه، وحاشاه فى أيَّام مولانا أن يُقْطَع، بل حاشىٰ المذكورَ أن لايستخبرَ وأن لايُقْطَع، وآستقرارُه فى مكان خِدمته، وإجابةُ سؤالِ المملوك فى كل مايتعلق بنجاح هِجْرته وعَزْمته، لابَرِح مولانا مأمولَ المِنَن الغائبـة والحاضره، والمقيمة والسائره، مأْهُولَ الخواطر برَفْع ذكره وقَدْره فى الدنيا والآخره .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

لا زالتِ المحامدُ بذِكْرها مُتَوَّجه، ومقدِّماتُ الفضـل والفضائل من تِلْقاء شِيَمِها مُنْتِجَه، ومَطالعُ الكرمِ والإكرامِ هاديةٌ إلىٰ حَرَمِها من آتَّجه، تقبيلَ مواظِبٍ علىٰ الدعاء برَفْعِـه، والولاء بجَمْعِـه، والثناء يقول بَضَّاعُ أَرَجِه لا ممـا نُضَيِّعه بل ممـا نُضَوِّعه، [وينهى] أن عارضَ هذه الخِدْمةِ علىٰ عارضِ كَرَم مولانا المُمْطِر، وبابِه الذى هو لكَبِدِ الحاسد وفَمِ الوارِدِ مُفَطِّر، فلان، لقضاء تعلُّقاتٍ له أوّلُها التعلُّقُ بحبل رجائه المُحْصَد، وآتِّقائه المُرْصَد، والتجمُّل بقصد بابِ مولانا الذى هو المُهِمُّ المقدّم علىٰ كل مَقْصَد، وهو من الفضلاء الذين يعرفُهم آنتقادُ مولانا معرفةَ الخبير، وله آتصالٌ بالأكابر الذين سُلِّم منهم زِمامَ المفاخر كُلُّ كبير، وقَصَدَ من المملوك هذه الخدمةَ لمولانا تُؤْنِسُ آغترابه، وتنشد المَقَرّ الذى ماقَرَع سنَّ الندامة مَنْ قَرَع بابَه :

يَاغَرِيبَ الصِّفاتِ حَقٌّ لمنْ كا * نَ غَرِيبًا أنْ يَرْحَمَ الغُرَباء!

والمملوكُ يسأل من إحسان مولانا مُلاحظةَ المـذكور بعيْن عِنايتِـه التى ما أغفَتْ عن القاصدين ولا غَفَلَتْ ، وعَواطِفه التى طالمَاَ فتحَتْ أبوابَها فانثنَتْ عليها الركائبُ التى قفَلَتْ ؛ والله تعالىٰ يُديم تقليـدَ الأعناقِ بكَلمه وبِرِّه ، ويمتِّع الممـالكَ السـاحِليَّةَ بمـا قذَفَ لها من دُرَر بَحْرِه .

النـــوع الخـامس

(التشــوّق)

قال فى "موادّ البيان" : وينبغِى للكاتب أن يجمَع لها فِكْرَه ، ويُظهِر فيها صناعَتَه ، ويأخُذَ فى نظمها مَأْخَذاً من اللّطافـة والرِّقَّة يدُل علىٰ تَمـازُج الأرواح ، وأْتِـلاف القلوب ، وما يَجرِى هـذا المَجْرىٰ ؛ وأن يستخدِمَ لهـا أعذَبَ لفظٍ وألطفَ معنًى ؛ ويذهبَ فيها مَذْهب الإيجاز والاْختصار ، ويعدِلَ عن سُبُل الإطناب والإكثار ؛ لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيُمِلَّ ويُضْجِر ، وينتظِم فى سِلْك المَلَق والتكلُّف اللذيْنِ لايعتادُهما المُتصافُون من الأصدقاء .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفــرج الببغاء :

شوْقُ المملوك إلىٰ مَوْلانا بحسب مَكانِه من تَفَضُّـله ، وحظِّه من جميـلِ نَظَره ، واْختِصاصِه بإنعامه ، واْغتِباطه بشَرَف خِدْمته ، ومكانِه من إيثاره ؛ والله يجمَعُ للملوك شَمْلَ السـعادةِ بمُشاهدة حَضْرته ، وسامه[1] من الدَّهْر بالنظر إلىٰ غُرّته ، علىٰ الحـال السارّة فيه وبه .

---

(١) كذا فى الأصلين بإهمال النقط والمراد أنه يمتعه بالنظر الخ تأمل .

وله : شَوْق المملوك إليه شوقُ الظَّمآن إلىٰ القَطْر، والسَّارِى إلىٰ غُرَّة الفَجر .

وله : شوْقِى إليه شوْقُ مَن لم يَجِدْ مع بُعْده عِوَضًا منه، فتقودُه الزيادةُ إلىٰ الأنصراف بالرَّغبة عنه .

وله : شوْقِى إليه شوْقُ من فَقَد بالكُرْه سَكَنه، وفارقَ بالضَّرورة وَطَنَه .

وله : لو كان ما يُصْدِره من خِطاب ، ويُناجِيه به من مُتَضَمَّن كتاب، بقدر ما أُعانيه من أَلَمِ الشوق إلىٰ غُرَّته، ومَضَض الفائتِ من مشاهَدَته، لَمَا أحاطتْ بذِكْره بَسْطةُ لسان، ولا نابَ فى إثباته آستخدامُ بَنَان .

وله : أمَّا الدهرُ فما يَستحِقُّ من إبعاد المملوك عنه عَتْبا ، ولا يُعدّ ما جَنَاه من ذٰلك ذَنْبا؛ إذ كان إنما نَقَل من حِشْمةِ المخاطَبه، إلىٰ آنْبساط المُكاتَبه .

وله : وقَدْره ـ أبقاه الله تعالىٰ ـ يرتَفِع عن ذكر الشَّوْق إليه ، فالمملوكُ يعبِّر عنه بذكر الشوق إلىٰ ما فارقه من تفَضُّله، وبَعُدَ عنه من أوطان تطَوُّله .

وله : ولولا أنَّ المملوكَ يُخْمِد نارَ الاَشتياق ، ويبرِّد أُوَار الفِراق ، بالتخَيُّل المُمثِّل لَمَنْ نأتْ مَحَلَّته، والتفكُّر المصوِّر لمن بَعُدتْ شُقَّته ، لأَلْهبَتْ أنفاسُه ، وأَسْعَرت حَوَاسُّه، وهَمَت دموعُه، وأنقَضَتْ ضُلُوعُه، والله المحمودُ علىٰ ما وَفَّق له من تمازُجِ الأرواح ، عند تبايُنِ الأشباح .

وله : ولا بُدَّ أن يُكَفَّ بالمكاتبات، من غَرْب الاِشتِياق ، ويستعين بأُنْس المُراسَلات، علىٰ وَحْشة الفِرَاق؛ فإنها ألْسُنٌ ناطقه، وعُيونٌ علىٰ البُعْد رامقه .

وله : عِنْد المملوكِ لمولانا خَيالٌ مُقيم ، لا يبرَح ولا يَرِيم ؛ يجلُو عليه صُورَته ، ويُطْلِع علىٰ عينِ فكْرته طَلْعَته ، إن سَهِر المملوكُ سامرَ مُعينًا علىٰ السُّهاد، أو رقَدَ

تصوّر مُعْذِبا طَعْمَ الرُّقاد، لا يَمْطُله بزيارته، ولا يُوحِشُه بغَيْبَته، كأنما تَصوّر بصُورته في الوَفَاء، وتخَلّق بخُلُقه في المحافظة علىٰ الإخاء .

وله : إنْ تزايلَتِ الأشباح، فقد تواصلَتِ الأرواح، وإن نَزَحتِ الأشخاصُ وبعُدتْ، فقد دَنَت الأنفس وتقاربتْ، فلا تُمِضُّ الفُرْقةُ وتُؤلِم، وتُنغِّصُ النّوىٰ وتَكْلِم، وقد يُنالُ بتَناجِي الضمائر، وتَحاوُرِ السرائر، مالا تَصلُ إليه الإشاره، ولا تَدُلُّ عليه العباره، إذ الأنفُس البسيطةُ أرقُّ مَسْرًى، وأبعَدُ من الألسنة مَرْمًى .

التشوّق من كلام المتأخرين :

نسخة كتاب من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهو بعد الصدر:

لازالَ الدّهرُ يَقضِي خِدَمَه، ويُمضِي رأيَه وسيفَه وقَلَمَه، ويُرضِي الدُّولَ الشاكرةَ تقديمَه فيها وقَدَمَه، ولا بَرِحت الأقدارُ المُعْرِبةُ تجزم أمْرَه وتَكْسِرُ ضِدّه وترفع عَلَمَه، تقبيلًا إذا لثَمَ التُّرْبَ التثمَه، وإذا أُودِعَ القلبُ في ذلك التُّرْبِ ختَمه .

ويُنهِي مواظبتَه علىٰ وَلاءٍ لا يَنْسَخ البُعْدُ مُحكَمَه، ودُعاءٍ يقابِلُ النُّجومَ ولا تنقطع من القَبُول إدراراتُه المنجّمَه .

ويُنْهِي أنه سَطّرها عن شوقٍ يَعِزُّ عليه أن ينُوبَ فيه سَعْيُ القلم، عن سَعْي القَدَم، وارتياحٍ إلىٰ القُرْب الذى بأنسه يُؤْنِسُه أنوارا علىٰ أعلىٰ عَلَم، وتطلُّعٍ لمعاوَدةِ الأخبار أوْفىٰ من تطلُّع العامرىّ إلىٰ مُعاوَدةِ أيّامِ ذِى سَلَمَ، وتعلُّلٍ بقول القائل :

بَعَثْتُ لَكُمْ سَوادًا في بَيَاضٍ * لِأَنظُرَكم بشَيْءٍ مِثْلِ عَيْنِي!

وهيهاتَ! أينَ نظراتُ الحُروف المرْقُومة من نَظَرات العُيُون الرامِقه، وأينَ منَالُ السُّلُوّ من شَجْوٍ يقول : * أُعيذُها نَظَراتٍ منْك صادقَه *

ما يَحْسُبُ المملوكُ من النظَر إلّا ما يَملأُ العينَ من ذٰلك الوجهِ الكريم ، ولا يَلْبَس من خِلَع الأيّام إلا ماتَخِيط الأهْدابُ علىٰ شَـبَا ذٰلك القُرْب الرَّقِيم ؛ وعلىٰ ذٰلك فقد جَهَّزها المملوكُ علىٰ يَدِ فلان ، وحَمَّله من رسائل الشَّوْق مايَرْجُو أنْ يَنْهَضَ فيه بأعباءِ الرِّساله ، ويَسْأَلُ الإصْـغَاء والمُلاحظةَ فيما تَوجَّه فيه و إنْ أدّتِ الأمَالِي إلىٰ المَلاَله ؛ واللهُ تعـالىٰ المسـئُول أن يبَلِّغ فى آمتِدادها مولاَنا الأُمْنِيَّـه ، ويمتِّعَ الدُّوَلَ منه بهذه البقِيَّة النقيّه ، إن شاء الله تعالىٰ .

نسخة كتاب فى المعنىٰ عن نائب الشام ، إلىٰ القاضى عَلَاء الدين بن فضـلِ الله ؛ كاتبِ السِّرِّ بالأبواب السـلطانية ، من إنشـاء الشيخ جمـال الدين بن نُباتَةَ أيضا ؛ وهو بعد الألْقاب .

لا زال قَلَمُها مِفْتَاحَ الرِّزْق لطالِبِه ، والجاهِ لكاسِـبِه ، والظَّفَرِ لمستَنِيبِ كُتُبِها عن كَتائبه ، والنُّجْحِ لرائِد مُطالبةِ الدَّهْرِ بعد المَطَال به ، ولا بَرِح البأسُ والكَرَم يتحدَّثانِ عن بَحْرِها ولا حَرَجَ عن عَجائِبِه ، تقبيلًا تغبِطُه فى مَرابِعها ، ثُغُورُ الأزاهِر ، لا بل تَحسُدُه فى مَطالِعِها ، ثُغُور الزَّواهِر .

وينْهِى بعـدَ دعاءٍ أحسنَتْ فيه الألسِـنةُ وأخلصَتِ الضَّمائِر ، ووَلاءٍ وثناءٍ لهما مَصَاعدُ النَّجْمين إلّا أنَّ هٰذا فى القلوبِ واقعٌ وهٰذا فى الآفاقِ طائِر — أنه جهَّزَ هٰذه الخِدْمةَ مُعْرِبةً عن شوقٍ يتجدَّد ، وآرتياحٍ لايتعدّىٰ ولا يتعَدَّد ، ساعيةً عنه بخَطَوات الأقلام ، أنْ منَع الوقتُ خَطَواتِ الأقدام ، نائبةً فى تقبيلِ الأنامِلِ التى تُستَسْقىٰ دِيَمُها علىٰ القُرْب والبُعْد ولا كَيْدَ ولا كَرامةَ للغَمَام ؛ وجهَّزها علىٰ يد فلان بعْدَ أنْ حَمَّله من رسائل الشوقِ ما إنَّ حِمْلَنـا من إحسانه لِيُنْضِى عقُودَ الأنجم لو تعـدّدت ، ومَفاتيحَ أبوابه لَتنُوءُ بالعُصْبة أُولِى القوّة لو تجسَّدتْ ؛ وهو بين يدَيْه يقدِّمُ نجْواها ، ويستشْهِد

بالخاطر الكريم قبـلَ حضُور دَعْواها ، والمسئُول إصـغاءُ السَّمْع الكريم إليـه ، والملاحظةُ فيما توجَّهَ فيـه متَّكِلًا علىٰ الله وعليـه ؛ وإذا عادَ مشـمُولا بعنايةِ مولانا المعهُودَه، مكفُولًا برِعَايته المقصُورةِ علىٰ نُجْح الآمالِ الممْدُوده، فلْيُنْعِم علىٰ المملوكِ من المشرِّفاتِ الكريمة بما يسكِّن علىٰ جَوْر البُعْد خواطِرَه الدَّهِشه، ويُعِينُه علىٰ الوَحْشة التى حَرَّكها نحوه البِعَاد فهى الوَحْشَه ، والله تعالىٰ يشكُر هِمَم مولانا غائبًا وحاضرا ، وشافِعًا لرسائل خَدَمه وناظِرا ، ويَخُصُّ بابَه العَلَوِىَّ بسلام كسلامِ سَقِيط الطَّلِّ عن ورَق الغُصْن ناضِرا .

آخر من كلامه : كتب به إلىٰ بعض رؤساءِ مصر .

ويُنْهِى أنه سَطَّرَها مُعْرِبةً عن شوقٍ مُقِيم ، وعهدٍ لا يَبْرَحُ علىٰ صِراطِه المستَقيم ؛ وآرتياحٍ لجَنَابِه، أو لكِتَابه، ليتلُوَ لإنصات شَجْوه : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِـيمِ﴾ . متطلِّعا لمـا يَرِد من أخبار مولانا السارّةِ البارّه، مرتقِبًا لأنبائه آرتقابَ الزُّهَيْرة الفاغِرةِ إلىٰ ضَرْع الغَمام الدّارّه، ولو أنَّ كلَّ مايتمَنَّى المرءُ يدْرِكه، وكلَّ مايقترِح علىٰ الدَّهْر يَمْلِكه، لغَنِيَ بقُرب المخاطبه، عن بُعْد المكاتَبه، وآستجلىٰ كوكَبَ الجمال المُشْرِقَ وأقصَرَ فى ليالى الآنتظارِ عن المراقَبه . وقد جهَّزَها علىٰ يدِ فلان، وحمَّله من رسائل الشوق أوْفىٰ وأوفَرَ من رسائل الصَّـفا، وسأَلَ الإصغاءَ والملاحظةَ من مولىً بحَارِه النيلِ معْروفِ المَنَافع والوَفَا، ولآمالِ المملوك بمشرِّفاته وأوامِرِه جَمَالٌ حينَ يُرِيح وحِينَ يَسْرَح،وحينَ يَقْتصِر علىٰ مُقْتَرَحات الأيامِ حينَ يشْرَح؛ فيُنْعِم مولانَا بمواصَلتِها علىٰ هذه المقدِّمه، ويجعلُ ذٰلك من إدرارات صِـلاته المنجِّمَه؛ والله تعالىٰ لايُعْدِم المملوكَ فى حال كَرَمه : إما أن يُفِيض فىالقُرْب بَحْرَه وإما أن يبعَثَ علىٰ البُعْد دِيمَه .

وله إلى كاتب السر :

أعلى اللهُ أمْرَ قلمها على الأقلام، وأدام بفيْض أناملِه عليه بَسْط كلمة الإسـلام، وراع بكتائب كُتُبه العِدَا إذا انتبهُوا، فإذا أغفَوْا «سلَّتْ عليهم سُيوفَها الأحلام» .

ولا زالتْ تلكَ الأقلامُ العاليةُ فى تلك اليدِ الكريمةِ إن لم تكُنْ من المنشِئات فإنّهـا من المُنْشَآتِ فى البحر كالأعْلام ؛ تقبيلَ مُواظِب علىٰ دُعاء يطلعُ طلُوعَ طُرّة الصـبح تحتَ ذٰلك الظلام ، وولاء إذا اعتـبر الخاطرُ الكريمُ مَسْعاه وخِدْمتَه : ﴿ قال يابُشْراىَ هذا غُلَام ﴾ .

وينهى أنه جَهَّز هـذه الخدمةَ مقصورةً علىٰ وصْف الأشواق الممْدودة ، وجَوانِح الشَّـجْو المعهوده ؛ وأنفاسِ التذَكُّر التى لولا شَرفُ مذكُورها لم تكُنْ عنده من الأنفاس المَعْدُوده ؛ فيالها مقصورةً علىٰ شوقٍ مافيها غيرَ طيور الجوانح خَفَّاقةُ الجَناح، سَبَّاقةُ الارتياح ؛ ويالَهَـا أنفاسَ ذكـر أغنَتْ منادمتُها عن كَيْس كأس واقتراح وقتِ رَاح ؛ ويالهـا ورقةً فازتْ بمشافَهةِ لثم اليـد الشريفةِ فكَرُمتْ وَصْفا، وناتْ عن نَخَار الروض عِطْفا ؛ واستطابتْ بشِفاه السُّطُور علىٰ تِلك البَنانِ رَشْفا :

وسَطَّرتُها والجِسْمُ أنحلُ مايُرىٰ * فياليْتِني أصبحْتُ فى طَيِّها حَرْفا

واصلةً إلىٰ البابِ الكريم بسلام وصلَ عبَقُه قبْلَ ماوصلَتْ ، واردةً علىٰ يدِ فلان وقد حمَلَ من رسائلِ الصَّـفاء والوُدّ مثْلَ ماحمَلَتْ ، وحصلَتْ علىٰ القُرب ويا أسَفىٰ علىٰ ماحصَل وحصَلَتْ . والمملوكُ يسألُ الإصغاءَ إليها وإليه بفضل النظر والسَّمْع ، والإنعامَ علىٰ المُحِبِّ المفارق بمشرَّفاتٍ تجلُو عليه أيامَ جَمْع ؛ وتُعينه علىٰ أوقاتِ وَحْشةٍ إذا وصفها المشتاقُون وأقلامُهم ولَوْا وأعيُنُهم تَفيضُ من الدَّمْع ؛ لابَرِح ذِكْرُ مولانا عليّا ، وبِرُّه بمَلْء الآمال مليّا ، ووصفُه بالتُّقىٰ وسحاب الجُود علىٰ الحالين وليّا :

❖

يامُنْيـــةَ النّفس ويا مَالِكِي * مُذْ غِبْتَ عَنِّ لم تَـنَمْ مُقْلتي!

إنْ بِنْتَ عن عَيْنِى بِرَغْمِي فَقَدْ * سَكَنْتَ فى قلبى وفى مُهجَتِي!

لا أوحشَ اللهُ من طَلْعتــه ، ولا أخْلىٰ من كريم مساعدَته ، وجمَعَ شَمْــل الأُنْس بخِدْمتـــه .

المملوكُ يشكو من المولىٰ فِراقاً أوجب له علىٰ نَفْســه فَرَقا ، وجيشَ صُـدُود منحَه من العَزائم طوائفَ وفِرَقا ، وداءَ صَبابةٍ كلّمـا ترجّى الإفْراقَ[1] منه ٱزْداد تلَهُّبا وحَرَقا ، ووجُوبَ قلبٍ تحتَّم لغَيْبتــه ووجَب ، ودَمْعَ عينٍ يمحو مهما عَبَّر عنه لسانُ قلمه أو كتَبْ ، وقد أطال الهَجْرُ تألُّمَه وعَتَبَه ، وأطار سِنَتَه ولُبَّــه ؛ مُذْ وصل المولىٰ غيرَه وقَطَع عنــه كُتْبه ، والمولىٰ يعلمُ أنَّ المملوكَ لفظٌ والمولىٰ معناه ، وسعْدَه شخص وأنت وجْهُــه الميمُونُ ويُمْناه ؛ فيُواتِر إرسالَ مكاتَبَاته ، ويُتْحِف بمأثُورِه ولُبَانَاته ؛ ويُعَطِّر بذكرِه الجميــلِ الأماكِنَ ويُشَـنِّف المَسَامع ، كما شَرَّف بحُلُوله فيها الأضالِع ؛ واللهُ يُديمه ويُمِدّه بالإسْعاف والإسْعاد ، وينصُره علىٰ الأضداد والحُسَّاد :

❖

أُقاسِى منْ بِعَـادِكَ ما أُقاسِى * وقَلْبُـكَ راحِمٌ وعَلَيَّ قاسِى!

وأَحمِلُ مِنْ نَوَاكَ بضَعْفِ نفْسِ * عَنَاءً يُعْجِز الشُّمَّ الرَّوَاسِى!

وتُبْعِــدُنِى وأمْرُكَ إنْ أتَانِى * جعلْتُ مَحَــلَّه عيْنِى ورَاسِى!

---

(١) أى البرء مصدر أفرق العليل إفراقا اذا برأ من علته . انظر اللسان ج ١٢ مادة ف رق .

قرّب الله أوبته، وعجّل رؤيته، وحرس نفسه من الغير والحادثات، وصان حجابه المنيع عن الملمّات المؤلمات، وجمّل الأيامَ بوجوده، والأنامَ بجوده. ولا زالت الدنيا به تجمّله، وأعناقُ أبنائها لمننه متحمّله.

صدرتْ هذه الخدمةُ إلى خدمته متضمّنةً إهداء سلامه، وشاكيةً لغيبته جورَ أيّامه، ومُنْهِيةً شِدّةَ أشواقه التى أفنتْ بالصَّبابة قلبَه، وأذهبتْ حُشاشتَه ولُبَّه، وهى فى ذلك نائبةٌ مَنابَ سائرِ الخدَم، ومعبّرةٌ عن ألسنة الأقاليم بلسانِ القلم؛ فإنّ الأعينَ متطلّعة إلى رؤيته، والقلوبَ متعطّشة إلى قفوله ورجعته؛ كما تتطلّع إلى السماء عيونُ النّرجس، وتتعطّش الرّياضُ إلى الوابل الغدَق بعد اليوم المحرِّ المُشْمِس؛ فالمولى يجعلُ مواصلته بأخباره فرضًا لازما، ويمتنع من إغفاله كما يمتنع من لذّة الطعام إذا كان صائمـا؛ فإنّ المولى هو صورةُ الجود ومعناه، وبيته الكريم فناءُ الخير ومغناه، والناسُ مالم يروْك أشباه، حرسه الله وتولّاه، وضاعف علاه، والسلام.

* * *

يا أجملَ النـاس سناءً وسـنا * جفتْ جفونى لجفاك الوسنا!

ثمارَ آلامِ الامَ أجتنى؟ * ياليتنى أعلمُ خطّى ما جنـا؟

وأنتمُ ياأهـل بابِ لَعلعٍ * مذْ بنتمُ لم أرَ شيئًا حسـنا!

أقسـمتُ بمنحنى أضالعى * وسرتمُ ياأهلَ وادى المنحنا!

فى بعـدكم منيّتى لاتبعـدوا * وقربُكم غايةُ سُؤلى والمُنا!

خلّد الله سعادته، وبلّغه من العلياء إرادته، وأثّل مجده، وأدام سعده، وأعذب منهله ووِرْده.

الملوكُ يتشوّقُ إلىٰ لِقائه، ويتشوّفُ إلىٰ أنبائه، ويصفُ شديدَ اشواقه وصَبابته، وحنينَه إلىٰ مشاهدةِ المَوْلىٰ ومشافَهتِه، وما يجدُه لذٰلك من ألَمٍ فى جَوارحه الجَريحه، وسَقَمٍ فى جَوانحه الصحيحه، ويلتَمس مواصلَتَه بكُتُبه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وأخبارِه السارّةِ ليتضاعفَ له مزيدُ الاستبشار، فإنّ القلبَ بنارِ الصَّبابة قَدْ وَقَدْ، وأما صبرُه علىٰ [بُعْدِه] فقَدْ فَقَدْ، ومتىٰ ورد كتابُ المولىٰ شُفِى الغَليل، وأبَلَّ العَليل، ونَجع طعْمُ الحياة ونَجح التأميل، فليصَيِّرْ وَتْرَ مكاتَباته شَفعا، ولا يجعَلْ لوصْلِهنّ قطْعا، والله يمنَح عيشَه خَفضا ومكانَه رَفْعا، والسلام .

⁂

شعر فى معنىٰ التشوّق :

قد كانَ لى شَرَفٌ يصْفُو برُؤْيتِكم * فكَدَّرتْه يدُ الأيّامِ حينَ صَفَا

غـــيره :

كــتبْتُ (١) للكتابِ مجَــلّدٌ * علىٰ أنّه قَبْــلِى بلُقْياكَ يسْــعَدُ

النـــوع الســادس

(فى الاســـتزارة)

قال فى "مواد البيـان" : رِقاعُ الاستزارةِ إنمـا تشتَمِلُ علىٰ وصْفِ حالاتِ (٢) الأُنْسِ ومجالِسِ اللذّات، ومَشاهِدِ المَسَرّات . قال : ويجبُ علىٰ الكاتب أن يُودِعَها حُلْوَ الألفاظ، ومُؤْنِقَ المَعانى وبارِعَ التشبيهات، ويُبالِغ فى تشويق المســتزَار إلىٰ الحضُور، ويتلطَّف فيه أحسنَ تَلطُّف .

---

(١) بياض فى الاصل ولعله "وشوقى للكتاب الخ" .

(٢) لعله مجالات كما لا يخفى .

وهذه نسخ من ذلك :

على بن خلف :

رُقعتى ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ـ ومجلسى بمَنْ حلَّه من خَدَمه ، ونزلَهُ من صَنائع كرمه ، فلَكٌ مُزَيَّنٌ بأنجُمه ، فإنْ رأىٰ أن يُطْلِع فيه بَدْرا بطُلُوعه وينقلَ قَدَمه إليهم ، ويُكمِّلَ نقصَهم بتَمامِه ، ويُضيف ذٰلك إلىٰ تَليد إنعامه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

قد آنْتظَمَ لنا ـ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ـ مجلسٌ رقَّتْ حَواشِيه ، وتَبسَّمتْ راحُه عن حَبَب ، كلآلِئَ علىٰ ذَهَب ، وقامتْ فيـه سُوقُ السُّرور ، لا يُكسِدُها إلا تخلُّفُه عن الحضُور ، فإنْ رأىٰ أن يُكمِّل جذَلَنا بإطْلاع طَلْعتِه علينا ، ويصَدِّق ظنَّنا بنَقْل قدمه إلينا ، سَرَّ وأبهج ، وتمَّم من الإحسان ماأخْدجَ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هذا ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا ـ يومٌ صَـفِيق الظِّلّ ، رقيقُ غِلالةِ الطَّلّ ، قد ترقَّعتْ شمسُــه ببُرج أُنْسه[1] ، وآفترَّ جَذَلا عن مَضاحك بَرْقه ، وترنَّم طَرَبا بزَمجرةِ رعده ، ووَشَتْ مَدارجُ نَسِيمه ، بأرَج شَمِيمه ، وقام علىٰ مَنابِر السُّرور يخطُب آبنةَ الكَرْم لأبناءِ الكِرام ، وينادِى بأعلىٰ صَوْته : حَيَّ علىٰ المُـدَام ، فقد وجبَ علىٰ كلِّ موفَّقٍ لآجتناءِ ثِمـار السُّرور ، والْتحافِ عِطَاف الحبُور ، أنْ يلبِّيَ دعْوتَه ، وينتهِز فُرْصـتَه ، ويُعوِّضَه من شمسِه الآفِله ، براحٍ لإظهارِ ماآختفىٰ من شُـعاعها كافِلَه ، ويقفَه علىٰ التَّملِّي بالكاس والنُّدمان ، ويجعلَه سِلْكا ينتَظِمُ فيه الإخوان . ورُقعتى هذه صادرةٌ إلىٰ مولاى وقد تهيَّأ لنا مجلسٌ من مجالس الأُنْس ، يَبْسُط تجعُّدَ النفس

---

(١) لعله "افقه" .

فيه بَغْم ونَغَم ، ومِزْهر وزَهْر ، وخُلَّان قد تراضَـعُوا لِبانَ العُقَار ، وتَساهموا ثَقَلَ[1] الوَقَار ، وتَجمَّعُوا فى مَعَارِك الخَمَّـار ، وأدْمَنُوا علىٰ المُـاساةِ والاَبْتِكار ، إلّا أنّ هـذا المجلِس مع تَمـامِه مُخْدَج ، وعلىٰ كمالِه مختلَج ، لبُعْد مولاى الحالِّ منـه محَلَّ الواسطة من النِّظام ، والأرْواحِ من الأجْسام ، فإن رأىٰ أن يُكَمِّل منه ماانتقص ، ويُميط عنه [ماانتقص] فليَجمِّلْنا بالمَصـير إلينا ، والطُّلُوع علينا ، وإعفائنا من إضْجار الانْتظار ، معتدًّا بذٰلك فى كريم الأيادِى والمَبَارّ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

هــذا اليومُ ــ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ــ يومٌ أعْرس فيــه الجَوُّ بالجارِيَةِ البيضاء نَغَدَّرها ، وحَجَبها بسَجْف الغَمام وسَتَّرها ، واَختالَ اَختيالَ المعرِّس فى مُعرَّسه ، بمُصَنْدَله ومُمَسَّكه ومُورَّسه ، واتَّخـذ من ذَهَب البَوارق نِثَارا ، واَستنطقَ من زُنّار الرّواعد أوتارًا ، ودعا إلىٰ حُضُور وليمته ، والسُّرورِ بمَسَرَّته ، فإنْ رأىٰ أن يلَبِّىَ[2] طلب هذا اليومِ الصَّفِيق ، ويتمتَّع بعيْشه الرافـغ الرَّفِيق ، فليُطْلِـع علينا طَلعَته التى تَبْهر القمرَ المُزْهِر ، وتَصْدَعُ الليلَ المعتكِر : لِيُنْهِض غُرَّة الإصباح ، بغُرَّة الراح ، ويَقْطِف ثِمـارَ الأُنْس والمحاضره ، ويتملَّى بالسَّماع والمُذاكره ، ويأخُذَ بحظٍّ من لَذَاذة الفَيْحة الشبيهةِ بشمائله ، ويعُدَّ ذٰلك من مبارِّه وفواضِله ، [فعل] إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى الاَستزارة فى بُسْتان :

كتبتُ ــ أطال الله بقاءَ سيِّدى ــ وقد غدوْتُ فى هذا اليومِ [إلىٰ] بُستانِى والطَّيْرُ فى الأوْكار ، والأنداءُ تَهْبِط كالنِّثَار ، والليلُ مشتَمِلٌ علىٰ الصَّـباح ، اَشتِمال الأدْهَم

(١) هو بالفتح وبالضم وبالتحريك مايتثاقل به على الشراب . أنظر اللسان ج ١٤ .

(٢) فى الأصل « أبطل » ولعله من تصحيف الناسخ .

علىٰ الأَوْضاح؛ عازمًا علىٰ مشارَفته ومُشارَفة ما آستمدَدْتُ من عمـارته، لا لخلْوة فيه بمُعاطاةِ المُدَام، ومُؤانَسةِ النِّدام؛ فحين سَرَّحتُ الطَّرْف فى مَيادينه وجَداوِله، وأقبلْتُ علىٰ تصَـفُّح حلَاه وحُلَله، رأيتُ مَناظِرَهُ تعتلِقُ القلوبَ آعتلاقَ الأشْراك، وتعتاقُ المستَوفِزَ عن الحَراك، وتُقيم قاعِدَ المِزاج والنَّشاط، وتُوقظ هاجِدَ الفَرَح والاِنْبِساط: فمِن أشجارٍ كالأوانِس، فى رَيحانىِّ المَلَابس، حالِيةٍ من مُوَشَّـع الزَّهَر والثمر، بأنصَعَ من الياقُوت والجَوْهر، كأنما تحفَّلتْ لِاجتلاءِ عَرُوس، أو مُعاطاةِ كُئُوس، ما بينَ نَخِيلٍ قد نشَرتْ عَذَبَ السُّنْدس علىٰ ذُرَاها، وأطلعَتْ طَلْعًا كالخناجر غَشِيَها صَدَاها؛ ونارَنْج يحمِلُ أكبَرَ العِقْيان، أو وجَنات القِيَان؛ وأُتْرُجّ قد آستعار ثمرةَ أشواقِ العُشّاق، إذا صالتْ عليهم يدُ الفِراق. ومن رِيضَانٍ[1] زاهيةٍ بنَشْرها، وقُضُبُها مختالةٌ فى مَلَابِس زَهْرِها؛ ونَرْجِسُها كعينِ محبٍّ حدَّق إلىٰ الحبيب، وثنَىٰ جِيدَه خوفَ الرَّقِيب، إذا عبَثَ به النَّسـيمُ جمعَ بينَ كلِّ قَضيب وإلْفه، وسَعىٰ بالأعناقِ من شَوْقه وكَلَفه؛ ووَرْدُها كمَدَاهِنِ ياقوتٍ فيها نُضَار، وشقيقُها كمُدامات عقيقٍ فيها صُوَار[2]؛ وبنَفْسَجُها نَخِذٌ تمْضى فيه من القَرْص آثار، أو جامُ لُجَيْنٍ عليه من النَّدىٰ نِثَار. ومن أنهارٍ قُدَّتْ حافاتُها قَدَّ الأديم، وخُطَّتْ علىٰ صراطٍ مستقيم؛ بحرة مَسْجوره، كالسُّيوف المشْهورة أو المَهارِق المنْشُوره؛ إذا خمَشَها الهوىٰ خلَع عليها مُتونَ المَبَارِد، أو سُلُوخَ الأَساوِد؛ يتخَرَّق ذٰلك كلَّه نسـيمٌ رقيقُ الغَلائل، حُلْوُ الشمائل؛ يسـعىٰ بالنَّميم، فى المَعاطس والشَّمِيم؛ انصَبَبْتُ إلىٰ مجلس فَسيحِ البِناء، ضيِّق الأفْناء؛ مُوَشَّى الجُدْران والسَّماء، فى صَـدْره شاذَرْوان يَرْمِى بكِسَر البَلُّور، وفى وسَـطه نَهر ينْسابُ ماؤُه آنسِـيابَ

(١) الريضان والرياض جمع الروضة.

(٢) الصوار والصوار «أى بالضم والكسر» الرائحة الطيبة والقليل من المسك أنظرج ٦ — ص ١٤٧ من اللسان.

الشُّجَاع المَذْنُور ، وتتوَسّطُه بِرْكَةٌ مُمَنمَةٌ ينصَبُّ الماء إليها بالدَّوالي إلىٰ أربع شاذَرْوانات ، ويخرُج عنها من أربع فطيمات ؛ يحتَفُّها كلُّ شجرٍ مُثمِر ، وروضٍ مُزهِر.

فقلت : هــذا المَرادُ الذى يحُطُّ به الرائدُ رَحْلَه ، ويُوفِدُ إليــه أهْــلَه ؛ ويدْعُو إلىٰ آختيارِ مَنْ يهُبُّ إلىٰ السُّرور ، ويُساعِد علىٰ الحضُــور ، للمشاركة فى التملِّى ببهْجته ، والتمتُّع بنَضْرته ؛ فكان مولاى أوّلَ مَنْ جَرىٰ إليه ذِكْرى ، ووقَع عليه طَرْفُ فِكْرى : لأنه الساكنُ فى فُؤادى ، الحالُّ فى مَحَلِّ رُقَادى ؛ فإنْ رأىٰ أراه الله ما يُقِرُّ العينَ أن يُكمِّل مسرّتى بنَقْل قَدَمِه إلىّ ، وإطْلاع سعدِ طَلْعته علىّ : ليتمّ محاسنَ ما وصَفْته ، ويكمِل الاْلتذاذ بمــا شرحْتُه ؛ فعل إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة رقاع الاِســــتِزارة

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المستزَار من الإجابة إلىٰ الحضُور أو التثاقُل عنه ، فإنْ حضَر علىٰ الفَوْر ، فلا جوابَ لمــا نَفَذ إليــه ، وإن وعَد الحضُورَ وتلوّم ليقضِىَ شُغُلا ويحضر ، فينبغى أن يَبْنِى الجوابَ علىٰ سُروره بمــا دُعِى إليه ، وحُسْنِ موْقِعِه منه ؛ وأنّ تلوُّمه للعائق الذى قَطَعه عن أن يكون جوابًا عما وردَ عليه ، وأن حضُوره يَشْفَع رُقْعته . وإن أَيِس من الحضور ، وجبَ أن يبنِىَ الجوابُ علىٰ مايمهِّد عُذْرَه ، ويقرِّرُ فى نفس مستزِيره أنه لم يتأخر عن المساعدة علىٰ الأنس إلا لقَواطِعَ صدَّت عنه ، يعلَم المعتذَرُ إليه صحّتَها لينحرس ما بينَهما من المودّة ، فإنّ كثيرا ماتتفاسدُ الخُلّانُ من مثل هذه الأحوال .

النـــــوع السابع

(فى اختطاب المودّة وافتتاح المكاتبـــة)

قال فى " موادّ البيان " : الرّقاع الدائرةُ بين الإخوان فى اختطاب المُعاشَره، واتماء المكاثره، وطلبِ الخُلْطة والمؤانَسة، يجب أن يقدّر الخطابُ فيها علىٰ أن يَصل المرغوبُ فى عِشْرته إلىٰ الانخراط فى سلك أحبائه، والانحياز إلىٰ أهل وَلائه، ويبعَث علىٰ قَصْـده ، فى الالتحاق بوُدّه ، ويُدَلّ علىٰ المـاحصه ، والصّـفاء والمخالَصه ، وما جرىٰ هذا المَجْرىٰ ممـا يتعامل به أخِلّاء الصّدق ، ويجعلونه مَهْرا لمـا يلتَمسُونه من المـازَجه، ويرُومُونه من الاختلاط والمواشَجَه .

قال : وينبغى أن يذهب الكاتبُ فى هذه الرّقاع مَذْهبا لطيفا ، ويُحْسِنَ التوصُّلَ إلىٰ الإفصاح عن أغراضها : ليأخُذَ بمَجامِـع القُلوب، ويُعِين علىٰ نَيْل المطْلُوب .

وهذه نسخ من ذٰلك :

رقعـــة : ويُنْهِى أنّ المملوكَ لم يَزَلْ مُذْ وقع طَرْفُه علىٰ صُورته ، وولَجَ سَمْعَـه بُعْدُ شِيمِته ، يُناجِى نَفْسَه بافتتاح مكاتَبته ومراسلَته ، واختِطاب ممازَجته ومواصلَته ، رغبةً فى الاعتقاد بإخائه ، والارتشاف من مَشارع صَفَائه ، والمقاديرُ تَطْوِى الطَّويّةَ علىٰ ما فيهـا ، والعوائقُ تمْطُل النّيّـةَ بَمجاز ماتَنْويه وتَلْويها ، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعـالىٰ بإعْراضِ الأعْراض ، وانقباض أســبابِ الانقباض ، فاظهر المملوكُ مافى القُوّه ، واثقا من مَوْلانا بحُسْن المُرُوّه ، وأنه يوجب القَبُول بإجابته ، ويُجِيب إلىٰ مساعدته ، ويرضىٰ المملوكَ أهلا لاصطفائه ، ومحلّا لإخائه ، عالمًا بإيجابه لحقّ ، والمعرفة بالسَّبْق ، وأن تُلقىٰ هذه الرغبةُ بالقَبُول ، ويسَلّم إليها مفتاحُ المأمُول .

رقعـــة : لو كانتِ المودّةُ لا تحصُــل إلّا عن أُلْفة تالدَة ، ومُواصلةٍ سالفة ، لم يستَطْرِف المرءُ صفيًا ، ولم يستحْدِث وَلِيًا . وما زال البُعَداءُ يتقاربُون ، والمتنا كِرُون يتعارَفُون ، ولمّـا نُمِيَ إلىٰ المملوكِ من أنبـاء مولانا ماتضوّع عِطْره ، وطاب نَشْرُه ، سافرَ بالأمَلِ إليه ، وقدِم بالرَّغبة عليه ، طالبًا الانخراطَ فى سلك أوْليائه ، والاختلاطَ بخاصّــته وخُلَصائه ، ومثلُ مولانا مَنْ أجاب السُّول ، وصَــدَّق المأمُول ، والمملوكُ يرجُو أن تكْشف الأيامُ لمولانا منه عن خُلَّةٍ صادقة ، ومَوَدّةٍ صحيحة ، لاتضِيعُ معها إجابتُه ، ولا تخْسر صَفْقتُه .

رقعـــة : ويُنْهِى أنّ المملوكَ مازال مُذْ وقع طَرْفُهُ علىٰ صُورته البَدْرِيه ، وأحاط علمًا بخلائِقِه المَرْضِيَّه ، راغبًا فى مُواشجَته ، باعثًا نَفْسه علىٰ اختطاب مودّته ، وإكبارُه يُقْعِده ، وإعظامُه يُبْعِده ، فلَمّـا تطاوَلَ يراعُ هِمّتــه ، شجعَتْ علىٰ إنفاذ عَزْمتــه ، فقدّم مكاتَبَته أمامَ مشافهتِه ، فإن حظِىَ بالإجابة وتنويل الطَّلِبة ، فقدْ فاز قِدْحُه ، وتبلّج صُبْحُه ، ونال مُناه ، وبلغ رِضاه ، وصادَفَ هَناه ، وَبدَا موثُوقا بُودّه ، مسكونا إلىٰ عَقْــده وعَهْده ، يحمَدُه عنــد الاختِبار ، ويعرِفُ به صحّةَ رأيه عند الاختيار ، والمملوك يرجو أن يصحّ ماسأله وكَفَله ، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ منْ عَمَر اللهُ تعالىٰ بثَنائه المحَافل ، وعَطَّر بأنبائِه القَصائل ، وأقام من مَسَاعِيه الكِرامِ خطيبًا يخْطُب بُسودَده وفَضْله ، ويُعْرِب عن شرف مَحْتِده وأصْــله ، تطلّعتِ الآمالُ للانتظام فى سِلْك أحبّائه ، وتشوّفت الهِممُ إلىٰ الامتزاج بخُلَصائه وأوْليائه : لمـا يَضْفُو علىٰ المعتَصِم بعُرىٰ مُصافاتِه من لِباس جَمـاله ، ويُحَلِّى المعتَدِى إلىٰ وَلائه من حِلىٰ جلاله ؛ وأحقُّ مَنْ أسـعفَه مولانا بالمودّة إذا خطَبها ،

وأجابه إلىٰ المُصافاةِ إذا طَلَبها ، مَنْ بدأه بالرَّغبه ، ومَتَّ إليه بالمحبّه ، لا لمُرْغِب ولا مُرْهِب ، وآختاره لنَفْسه علىٰ عِلْم بكماله ، ومعرفةٍ بشَرفِ خِلالِه .

وما زال المملوكُ مُذْ أطلعه الله علىٰ ماخُصَّ به مَوْلانا من المحاسن المتعذِّرة إلّا لديْه ، والفضائل الممتَنِعة إلّا عليــه ، يَحُومُ علىٰ مَشارِع ممــازَجتِه ولا يَرِدُها ، ويَرُومُ مواقِعَ مُواشَجتِه ولا يعتمِدُها ، إكبارا لقدره ، وإعظامًا لخَطَره ، وخوْفًا من تصَفُّحه ونَقْده ، وإبقاءً علىٰ ماءِ وجْهِه من رَدِّه ؛ والمملوكُ وإن كان عالمـًا بأنَّ كرَمَ مولانا يَرْقَع الخَلَل ، وفضْلَه يُصَدِّق الأمَل ؛ فإنه لايَعْدَم مذ رَغِب فى قُرْب مولانا مالعَلَّه يجِدُه فيه ، ممــا يُخالِفُ مذْهَبه ويُنافِيه ؛ إذ كان لا يبْلُغُ تَضاهِيه فى اتّمام وتَوافِيه ، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعــالىٰ بأن أبلغ نَفْسه الأُمنيَّه ، وأظْهر ماطُوِيَتْ عليه الطَّويَّه ؛ فكتب هذه الرُّقعةَ وجعلها فيما رامَهُ من الاعتِلاقِ بحبْل مَوَدّته سَفِيرا ، وعلىٰ ماآلتَمَســه من الانْضِمام إلىٰ جُمْلتــه ظَهِيرا ؛ وقَدِم بها عليــه وظَنُّه يترجَّحُ من الإعراض إلىٰ القَبول ، ثقةً بقُرْب نَيْلِ المأمول ؛ فإن رأىٰ أن يُجيبــه إلىٰ ماسأله ، ويَسُرَّه بتنويل ماآقترَحَه ، فعــل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

اختطاب المودّة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ :

وضاعفَ للمالكِ ببقائِه الانتِفاع ، وبآرتقائِه الارْتِفاع ؛ وسَرَّ بمحاسن نظره وخَبَره العِيانَ والسَّماع .

ولا زال للمحبِّين من وُدِّه عَطفُ المتلَطِّف وللأعداء من بأْسِه خَطْفُ الشُّجاع .
أصدرها المملوكُ منْطويةً علىٰ ماعهد من صِدْق المحبَّه ، ووفاءِ العهُود المستَتِبَّه ، ودُرَر

المحامد التي لا تَسْوَى[1] لديها دُرَرُ العُقُود حَبَّه ، مُبْـديةً لعلمه الكريم أنَّ المودّات إذا صفَتْ، والقلوبَ إذا تجنّدتْ وتعارفَتْ ، حنَّت المحبِّين في البِعاد علىٰ المفاتَحة بكُتُبهم ورسائِلهم ، والمخاطبةِ في ظِلال الأوراق بألسِنة أقلامهم من لَهَوات أنامِلهم ، إيثارًا لتجديد الأُنْس و إنْ صَحَّ الميثاق، وتَذْكارا لخَوَاطِر الوُدِّ ، و إن رسخَتْ منه الأُصُولُ ونَمتِ الأَعْراق ، ولذٰلك فاتَحَ بها مخاطِبا ، وآرتقَبَ لمُناديها بالأخبارِ السارّة مُجَاوِبا ، ناشبةً عنه في مشاهدةِ الوَجْه الكريم ، ومصافَحَة اليَدِ في حديثِ بِرِّها القديم ، تستطلع أخبارَه ، وتستعْرِض أوطارَه ، وتُحيِّي بالسلامِ وجهَه وعَهْدَه وديارَه ، علىٰ يد فلان ، وقد حَمَل من المودّات والمشافَهات مايُعيـده علىٰ السَّـمْع الكريم المُنْعِم بإصْـغائه ، المُصْغِي بنَعْمائه ، المتحف بالمهِمّات التي يحصُـل فوزُ القِيام بها ، والمشرِّفات التي كلُّ أسبابِ السُّرور متصلٌ بسببها ، والله تعالىٰ يُبْهِج من تِلْقائه سَمْعا ونظَرا ، ويُبْقِي عيشَ حاسده هَشِيا وعيشَ محبِّيه نَضِرا ، ويُديم رياضَ ذكره تاليةً علىٰ المسامع : ﴿فأخرَجْنا منْــه خَضِرا﴾ .

أجوبةُ آختِطـابِ المَوَدّة

قال في "موادّ البيان" : لايخلُو مَنْ يُرام ذٰلك منه من أن يُجيب أو يعتلّ ، فإنْ اجاب بنىٰ الجواب علىٰ وُقُوع رَغْبة المختَطِب أحسنَ مواقِعِها ، وآبتهاج المختَطَب بها ، ومعرفتِه بقَـدْر ماراه أهلًا له ومسارعتِـه إليه ، وإن آعتلّ بنىٰ الجواب علىٰ أنه قد عَرَض له مايقصر عنه ، ولا ترضى نفسُه به ، وأنّ العذر [ليس] بعادةٍ له في المُزَايلة ، وطريقةٍ في الآنفراد والمجانَبَة .

---

(١) أي لاتساوى يقال سوى درهما يسوىٰ من باب تعب ومنعها أبو زيد . أنظر المصباح .

النــــــوع الثـامن
(فى خِطْبــة النِّســاء)

قال فى "موادّ البيـان" : الرِّقاع فى آلتمـاس الصِّهر والمواصَلة يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصْف المخطُوب إليه بمـا يقتضِى الرَّغْبة ، ويدل الخاطب عن نفسه بمـا يؤدِّى إلىٰ الكِفَاية والإسعاف بالطَّلِبة .

قال : وينبغى للكاتب أن يُودِعَها من ألفـاظ المعانى المنتظِمة فى هـذا البابِ أوْقَعَها فى النُّفوس ، وأعوَدَها بتقريب المَرَام ، وأدَلَّهـا علىٰ صِدْق القول فيا تكفَّله من حسن معاشرةٍ ، ولينِ معاملة ، وأنْ يذهب بها إلىٰ الآختصار والإيجاز .

وهذه نسَخٌ من ذلك :

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

وأفضلُ تِلكَ المواهبِ مَوْقِعًا وألطَفُها وأحمدُها عاقبةً ، وأرهنُها يدًا ، مايؤلِّف اللهُ به القُرُبات ، ويؤكِّد به الحُرُمات ، ويوجِبُ به الصِّلات ، ويجدِّدُ به المَكْرُمات ، ويُحْدِثُ به الأنْساب ، ويقَوِّى به الأسْـباب ، ويكَثِّر به من القِـلَّة ، ويَجْمَعُ به من الفُرْقة ، ويُؤْنِسُ به من الوَحْشة ، ويُزادُ به فى الحقُوق وجُوبا ، وفى المودّات ثُبُوتا ؛ ثم لامثلَ لمـا كان لله طاعةً ورِضاء ، وبأمره أخذًا وآقتداء ، وبكتابه قُدْوة وآحتِذاء ؛ فاللهَ نسألُ الخِيَرَةَ فى قضائه ، والبركةَ فيا يقوم بناؤك عليه[1] .

---

(١) فى الاصل فيا يعزم .

ومنـــه : تصِلُ رَحِما، وتعقِد سبَبا، وتُحدِث نَسَبا، وتُجدِّد وُصْلة، وتؤكّد أُلفة .

رقعـــة : مَنْ خصّه الله تعالىٰ بما خَصّ به سيِّدى : من طَهارة الأعْراق والأنسـاب ، وشَرف الأخلاق والآداب ، وأفرده باجتماع خِلَال الخـير المتفرّقة فى الأنام، وعَطّر بثنائه مَلَابس الأيّام، رغِبَ الأحرارُ فى مُواصلته، وهانَ عليهم بَذْلُ الوجه فى آختِطاب ممازَجته، وآلتمـاس مُواشجته ومناسبَته ؛ وجديرٌ من رُغِب إليه، وطُلب مالدَيْه، وآختِير للشابكَة فى الوَلَد واللُّحْمه، والمشاركة فى المـال والنِّعمه ـ أنْ يجيبَ ولا يمنع ، ويصِـلَ ولا يقْطَع ، مصدِّقًا لأملِ من أفرده بآرتيَاده ، وتوحّده بآعتماده ، عارفًا له حقّ آبتِـدائه بالثّقة التى لايجُوز ردُّ من آعتقَـدَها، ولا صَدُّ من حَسّن ظَنّها، وقد علِم اللهُ تعالىٰ أن [مضىٰ] المملوك مدّة طويلة [وهو يَبْحثُ] متطلبًا مُرْتَعا للتأهُّـل، مُؤْثِرا لعِمارة المنزِل، راغبًا فى سَكَنٍ تطْمئِنُّ النفسُ إليـه ، وتعتمِدُ فى القَوائِج والمَصايرِ عليه ؛ وكُلّمـا عُرِض للملوك بيتٌ أباه ، أو ذُكِر له جَنابٌ قطع عنه رَجَاه : لعدم بعضِ الشروط التى يُرِيدُها فيه ، وتعذُّرها عليه ؛ فلمـا قَرَع سَمْعَه ذكْرُ سيدى، علِم أنّه الغايةُ التى لامَرْقىٰ بعدها ، والنهايةُ التى لامَطْمَحَ وراءَها، وأنه قد ظَفِر بالثّقة، ووصـل إلىٰ الأُمنيَّـة ، ووجد من يجْمَع الخِلَال المرضِـيّة ويزيد؛ ويحُوز من الفضـل الشأْوَ البَعِيد ، وكتب المملوك هـذه الرقعةَ خاطبا كريمَته فلانة [ليكون لهـا] كالغِمْد الضامِنِ للهِنّد ، وَالجِلْد الحافظ للجَلَد، ويكونَ لمولانا كالوَلَد البَرّ بأبيه ، ولأخيها كالصِّنو الشفيق علىٰ أخِيـه ؛ فإنْ رأىٰ سيدى أن يتدبّرما كتبه المملوكُ ويَتَسَمّعَ من توكيد رُقْعته ماحمّلته، ويجيبَه إلىٰ ماساله فله عُلُوُّ الرأْى فى ذٰلك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رُقعــة : ويُنْهِى أنَّ مَوْلانا بمـا تمَّم اللهُ تعالىٰ من مَحاسـنه ومَناقبه، جديرٌ أن يَلْقىٰ مَنْ خَطَب الاعتصامَ بعُرىٰ ممازجَتِه،وسعىٰ فى نَيْل عُلَقه من مُواشجته، بالقَبول، القاضى بنَيْـل المأمول، ودَرْكِ الرَّغَب والسُّول؛ ولا سِيَّمـا إذا كان عارفًا من سُمُوِّ خَطَره، واعتلاءِ قَدْره، مايقْضِى عليـه بخَفْض الجَناح فى معاشَرته، وغَضِّ الطَّرْف فى معامَلتِـه؛ والوُقُوف دُونَ درجة المساواة والممـاثَلَهْ، والتزحْزُح عن رُتْبة المُبـاراة والمُطاوَله؛ والانتظام فى سِلْك الأتباع والحاشِيه، والخُدَّام والغاشيه؛ وكثيرًا ماوجد المملوكُ البركةَ فى مشاركةِ مَنْ هذه صفَتُه أوفرَ منها فى مشاركةِ النُّظَراء،وكانت العاقبةُ فى مشابَكَة مَنْ هذه حالُه أجملَ منها فى مشابَكَة الأكْفاء؛ الذين يُصادِفُون فى الحقُوق شَطَطا، ولا يغُضُّون عن يسـيرِ الواجباتِ تبَسُّطا : لأنهم يرَوْن أنَّ الوُصْـلة ممَّنْ داناهم فى الرُّتْبـة والمنْزِلة ليستْ عائدةً عليهـم بشَرَف، ولا مُظْهِرةً لهم من خُمُول . ولَأَنْ يَستخْلِص مثْلُ سـيِّدى من الرُّؤساء، مثلَ المملوكِ من الأوْلياء، ويختَصَّه بأثْرة الأجِبّاء والأصْفِياء؛ فيكُونَ مَفْخَرُه إليه منْسُوبا، وما يرقِّيه الله تعالىٰ إليه ببركته من دَرَج الفضل فى نفسه محسُوبا؛ أَوْلىٰ من طلَبِ مُمـاثِل يُناوِئ بقَدْره ويُطاوِل . علىٰ أنه لو طلَبَ ذٰلك لطَلَب مُعْوِزا، ورام مُعْجِزا : لمـا أفرده اللهُ تعـالىٰ به من السِّـيادة التى لايُترامىٰ إلىٰ منْزلتها، ولا يُتسامىٰ إلىٰ مُطاوَلتِها؛ وإذا كان النظيرُ معْدُوما، والكُفُؤ مفقُودا؛ ولو وُجِد لمَـال متَسلِّطا، ووقَع سومُه[1] منبَسِطا؛ ومَوْلانا يُطْلَبُ إليــه ولا يَطْلُب، ويُرْغَب فيما عنـده ولا يَرْغَب، فقد سَهُلت السبيلُ إلىٰ ما يرُومُه المملوك من جِهَتِه؛ ويُؤْثِرُه من مُواصَلته؛ واتَّسع المجَال فيما يُقْدِم عليــه من الرَّغبــة فى تقليده شَرَف مُصاهَرته، وإضافته بذٰلك إلىٰ بِطَانته وأهل خاصَّــته؛ ويُخْرِجه علىٰ ما يُخْرِج عليــه الوالدُ ولده، والسيِّدُ عبْــده؛ وقد حمَّل المملوكُ موصِّلَ

(١) لعله يشير إلى المثل العربى «عرض عليه سوم عالة» يضرب لمن يعرض عليك ماأنت عنه غنىّ تأمل .

مطالعته هذه مالم تسعْ إيداعَه المكاتبة، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُصْغِيَ إليه و يُجِيبَ عبْدَه بمـا يعتَمِدُه المملوكُ فى ذلك فله الفضْل، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنــ لذَوِى المَناجب الطيِّبةِ الأنساب، والمَناجت الزَّكيَّـة الأحســاب ، والأخلاقِ الكريمةِ والآداب ، بين الأنام لِسانَ صِــدق يخطب لهم بالمَحاسن والمَحامد، ويُعَطِّر بثنائهم الصادرَ والوارِد، ويدْعُو القلوبَ إلىٰ نَيْل عُلَقه من ممـازَجَتهم ، وٱلتمسُّـك بطَرَف من مُواصـلتهم؛ وقد جمعَ اللهُ لمولانا من كريم المُتْلَد(١) والمُطْرَف، وقَديم وحديثِ الفضـل والشَّرَف ، ماتَفرَّق فى السِّيادات، وتَوَزَّع علىٰ أهل الرياسات، وجعله فى طَهَارة المَوْلِد، وطِيبة المَحْتِد، وٱستكمالِ المآثر، وٱستِتْمامِ المَفاخر، عَلَمـا ظاهِرا ، ونَجْما زاهِرا؛ فمـا مِنْ رئيس سِوىٰ مولانا تُعْجِزه خَلَّة من خِلَال الرياسة إلا وجدَها لديْه ، ولا نفيسٍ تُعْوِزُه خَصْـلةٌ من خِصال النَّفاسة إلَّا ٱستماحها من يدَيْه ؛ ولذٰلك ٱمتدتِ الأعناقُ إلىٰ ٱلتمسُّك بحبْله ، وتطلَّعتِ الهِمَمُ إلىٰ مُواشجَتِه فى كريمِ أصْله ؛ وصار مرْغُوبا إليه لاراغبا ، ومطلوبًا لديْه لاطالبا ؛ وهو جديرٌ بما وهبَهُ الله من هذا الفضل الدَّائم، والنُّبْل الشائع ،أن يُجيب سائلَه ، ويصَدِّقَ آملَه؛ ولا يَتَجهَّمَ فى وَجْه قاصدِه، ولا يردَّه عن مَقْصَده؛ ولا سيَّما إذا كان قد أسلَفَه الظنَّ الجميل، وبدأه بالثِّقة والتأميل؛ وتعذَّر عليه قدرُ العارف بقَدْره، العالمِ بخَطَره؛ المرتضِى بشرائِطه، النازِل علىٰ حكمه، المتدَبِّر برأيه؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ المملوكَ مُذْ نشأ وصَلَح للتأهُّل مرغوبٌ فيه، مخطوبٌ إليه؛ من عِدَّةِ جهاتٍ جليلة ، وجَنَباتٍ رئيسة ؛ والمملوكُ صادٌّ عن الإجابة ، صارفٌ عن المطاوَعَة : لشُذُوذِ بعض الشُّروط التى يرُومُ أن تكون مجتمعةً فى النَّسب ، الذى أعُــدّه شريكًا فى الوَلَد والنَّشَب ؛

(١) المتلد (أى كمكرم) ماولد عندك من مالك أو نتج ومال متلد قديم .

ومُفاوضًا فى الحال والنَّسَب، مرتادٌ من يقْنَع بالموافقه، ويرتض بالعِشْرة والمرافقَه؛ حتّى أفضىٰ فى الاْنتقاد إلىٰ مولانا فوجد المُرادَ علىٰ آشتراط، وألفىٰ المقصودَ علىٰ آشتطاط؛ فدعاه ذٰلك إلىٰ التهَجُّم بعد الإحجام، وحمله علىٰ التجاسُر والإقْدام؛ والتوسُّلِ إلىٰ مولانا بما يتوسَّل به الأحرار، إلىٰ الأخيار، وأمَّه بصادِقِ الرغبةِ وصميم المحبة والأنبساط، فى خِطْبة كريمته فلانة؛ علىٰ أنْ يعاشِرَها بغاية الأُنْس، ويَصْحَبَها صُحبةَ الجسَد للنَّفس؛ ويَعْرِفَ لها من قَدْر أبوَّتها وأُمومتِها ماتستحِقّ برياستها، وقد أصدر هذه الرقعةَ نائبةً عنه فى ذٰلك؛ فإنْ رأىٰ مولانا أن يُتْحِفَه بالقَبُول، ويجعله أهلا لإجابة السُّول، فله الفضل فى ذٰلك، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن النادر الغريب ماذكره الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبى فى "حُسْن التوسُّل" فى الكتابة إلىٰ شخص فى تزويج أمه، وهو :

هذه المكاتبة إلىٰ فلانٍ ــ جعله الله ممن يُؤْثِر دينَه علىٰ الهوىٰ، ويَنْوِى بأفعاله الوقُوفَ مع أحكامِ الله تعالىٰ فإنما لكُلِّ آمرِئٍ ما نوىٰ؛ ويعلَمُ أنَّ الخَيْرَ والخِيرَةَ فيما يسَّره الله من سُنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلم وأنَّ الشرَّ والمكروهَ فيما طوىٰ؛ نُعرِّض له بأمرٍ لاحرجَ عليه فى الإجابة إليه؛ ولا خَلَلَ يلْحَقُه به فى المُروءة وهل أخَلَّ بالمُروءة مَنْ فعل ماحَضَّ الشرْعُ المطَهَّرعليه؟ وأظهَرُ الناس مُروءةً من أبلغَ النفْسَ فى مَصالح حُرَمه عُذْرَها، ووَفَّىٰ من حقُوق أخصِّهنَّ ببرِّه كلَّ ماعلم أنَّ فيه بِرَّها؛ وإذا كانت المرأة عَوْرة، فإنَّ كمالَ صَوْنها فيما جعل اللهُ فيه سَتْرَها، وصَلاحَ حالها فيما أصلحَ اللهُ به فى الحياة أمْرَها، وإذا كانتِ النساءُ شقائقَ الرجال فى باطن أمرِ البشَرِيّة وظاهره، وكان الأولىٰ تعجيلَ أسباب العِصْمة فلا فرقَ بين أوَّلِ [وقت](١) الأحتياج [إلىٰ ذلك](١)

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٦ .

وآخره ؛ وما جَدَع الحلالُ أنْفَ الغَيْرة إلّا ليَزُولَ شَمَمُ الحَمِيَّه ، وتنزِلَ علىٰ حكم الله فيما شَرَعَ لعباده النُّفُوسُ الأبيّه ؛ ويُعلَم أنَّ الفضلَ فى الانقياد لأمرِ الله لا فى اتّباع الهوىٰ بعَضْل الوليّه ؛ وإذا كان بِرُّ الوالدة أتمّ ، وحقُّها أعمّ ؛ والنظرُ فى صَلاح حالها أهمّ ؛ تعيَّنت الإجابةُ إلىٰ مايصلُح به حالُها ، ويسكُنُ إليه بالُها ، ويتوفَّر به مالُها ، ويعمُر به فنَاؤُها ؛ ويحصُل به عن تقلُّد المِنَن آستغناؤُها ، وتُحمَلُ به كُلْفَة خَدَمِها عنها ، وتُدفَع به ضَروراتٌ لابُدّ لذوات الحِجابِ والحِجالِ منها ، ويَضْفُو به سِترُ الإحصانِ والحَصَانة عليها ، ويظْهَرُ به سرُّ ماأوجبه الله لها من تتبُّع مواقعِ الإحسانِ إليها .

وقد تقدّمَ من ساداتِ السَّلَف مَنْ تولّى ذٰلك لوالدته بنَفْسه ، واعتدّه من أسباب بِرِّ يومِه الذى قابل به ماأسلفَتْه إليه فى أمْسه ؛ عِلْما منهم أنّ آستكمال البِرّ مما يُعْلِى قدْرَ المرءِ ويُغْلِى ؛ وقد أجاب زيدُ بنُ زينِ العابدين هِشَامًا لَمَّا سأله : لِمَ زوّجت أُمَّك بعدَ أبيك؟ فقال : لتبشَّرَ بآخَرَ مثلى ، لاسيَّما والراغبُ [إلىٰ المولى][1] فى ذٰلك ممن يُرْغَب فى قُرْبه ، ويُغْبَط علىٰ مالدَيْه من نِعَم ربِّه ؛ ويعظَّم لاجتماعِ دُنْياه ودينه ، ويُكْرَم ليُمْن نَقيبته وجُود يمينِه ؛ ويعْلَمُ أنَّ العقيلة تَحُلُّ منه فى أمْنَع حَرَم ، وتستظلُّ من ذَرَاه بأضْفىٰ سُتور الكَرَم ، مع ارتفاعِ حَسَبه ، واشتهارِ نَسَبه ، وعلُوِّ قدْره فى مَنْصبه وحالِه وسبَبِه ، وأنه ممن يُحْسِنُ أن يحُلَّ من المولىٰ محَلَّ والدِه ، وأنْ يتجمَّل من ذُرِّيته بمن يكون فى المِلمَّات بَنَانًا ليَدِه وعَضُدا لساعِده ؛ فإنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيه ، وإذا أُطْلِق عليه بحكم المَجَاز لفظُ العُمُومة ، فإنَّ عمَّ الرجل صِنْوُ أبيه ؛ وأنا أتوقَّع من المولىٰ الجوابَ بما يجمَعُ شَمْل التُّقىٰ ، ويعْلَمُ به أنه تخيَّر من البِرِّ أفضلَ مايُنْتَقىٰ ؛ ويتحقَّقُ بفعْله أنَّ مثلَه لايُهمِل واجِبًا ؛ ولأمرٍ مّا قال الأحنفُ وقد وُصِف بالأناة : لكنِّى أتعجَّلُ أنْ لا أردَّ كُفؤًا خاطِبًا .

---

(١) الزيادة من "حسن التوسل" .

النــــوعُ التــاسعُ

(فى الاِستِرضاء والاِستعطاف والاِعتِذار)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبةُ فى آستِعْطافِ الرُّؤساء ، ومُلاطَفة الكبراء ، تحتاج إلىٰ حُسْن تأتٍّ : لما تشتمِلُ عليه من إيجاب حُقُوق الخدمة ، وما أسلَفُوه من مَرْعِىِّ الخِدَم ، وما يَتْبع هـذا من التَنصُّل والاِعتِذار الذى يسُلُّ السخائِمَ من القُلوب ، ويستنزِلُ الأَوْغار من الصُّدور ، ويُطْلِع الأُنْس وقد غَرَب ، ولها موْقع فى تأليف الكلام .

قال : وينبغى للكاتبِ أنْ يستعمِلَ فيها فِكَره ، ويُوفِّيَها حقَّها من جَوْدة الترتيب ، وآستيفاءِ المعانى ، وأنْ يذهبَ إلىٰ آستعمالِ الألفاظ الجامعـة لمعانى العُذْر ، الملَوِّحة بالبَراءة مما قُرِف به (١) ؛ ولا يُخْرِج لفظَه مُخْرَج من يُقِيم الحُجـةَ علىٰ براءةِ الساحة مما رُمِى به ، فإنَّ ذٰلك مما يَكْرهه الرؤساء : لأنَّ عادتَهـم جاريةٌ بإيثار آعترافِ الخُدَّام لهم بالتقصير والتفريط والإخلالِ بالفُروض : ليكونَ لهم فى العَفْو عند الإقرار عارفةٌ توجبُ شكرا مستأْنَفا ؛ فأما إذا أقام التابعُ الحجةَ علىٰ براءتِه وسلامتِه مما رُفِع عنه ، فلا يُوضَع الإحسان إلا إليه فى إقراره علىٰ منْزِلته (٢) ، والرِّضا عنه والاِستعطاف ، بل ذٰلك واجبٌ له ، فى منْعِه منه ظُلْمٌ .

---

(١) فى الاصلين «مما قرب منه» وهو تصحيف من الناسخ .

(٢) المراد أن إقراره والرضا عنه ليس من الاحسان بل من الواجب تأمل .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

لأبي الحسين بن سعد :

فإن رأيتَ أن تنظرَ في أمري نظرا يُشْبِه أخلاقَك المرضيَّة ويكونُ لحسن ظَنِّي بك مصدِّقا، ولعظيم أَمَلي [فيك] محقِّقا، ولِمَا لم تزل تَعِدُنيه مُنْجزا، ولِحقِّ حُرْمتي بك وقديم آتِّصالي بأسبابك قاضِياً، فعلت ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنــه : لسليمانَ بنِ وَهْب .

مَنِ آنصرَفَ في الآحتجاج إلىٰ الإقرار بمـا يَلْزَمه وإن لم يكن لازما، فقد لَطُفَ الآستعْطاف، وآستوجب المسامحةَ والإنْصاف .

ومنــه : وقد نالَني من جَفْوة الأمير بعـدَ الذي كنْتُ أتعرَّف من بِرِّه وألطافه أمْرٌ أحلَّني محَلَّ المُذْنب في نَفْسي مع البَراءة من الذَّنْب ، وألزمني الإساءةَ مع الخُروج من التقصير ، وزاده عِندي عِظَما وشِدّة أنِّي حاولْت الخُروجَ منـه بالاعتِذار، فلم أجِدْلي إلىٰ الأمير ذَنْبا أعتذر منـه ، ولا عليَّ فيما ألزمَني من مَعْتَبَته حجةٌ أُحاوِلُ دَفْعها والتخلُّص منها؛ فاصبحْتُ أُعالجُ من ذٰلك داءً قد خَفِيَ دَواؤُه، وأُحاوِلُ صلاحَ أمْرٍ لم أَجْنِ فَسادَه؛ فإن رأيتَ أن تفْـعل كذا وكذا فتصِـلَ قَديم ماأصبحَ عنـدي من معْروفِك بحديثه ، فليس عِندي في مطالبةٍ حجّةٌ أنجحُ من التوجُّه إلىٰ الأمير بنَفْسه ، والثقةِ عنده بفَضْله، فإن كنتُ مُذْنبا عَفَا، وإن كنتُ بَريئًا راجع .

ومنــه : لأبي عليّ البصير .

وأنا أحدُ منْ أسكنْتَه ظِلَّك، وأعلَقْتــه حَبْلك ، وحبَوْتَه بلطيف بِرِّك ، وخاصِّ عنَايَتِك، وآنتصفَ بك من الزَّمان، وآستغنىٰ بإخائِك عن الإخْوان ؛ فهو لا يَرْغَبُ

إلّا إليك ، ولا يعتمد إلّا عليك ، ولا يستنجح طلبه إلّا بك ؛ وقد كان فرط منّى قولٌ : إن تأوّلته لى ، أراك أوجه عذرى ، وقام عندك بحجّتى ، فأغنانى عن توكيد الأيمان على حسن نيّتى ، وإن تأوّلته علىّ ، أحاق(١) بى لائمتك وحبسنى على [أسوإ] حال عندك ؛ وقد أتيتك معترفا بالزّلة ، مستكينا للموجدة ، عائذا بالصّفح والإقالة ، فإن رأيت أن تقرّ عينا قرّت بنعمتك عندى ، ولا تسلبنى منها ماألبستنى ، وأن تقتصر من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عتبك علىّ ، وتأمر بتعريفى رأيك بما يطامن هلعى ، وتسكن إليه نفسى ، ويأمن به روعى ، فعلت ؛ إن شاء الله تعالى .

ومنه : لابى الحسين بن أبى البغل .

نبوّ الطّرف من الوزير دليلٌ على تغيّر الحال عنده ، والجفاء ممن عوّد الله البرّ منه شديدٌ ؛ وقد آستدللت بإزالة الوزير إيّاى النّحل الذى كان نحلنيه بتطوّله ، على ما سوّت له ظنّا بنفسى ؛ وما أخاف عتبا : لأنى لم أجن ذنبا ؛ فإن رأى الوزير أن يقوّمنى لنفسى ، ويدلّنى على مايريده منّى ، فعل ؛ إن شاء الله تعالى .

ومنه : لأبى الرّبيع .

أصدق المقال ، ماحقّقه الفعال ، وأفضل الخبر ، ماصدّقه الأثر .

ومنه : لمولانا سيرةٌ فى الفضل والإحسان ما أمّلها آمل إلّا جادت وسمحت ومنحت ، وعوائد فى العفو مارجاها راجٍ إلّا صفحت وسمحت ؛ وأحقّ من تلقّاه عند العثار ، بالإقالة والاغتفار ، ووقف به عند حدّ التقويم والإصلاح ، ولم يعرّضه

---

(١) فى الاصل "على ما أحاق" تأمل .

لنقيصــة الإقصاء والاطّراح، مَنْ شفَع الهَفوةَ بالاعتذار، وخطبَ التغمُّد بلسان الإقرار، ودلّت التجاربُ منه علىٰ حَسْم الأضرار، وكان له من سالف الخدَم وسائلُ وذرائع، ومن صحيح الإخلاص ممهِّد وشافع؛ فلا عَجَبَ أنّ المملوكَ يَهْفو فيعفُو، ويَظْلِم فيكظِم، ويجهل فيَحْلُم، ويُخْطئ فيُصيب، ويدْعُو متنصِّلا فيُجيب؛ وقد جعل الله سَهْمَه المعَلَّى، ويَده الطُّولى، وألهمه التفضُّـل بالإنعام، والتغميضَ عن زَلّات الكرام؛ وقد حصل للملوك فى هـذه النَّبوة من إزرائه علىٰ عقله، وتقبيحه لفعله؛ أعظمُ تجربه، وأكبرُ مأدَبه؛ والمملوكُ يسألُ إحسانَ سـيِّدى أن يُعيـدَه إلىٰ رضاه ولُطْفه، ويُؤْنِس منه مستوحِشَ إقبالِه وعَطْفه؛ ويصَـدِّقَ رجاءَه فيـه، ويُجْزِلَ ثوابَ وِفَادته عليه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

رقعـــة: المملوكُ يخْطُب صَفْحَ سـيِّده وإقالتَه بلسانـ الاعتفار، ويستعيدُ ماعَرَف من رِضاه وعاطِفَتِـه بوَسائِل الاعتذار: ليكونَ المتفضِّلَ فى كلّ الحالات، والمنعِمَ من كلّ الجهات؛ وقد عرفَ السَّهْوَ والنِّسيان، المعْتَرِضين للإنسان؛ وأنّهما يحُولان بينَهُ وبينَ قَلْبه، ويُزَوِّرانِ عليه خَطَاه فى صُورةِ صوابِه؛ فيتورّطُ فى السَّقَط غيرَ عامد، ويتهوّرُ فى الغَلَط غيرَ قاصِد، وقد قال اللهُ تعالىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. وما أولىٰ مولانا بأن يحفَظَ علىٰ المملوكِ جميـلَ آرائه، ولا يَسْلُبَه ماشَمِله من ظِلّ آلائه؛ ولا يَسِمَه بِمِيسَمِ العُقُوق فإنه يجدُ نفْسَه بخلاف ذلك فى طاعَتِه، ومرتبَتَها بغير هذه الرتبة فى خِدْمته.

فصـــل: وقد آوىٰ سـيدى المملوكَ من ظله، وأعْلَقَه من حَبْله، وأسبغ عليه من فَضْله، ماأنْصفَه به من الزمان، وأغْناه عن الإخوان، ووَقَف رَغَباتِه عليـه، وصَرَف آمالَهُ إليه، ونَزّله مَنْزِلةَ مَنْ لايشُكُّ فى اعتقاده، ولا يستريبُ بوِدَاده؛ وكان

المملوكُ أرسل لفظا علىٰ سبيلِ الإشـفاق ذهَبَ به الحاسدُ إلىٰ غير معْناه ، وخالف في تفسيرِهِ حقيقةَ مَغْزاه ، وأحاله عن بِنْيته ، وعرَضَه عليه علىٰ غيْر صُورَته : ليُوحِش محلَّ المملوك المأنوسَ من رِعايَتِـه ، ويُنَفِّر سِرْبَه المطمئنَّ بملاحظتِه وعنايتِـه ؛ وقد أرسل المملوكُ هذه العُبوديَّةَ سائلا فى محْو إظلام مَوْجِدته ، وأن يُعِيدَ المملوك إلىٰ مَكانه من حَضْرته ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

لا أتوسَّلُ إلَيْك إلّا بك ، ولا آتيكَ إلا مِنْ بابِك ، ولا أستشْفِـعُ إليك بسِوَاك ، ولا أَكِلُ رَجْعةَ هَوَاكَ إلّا إلىٰ هوَاك ، ولا أنتظِرُ إلّا عَطْفَتَك التى لاتقُودُها زخارِفُ الأموال ، ولا تُعيدُها شفاعاتُ الرجال :

إذا أنْتَ لم تَعطِفْكَ إلّاشفاعةٌ * فلا خَيْرَ فى وُدٍّ يكونُ بشَـافِعِ

شعر فى معنىٰ ذلك :

هَبْــنِي تخطَّيتُ إلىٰ زَلَّــةٍ * ولم أكُنْ اذنَبْتُ فيما مَضىٰ!

ألَيْسَ لِي مِنْ قَبلِها خِدْمةٌ * تُوجِبُ لى منْكَ سَبِيلَ الرِّضىٰ!

غـــيره :

وَحَقِّــكَ ما هجَرْتُكَ مِنْ مَلَالٍ * وَلَا أعْرَضْتُ إلّاخَوْفَ مَقْتِ!

لِأنَّ طَبَائِـعَ الإنســانِ ليْسَتْ * علىٰ وَفْقِ الإرادَة كُلَّ وَقْتِ!

اعتذار عن التأخر ، من ترسل أبى الحسين بن سعد .

إنْ لم يَكُنْ فى تأخُرِى عنك عُذْرٌ تقبلُه ، فاجعلْه ذَنْبا تغفره .

علىّ بن خلف :

الأعذارُ ـ أطال اللهُ بقاء سيِّدى ـ تنأىٰ علىٰ الإمتناع ، وتضيق علىٰ الاتّساع ؛ وذٰلك بحسَبِ ماتُصادِفُه من قَبُول وردّ ، ومسامحة وتَقَد ؛ وأنا أحمَدُ اللهَ علىٰ أن جعلَ عُذْرى إلىٰ من يَتَمَحَّل العُذْر لِمُعْتَذِر ، ويصْفَح صَفْح المالك المقتَدِر ، كأنَّما ائتمّ بقول الشاعر :

إذا ماأتَتْ من صاحِبٍ لك زَلَّةٌ ۝ فكُنْ أنتَ مُحتالًا لزَلَّتِهِ عُذْرا

ولم يجعَلْه إلىٰ من يُغَلِّب هاجِسَ الظُّنون ، علىٰ واضحِ الحُجَّة ، ومعتَلَّ الشكِّ علىٰ صحيح اليَقين . ونُمِيَ إلىّ أنَّ غابطا لمكانى من حَضْرته ، حسَدَنى علىٰ محلِّى من مودّته ، وزوّر ماينكشِفُ عن الإفك والبُهْتان ، ودلَّس الكذِبَ فى صُورة البُرْهان ؛ فلما جَلَّاه فى مَعارِض زَخارِفه أظهر لسيدى عُوارَه ، وأبدىٰ لطَرْفه شُوارَه[(١)] ؛ فشَلّ سَمْعَه عن وَعْيه ، وطَرَف طَرْفَه عن رَعْيه ؛ واستتمّ علائمَ شِيمته ، فى حُسْن الظنّ بأحبّته ؛ فقدّمتُ من الاعتذار مايُقدّمُه المذنبُ نُزُولا علىٰ طاعته ، وتأدُّبًا فى خِدْمته ، وشفعتُه من الشُّكر بما يقتضيه إحسانُه ويوجبه .

أبو الفـــرج الببغاء :

أحقُّ المَعاذِير بالتقبُّل وأوْلاها بسَعَة القلُوب ماصدَرَ عن استِكانة الأقْدار ، ودلّ علىٰ حَسْم موادّ الأضرار ، وصَفَا من كَدَر الاحتِجاجات ، وتنزّه عن تمحُّل الشُّبُهات : ليَخلُص به مِلْكُ العفو ، وتتكامَلَ نِعمةُ التّجاوُز . ولستُ أكْرَه شرَفَ تأديبه ، ونُبْلَ تثقيفه وتهذيبه ؛ مالم يتجاوَزْ فى العقُوبة والتقويمِ إلىٰ مُؤلِمِ الإعْراض ، ومَضيض

(١) أى عيبه وشل سمعه أى طرده والمراد أنه لم يصغ اليه .

التنكُّر والانْقباض، ولا أخطُبُ الإقالةَ من تفضُّله إلّا بلسانِ الثّقةِ وشافِعِ الخدمة ، هارباً إلىٰ سَعَة كرمه مما دفعتْني المحبَّةُ إليه ، وأشفىٰ بى عدَمُ التوفيقِ عليه ؛ فإنْ رأىٰ أنْ يكونَ عِنْدَ أحسنِ ظنِّى به فى الصَّفح ، كما هو عِنْد أصدقِ أملى فيه بالإنعام ، فعَل .

وله فى مثـــله :

ليس يَخْلو الإغراقُ فى التنصُّـل والمبالَغةُ فى الاعتذار من إقامةِ لحُجَّة ، أو تمسُّك باعتراضِ شُـبْهة ، وأنا أُجِلُّ ما أخْطُبـه من عظيمِ عَفوِه ، وأُكْبِر ما أُحاوِلُه من نِعمةِ تجاوُزه ، عن المقابلةِ بعيْنِ الاعتراف بالزَّلَل وبعد الاستحقاق من الصَّفح ، مالم يُوجِبْ لى بَسـعَة تأوُّله ، ويعُدْ علىَّ فيه بعاداتِ تفضُّله : لتصْفُوَ منه الأعْضاء ، وتلزمَنى واجباتُ الشكر والثّناء ، غيْرَ ممتنِـع معَ ذٰلك من التبرِّى إليه مما أنْكَره من تجاوُزِ السَّهو إلىٰ العـمَل ، والتوجُّه إلىٰ مافرَط بالاختيار والقصْـد اللذيْنِ يُغْفَر بتجنُّبهـما مذْمومُ الأفعال ، ويُتَغمَّدُ سَيِّئُ الأعمال ؛ فإنْ رأىٰ أن يحمِلَ أمْرِى فيما قصدَتْنِي الأيامُ بتوجُّه الظُّنُون فيـه علىٰ غَيْر النية لاظاهرِ الفعل ، إذ كانتْ صـفاتُ الإنسانِ بالأشْهر من أخلاقه والأكثَرِ من أفعاله ، ولا صِـفةَ لى أُعْرَفُ بها وأُنْسَب إليها غيرَ الاعترافِ بإنعامه ، والتَّطاوُلِ من اصـطناعه ، آخذًا من كلِّ حال بالفَضْـل ، ومشَفِّعا بَسْطة الرياسة والنُّبْل .

وله فى مثـــله :

لستُ أخلُو فى المُدّة التى تجاوَزَ الدهرُ لِى عَنْها فى خِدمتِـه من توصُّـلٍ بفَرْط الاجتهاد ، إلىٰ ماوَصَل من رأْيِه إلىٰ رُتْبة التقبُّل والإحْماد ؛ وليس يحْبَطُ ماأتيْته من مرضىِّ الخدمة بالنيَّة والعَمْد بما لعَلَّه فَرطَ من غيرِ مُراد ؛ إذ كان ـ أيده الله بفائض

طَوْله، ومأثور فَضْله ــ آخذًا من آداب الله بما أحاكه منه (١) : ﴿ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات ﴾ . و [لو] لا إيثارى (٢) مفترَض الطاعة وٱستكانةَ الاعتداد، وأن لاأخْطُب رضاه بلِسَان الاحتجاج، ولا ألْتمِس عفْوَه بوُجوب الاستحقاق : لتَسْلَمَ له صِفاتُ التفضُّل، ولى مَوَاتُّ الإعتراف بسالِف التطَوُّل، لبرهَنْتُ علىٰ سَلَامتى مما قُصِر علَّ بتوجُّه الظُّنون وٱعتراض الأوهام، ولا أقول بشَعَثِ النيّــة وفَساد الرأى، فإن رأىٰ أن يحفَظَ ما ٱبتدأه مُخْتارا من ٱصْطِناعى بمـا يصُونُه عن التنَكُّر، ويَصُونَ عادتى فى شكرِ ذٰلك والاعتدادِ به عن الفُتُور والتغيُّر، فعل .

أجوبة الاسترضاء والاستعطاف

قال فى "مواد البيان" : لايخلُو المعتذَر إليــه من أمرين : أحدُهمـا أن يقْبَل العذْرَ، والآخر أنْ يستمِرَّ علىٰ المَوْجِدَة ويرفُضَ مايأتى به من حُجّة، فإن كان قد قَبِل العُذْرَ، وجب أن يبنىٰ الجوابُ علىٰ وُصُول الكتاب، والوُقُوف عليه، والتقبُّل لمـا تضمَّنه، وتبرئةِ المعتــذِر عن الحاجة إلىٰ الاعتِذار، والانقياد إلىٰ الاعتراف بالجُرْم والإقْرار، إكرامًا لخُلَّتــه عن التُّهَمة، وللودّةِ عن الظِّنَّــة : فإن الأمر الذى أوجب العُــذْرَ لو صدر منــه ، لاقتضىٰ ودادُه التأوّلَ له بأنّه ما صــدر إلا عن باطِنٍ سليم ومصلحةٍ أوجبتــه . قال : وليس هــذا المعنىٰ هو الذى يُجاب به مَنْ قُبِل عُذْرُه فقط : لأنه يجوز أن يجيب بأنه قد قَبِل العُذْر، وصفَح عن الجُرْم، علىٰ أنْ لايعودَ إلىٰ مثله . وإن ٱستمرَّ علىٰ القصــد (٣) ، بنى الجوابُ علىٰ إبطال العُذْر ومعارضته بمـا

---

(١) كذا فى الاصل ولعله « إليه » .

(٢) فى الأصول «ولا ايثارى على مفترض ... ... ألا أخطب الخ» .

(٣) أى قصد الصدّ وبقى على هجره ولم يقبل الاعتذار .

يقتضيه ؛ والدلالة على خطإ المعتذر ، وأنه مما لايسوغُ الصفحُ عنه ، ولا يليق بالحزم إقالتُه .

قال : وهذان معنيان يحتملان من العبارة مالا يكادُ ينحصر فى قول مشروح مبسوط ، فضلا عن قولٍ مجملٍ مُوجَز ، إلا أن المتدرِّب بالصناعة إذا مرّت به هذه الأصول أمكنه التفريعُ عليها .

النوع العاشر

(فى الشكوى ــ أعاذنا الله تعالى منها)

قال فى "مواد البيان" : رقاعُ الشكوى ــ عصمنا الله من مُوجباتها ــ يجبُ أن تكون مبنيَّةً من صِفَة الحال المُشْكية ، على ما يُوجب المشاركة فيها ويقضى بالمساعدة إن آستُدْعيتْ عليها ، من غير إغراقٍ يُفضى إلى تَظْليم الأقدار وإحباط الأجر ، وشكوى المبتلِى بالخير والشرّ سبحانه وتعالى ، ويدلُّ على التهالك بالجزع ، وضعف التماسُك وقُوة الهلَع ، بآستيلاء القُنُوط والإياس ، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه ، والتسليم إليه ، والرِّضا بأحكامه ، وتوقُّع الفَرَج من عِنْده ، وتلقِّى آختباره بالصبر ، كما تتلقَّى نعمُه بالشكر ؛ ونحو هذا مما يليق به ويجرى مجراه . قال : وقد يكتُبُ الأتباعُ للرؤساء رِقاعاً بشِكاية الأحوال ومساءلة النظر ؛ ثم ذكر أنَّ سبيل هذه الرِّقاع أن يُعْدَل بها عن التصريح بالشكوى إلى لفظ الشكر ومعناه ، وطلب الزيادة والإلحاق بالنُّظَراء فى الإحسان : لما فى إطلاق الشكاية ، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمُه النظرُ فيه من أحوال خاصّتهم وتعهُّد مَرافقهم من الكفاية .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

رُقْعـة شكوىٰ هُمُوم :

كتب المملوكُ هذا الكتابَ وهو رَهِينُ فِكْرٍ وغَمّ، وقَلَقٍ وهَمّ، وحَلِيفُ جَوًى قد سكَنَ القلب، وخوفٍ قد أطار اللُّبّ؛ وباللهِ العِياذ، وهو المَلاذ؛ وبيده تُحَلّ العُقَده، وبأمره تزول الشِّدّه؛ وقد ألهم اللهُ سبحانَه المملوكَ صَبْرًا يَسَّر أمْرَه، وأملًا فى الفَرَج خفَّف ضُرَّه؛ وليس بآيسٍ من عَطْفته، ولا قانِطٍ من نِعْمتِه .

رقعـة فى معنىٰ ذٰلك :

كتب المملوكُ وهو شاكٍ لتجاهُل الأيام، وَقِيذٌ من مواقِعِ سِهامها الرَّغِيبة الكلَام؛ مَنْهومٌ بهُموم تُضْعِف الجَلِيد، وتَسُوء الوَدِيد، وتَسُرّ الحَسُود، لاقٍ من قَسْوة الدهر وفَظَاظته، ونَبْوة العَيْش وفُتْرته، ما يردُّ الجفُونَ عن الهُجُوع، ويُغْرِق العيونَ بالدُّمُوع، ولله تعالىٰ فى عباده أقضيةٌ يَقْضِيها، وأقدارٌ يُمْضِيها؛ واللهَ أسألُ حسنَ العاقبة والخِتَام، وتمحيصَ الأوزار والآثام .

رقعـة : كتبَ المملوكُ وجِسْمُه صَحِيح، وقلبُه قَرِيح، وجَنَانُه سَلِيم، وجَنَابه سَقِيم : لما يَتَبادر إليه من نِكَاياتٍ تَقْدَح وتَقْرَح، وحادثاتٍ تَكْلِم وتَجْرَح؛ ونُوَبٍ تَهُضّ، وتَهدِم وتَرُضّ، وخطوبٍ تُخاطِب شِفَاها، وتُوصِّل من اليَدِ إلىٰ اليد أذَاها؛ إلّا أنّ اللهَ يُهِبُّ رِيحَ المِنَح، وقد تداكت المِحَنُ فينْسِفُها، ويشقُّ عمودَ الفَرَج، وقد ادْلهمّت فيَكْشِفُها؛ وظنُّ المملوكِ بالله تعالىٰ جميل، وله فى صُنْعه ولُطْفه تأْمِيل .

رقعـة : ويُنْهِي أنه قد كتب هذه العُبوديّةَ بيدٍ قد أرعشَتْها الآلام، يُمْلِي عليها قلْبٌ قد قلّبَته الأسْقام؛ فجسمُه ناحل، وجَسَده بعد النَّضْرة قاحل؛ وقُواه قد

وهَنَتْ، وجَلَادتُه قد وهَتْ؛ وصبره قد تخلّى واضطرب، وتحمّله قد نأى واقترب؛ وعاد شَبَحا من الأشباح، وهَباءً تَذْرُوه الرِّياح؛ فلو اعتلق بشَعْرة لم تنصرم، أو وَلَج خَرْتَ إبرةِ خيّاط لم تنفصم؛ ولولا الثِّقةُ بالله وأنه يُتْبِع السُّقْمَ بالصِّحّه، ويُشْفِع المِحْنةَ بالمِنْحه؛ لذَهَب ما بَقِيَ من ذَمَائه، وأطَلَّ على شَفَا شَقَائه؛ والمملوكُ يستشرف منه تعالى لُطْفا يُعِيد الكَلِيل حَدِيدا، والمُخْلَقَ جَدِيدا .

رقعــة : ويُنْهِي أنه قد كَتَب هـذه الرُّقعة، وقد ساءَ أثَرُ الأيّام عليـه، وقَبُح صُنْعُها لديه؛ وابتلته بمُؤلم البَلْوى، وأنطقته بلسان الشَّكْوى؛ فهو محترِقٌ بنارِ الغَيْظ، يدْعُو على نَفْسه بالفَيْظ؛ إن لم يكن فَرَجٌ يفرّجُ بين الأضداد، ولُطفٌ يُرِيح من هذا الجِهَاد؛ وكُلَّما طلبَ المُزايلةَ عوِّق، أو طلَبَ الفِكَاكَ اعتلَق؛ فهو قاطِنٌ في صُـورة الظَّاعِن، وحالٌ في حالِ الراحل، واللهُ يمنُّ بالمَخْرَج، ويأتي بالفَرَج .

رقعــة : وقد سَطَّر المملوك هذه العُبوديّة، وقد انجلت هذه النَّبوه، عن البَلَاء والشِّقْوه، ونَفَادِ المـال، واستحالةِ الحال، واستيلاءِ العدُوّ، واستعلاء السُّو، وكذا الدهرُ خَدُوع غَرُور، خَئُون غَدُور؛ إنْ وهبَ ارتجع، وإنْ ألبَسَ انتزَع؛ وإن أعْطى أعطى قَلِيلا وقَلَع؛ وإنْ أحْلى أمَرّ، وإن نَفَع ضَرّ؛ وإن أبْرَم نقَض، وإنْ رفَع خفَض؛ وإن أقبَـلَ أعْرَض، وإن وعَدَ أمْرَض؛ فنِعَمُه مقرونةٌ بالزَّوال، ومِنَحُه معرَّضة للانتِقال؛ وصفْوه مَشُوبٌ بالكَدَر، وعيْشُـه ممزُوجٌ بالغِيَر؛ ما أجَنّ الا أوجدَ خَلَلا، ولا أمِنَ إلا أتبَع الأمْنَ جلَلا؛ والمملوكُ يحمدُ اللهَ تعالى على أن أوسَعه في حال البَلَاء شُكْرا، وفي حال الابتلاء صَبْرا .

أجوبةُ رِقاع الشـــكوىٰ

قال فى "مواد البيان" : يجبُ أن تبنىٰ أجوبةُ هذه الرِّقاع علىٰ الارتمـاض فى الحـال المُشْكِيةِ، والتوجُّع منها، وبَذْلِ الوُسْع فى المَعُونة عليها، والمشاركةِ فيها، وما يجْرِى هذا المَجرىٰ ممـا يليقُ به .

النـــــوع الحـادى عَشَر

(فى ٱستمـاحةِ الحـــوائج)

قال فى " موادّ البيان " : ورقاعُ الاستماحةِ يُختار أن تكونَ مُودَعةً من الألفاظ ما يُحرِّكُ قُوىٰ السَّماح ، ويبعثُ دَواعِيَ الارتياح ، ويُوجِب حُرمةَ الفضـــل المسَهِّلةَ بَذْلَ المـال الصَّعْبِ بذْلُه ، إلَّا علىٰ من وَفَّر اللهُ مُروءتَه ، وأرخص عليه أثمانَ المحامِدِ وإن غلَتْ .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطَّف فيها التلطُّفَ الذى يعُود بنَجَاح المَرَام، ويؤمِّنُ من الحصُول علىٰ إراقة [ماء] الوجْه ، والخيبةِ بالرّدّ عن البُغْية ، ويعْدِلَ عن التثقيل والإلحافِ المُضْجِرَيْن ولا يضَيِّق العُـــذْر علىٰ السَّماح إلا أن يتمكَّن للثقة به ، ويعلَمَ المشاركةَ فى الحال .

وهذه نسخٌ من ذلك :

من كتاب [أبى] الحسين بن سعد .

أفضلُ القول أصدَقُه ، وأهنىٰ المعروفِ أعجَلُه ، وأبلغُ الشُّكرِ أظهرُه .

ومنـــه : إن حضرَتْك نيَّةٌ في قضاء حاجةٍ فعجِّلْها، فإنّ أهنى المعروفِ ما عُجِّل، وأنكَدَه ما تنازعته العِلل، واعترضَتْه كثرةُ الاقتضاء .

ومنـــه : أنتَ أعزَّك اللهُ واجدُ السبيلِ إلى اصْطناع المعروفِ واكتسابِ الثَّواب، وأنتَ أعرَفُ بمـا في استنقاذِ أسيرٍ من أسرى المسلمين، من وارد الأَسْر، وعَرْصة الكُفر، وانتياشه من الذِّلّة والفاقة، والبَلاءِ والمَشقَّة، من جزيلِ ثوابِ الله وكريم جزائِه [وأجلُّ] من أن تُخاطَب في ذلك مخاطبَةَ من يَحتاجُ إلى زيادةٍ في بصيرته، وتقويةٍ لنيَّته، وبالله توفيقُك وعَونُك .

عليّ بن خلف :

قد تَمسَّكَ أمَلي بضَمانك ، وتطلَّع رجائي إلى إحْسانك ، وكَفَل لي النجاحَ مشهورُ كرمِك، ورَغبتُك في رَبِّ نِعَمِك، ولي من فضلك نَسيب أعتزي إليه، ومن شُكْري شفيعٌ أعتمِدُ عليه .

وله : المَواعيدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاي ـ غُرُوس، حُلْو ثمرِها الإنجازُ والتعْجيل، ومُرُّه المَطْلُ والتطويل ؛ وقد شامَ أمَلي من سَحائبِ فضـله، حقيقًا بأن ينْهمِر ويَنْهمي، وارتاد من روض نُبْـله ، جديرًا بأن يَزيدَ ويَنْمِي، فإن كانتْ هـذه المَخِيلة صادقَه، فلْتكُنْ منه هِمَّةٌ للرجاء محقِّقه، إن شاء الله تعالى .

وله : همَمتُ أنْ أستصحب إلى مولاي ذَريعةً تحجُبُ مَطْلي، وتكونُ حِجَـابًا على وَجْهِي في المطالعة بأرَبِي ، فلاحَ لي من أساريرِه برْقٌ أوضح مَقْصِـدي ، ومن أخلاقِه انبساطٌ أمَالَ تجمُّدي، ولستُ مع معرفَتِه بحقِّ نعمة الله تعالى وحقِّ مؤمِّله ، محتاجًا عنده إلى ذَريعة ولا مفتقرًا إلى وَسيلة .

وله : ولا يحلّني مولاى على ظاهر تجمّلي، وجميل توكّلي، على حالٍ قد أحالتها العُطْلة، وتخلّلتها الخَلّة؛ وإنما أُبقي بالتجمّل على ديباجة همّتي، وأصونُ بالتخفيف عن الصديق مُرُوّتى؛ ولولا أنّ الشكوى تخفّف متحمّل البلوى، لأضربتُ عن مُساءلته، وأمسكتُ عن تذكيره، ولكنْ لابدّ للوَصِيب الشاكى، من ذِكْر حاله للطبيب الشافى؛ وقد كان بَرَق لى من سحَاب وَعْده ما هو جديرٌ بالانهمار، وأوْرقَ من نمائه ما هو حقيقٌ بالإثمار؛ فإن رأى أن يَسِمَ وجْهَ التأميل، بعد الإنجاز والتعجيل، فعل .

وله : ما حامَتْ آمالِي ـ أطال الله بقاءه ـ إلّا وقعَتْ بحضرته، ولا صَعُبتْ علَيَّ جوانِبُ الرَّجاء إلا سَهُلتْ من جِهَته؛ ولا كَذَبَتْنِي الظُّنونُ إلّا صدَقَهـا بعلُوّ همّته؛ فلذلك أعتلِقُ فى المُهِمّ بحبْلِه، وأعتَصِم فى المُلِمّ بظلّه؛ وقد عَرَض لى كذا وعليه فيه المُعوّل، وهو المرجُوّ والمؤمّل؛ وما أوْلاه بالجَرْي على عادته فى رَيْش جَناحى، والمعُونة على صَلَاحى .

فى طلب كسوة، من كلام المتأخرين :

أَلَا أيُّهـا المَوْلىٰ الّذى نَهْرُ جُودِه * يَزِيدُ وعَاصِي أمْرِه النَّهْرَ يَنْقُص!

إلَيْكَ اشتِكائى من دِمَشْقَ وبَرْدِها * وما أنَا فِيه مِنْ أُمُورٍ تُنَغِّص!

وأنّى فى عُرْسٍ من البَرْدِ دائِم * تُصَفِّقُ أسْنانِى وقَلْبِي يَرْقُص!

المملوكُ يُنْهِى بعـد الابتهال إلىٰ الله تعالىٰ فى إدامة نعْمته، وإدالة دَوْلتـه، أنّه ماألِفَ من إحسانِه إلا أنّه يُضاعِفُ رَسْم الإنعام، ويُواتِرُ إرسالَهُ على مَمَرّ الأيّام والأعوام؛ وللمملوكِ فى خِزَانته الشريفةِ فى كلّ عامٍ تشريفٌ يُفيضه على جَسَـده،

(١) كذا فى الأصول والظاهر "بل أنا على" الخ .

ويَسُرّ به قلوبَ أوليائه ويفُتُّ أكبادَ حُسَّده، ويتّقي به سَوْرة الشتاء وقُرّه، ويجعله قُرّة ويحِلُ به من الدَّعَة وقْره، وقد دَرَس رسمُه، وفُقِد من الدِّيوان المعمورِ اسْمُه، وهو يسألُ بُروزَ الأمر العالى بإجرائه على عادته المستمرّه، وقاعدته السالفةِ المستقرّه، بتشريفه بأخْذ التشريف ولُبْســه : ليدْفَع بذلك شِدّةَ البَرْد وألِمَ مَسّه، ويتذكّر بها فى يومه مايُوجِب حمدَ المولى وذمّ أمسِه، ورأيُه العالى .

وله فى طلب ورق :

يا أسْمَحَ النـاسِ ويامَنْ غَدَا * جَبِينُه يُخْجِل ضَوْءَ الشَّــفَق!

جُودُكَ بالوَرْق[1] عمــيمٌ [فلِمْ] * أخّرتَ يامَوْلاىَ بَعْثَ الوَرَق؟

وله فى طلب رَسْم :

رَسْمِى يامَوْلاىَ غَــدَا * مُؤَخّرًا ولو حَضَــرْ!

ولَــوْ أرادَ سـيِّدِى * إحْضارَه، كانَ أمَرْ!

فقَــدْ مَضَى مُحَــرّمٌ * وراحَتِى مِنه صَــفَرْ!

وكتب كاتبٌ إلى مَخدومه، وقد تأخّر صرفُ معلُومه :

وتَعْــلَمُ أنّى كثيرُ العيَـال * قَلِيــلُ الجِرايةِ والواجِبِ!

فلَسْــتُ على ظَــمَإٍ قانِعًــا * بِوِرْدٍ من الوَشَلِ الناضِبِ!

ولا شَــكَّ فى أنّنِى هارِبٌ * [فـ]ـقَدِّر لنفْسك فى كاتِبِ!

(١) الورق مثلثة وككتف وجبل الدراهم المضروبة اه من القاموس .

قلت : وكتبتُ نظمًا لأمير المؤمنين المستعين بالله أبى الفضل العبّاس : خليفة العَصْر، أستميحه حاجةً فى مجلس كان فيـه هو وولده يحيىٰ وأخواه داودُ ويعقوبُ ماصـــورته :

إذا رُمْتَ أن تَحظىٰ بنَيـــل مآربٍ * فبادِرْ إلىٰ العبّاس مِنْ آلِ عبّاس!

إمامٌ به ثَغْـــرُ الخـــلافة باسِـــمٌ * وعِزٌ بنيُها يَسْمُو علىٰ قِمّـــة الراسِ!

أبىٰ الفضـــلُ إلاّ أنْ يَكُونَ لأهْلِهِ * [دواما]وأنْ يُدْعىٰ أبا الفَضْل فى الناسِ!

فللمستَعِينِ اقْصِـــدْ تَجِدْ خَيْرَ مُنْجِدٍ * حريص علىٰ المعْرُوف بَرًّا بإيناسِ!

فيَحْيا له يَحْـــيىٰ وداوُدُ صِـــنْوُه * ويعقوبُ أعْضادًا وحصْنًا من البَاسِ!

✦

وكتبت لقاضى القُضاة شيخ الإسلام جلالِ الدِّين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام عُمر البُلْقِينىّ أستميحُه حاجة أيضا :

أيا شَيْخَ إسْـــلامٍ وقاضِى قُضاتِهِ * ومَنْ قد سَما فى الناس عِلْمًا ومَنْصِبا!

لقـــدْ عَمَّ نَوْءٌ منكَ كلَّ مُؤمِّلٍ * وحاشىٰ لبَرْقٍ شِمْتُ يظْهرُ خُلَّبا!

أأُحْرَمُ مَعرُوفًا له كُنْتُ أرتَجِى * ويَحْجُبُ ذُو بُعْدٍ من القوم أقْرَبا!

وما زِلْتُ أرجُو فى زَمانك رِفْعةً * ولكِنْ جَوادُ الحَظِّ بالبُعْدِ قدْ كَبَا!

ولَنْ يَسْتعِيضَ الخَفْضَ بالرَّفْعِ ماجِدٌ * خُصوصًا ومَنْ أخْرتَ مانَالَ مَطْلَبا!

ولَسْتَ تَرىٰ مِنّى إليْكَ وَسِيلةً * سِواكَ وحَسْبى باعْتِلاكَ تَقَرُّبا!

* * *

وكتبت لقاضى القُضاة جمالِ الدين محمود القَيْسَرانى[1] ، وهو يومئذٍ قاضى قُضَاة الحنفيــة وناظِرُ الجُيوش المنصورة ، أذكُرُ بِطَالةً عرَضَتْ لى من وظيفةِ مبـاشرةٍ كانتْ بيدى :

إلى اللهِ أشكُو مِنْ زَمانِى بَوَارَهُ * فأمسَيْتُ فى الحِرْمانِ بِى يُضْرَبُ المَثَلْ !
تمـادَيْتُ بَطَّالًا وأعْوَزَتُ حِيـلةً * ولم يَبْرَحِ البَطَّالُ تُعْرَفُ له الحِيَـلْ !
فلا مُلْتَجىً جاهٍ ولا عِزُّ صـاحِبٍ * ولا مالكٌ يَحْنُو فيـاقَوْمِ ما العَمَلْ ؟
ولٰكِنْ (محمـودَ) العَواقِب أرْتَجِى * ومَنْ يَحْمَدُ العُقْبىٰ علىٰ القَصْدِ قد حَصَلْ !

* * *

وكتبت للقاضى شمسِ الدين العُمَرىّ كاتب الدَّسْت الشريف فى حاجةٍ نَجَّزها :

إن لَّا أرىٰ عُمَرًا حَتَّى أُلِـمَّ بِهِ * أَلفيْتُ من نَسْلِهِ مَنْ كانَ لِى عُمَرا .
لم يَغْفُ عن حاجَتِي حتَّى أُنَبِّهَــه * وكَيْفَ يَغْفُو وفى المَعْروفِ كَمْ سَهِرا ؟
جعَلْتُه مبتَـدًا فى رَفْعِــه خَبَرِى * وعادةُ المبتَـدَا أنْ يَرْفَعَ الخَبَرا !

أجوبة آستماحة الحوائج

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المستماح والمكلَّف حاجةً من أن يُسْعِف أو يمنَعَ ، فإن أسعَفَ فقد غَنِيَ عن الجواب ، وربما أجاب المُسْعِفُ بجواب مبنيٍّ علىٰ حُسْن موْقِع آنبِساطِ المستميح ، والاعتذار عن التقصيرِ فى حَقِّه وإن كان قد بلَغَ به فوق

---

(١) نسبة إلى قيسارية على غير قياس .

ما يجبُ له ـ تكرُّما وتفضُّلا ، وإن منع فربَّما أجاب بعُذْرٍ فى الوقت الحاضرِ أو عُذْرٍ فى المستأنَفِ، وربما أخَلَّ بالجواب تغافُلًا .



وهـذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقصُود ، كُتِبَ بها فى جوابٍ لكاتِبِ السرِّ عن نائب الشام ، فى طَلَبِ إقطاع ، من إنشاء الشيخ جمـالِ الدين بن نُباتةَ إجابةً للطلوب، وهى :

لازال قلَمُها يَمُدُّ علىٰ الإسلامِ ظِلًّا ظَلِيلا ، ويستَجِدُّ صُنْعا جميلا ، ويأخُذُ بأمْرِ الله أعداءَ دِينِه أخْذًا وَبِيلا ، ويقومُ باجتهادِه فى مَصَالِحِ المُلْك النَّهارَكُلَّه والليلَ إلَّاقليلا ؛ تقبيـلَ مُواظِبٍ علىٰ ولاءٍ لا يجِدُ له تبْـدِيلا ، وثناءٍ لو سمِعَه المُحِبُّ فشَاقَهَ الأحبابَ إذًا لاتَّخذُوه خليلا .

ويُنهِى ورُودَ مشرَّفة مولانا القديم فضْلُها، الكريم وصلُها وأصلها؛ فوقف المملوكُ عليها، وأصْغىٰ بجملته إليها؛ وعلِم مارَسَم به مولانا، وأشار إليـه تبْيانا ؛ وكذٰلك بلَّغه مملوكُه الولدُ فلان المشافهة الكريمة حَبَّذا من صاحب السِّرِّ إسرارا وإعلانا ؛ وشكر لها مشرِّفةً ومشافهةً أوردا الإحسانَ مَثْنَى مَثْنىٰ ، وسِرًّا سمِعه المملوكُ لفْظا وآستهداه مَعْنىٰ ؛ فما مِنْهما فى الإحسان إلَّا زائده ، ولا فى الصِّلات إلا عائده ؛ لا جَرَمَ أنَّ المملوكَ أقبل علىٰ قَبِيلهما بسمْعِه وناظِره ، وقلْبِه وخاطِرِه ، وجُمْلتِه وسائِرِه ؛ وآمتثل الإشارةَ العاليةَ التى من حقِّها أن تُقدَّمَ علىٰ كلِّ مهِمٍّ يرِدُ عليه، وأمْرٍ يتوجَّه إليـه ، ويدُ الزمان مشكورةٌ يأخُذها منه بكلْتَا يدَيْه ؛ وعيَّن المملوكُ لوقته الإقطاعَ المطلُوب ، وتقدّم بكتابةِ مربَّعته حَسَبَ مارَسَم مَنْ تجرى السعادةُ مِنْ سَطْره تحتَ مكتُوب ؛ وجهَّزها قرينَ هـذه الخدمة ومَنْ ذا يُقارِنُ سبْقَ ذٰلك البِرِّ المـديد، وكيف تُوازى

المربّعة كابا هو بالإحسان للعُنُق تقْليد، لا برحتْ مراسِمُ مولانا معدودةً من رُسُوم نِعَمه، ومشرِّفاتُه محسوبةً من تشريفاتِه التى يَخْلَعُها علىٰ أبناءِ محبّيه وخَدَمِه .

النــــوع الثــانى عشر

(فى الشـــكر)

قال فى "موادّ البيان" : رقاعُ الشُّكر يجبُ أن تكونَ مُودَعةً من الاعتراف بأقْدار المَوَاهب، وكفايةِ الاستقلال بحُقوق النعم، والاضْطِلاع بحمْلِ الأيادى ، والنُّهوض بأعباء الصنائع ، مايَشْحَذ الهِمَمَ فى الزيادة منها، ويُوثِّق المصطَنِع بإفاضة الصُّــنْع ؛ ويعربُ عن كريم سجيَّةِ المحسِنِ إليه .

قال : وينبغى للكاتب أن يفتَنَّ فيها، ويقرِّب مَعَانيها، وينتحلَ لهــا من ألفاظ الشكر أنوطَها بالقلوب : لتستيْقِنَ نفسُ المتفضِّل أنه قد آجتنىٰ ثمرةَ تفضُّله ، وحصل من الشكر علىٰ أضعافِ مابذَلَه من مالِه أوجاهِه ، إلّا أنّه ينبغى أنها إذا كانتْ صادرةً من الأتباع إلىٰ رُؤسائهم ، ومَنْ يرجع إلىٰ آختصاصٍ وأُثْرة ، أنْ لاتبنىٰ علىٰ الإغراق فى الشكر : لأن الإغراق فى الشكر يحمل هذه الطبقةَ علىٰ التملُّق الذى لايليقُ إلّا بالأباعد الذين يقصِدُون الدّلالةَ علىٰ آستقلالهم بحقُوق ما أُسْدِىَ إليهم ؛ فأما من صَفَا عليــه من النعم مايدْفَع الشكَّ فى آعترافه بالذلّ لديه ، فإنه يَغْنىٰ عن المبــالغة فى الشكر والاعتداد ؛ ثم قال : وإنمــا يجب أن يذهبَ فيما يكتب عن هٰؤلاء من هذا الفنّ مذْهَبَ الاختصار، والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمَعَانى الشكر ، دون مَذْهَب الغُلُوّ والإفْراط ، وذُو الطبع السليم ، والفكر المستقيم ؛ يكتفى بيسير التمثيل .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفرج الببغاء، فى شكر تابع لمتبوع :

أنا فى شُكْرِه ـ أيده الله مُبَرْهِنٌ عن مَواقِـعِ إحسانه إلىّ، وتظاهُرِ إنعامه علىّ، لامقـدّرٌ أنّى مع المبالغة والإسهاب ، والإطالةِ والإطناب ، أجازى عفوَ تفضّله ، ولا أجامِلُ أيسَرَ تطوّله ؛ وقد وَسَمنى أيده الله من شَرَف آصطناعه ، بمـا بوّأنى به أرفَعَ منازِل خَدَمه وأتباعه ؛ وإلى الله أرغبُ فى توفيق من مقابلة ذلك بالآجتهـاد فى خِدمته، والمبالغةِ فى طاعتِه ـ لِمَـا أكونُ به للزيد مستوجِبا، وللحُظوة مستحِقّا .

وله فى شكر قريب :

فرْضُ الشكر ـ أعزّك الله ـ لايَسْقُط بقرب الأنساب، ولذلك لا أستجيزُ إغفالَ الواجبِ علىّ منه، ولا أجدُ عُدُولا فى التسامح فيــه والإضرابِ عنـه، وإن كنتَ غنيًّا عن الإفاضة فيما أعتقدُه من ذلك وأُضمِره، وأبدِيه وأُظهِره، بالمتعالَم من خُلُوص النيةِ وصحة الآعتقاد ، فلا أخلاكَ [الله] من جميلٍ تُسْدِيه، وتفضُّلٍ تُولِيه، يمترى لك المزِيدَ من سوابِـغ النِّعم وفوائِدِ الشكر .

وله : قد آستنفَد مادّةَ شُكْرِى ، ووُسْعَ آعتِـدادِى ونَشْرى ؛ تتابعُ تفضُّـلك ، وتوالِى تَطوُّلك ؛ ولستُ أقـدرُ على النُّهوض بشكر مِنّـةٍ حتّى تطرُقَنى منك مِنّـه ، ولا أُحاوِل مجازاةَ نِعمَةٍ حتّى تَفِدَ علىّ مِنـك نِعمه ؛ فبأىِّ عوارِفك أعترِف ، أم بأىِّ أياديك بالثّناء أنتِصف ؛ فقــد فزِعتُ إلى الإقرار بالعجز عمّـا يلزَم من فُروضك ، وواجباتِ حقُوقك ، وآنصرفتُ إلى سُؤال الله جلّ آسمه بإزاءِ شُكْرِ ماوهبَ منك ، والتّجاوُز للمكارم والفضل عنك .

وله : وقد شكرتُ برّكَ الجليلَ موقعُه ، اللطيفَ موضعُه ، الخفيفَ محمَلُه ، العَذْبَ منهلُه ، وشافهتُك من ذلك بما اتّسعتْ له القُدْرةُ لا ما تقتضيه حقوقُ المنّة .

وله : أنا فى الشكر بين نعمة تُنْطقنى ، وعجز عما يجبُ لك يُخرسُنى ، ولستُ أفزعُ إلىٰ غير تجاوُزك ، ولا أعتمدُ علىٰ غير مسامحتك ، ولا أتطاولُ إلا بمكانى منك ، ولا أفاخر إلا بموقعى من إيثارك ، فالحمدُ لله الذى جعلنى بولائك مشهورا ، وفى شكرك مقصُورا .

علي بن خلف :

رقعة : وينهى أنّ الله تعالىٰ لمّا ألهَمَ مولانا البرَّ ، ألهم المملوكَ الشكْرَ ، فهو لايزالُ يُوسع فى البرّ ويَزيد ، والمملوكُ لايزالُ يُبدى فى الشكر ويُعيد ، ولكنْ شتّانَ بين فاعلٍ وقائل ، ومُعْطٍ وقابل ، وواهب وسائل ، ورافد وحامد ، وشاكرٍ وشاكد ؛ والمملوك يحمدُ الله تعالىٰ إذ جعل يدَه الطُّولى ، وحظّه الأعلىٰ .

رقعة : وصل برُّ مولانا وقد أحالت الخَلّةُ من المملوك حالَه ، وأمالتْ آمالَه ؛ فلأمتْ ماصدَعه الدهرُ من مَرْوَته ، وجدّدتْ ما أخلقه من فَرْوَته ، فكفّ المملوك يديه [عن] امتحان الخُلّان ، وقبضَ لسانَه عن شِكاية الزّمان ، وأقرّ ماءَ وجْهه فى قرَارته ، وحفِظ علىٰ جاهه لِباسَ وَجَاهته ؛ فيالَهُ من برٍّ وقَع من الفقر ، موْقعَ القَطْر من القَفر ، ولم يتقدّمْه من قدامة الوَعْد ، ما يتقدّم القَطْرَ من جَهامة الرّعْد ؛ وكلُّ معْروف وإن فاضتْ ينابيعُه ، وطالتْ فُروعه ، قاصرٌ عن الأمل فى كرمه ، واقعٌ دُونَ غاياتِ همَمه ؛ كما أنّ الشكر ولو واكَبَ النّجم ، وساكبَ السّجْم ، قاصرٌ عن مكافاة تفضّله ، ومُجازاة تطوّله ؛ والمملوكُ يسأل اللهَ تعالىٰ الذى جعله قُدْوةَ

الكرام، وحسنَةَ الأيّام، ورَبَّ الإنعام، وواحدَ الأنَام؛ أن يُلْهِم المملوك من حَمْده، بقدر ما أسبغه عليه من رِفْده .

رقعـــة شكر : عِنْـد المملوك لسـيِّدى أيادٍ وصلَتْ سابقـةٌ هَوَاديها ، وظلَّتْ لاحِقةً تَوَاليها ؛ فصارتْ صُـدورُها نسـبا أمتَرِى إليـه ، وأعجـازُها [سَبَبًا أُعَوِّل فى الملمَّـات عليه] .

رقعـــة : لولا أنّ اللهَ تعالىٰ جعل الشُّـكر ثمرةَ البِرّ، والحمـدَ جزاءَ الرِّفْد، وأراد إقرارَهُما علىٰ أهلِهما من الغابِرين ، وأن يجعَـلَ لهم منّا لسانَ صِـدْق فى الآخِرين ؛ لكان الذى غَمَر به موْلانا من الإنعام ، يُحـدّثُ عنـه تحدُّثَ الرِّياح بآثارِ الغَمَام ؛ ويُكْتفىٰ المملوكُ بالإشاره، مَئُونةَ العِباره؛ والمملوكُ وإنْ رام تأديةَ ما يلزَمُهُ من شُكرِه، قاصرٌ عن غاية بِرِّه؛ ولو آستَخْدَم ألسـنةَ الأقلام ، وآستغرق أمَدَى النَّثار والنِّظام؛ ومولانا جديرٌ بقَبُول اليَسـير ، الذى لا تُمكِنُ الزِّيادة عليه؛ والصَّفح عن التقصـير، الذى تَقُودُ الضرورةُ إليه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : لو أنّ هذه العارِفةَ بِكْرُ عَوارِفه ، وباكُورةُ لطائفه ؛ لعجَزْتُ عن شُكْرِها ، وقَصَّرت عن نَشْرِها ؛ فكيفَ وقد سـبَقَها قرائنُ ونظائر، وتقدّمَها أترابٌ وضرائر؛[ممـا]أثقَلَ من المملوك كاهلَه ،وبَسَط به يدَىْ أمله ؛فما يَعْدَم شيئًا فيُرجّيه ، ولا يَفْقِده فيرْغَب فيـه ؛ والذى تَرُبُّهُ من المملوك جوارِحُه، وتَحْوِيه جوانِحُه؛ علمُه بأنه لايُجارِى أياديه ، ولا يُجازِى مَسَاعيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يخصُّه من الفضائل ، بمثل ماتبرّع به من الفَواضل .

رقعــة : ومثلُ مولانا من [ذوى الشرف](١) والسُّودد من حَسُن مَحْضَره، وطاب مَخْبَره، وكَرُم غيبُه ومَشْهده، وصحّ على تغايُر الأحوال عَقْدُه ووُدُّه؛ وقد اتّصل بالمملوك ماأعاره له مولانا من أوصافه، وجرى فيه على عادة فضله وإنصافه؛ فطَفِق لفضله شاكرا، ولطَوْله ناشرا؛ وأضاف ذلك إلى تَوَالِد إحسانه، ونَظْمه فى عِقْد امتنانه .

رقعــة : قد طَوّق مولانا [مملوكه] من فضله طَوقا كأطواق الحمائم لا يُنْزَع ، وألبسه بُردا من بِرّه لا يُخْلَع ؛ وأولاه من مَزِيده ما قصّرت الهمّة عن تمنّيه، ولم تهتد القريحةُ إليــه فتستدْعِيه؛ ولو وجد المملوكُ جزاءً على عارفته ، وكِفَاءً لمَثُوبته ، غيرَ المُوالاة الصّريحه، وعَقْــد الضمائر على المودّة الصحيحه ؛ واللّهج بالشُّــكر، فى السّرّ والجَهْر، لرمى من وراء عنايته، ولا استبْعدَ طُولَ شُــقّته ؛ ولكن المملوكُ عادمٌ لمـا يقابِل به يَدَه الغَرّاء ، عاجزٌ عمّا يقضى به حَقّ مَوْهِبته الزّهْراء؛ مالم يُحْسن كرمُه أمْرَه، ويَقْبَل منه على التقصير شُكْرَه؛ ويُضِف ذلك إلى لطائفه، وينْظِمه فى سلك عَوَارفه؛ إن شاء الله تعالى .

رقعــة : واجتهادُ المملوكِ فى نَشْر أياديه وشُــكرِها ، كاجتهادِ مولانا فى كِتْمانها وسَتْرِها؛ فكلّما أبديتُها بالثناء أخفاها، أو نَشَرتُها بالإشادة طَوَاها ؛ وهيهاتَ أن يخفى عَرْفٌ كعَرْف المِسْك نَشرا ، ومَنٌّ كالروضة نَوْرا والغَزَالة نُورا ؛ ولو كان المملوك والعياذُ بالله ستَر هــذا العُرْفَ بكُفْر ، واغتمصه مانعًا لشــكر ؛ لنَمّ عليه حسنُه نمومَ الصّباح ، وتوقّد توقُّدَ المِصْباح ؛ فكيفَ وللمملوكِ مِقْوَل لايُسامى [يعجم(٢) ســوادَ] الليالى بالإخماد ، ويرقُم صَفَحاتِ النهار بالاعتداد .

---

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من المقام .

(٢) فى الاصول « ولا يسامى الليالى » الخ وزدنا مايقتضيه المقام ويتم الكلام تأمل .

الأجوبة عن رقاع الشـــكر

قال فى "موادّ البيان" : [ان كانَتْ] هـذه الرّقاع من المرءُوسين إلىٰ الرُّؤساء فلا جوابَ لهـا . وإن كانتْ من النّظير فالواجبُ أن يُسْتعمل فى أجوبتها مندُوبُ التناصُف والتفاوض .

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين :

من ذٰلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الصدر :

خَلَّد اللهُ علىٰ الممالك نِعَمَه ، وعلىٰ المماليك دِيَمَه ، وحَرّم ببقائه ذَمَّ الزمان وأوجَبَ ذممـه ؛ ولا بَرِح نحوُ المحامد يُنـادِى يومَ الكَرم مُفْرَده ويومَ الهِيَـاج عَلَمَه . تقبيلا يسحَبُ فى الفَخَار بُرودَه المُعْلَمه ، ويتذكّر بالقرب فلايزال الشوقُ يُنْتِجه حيثُ كَلا التّذْكارِ والعهد مُقَدِّمه .

وينهِى ورُودَ المثال العالى بمـا مَلأَ القلبَ خيرًا واليدَ بِرًّا ، والسمْعَ بِشارةً والوجهَ بِشرا ، حتّى تنافسَتِ الأعضاءُ علىٰ تقبيله ، والجَوَارِحُ علىٰ تأميله ؛ فاليَـدُ تسابق إلىٰ مِنَنه بالامتِداد ، والقلبُ يسابِقُ إلىٰ كَرَم عَهْده بالاعْتِداد؛ والوجهُ يقلِّب ناظرَه فى سماء مَوَاقِع القلَمِ ، والسمعُ يتنعَّم بمـا تقُصُّ عليه المَسَارُّ من أخْبار جِيرة العَلَمِ ؛ حتّى كاد المملوكُ يمحُو بالتقبيـل أسْطُرَه، ويشتَغِلُ بذٰلك عن آستجلاءِ ماذكره المُنْعِم لاعدِم المملوكُ فى مصر والشام تَكَرُّره ؛ وفهِم ما أشار مولانا إليه من الفضـلِ الذى مولانا أهْلُهُ ، وكرمِ العهد الذى لايُنكَرُ من مثلِه وأين مِثْلُه ؛ وقابل المملوكُ جميعَ ذٰلك بجَهْده من الأدْعِيَـة الصالحه ، وبسَمَاحةِ الحمد المُتفاوِحه ؛ والاعتـدادِ بنعمة مولانا التى لولا [مُوالاتُها](١) كلَّ وقتٍ لقيلَ فيهـا «ما أشبَهَ الليـلةَ بالبارِحه» وتَضاعَفَ

(١) بياض فى الأصل والصحيح من المقـام .

نُهوضَ الممـــلوكِ علىٰ قَـدَمِ المُوالاة التى [يستشهِد] فى دَعْواها بشَهادة الخـاطر الشريف ، ويتقدَّم بهـا تقدُّما تحتَ لواء الولاءِ وتأتِى بقيَّـة الأولياء فى اللَّفيف ، والله تعـالىٰ يُوزِع المملوكَ شُكرَ هـذه النِّعَم المتصلِ مدَدُها ، والمِنَنِ التى لا يَعدَمُهـا ولا يعُدُّها ، ويطيلُ بقاء مولانا لحمدٍ يَجْتليه ويجتنيه ، وشرفِ دنيا وأجرىٰ يهدِمُ وَفْره وعُمُره ويبتَنِيه .

النـــــوع الثـالث عشر

(العِتَـــاب)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبـةُ بالمعاتَبة علىٰ التحوُّل عن المودّة والآستخفاف بحقُوق الخُلَّة من المكاتبـات التى يجبُ أن تُستوفىٰ شروطُهَا ، وتكمَّل أقسامُها : لأن ترخيصَ الصَّـديق لصَديقه فى المقـاما َـة والمُصارَمة دالٌّ علىٰ ضَعْف الآعتِقـاد ، وآستحالة الوِدَاد .

من كلام المتقدّميـــن :

إنِّى ما أحدثتُ نَبوه ، إلَّا بعد أن أحدَثتَ جَفوه ؛ ولا أبديتُ هَجْرا ، إلَّا بعدَ أن أبديْتَ غَدْرا ؛ ولا لَوَيْتُ وَجْها عن الصِّلة ، إلَّا بعـد أن ثنَيْت عِطْفا إلىٰ القَطيعة ؛ والأوّلُ منَّا جان ، والثانى حانٍ ؛ والمتقدِّمُ مُؤثِر ، والمتأخِّرُ مُضْطَرّ ؛ وكم بين فعلِ المختارِ والمُكرَه ، والمبتَدِع والمتَّبِـع .

آخـــر : إنْ أمسكتُ ياسـيدى عن عِتَابِك ، مُرْخِيا من عِنَانك ؛ كنتُ بين قَطع لحَبْلك ، ورِضًا بفِعْلك ؛ أو آقتصرتُ فيـه علىٰ التَّلْويح به لم يُغْنِ ذاكَ مع كثرة جُمُوحك ، وشدّة جُنُوحك ؛ وما آرتكبتَه من رائك ؛ وآستخرجتَه من جَفَائك .

رقعـــة عتاب : لمولانا لدىٰ المملوك عَوارِفُ لا يهتدى إلىٰ معرفتها فيوُفيّها كُنْـهَ المُراد، وأيادٍ لا يبلُغ ماتستحقُّه من الإحماد ، ولو عَضّدتْه خُطباءُ إيَاد ، أجلُّها فى نَفْسِـه خَطَرا، وأحسَنُها عليـه أثَرا، ما يَفرِضُـه له من بِرّه وإكرامه ، وتعهُّـدِه وٱهتمامِه ، وقد غيّر مولانا عادَتَه ، ونَقَض شِيمَتَـه ، وبَدَّل المـــلوكَ من الإنعطاف بالإعراض، ومن الإنْبِساط بالإنقباض ، وحَمّـله من ذلك ما أوهىٰ قُوىٰ صبْرِه، وأظْلَم بصائرَ فِكْره؛ فإنْ يكُنْ ذلك لخطَإ واقعَـه المملوكُ ساهيًا، وجُرْم ٱجتَرَمه لاهِيًا؛ فمِثْـلُ مولانا لايُطالِب إلّا بالقَصْد، ولا يُعاقِب إلّا علىٰ العَمْد، إذ كان المملوكُ لا يُعْصَم من زَلَل ، ولا يَسْـلَم من خَلَل؛ اللّهمّ إلا أن يكونَ مولانا أرادَ من المملوك تَقْويمَه وتأديبَـه ، وإصلاحَه وتهذيبَه : ليُحْسِنَ أثَرَه فى خِدْمته ، ويَسْلُكَ السبيلَ الواضِحَ فى تِبَاعته، فلا أعدَمَ اللهُ المملوكَ تثقيفَه، ولاسلَبَه تبْصيرِه وتعْريفَه؛ وإنْ كان ذلك لشَكٍّ عَرَضَ من المملوك فى وِدَاده(١)، وٱرتيابٍ خامَرَ فى حُسْن ٱعتقاده؛ فأُعيذُه بالله من القَطْع بالشُّبُهات ، والعمـلِ بمُنْغِلِ(٢) السّعايات ، ومولانا خليقٌ بأن يُطْلِـع من أُنْس المملوك ماغَرَب، ويُنْبِط من سُروره مانَضَب، ويُعيـدَه لِرِضاه، ويُجْرِيَهُ علىٰ ما أحمدُه منه وأرْضاه .

رقعـــة : ليس المملوكُ يَرْفَع مَوْلانا فى إعراضه، إلّا إلىٰ فَضْله ، ولا يُحاكِمُه علىٰ ٱنقباضه، إلّا إلىٰ عَدْله ، ولا يَستعِينُ عليـه إلّا بمـا يستَمْليه من آدابِه ، ولا يناظِرُه إلا بمـا أخذه عنه من مُحافظتِه وإيجابِه ، إذ كان المملوكُ مُذْ وصلَتْه السعادةُ بحِباله ، ناسِجًـا علىٰ مِنْواله ، متقَبّلا شرائفَ خِلَاله . وما عهِـدْتُه عَمَر اللهُ مَعَاهِدَه ، وكَبَتَ

---

(١) لعـــله الولىٰ .

(٢) يقال أنغلهم حديثا سمعه ثم إليهم به أنظر اللسان ج ١٤ ص ١٩٤ .

حاسدَه ؛ يغضَبُ تقليدًا قبل الاختبار ، ويُحْوِج البرىءَ إلىٰ مَوْقف الاعتذار ؛ ولا سيَّما إذا كان المظنُونُ به عالمًا بشرُوط الكرم ، عارفًا بمواقع النِّعم ؛ لايَنْسَخ الشكرَ بالكُفر ، ولا يتعوَّضُ عن الحَمْد بالجَحْد ، وقد عرفَ مولانا ثناءَ المملوك علىٰ تفضاله ، ووقف علىٰ بَلائه لأعماله ؛ وهو وفىٌّ بربِّ عوارِفه وصنائعه ، وتميز مارَهَن لدَيْه من وَدائعه ؛ وتنزيهِ سمْعِه عن الإصغاء إلىٰ مايختلِقُه حاسد ، ويصُوغُه كائد ؛ وقد حكَّم المملوكُ علىٰ نفسه نَقْدَه الذى لايُبَهْرَجُ عليه ولا يدلَّس ، وكَشْفَه الذى لايُغَطَّى عليه ولا يُلَبَّس ؛ فليَحُكَّ أفعالَ المملوك علىٰ مَحَكِّ بصيرته ، وليُجِل فى تأمُّل مقاصِده طَرْفَ فكْرته ؛ فإنه ممن لايُحيلُه الأحوال ولا تُحَوِّله ، ولا تُغيِّره الغِيَرُ ولا تُبدِّله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعة : أفعالُ شكْرِ(١) المملوك فى الحِلْم والغَضَب ، والرِّضا والسَّخَط ، إذا لم يقتض الحزْمُ إيقاعها مَوْقِع الفضل ، واقعةٌ موْقعَ الإنصاف والعَدْل ؛ ولا يُغَلِّبُ هواه علىٰ رأيه ، ولا بادرتَه علىٰ أَناته ؛ وقد جانَبَ مع المملوك عادتَه ، وبايَنَ فيه شيمتَه ؛ ونالَهُ من إعْراضه ، وجفَائه وانْقباضه ، وتغيُّر رأيه ، ما وَسَمَ المملوكَ فيه بالذَّنْب ولم يُذْنِبه ، وحمله علىٰ الجُرْم ولم يَحْتَقِبْه ؛ وأوقفه لدَيْه مَوْقِفَ الاعتذار ، وأحْوَجه إلىٰ الاستقالة والاستغفار ؛ وليس المملوكُ يُحاكِمُه إلّا إليه ، ولا يُعوِّل فى الانتصاف إلّا عليه ؛ وما أَوْلاه بأن يُعيد المملوكَ إلىٰ محلِّه من رضاه ، فإنه لم يُواقِعْ فى خدْمته إلا مايَرْضاه ؛ وحسبُه شاهدًا بذلك مايعلَمُ من المملوك من سَلامة غَيْبه ، وطهارة جَيْبه ؛ وفَضْل وُدّه ، وصحّة معتَقده ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

(١) كذا فى غير أصل ولعله " أفعال شيم المولىٰ " ليستقيم الكلام بعد .

رقعـة بمعاتبة على[(١)]

كلُّ مانعٍ مالَدَيْه مَنْ رَغِبه ، دافعٍ عمَّا عنده مَنْ طَلَبه ؛ فمستغنًى عنه إلّا الله تعالىٰ المُبتـدِئُ بالنِّعم ، العوّادُ بالكَرَم ؛ ولو عَرَف مَوْلانا بطَعْم شجرة المعروف[(٢)] ، لأسرعَ إلىٰ اجتـذائها ، ولو علم مالله تعالىٰ عليـه من الحُقُوق فى ماله وجاهِه ، لم يُقَصِّر عن أدائها ؛ غيرَ أنه ظَنّ أنّ الفوزَ بالوُجْد ، غايةُ المَجْـد ، وأنه إذا أَحْمَد النَّسَبَ غنِيٌّ عن الحَمْـد ؛ وأنّ النعمةَ تُرتَبَطُ بالرَّبْط علَيْها ، وتنصرف بالتَّصرُّف فيها ؛ وما ساء المملوكَ أن تنزَّه عن تقلُّد منّـة لئيم ، وحُرِم مَحْمَدَةً من كريم ؛ وهـذا الحِرمانُ أحسَنُ والله فى عين المملوكِ من النَّوال ، وهذا الإكْداءُ أبرُّ لديْه من بُلُوغ الآمال ؛ وسينْشُر المملوكُ مَذْهبه فى كلِّ نادٍ ، ويكُفُّ عنه أمانِيَّ القُصّاد ، ويكفيه مَئُونةَ الاعتذار ، ويصُونُه عن أن تُبْذَل إليه وُجُوهُ الأحرار : ليعـلَمَ أنّ المملوكَ علىٰ مَنْعه لم يُقصِّر فى بُلُوغ أوطاره ، والسَّعيِ فى إيثاره ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـة فى المعنىٰ : ماردّ المملوكَ بِرُّ مولانا مستَنْزِرا لقليله ، ولا لائمًا لنَفْسه علىٰ تأميـله ؛ لٰكنّه آتجعه آنتجاعَ من ظَنّه عارفًا بقَدره ، راغبًـا فى شُكْره ؛ فلو أغضىٰ المملوكُ منـه علىٰ الاطّراح لأمرِه ، لاستَدلَّ منـه علىٰ قِصَر الهِمّة ، وظَنّ أنه قوّمه بدُون القِيمة ؛ لا سيَّما وهو يَفرِض لمن لا يُجازِى المملوكَ فى مِضْمار ، ولا يُساوِيه فى مِقْدار ، من غير قَصْد بتأميلٍ ورَجاء ، وتقديم ذَريعةٍ من تقريظ وثَناء ، ماتَضيق عنه الهِمَمُ الفِساح ، ولا يَصِل إليه الاقتراح .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله « على منع عطاء » .

(٢) لعله « ثمرة المعروف ... ... الى اجتنائها » تأمل .

رقعةُ عتاب، على تقصير فى خطاب :

حُوشِىَ مولاىَ أن يجُرَّ الذَّيْلَ على آثار فَضْـلِه ، ويُميتَ من غُرُوس إحسانه ماهو جديرٌ أن يَتعهَّده بوَبْله ؛ ويُعفِّىَ منّى رُسُومَ كَرَمه، ويَصْدَعَ بمجانبة الإنصاف صَفاةَ صِفاته وصفَائه، ويُنْطِقَ الألْسُنَ بعتابه؛ ويُصْلِتَ سيفَ التأنيب من قِرابه؛ بمـا آستحسَنَه من مستقبَح المُصارَمَة فى المخاطبه، وآستَوْطاه من جامح التَّرْييث فى المُكاتَبه ، ولا سيَّما وهو يعـلَمُ أنَّ موْقِع الإكرام من الكِرام ، ألطفُ من موْقع الإنعام ؛ وأن مَحَلَّ القال، أفضلُ من محلِّ النَّوال، وأن تغيُّر العادة فى البِرّ، مُقَوِّض لمَعَاهد الشُّكر، وسبيح (؟) السنة فى الإنصاف، قاضٍ بالآنصراف بعد الآنعطاف، وقد كان المملوكُ أزمَعَ أن يتحَمَّل تقصـيرَه به ، وأن يفُـلَّ من غَرْبه ، غير مطاوِعٍ للحميَّه ، ولا مُنْقادٍ لنفس العَصَبية، ولا يَقْرَعَ سَمْعـه بعتَاب ، ولا يُورِدَ عليه مُمِضَّ خِطاب ؛ ثم رأى المملوكُ أن يُرْشِـدَه إلى الأَزْيَن ، ويبعَثَـه على آعتمادِ الأحْسَن ؛ ويَحُضَّه على مُرَاجعة الأفضل، ومُعاودة الأجْمَـل : ليتحَفَّظ مع سِواه، ولا يَجْرِىَ مَجْراه ؛ فليس كلُّ أحدٍ يتحَمَّله، ويرضىٰ رِضَا المملوك بمـا يفعَلُه ؛ فمولانا حبَّب اللهُ إليه الرَّشَد، ووفَّقه إلى المَنْهج الأسَدّ؛ هل هو من شىءٍ سوى بَشَر ؛ فمـا هذا التِّيهُ والبَطَر ؟ ولِمَ هـذا الأزَلُ والأشَر ؟ وما فِعـل الرئيس إلى مايصْغُر عنـه قَدر ؛ ولا ييأسُ من نَيْله عمر ؛ ولا مضَتْ أقلامُك فى الأقاليم ، ولا أُشـيرَ إليك ببَنَـان التعظيم ؛ ولا فُوِّضتْ إليك الوزارةُ والرِّدافَة ، ولا تأمَّرتَ على الكافَه؛ ولا طاوَلْتَ الأكفاءَ فطُلْتَ، ولا ناضَلْتَ القُرناءَ فنضَلْتَ؛ وإنمـا سَرَق إليك الحظُّ من ثِمَـاده وَشَـلا مُصَرَّدا ، وأدَرَّ لك الدَّهْرُ من أخلافه مُجَدَّدا ، فافتتحتَ المعامَلَةَ بظُـلْم الإخْوان ، ونَسْخ شرائـع الإحسان؛ كذَبَتْكَ نفْسُك، وغَرَّك حَدْسُك؛ كيف بك غدًا إذا آسـتَرَدَّ الزمَنُ ماخَوَّلَك ، وآسـترجَعَ مانَوَّلَك ؛ وصَحَوْتَ بالعزل من سَـكْرة

الولَايه، وتقرقرت[1] بعـد طَلَب الغايه ؛ وعُدْتَ إلىٰ إخوانك فوجدْتَ أوطانَ أُنْسهم بك نابيَه ، ونُفُوسَهم للإقبال عليك آبيَه ؛ ولو كان الزمنُ أمكَنَكَ من رَقَبتى، وطرّق لك الطريقَ إلىٰ إيداع عُرْفك فى جِهَتى ؛ لقَبُح بك أن تَطُول بطَوْلك ، وتَدّعِى الفضلَ بفَضْلك، ولم يحسُنْ أن تُبـدّل الإنْعام، وتَضِنَّ بالآلتزام ؛ فإن كنت تفخَر بسَلَفك وأُبُوّتك ، وتُطاوِلُ بأوّليّتك وأُسْرتك؛ فلو كان أبوك كِسْرىٰ، لمـا جَبَر منك كَسْرا ، ولو كان جَدُّك بُخْتَ نَصَّر، لمـا آنتفعت به فى مُظـاهَرة ولا نَصْر، فدَعْ أكثَرَ مافات ، ولا تُعَوّلْ علىٰ العِظَام الرُّفَات ؛ فمـا آستَنَدَ إليها إلّا عارٍ من الفضـل عاطِلٍ من الحِلىٰ . علىٰ أنّك لو فاخرْتَنا بها لفخَرْناك ، وتقدّمْنا وأخّرْناك؛ وإن كنتَ تستَنِد إلىٰ ديانَتِـك ، وتعتمِدُ علىٰ نُسُكك وأمانَتِك ؛ فهـذه خالصُ حالٍ لا تخلُص مرتَبَتُهـا ولا تِمُّ فضـيلَتُها إلا بآستِشْعار التّواضُـع ، والأخْذِ بمكارم الأخلاق لدىٰ التنازُع ؛ فارْجِعْ هِدْيَتَك[2] إلىٰ الأجَلّ ، وآعمَلْ بالأفضَـل ، وقِفْ بحيثُ رُتْبَتك ؛ ولا تتشـوّفْ إلىٰ غير دَرَجَتِـك ؛ وإن أبيتَ ذاكَ فآقطَع المراسَـلَه ، وأعفِهـا من المواصَله، والسلام .

رقعة عتاب علىٰ تأخر المكاتبة :

من حُكْمِ الوِدَاد ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ــ الزيارةُ عند المُقاربة، والمكاتبةُ عند المُبَاعدة ؛ وإن كانت المودّةُ الصريحةُ لايُغيّرها آجْتناب، إلا أنّ الكُتُبَ ألْسُنُ البِعَاد، والأعيُنُ التى تنظُر حقائِقَ الوِدَاد ، ولها فى القُلُوب تأثير، وموقعُها فيها أثِير ؛ وحُوشِىَ مولانا أن أهُزَّ أرْيَحِيّته لمـا يؤكّد الثقةَ بإخائه ؛ ويشْهَد بوفَائه ؛ ولا سِيّما وهو يَفْرِضُ ذٰلك لأحِبّته، وقولُه واجبٌ فى شرع مَوَدّته .

(١) لعـــله « وتقهقرت » . (٢) فى الأصل « هديتك » .

رقعـــة فى معنـاه :

إن ٱبتـدأ المملوكُ مولانا لم يُجب ، وإنْ سأله الإبتـداءَ لم يُوجِب ؛ فلا حَقّ الإجابة تؤدّيه ، ولا ناجزَ المسـألة تقضيه ؛ فإنْ كان إذا شخص غابَتْ عن فكره أشخاصُ أحبَّته ، وإذا بَعُد عاملَهم بتجافيه وجَفْوته ؛ فقد كان ينبغى أن يتكلّف ويتجمّل ، ويتصنّع ويتعمّل : فإنه لو علّل مشوبا بالٱنتظار ، أو ٱعتـذر مموّضا بالٱعتذار ؛ لأقمتُ ذٰلك مُقامَ المكاتبه ، وصُنْته عن مَحْض المُعَاتبه ؛ لٰكنّه مال مع المَلال ، ورضِىَ الإطِّراحَ والإهمـال ؛ ودلّ علىٰ أنه مستقِلٌّ بالإخوان ، متنقّلٌ مع الزمان ؛ وأرجو أن تَصْدُقَ المَخيله ، ويَرْجعَ إلىٰ العادةِ الجميله .

رقعة معاتبة رجل كريم الأصل لئيم الفعل :

قد عَرَف مولانا وفّقه الله ووقَفَه علىٰ مَنْهج الرَّشاد ، أنَّ جنايةَ الغضَب الذّميم ، تقْـدَح فى كَرَم الجِنْثِ[(١)] الكريم ، وأنَّ قَبيحَ الصَّلَف ، ينْسَخ تَليـدَ الشَّرف ، وخبيثَ الذُّريه ، يُعَفِّى علىٰ طِيبِ المَناحِتِ الزَّكيّـه ؛ وأنه ليس لمن تحلّىٰ بالظُّـلم والجَور ، وتلبّس بالنَّكث والغَـدْر ، وسامح نفسَه باطِّراح الحُقُوق ، وٱستِيطاء العُقُوق ؛ إلّا إضاعةُ الحُرَم ، وإخْفارُ الذِّمم .

المعاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخُ شِهاب الدين محمود الحلبى :

يُقبّل الأرضَ ويُنْهِى أنه قد صار يَرىٰ قُرْبَه ٱزْوِرَارا ، وطويلَ سلامه ٱخْتِصارا ؛ ويُغالِطُ فى ذٰلك حتّىٰ شاهده عِيـانًا مِرارا ؛ هـذا وبِكْرُ الوَلاء ، صَقيلةُ الجِلْباب ،

(١) جنث الانسان أصله . ووقع فى الأصل "الحديث" وهو تصحيف .

وعَروسُ الثناء، جميلةُ البِزّة حسنةُ الشّباب، وهو لايفتأ من المُوالاة فى صَعَد وقَدْره فى صَبَب ؛ فكُلّمـا مكّن وَتَدَ الاستعطاف يرجُو عدَمَ تخلخُله فُصِل بأيْسَرِ سَبَب ؛ بحيثُ أطفأ الإهمـالُ نارَ المُساعفَة والمُساعدَه، وآنتقل توهُّمُ عدمِ العِناية إلىٰ تيقُّن وُجوده بالمشاهَدَه ؛ وقد كان يُرْفَع قدرُه نُخفِض، وعُوِّض فى الحـال عن الرَّفع بالاَبتداء، أنه مُفْرَد ويُنْصَب كالنكرة فى النِّداء، وأُهمِل حتّى صار كالحُروف لا تُسْنَد ولا يُسْنَد إليهـا ، وأُلغِىَ حتّى شابَهَ ظننْتُ إذا وقعتْ متأخّرةً عن مفعولَيْها ؛ ومتىٰ يَقْلَق لأمر، أنشد نفسه * ما فى وُقُوفِكَ ساعةً من باس *

وكان يَغشىٰ مجلِسَه الكريمَ خدمةً وأداءً للواجب ، وطلبًـا لعادةٍ أكّدها إحسانُه حتّى صارتْ ضربَةَ لازِب ؛ فلا يخلُو مجلِسٌ من إظهار تغيُّر عادةٍ وَطّد الجُودُ أساسَها، وآنتقاضِ قاعدةٍ أبرَم الكَرَمُ أمْراسَها؛ فينقَطِع سُـلوكًا للأدَب وتخفيفًا عن الخَواطر ، ويتلقّى مايصـدُرُ بقلبٍ شاكٍ ولسانٍ شاكِر ؛ فإنْ كان قد عَزَم مولاه علىٰ طَرْده، وعوّضه عن مِنحة القُرْب المِحنَةَ ببُعْده؛ فإنه يأبىٰ ذٰلك جُودُه ولُطْفُه، ومعرفه يشكُرو يزيدُ لا يمكِنُ صَرْفُه؛ ولو جاز الصّرفُ لمجرّد (١) بالعُبُودية لمَنَعه العذْلُ من سـيِّده، والحِلمُ الذى عُرِفَ من كريم محْتِـده؛ فكان المملوكُ يستحْسِن فى خبَره وسـبْره ، ويعوِّضُ عن مقابلتـه بجَبْره ؛ فقد صار سمينُه غثًّا وشحمُه ورَمًا، وحديثُه رثًّا وسهله عَلَمًا :

وعينُ الرِّضـا عنْ كُلِّ عيبٍ كَليلةٌ * كما أنّ عينَ السُّخط تُبْدى المَساوِيا

وما ثَمّ بحمـد الله مايُوجِب ذٰلك ولا بعْضَه ، ولا يُحْدِثُ ذَمّ المملوك وبغْضَـه ؛ ولو بَدَا منه زَلَل، أو لَمَح منه خَطَل؛ فمكارمُ مولانا أوسَعُ من إبقاء ذٰلك فى صُدُور الصُّدور، و[أحرىٰ ب]مَحْوِ آياتِ السيِّئات فإنه لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور .

---

(١) بياض بالأصل ولعله « لمجرد الشك بالعبودية » .

⁂

وله : يخـدُم بدُعائه، وصادِق وَلائه ؛ ويُنهِى أنه آنكَسر خاطِرُه ، وأرِقَ جَفْنُه وناظِرُه ، وتضاعفَ بَلْبالُه ، وتزايدَتْ فى النَّقص أحوالُه ، منذ تأخّرت الأمثِلةُ الكِرام ، وآنقطعَتْ عنه بانقطاعها المِنَنُ الجِسام ؛ وهو يسأل العفْوَ عن ذَنْبٍ وقَع ، وتشريفَه بمثال يَرْفَع من قَدْره ما وَضَع ؛ وآستعمالَ الصَّفح عنــه كسائر عاداته ، وإجراءَه علىٰ اللُّطْف الذى أَلِفَه من تفضُّلاته ؛ فقد ضَعُفَ صبرُ المملوك وجَنَانُه ، وتفرّقَ للفِراق جَفْنُه وإنسانُه ، وصغُر قدْرُه ، وأُهْمِل جانبُه وممَّن أمَرَ بإهانته نَحْره ، ولهذا ضاقَتْ عليه المَسَالك ، وكان لسانُ حاله [ينشد] فى ذلك :

وأَهَنْتَنِي فأَهَنْتُ نَفْسِيَ عامِدًا * ما مَنْ يَهُونُ عليْـكَ مِمَّنْ يُكْرَمُ!

والمملوك معترِفٌ بأنه مازال يجهَلُ مايجب عليه من الخِدَم ، ومُقِرّ بتقصيره عن القيام بحَمْل مايُواصَــلُ به من النِّعم ؛ لكنّه ألِفَ من مولانا أن يقابِلَ إساءتَه بالإحسان ، وجَهْلَه بصَفْح لايقُومُ بشُــكره اللِّسان ، بل جميعُ الجُثمان ؛ فإن كان ذَنْب من المملوك هو الذى أوجَبَ آطِّراحَه ، وأوجدَ أسَفَه وأذهب أفراحَه ؛ وكان أيْسَرَ ممـا تقدّمه من جَهْــله وإساءته ، فحِلْمُك جديرٌ أن يُلحِقَه بإخوته ؛ وإنْ كان قد تزايدَ مقدارُه ، فالمولىٰ قد تضاعَفَ علىٰ العفو آقتدارُه ؛ وإذا كَبرت الخطيئةُ كَثُر أجرُ غُفْرانها ، وعلَت المجاوزَةُ عنها علىٰ أقرانها ؛ وعلىٰ كِلَا الأمرين فقد آستحَقَّ المملوكُ المَغْفرة بكلّ طريق ، وأنْ يُقَابَل رجاؤه بالتحقيق ، وأملُه بالتصديق .

⁂

وله : ويُنْهِى أنه ما زالَ يتْــلُو آياتِ محاســنه وحمْده ، ويرفَعُ راياتِ إحســانه ومَجْــده ؛ ويتولّاه ولا يتولّى عن محبّته ، ويُكْثِر الثنــاءَ علىٰ المُعِيِّ فِطْنتــه وجَزيل

مُرُوءته ؛ وقد صار يُشاهد من المولىٰ مَلَالًا وصُدُودا ، وإعراضًا يَغيظ به صـديقًا ويَسُرُّ به حَسُودا ، وٱطِّراحا أوهمَه أنه ألِفُ وَصْلٍ دُرِجتْ ، أو لفظةُ هُجْرٍ لُفِظت ؛ ولا يَعرِف له ذَنْبا يُوجِب إبعـاده ، ولا جُرْما يستوجِبُ به أن ينقضَ حبلَ وَصْـله ويرفُضَ وِدَادَه ؛ ولا يعلمُ سببا يُوجِب مَبَّه ، ولا شَيْئا يُحْدِث عَتْبه ؛ مع أنَّ المملوكَ أحقُّ أن يَبْدأَ بالإعراض ، ويَرْفُلَ من إغفال مَوَدّته فى الثَّوب الفَضْفاض ؛ فإنَّ المولىٰ آلَمَـه بالقَوْل مِرارا ، وجعل سَحابةَ حَيْفه تَهْمِى عليـــه مِدْرارا ؛ وهو يحتمل الأَذىٰ ، ويُغْضِى علىٰ القَــذىٰ ؛ ولا يُظْهِر إلا محبَّــة ، ولا يُبْطِن له إلا مَوَدّة ؛ فإن شاهد المولىٰ بعد إعراضِه إعراضا فلْيَلُمْ نفسَـه ، أو أحرقه لَهَبُ نار الجَفَاء فلا يشكُو مَسَّه ؛ يُحِيطُ بذلك علما ، ورأيه العالى .

شـــعر فى العِتاب :

مَوْلَاىَ قَدْ طَالَ التَّبـاعُدُ بيْنَنا * أَوَما سَئِمْتَ قَطِيعتِى ومَـلَالِى!

إنْ لَمْ تَرِقَّ لِحالَتِى ياهَاجِرِى * مَوْلَاى قُلْ لِى مَنْ يَرِقُّ لِحالِى!

غـــيره :

يُباعِدُنِى عَنْ قُرْبِهِ ولِقَائِهِ * فلَمَّا أذابَ الجِسْمَ مِنِّى تَعَطَّفَا

غـــيره :

إنْ كانَ هِجْرانُنَا يَطِيبُ لَكُمْ * فَلَيْسَ للوَصْل عِنْدَنَا ثَمَنُ

غـــيره :

شَمَتَتْ بِى الأعْداءَ حينَ هَجَرْتَنِى * والمَوْتُ دُونَ شَماتَةِ الأَعْداء !

غـــيره :

تَنَـامُ عَيْنَاكَ وتَشْـكُو الهَوىٰ * لَوْكُنْتَ صَبًّا لم تَكُنْ نائِمَـا!

ولبعضهم : سيدى بادأنى[١] بلُطْف من غير خبْره، وأعقبنى جَفاءً من غير ذَنْب؛ فأطمعنى أوّلُه فى إخائه، وآيسنى آخِره من وفائه؛ فسبحانَ من لو شاءَ لكَشَف بإيضاح المُبْهَم عن عَزيمةِ الرأى فيه؛ والمملوك يقول :

عَجِبْتُ لقلبِكَ كَيْفَ ٱنقلَبْ * وصَفْوِ ودادِكَ أنّىٰ ذَهَبْ

وأعْجَبُ مِنْ ذَا وذَا أنّنِى * أراكَ بعَيْنِ الرِّضَا فى الغضَبْ

أجوبة رقاع العتاب

قال فى "مواد البيان" : حكم أجوبةِ هذه الرِّقاع حكمُ رِقاع أجوبةِ الاعتذار إلّا أنها لا تخلو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار على العتاب . قال : ويجبُ أن يسلُك فيها المجيبُ مذهَبَ المجيبِ عن رقاع الاعتذار .

زهر الآداب :

فى جواب العَتْب على تأخر مكاتبة .

وعلم المملوكُ ما أشارَ به من العَتْب بسبب تأخر خِدَمِه عن جنابه ، وما توهّمه من ٱشتغالِ المملوك بأهله وأصحابه ، وحاشاه أن يتوهّمَ فى المملوك غيرَ الوَلاء ، والمُلازمةِ على الحمد والثناء ؛ فهو لا يعتمدُ ذلك إلّا تخفيفًا عن خاطره ، ووثوقا بما يتحقّقه المولى من خالص مودّته فى باطنِه وظاهِره ؛ حرسهُ الله ووفّقه ، وفتح له بابَ السعادة ولا أغلقه ، بمنّه وكرمه .

---

(١) ضمنه جواب عبد الله بن معاوية فى العتاب .

زهر الربيـــع :

جواب عتاب :

زاد اللهُ جَنَابه حَنَانا، وأسبغَ عليه إنعامًا وإحْسانا، وخلّد له علىٰ كلّ عدوٍّ سلطاناً.

ولا زالت هِمّته سماءً لمناكِب الكَوَاكب، وأياديه تُفيضُ علىٰ الأوليـاءِ غَرائبَ الرَّغائب، ولا بَرِحَتْ سحائبُ إنعامه هاميه، وقُطوفُ إحسانِه دائمةً دانيَه، وشرائعُ مِياه جُودِه مُجَفّف جُفُونا من الفاقةِ دَاميه .

المملوك يجدّدُ خِدمته، ويُواترُ للولىٰ أدعِيَتَه، ويعتَرِف بِمِنَنِه التى أقرتْ بها ألسِنةُ جوارِحه فلا يَســتطيعُ أن يُنْكِرَها ، ويعترِفُ بيد تضرُّعه من بِحار جُوده التى تَتْعَبُ الوَلِيّ من سَحَابها إلىٰ كل وَلِيّ وتَقْذِف له جَواهِرَها .

وينهِى وُرودَ المكاتبــة والعِلْمَ بمضْمُونها ، والاْحتِواءَ علىٰ سائر مَعاني فُنُونِهـا ؛ وما أشار إليــه من العَتْب الذى يرجُو به بَقاءَ الوِدَاد ، واْستِصحابَ حالِ التَّواصُل من غيرِ تَقَاد؛ والمملوك فلا يُنْكِرُ ذَنْبه، ولا يتَنَصَّل ولا يتوصَّل بل يعترِفُ بجُرْمه وقلّةِ خِدَمِه؛ ويَستَمْسِك بالعُرْوة الوُثْقىٰ مِن إحسانه وحِلْمِه ، ويسألُ مَكارمَه إجراءَه علىٰ عادته بالصَّفْح عنه ورَسْمِه ؛ وهو يرجُو أنَّ أمَّ هذه الهَفْوةِ لاتَلِد لهـا أُخْتا، وأنه لايعتمِدُ إلّا مايَزِيدُه إلىٰ المَوْلىٰ مِقةً ويُزِيل مَقْتا ؛ فإنَّ معاتبَــةَ مولانا قد وَعَتْها أُذُنٌ واعيه، ومَراضِيَه لاتَخْفىٰ علىٰ المملوك بعدَ ذٰلك منها خافيَه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : أسعدَ اللهُ المجلِسَ وعَطَف للأَوْلياءِ قَلْبَه ، ونَصر ٰابَه وأنفَذَ كُتُبَه ، وأرْهَف فى نُصْرة الإسلام سِنانَه وعَضْبه ، وألْهَمَ حَبّــةَ قلب الزمان حُبَّه ، وأقْدَره علىٰ الحِلْم الزائد حتّىٰ يغفرَ به لكلِّ مُذْنِب ذَنْبه .

[وينهى] وُرودَ الكتابِ الذى أعدَّته يدُ مولانا فصار كَرِيما، وكسَتْه عبارتُه ثوبَ بَرَاعتِه فأصبحَ مَنْظَرُه وَسِيما، وآستنْشَق عَرْفَ نَسِيمه المبارَك فطاب شَمِيما؛ وعلم المملوكُ منه شِدّةَ عَتْبه، ومُرَّ التجنِّى الذى ظَهر من حُلْو لفظه وعَذْبه؛ ولم يَعْرف لعَتْبه مُوجِبا، ولا لتغيُّرِ مودّته سَبَبا؛ فإنه ماحادَ عن طريقِ وَلَائه ولا حال، ولا زَلَّت قَدَمُه عنه ولا زال؛ ولا مادَ عن مَنْهَج المودّةِ ولا مال؛ وما فَتِئَ لمحاسنه ناشِرا، ولإحسانِه شاكرا؛ فإن كان قد نُقل عنه إلىٰ مولانا شىءٌ أزْعَجَه، وأخرجه عن عادةِ حِلْمه وأحْرَجه؛ فإن الوُشاةَ قد آختلَقُوا قولَهم ونقْلهم، وقصَدُوا تشتيتَ المُصاحبةِ شَتَّتَ اللهُ شَمْلهم:

وقد نَقَلوا عَنِّى الّذِى لَمْ أفُهْ بِهِ * وَما آفَةُ الأَخْبارِ إلّا رُواتُها!

آخر: وردت المشرّفة العاليةُ أعلىٰ اللهُ نَجْمَ مُرْسِلها، وأسبغَ أياديَه وشكر جَسِيمَ تفضُّلِها؛ فابتهجتِ الأنفُس بحُلُولِها وحُلَل جَمالها، وعُوملتْ بما يَجب من إكرامِها وإجلالِها، وفُضَّ خِتامُهَا ففاحَ منها أرَجُ العَبِير والعَنبَر، وتُلِيتْ ألفاظُها التى هى أبهىٰ من الرِّياضِ وأحلىٰ من السُّكَّر؛ فأغنَتْ كُئُوسُ فَصَاحتِها عن المُدَام، وأزال ماؤُها الزُّلالُ الباردُ حَرَّ الأُوَام؛ وأعربَ مُنْشِيها عمّا فى ضميره من العَتْب، والضيقِ الذى حَصَل فى ذٰلك الصَّدر الرَّحْب؛ وهو يُقْسِم بنِعْمته، وبصادِقِ محبّته؛ أنه لم يَبْدُ منه مايُوجب عليه عَتْبا، ولا آنثَنىٰ عن الثّناء علىٰ [مَحَاسِنه] (1) التى شغفَتْه حُبّا؛ فإن كان المولىٰ قد توهّم شيئا أحرجَه وأقلقَه، وإلىٰ أليم العَتْب شوّقه؛ فلْيُزِل ذٰلك الوَهْمَ من خاطِره، ولْيَثِقْ بما تحقّق من مُوالاته فى باطِنه وظاهِره؛ ورأيه العالى.

---

(1) بياض فى الأصل والصحيح من المقام.

آخـــر : أعزّ الله عَزَماته، وشكَرَ جسيمَ تفضُّلاته .

ولا زالتْ نعمتُه باقيــه ، وقدَمُه إلىٰ دَرَج المَعَالى راقيــه ، وهمّتُه إلىٰ السُّمُوّ علىٰ الكواكِب ساميه ، وسماءُ جُوده علىٰ العُفَاة هاميَه ، وعَزْمتُه لثُغُور الإسلامِ حاميَه ، عبْدُ نِعَمه ، وغَرْس كَرَمه ، يُعلمُه بِصِدْق وُدّه ، والمداومةِ علىٰ شُكْره وحَمْــده ، وأنه وقَفَ علىٰ مُشَرِّفه وفَهِمه ، وشاهَدَ منه عَتْبَه وعَلِمَــه ، وهو لا يشكُو من المولىٰ جَفَاءً ولا يَعيب ، و [عن] طريق المُصافاة والمُخالَصة فلا يغيب ، بل يقول :

أنتَ البَرِيءُ مِنَ الإسَاءَةِ كُلِّها ٭ ولَكَ الرِّضَا وأنا المُسِيءُ المُذْنِبُ

والمرجوُّ من لَطَافة أخلاقه ، وطَهارةِ أعْرَاقه ، أنْ يصْفَح عن زَلّته ، ويعْفُوَ عن ذنبه وإساءتِه :

فأنْتَ الّذِى تُرْجىٰ لتَخْفِيف زَلّتِي ٭ وتَحْقِيق آمالِي ونَيْــلِ مَآرِبِي!

وقُرْبُك مقْصُودِى وبابُكَ كَعْبتِي ٭ ورُؤْياكَ ياسُـؤْلِي أعزُّ مَطَالِبِي!

قلت : وكتبتُ إلىٰ المولىٰ شِهاب الدين الدُّنَيْسِرى وقد بلغَنِي عنه مُساعدةُ بعضِ الجُهّال علىّ فى بعض الأمور :

عَهِدْتُ شِهابَ الفَضْل يَرْمِي بِسَهْمِه ٭ شَيَاطِينَ جَهْلٍ أنْ تُدانِي جَنابَه !

فَمَا بالُ مولانَا علىٰ فَرْط فَضْـلِه ٭ يُعرِّفُ شَـيطانَ الجَهَـالةِ بَابَه ؟

النـــوع الرابع عشر
(العِيادةُ والسُّؤال عن حالِ المريض)

رُقْعـــة عيادة :

ويُنْهِى أنه اتَّصـل بالمملوك مِنْ ألمِ مَوْلانا ـ أطال اللهُ بقاءَه ، وحَرس حَوْباءَه ـ ما أهمىٰ مَدَامِعَه ، وأحمىٰ أضالِعَـه ، ومَزَّق جِلْده ، وحَرَّق خَلَده ، وأطار الوَسَن عن عَيْنِه ، ونَفَّر الهُدُوءَ عن مَضْجَعِه ، حتَّى تدارَكَ اللهُ تعالىٰ بكتابِه الناطِق بإقلاع المُلِمّ ، المُعْرِب عن دِفَاع المُهِمّ ، فرَقَأَ من دُمُوعى ما ارفَضّ ، وجَبَر من ضُـلُوعِ المملوك ما ارتَضّ ، والتأم من جِلْده ماتفطَّر ، وبَرُد من خَلَده ماتوقَّد[1] ، وجَمَّ ماطار من وَسَنِه وآبَ من الهُدُوء مانَفَر عنه ، والتامتِ الآمالُ بعد انْثِلامها ، وبرزَتْ ثِمـارُ الأمانِىِّ من أكمامها ، وطَلَع من الرجاء آفِلُه ، ورَوِى من السُّرور ماحِلُه ، وتجدَّد من السُّؤدَد طامِسُه ، وضَحِك من الزمان عابِسُه ، والله تعالىٰ يَغُضُّ طَرْفَ الحَدَثانِ عن مُهْجَتِه ، ويَصْرِف صُروفَ الزمان عن ساحَتِه ، ويهنِّيه بمـا أعاده إليه من الإبْلال ، ويُمَلِّيه بمـا أفاضه عليه من الاسْتِقْلال ، بمَنِّه وكرمِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أن ماخامَرَه من قَلَق وجَزَع ، وفَرَق وهَلَع ، بسبَب مابلَغَه من شَـكْوىٰ مولانا لاتَحْصُره الأوْهام ، ولا تُسَطِّره الأقْلام ، ولولا ثِقةُ المملوك باللهِ تعالىٰ لَوَهَتْ عُقَد صَـبْره ، ولَا نَخلعَ فُؤادُه من صَدْره ، وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ هـذا الألَم لو نُقِل إلىٰ المملوك لَمَـا ثَقُل عليـه ، وكيف يستَثْقِل مايُخَفِّف عن مولانا وَصَبَه ويحسِمُه ، ويُعَكِّف له سِـلْكَ الشِّفاء ويَنْظِمُه ، والله تعـالىٰ يجعلُه فى أمانٍ من كِفَايته ، وضَمانٍ من حِيَاطته ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الاصل "توفر" بالفاء والراء وهو لايناسب المعنى .

أجوبة كتب الشفاعات[1] والعنايات

قال فى "مواد البيان" : هذه الكتب إذا أجيب الملتمس إلى حاجته فينبغى أن تُبنى أجوبتها على شكر مقصد الشافع ، والإدلال والاسترسال وإنالة المشفوع له وطَرَه إيجابا لحقّ الشافع ؛ وإن وقع الامتناع والتوقّف عن الإجابة إلى الملتمس، فالواجب أن تُبنى على إقامة العُذْر لا غير .

زهر الربيـــع :

جوابُ شفاعة فى حقّ كاتب :

جدّد الله [له] السعادةَ وخلّدها ، وأصارها له شِعارًا وأبّدها ، ووطّد به الممالكَ ومهّدها ، وعضّد به طائفةَ الإسلام وأيّدها ، وشكَر له صنائعَ يعدّ منها وَلِىٌّ ولا كُلّ يستطيعُ أن يعدّدها .

المملوكُ يقبّل اليدَ الشريفةَ أداءً للفرض اللازم ، وشكرًا لما أولته من الأيادى والمكارم ، وحمدًا لألطافه التى أطمعته بالتمييز فأصبح برَفْع قدره كالجازم .

وينهى ورُودَ المشرّف الذى نزّه ناظرَه ، وجبر قلبَه بحُسْن ألفاظه وخاطرَه ، والعلمَ بما أمَرَ به ، وشَفَع إلى المملوك بسببه ، وهو الكاتبُ الذى أشارَ إليه ، وقد ركَن إلى ما شكَره به المولى وأثنى به عليه ، واعتقد يُمْن[2] إغارة الشافع فعقَد على المشفُوع فيه خِنصرَه ، وتقدّم بترتيبه فى ديوان إنشائه ، وجعله من جُملة خواصّه وخُلَصائه ؛ وفعل ذلك كلّه اتّباعًا لإشارته ، وقبولا لشفاعته ؛ فالمولى يواصل بمراسِمه وأمثلته ، فإنّها تَرِدُ على مُرْتَسِم ممتثِل .

---

(١) حق هذه الأجوبة أن تكون تابعة للنوع الرابع فهى مؤخرة من تقديم فتنبه

(٢) لعله إشارة الشافع .

ومنـــه : جواب شفاعة فى آستخدام جُنْدىّ :

ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعَمَه ، وأرْهفَ فى نُصْرة الإسـلام سَيْفه وقَلَمه؛ ولا بَرِحتْ أَلْسنةُ الأنام ناطقةً بوَلَائه، وأَيْدى ذَوِى الرجاء مملوءةً من فَوَاضل نَعْمائه .

المملوك يُواصل بأدْعيَته الصالحه ، ويستَنْشِق رُوحانِىَّ رِيحِكم فيسكُن منـه بلَذِيذ تلكَ الرائحـه ؛ ويشكُره مامنَحَه من المَكَارم ، ويباهى بعَزَماته اللُّيوثَ الضَّراغم ؛ فلا يجد مُضاهِيًا لتلكَ العَزَائم .

وينهى ورُودَ المِثَـال الذى أشرقَتِ الوجُوه بنوره، وآبتهجت الأنفُس ببـلاغة مُنْشيه ووَشْيِ سُطُوره، وعلِم إشارةَ المولىٰ فى مَعنىٰ فلان : أدام اللهُ سعدَه، وأعذَبَ مَنْهلَه ووِرْدَه، والتوصيَة بأمرِه، وما أبداه من حَمْده وشُكْرِه، وأن يُقْطع إقطاعًا يليق بأمثاله، ويتفَيَّأ من خراجها ضافِىَ ظِلاله ، وعند مُثول مِثاله العـالِى آمتثِلَ وآلتُثِمْ، وآستخْدَم المشارَ إليه لإشارته وخَدَم، وهذا بعضُ مايجب من قَبُول أمرِه، وتعظيم كتَابه وتَبْجيل قَدْرِه، فيواصلُ بمراسمِه فإنهـا تُقابَل بالآرتِسَام، ومشرَّفاتِه فإنها تُعامَلُ بوَافِرِ الإكرام .

جوابُ شـــفاعة فى الجمـــلة :

قُلْ ما تَشاءُ فإنّنِي لَكَ طائِـعٌ * ماأنْتَ عِنْدى شافِعٌ بل آمِرُ!

جعله اللهُ لكلِّ خيرٍ سبَبًا ، وحقَّق به لأوليائه ظُنُونا وحَصَّل أَرَبا ؛ ووَفَّرله من أَجرِشفاعتِه الحسَنةِ نَصِيبا، وأدامه عن كلِّ شرٍّ بعيدًا وإلىٰ كلِّ خيرٍ قريبا .

المملوكُ ينهى تألُّمَـه لِفِراقه ، وما يجِدُه من صَبـابتِه وشِدّةِ أشواقه؛ ويُعانيه من حَنِينه وأتواقه ، وأنه ورَد عليه كتَابُه فاسـتلَمه ولَثَمه، وبَجَّله وعَظَّمه ؛ وعلِم ما أشار

إليه، وأخَذَ أمرَ المشفُوع فيه بكلْتا يدَيْه ، وجعل قَضاءَ أرَبِه أمرًا لازِما ، وما فتِيَ علىٰ ساقِ الاجتهادِ قائما ، إلىٰ أنْ حصَّلَ غرَضَه ، وأدّىٰ من حُسْن القيام بأمره ما أوْجبَه مُشَرِّفُه العالى وافترَضَه ؛ والمَوْلىٰ آمِرٌ غيرُ شَفيع ، ومَهْما وَرَدَ من جِهَته علىٰ المملُوك فواردٌ علىٰ سَمِيع مُطيع ؛ فيُواصل من مَراسِمه بما سَنَح ، ومن أخباره بما تأرّج طِيبُ عَرْفه ونَفَح ؛ ورأيهُ فى ذلك العالى .

آخــر : شكَرَ اللهُ عَوارِفَها ، وتالِدَ جُودِها وطارِفَها ، ووافِرَ ظِلالها ووارِفَها ؛ وينهى شاءَه علىٰ مَعَاليه ، وملازَمتَه ومُداومتَه علىٰ بَثّ محاسنه ونَثّ أياديه ؛ وحمد عواقِبِ إحسانه ومَباديه ، وشِدّةَ أشواقه إلىٰ جَنابه ، ولذيذ مشاهدته وخِطابه ؛ وما يُعانيه من غَرامٍ لازَمه مُلازمةَ الغَرِيم ، وداءِ صبابةٍ يُضاعِفُ شَوْقَه إلىٰ رؤية وجْهه الوَسيم ؛ ومُداومتَهُ علىٰ التعوّض بشُكْر محاسنه عن المُدامة والنَّديم ؛ ونَظْم جواهر مَدْحه لجِيد جُوده ، وحَمْد المولىٰ علىٰ ذلك التنظيم ؛ وأنه ورد عليه مشرَّفُه العالى فقبَّله ، ودعا لمُرْسله دُعاءً يرجُو من الله تعالىٰ أن يستجيبَه ويتقبّله ؛ وحصَل له بوصولِه ابتهاجٌ عظيم ، وقال لمن حضر وُرودَه ﴿يأيُّها المَلأُ إنّى أُلْقِيَ إلَيّ كتابٌ كَرِيم﴾ وفَهِم مضمُونَه وفَحْواه ، وعلِم معْناه وما أظهره فيه وأبْداه : من الوصيّة بفلان وما يُؤْثره من تسهيل مَطَالِبه ، وتيْسيرِ مآرِبه ؛ ووصل المشارُ إليه وحصَلَ الأُنْس برُؤْيته ، وتمتّعت النّواظِرُ والمَسامعُ بمشاهَدته ومشافَهته ؛ وقام المملوكُ فى أمْره قيامًا تامًّا ، وجعل عينَ اجتهادِه فى مصلَحته متيَقِّظةً لاتعْرِف منَاما ؛ وشمّر عن ساق الاجتهاد ، فى تحصيلِ المَرام والمُراد ، إلىٰ أنْ حصَل له الفوزُ بنَيْل أمَله ، وعاد راتِعًا من العَيْش فى أخْضَره وأخْضَله ؛ رافلاً من السُّرور فى أبهىٰ حُلَله ، فيُحيط علمُه بذٰلك ، والله تعالىٰ يعضّدُ به الدُّولَ والممالك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : جعـله اللهُ مِفْتاحا لكلِّ بابٍ مُرْتَجٍ، وصَــدَّق به [أملَ] كلِّ آمل وحقَّق رجاءَ كلِّ مُرْتَجٍ ، ولا زالتْ سحائبُ جُودِه هاميــةً بالوَسْمِيِّ والوَلِيّ[1] ، ماطرةً بوَبْلِها وطَلِّها علىٰ الوَلِيّ .

المملوكُ يخدُم بتحيَّة أرقَّ من النَّسيم ، وسلامٍ أطيبَ عَرْفا من بانِ النَّقا إذا تحمَّلتْ عَرْفَه ريحُ الصَّريم .

وينهِى إلىٰ علمِـه الكريم ورُودَ مشرَّفته وأنه أحاطَ بمضمُونها عِلما، وشاهدَ منها فى حال طَيِّها مكارمَ أصارَتْ تفضيلَه علىٰ حاتمِ الطائىِّ حَتْما، ووقَفَ منها علىٰ دُرِّ لفظ قذَفَه بحرُ خاطِره نَثْرا ونَظْما ، وبراعةِ عبارةٍ زادتْ قَلْبَ مُواليه غَرَاما وأنْفَ مُناويه رَغْمـا ، وفصاحةٍ عرَّفته قولَه صلّى الله عليه وسلم « إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا وإنَّ من الشِّـعر لَحُكْمًا[2] » وفَهِم عنايتَه بفلان نفَع اللهُ بعلمه وعَمَله ، وقرَّب له من الخـير مالا يُطْمِعُه به بعيدُ أمَلِه ، وإشارتَه بسبَب التنبيه والإرشادِ علىٰ جُمَلِ فضائله ، ومفصَّل مناقبِه المشهورةِ فى البِلاد ، وإيضاحِ كفايتِه فى وَجِيز تلك الفُصول الصِّحاح الإسْناد ، فحـالَ قُدوم المذكـورِ وحلُوله ، ووُرودِ مشرِّفه ووُصُوله ، أنهىٰ المملوكُ أمْرَه إلىٰ مخدُومِه ، وطالع به شريفَ عُلُومه ، ولا زال يُحْسِن سعْيَه ، ويعتمدُ علىٰ مشيئةِ الله ولا يتْرُك حِرْصَه ومَشْيَه ، إلىٰ أنْ حقَّق قصـدَه بقضاء شُغْلِه ، وقرَّب له أمَدَ أمَلِه ، وكتَبَ توقيعَـه ولم يُرِد الله تَعْويقه ، ونجَع طعمُ قصدِه وأنْجَحَ اللهُ طريقَه ، وقد عاد مصحُوبًا بالسَّلامه ، معروفًا بتحصيل هذا القَصْد بأنه (طَلَّاع الثَّنَايا) من غيرِ وضْعِ العِمَامه ، حسَبَ إشارةِ المولىٰ وأمْرِه ، والله تعالىٰ يُمِدُّه بصونِه ونَصْره .

---

(١) الولى المطر الذى يأتى بعد الوسمى ووقع فى الأصول "الوبلى" وهو تحريف واضح .

(٢) هو بضم الحاء وسكون الكاف العلم والفقه أى إن فى الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه ...... ويروى إن من الشعر لحكمة وهو بمعنى الحكم . انظر اللسان ج ١٥ ص ٣٠ .

آخـــر : فى آستخلاص حق .

شكَرَ اللهُ إحسانَه وإنعامَه، وحَصَّل به لكل وَلِىٍّ مَرَامه، وحَمِدَ تطوُّلَه وتفضُّله، وأنال به لكلِّ آمِلٍ أمله، وخلَّد دولتَه، وأدام نِعْمتَه، وأنفذ كلِمَته؛ ولا زال فضلُه كاملا، وإحسانُه إلى الأولياء واصِلاً؛ ونوالُه لبنِى الآمالِ شامِلا .

المملوكُ يخدُمُ بدعاءٍ أحسنَ من نَوْر الرُّبا، وثناءٍ ألطفَ من ريح الصَّــبَا؛ وسلامٍ أطيبَ بمُروره من تذكُّر أيّام الصِّبا .

وينهى وُرُودَ الكتابِ الذى طابَ بالمولَى مَحْتِدُه ونِجَارُه، وزاد على كاتبِ الكُتُب فَخَارُه، وأنه وقَف عليــه وُقُوفَ مشتاقٍ إلى مُرْسِله، شاكرٍ أنعُمَ فضــلِه وجسيمِ تفضُّلِه؛ فأسكرَتْه تلكَ الفصاحةُ بشَذَاها الأرِجْ، ونزَّهتْ لحظَه فى دُرِّ لفظِها البَهِج؛ فظنَّها لمَّـا آستنشَق رائحتَها راحًا قَرْقَفًا، ولمَّـا أبْهجَه لفظُها بألفاظ تُزْهى على الرِّياض رَوْضةً أُنُفا؛ وعلِمَ الإشارةَ الكريمةَ فى معنى فلان والوصيَّةَ بخِدْمته، وما أمَرَ به من مُساعدتِه ومُساعَفَتِه؛ وعنــد وُصُول مشرِّف المولى وقَبْـل وَضْعه من يَده، نوى المملوكُ مساعدةَ المذكورِ على مَقْصَده، فتقــدّم بإحضار غريمه فوجده عن البـــلد غائبا، فانتظَره إلى أن عادَ آئبا؛ فعند وصوله طلَبَــه وأحضَره، وساله عمّـا يدَّعيه عليه خصْمُه فأنكَرَه؛ وطلب الحضُورَ إلى القاضى، وحثَّ على ذلك حتّى أوْهَمَ أنه المُتقاضِى؛ فلمَّـا رأى المملوكُ أنّ حُجّةَ المشفُوع فيه لاتقُوم بصدْق دعواه وحُجج، ولا يظْهَر بها على غريمه إلا من طريقٍ حَرِج؛ بذَلَ فى مُصالحتِهما جُهْدَ الاجتهاد، وما زال يُرشِدُهما إلى طريقِ الرَّشاد، ويدُلُّهما على سبيل السَّداد، ويعرِّفهُما أنَّ التضارُرضَيْر، وأنَّ الصُّلح خَيْر؛ فكل منهما يَهِيم فى وادْ، ويسلُق خصْمَه بالسنَة حداد؛ إلى أنْ تراضَياَ وتوافَقَا، وسلَكَا طريقَ الرِّفق وترَافقَا؛ وصــدّق الخصمُ

خَصْمَه فتصادَقا ، وانفصلا وكلٌّ منهما قد أرضىٰ خِدْنه ، وعن المحاكمة والمحاققة أغضىٰ جَفْنه .

آخر : أيدّ الله سعدَ المولىٰ وأبّده ، وأثّل مَجْده ومَجَده ، وأعانه علىٰ إسداءِ العَوارِف وعَضّده ، وأمدّه من المَسَرَّات بما يُزيل عن الأيام أبَدَه[1] ، وأناله سَعْدا لاتبلغ الأنامُ أمَدَه ، ولا زال بُرْدُ جَدّه من السعادة جَديدا ، ونَجْمُ عدُوِّه آفِلا ونجمُه سَعيدا .

الذى نُحيط به علْمَه الكريم أنّ كتابه ورد فسَرَّى هَمَّ الأنفُس وسَرَّها ، وضاعفَ بما ضاعَ من نَشْره بِشْرَها ، وفاحَ منه شَذًا عند إقباله ، فقيل : قد هبَّتِ القَبُول ، ورَنَّح الأولياءَ ، فقيل : قد هَبَّتْ ريحُ الشَّمال وأُديرتِ الرَّاحُ الشَّمُول ، وأنّ المملوكَ وقَفَ منه علىٰ ألفاظٍ سقَتْه كُئُوسَ سُرُورٍ لاكُئوسَ مُدَام ، وروَتْ له أخبارَ حِلْمٍ لو أُسنِدَتْ إلىٰ سِواه لتُوهِّمتْ أضغَاثَ أحْلام ، وروَتْ أكبادًا أضرّ بها لغَيْبته حَرُّ ظَمَإ وأُوَام ، وبيَّنتْ سِحْرَ البَيان ، وأعربَتْ بلسان حُسْنها عمّا لمُنْشيها بل مُوَشّيها من الإحْسان ، وأغربَتْ فى الفَصَاحة فخلْنا كلَّ كلمة تَنْطِقُ عن سَحْبانَ بلِسَان ، وزهَتْ بيانِعِ ثِمارِ فضْلِها فتزّهتْ كلُّ عين فى بُسْتان ، وعلم إشارةَ المولىٰ فى معنىٰ فلان ، وما أبداه من العِنَاية فى حقّه ، والإيثارِ لصِلَة رِزْقه ، وأنه من الألْزام ، والذين تَجِب معاملتُهم بالإكرامِ والآحترام التّام ، وعند ماشاهدَ المملوكُ كتَابَ من شرَّفه ، وسَمِع ألفاظَه التى بلُطْفها أتحفَه ، بل بِردائها علىٰ البَرْد ألحفه ، تقدّم بإجابةِ سُؤاله ، وترتيبِه فى جهةٍ تليق بأمثالِه ، وقمَّصه من العناية قميصًا لايَبْلىٰ ، وجمع لخاطِره والدَّعة شَمْلا ، وهذا حسَب إشارةِ المولىٰ التى لاتُخالَف ، وأمرِه الذى يقِفُ كلُّ أحدٍ عنده ولا يستَوْقِفُ ولا يُواقِف[2] .

---

(١) أى غضبه فهو مصدر أبد عليه كفرح اذا غضب .

(٢) هذا آخر ماحقه التقديم بعد النوع الرابع وقبل الخامس فتنبه .

كتاب إلىٰ مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين :

حَاشىٰ مِزَاجَكَ مِنْ أَذًى * وكرِيمَ جِسْمِكَ من وَصَبْ!
يَا غَايَةَ المَـأْمُـولِ والـمَرْجُوَّ يا كُلَّ الطَّلَبْ!
مُذْ غِبْتَ عَـنِّىَ لَمْ أَزَلْ * مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ فى نَصَبْ!
جَفْـنِي غَرِيقٌ بالدُّمُـــو * عِ وماءُ صَبْرِى قد نَضَبْ!
واللهِ مـــالِي فى البَقَـــا * ءِ وأَنْتَ نَاءٍ مِنْ أَرَبْ!
فـــتُرىٰ أُبَشَّرُ[1] ســيِّدِى * أنَّ اللِّقَــاءَ قَدِ اقْـــتَرَبْ!

حرسَ اللهُ مِزَاجَ المولىٰ! وأصار العافيَةَ له شِعَارا، والصِّحَّةَ له دِثَارا، ولا زالَتْ ساكنةً فى جَوَانِحه، مقيمةً حَشْوَ أعضائِه المباركةِ وجَوَارِحه .

أصدرها المملوكُ تُعْرِب عن شَوْقٍ يِكلُّ عن وصْفِه اللِّسان، وتَوْقٍ لايُحْسِن وَصْفَه البَنَانُ، ولاعجٍ يَعْجِز عن حملِ بعضِه الجَنَان، ملتَمِسا المواصلةَ بأخباره، وواصفًا مايجِدُه القلبُ من أَلَمِ الشوقِ ونارِه، وشاكِيًا من جَوْرِ أيّام الفِرَاق، وراجيًا أن يُبَشَّر بالإبْلال من مَرَضِه والإفراق، وداعيًا إلىٰ اللهِ بتعجِيلِ أيّام التَّلاق . ومع ذٰلك فلو رُمت أنْ أشرَحَ كلَّ ماأجِدُه من الصَّبابةِ لأسامَتُ وأسْهبْت، بل لو ذكرْتُ ماأُعانيه لألَمَـــه لثقُلَتْ علىٰ خاطِرِه وشَوَّشْتُ[2]، لكن خاطرُ المَوْلىٰ شاهِدٌ بوَجْدِى، وعارِفٌ بمــا تحمَّلتُه من الكآبةِ التى لم يحمِلْها أحدٌ قَبْلى ولا تُحمَلُ بَعْــدِى؛ فيُواصِلُ بأخبارِه، واللهُ يحرُسُه آناءَ لَيلِه وأطرافَ نَهارِه، إن شاء اللهُ تعالىٰ .

(١) مراده فتى أبشر . ولعله تصحيف من الكاتب .

(٢) نقل هــذا الفعل الفارابى وتبعه الجوهرى واستعمله كاتب هذه الرسالة وأنكره بعض الحذاق وقال الصواب هوّشت .

فى معنـــاه :

يامَنْ شَكَا فَشَكَا فُؤادِى حُرْقـةً * لاتَنْطفِى وصَـبابةٌ لاتَبْرَحُ !

وغَدَا سَقِيمَ الجسْمِ يوْمًا واحِدًا * فتَرَحتُ دَمْعا للمَدَامـعِ يجْرَحُ !

وٱزْدادَ شَوْقى نَحْوَ طلعتِـه الَّتِى * أبدًا بُيمْنِ بَهائِها أسْتَنْجِح !

لازِلْتَ فى عِزٍّ وسَـعْدٍ دائمٍ * أيَّامُنـــا ببَقَـــائِه تَتَبَجَّح !

وبَقِيتَ مابَقِىَ الزَّمانُ مُؤيَّدا * تُمْسِى قَرِيرَ العيْنِ فيه وتُصْبِح !

كَلَّلَ اللهُ عافِيَــةَ المَوْلىٰ وحَرَسَــه ، ولا سَلَبه ثوبَ الصِّحَّة بل قَمَّصَه إيَّاه وألْبَسه ؛ وأخدَمَه الأيَّامَ فلا تستَطِيعُ مخالَفــةَ أمْرِه ولا الخُروجَ عن حُكْمِه ، ورزَقَه أن يَملِكَ الدُّنيا بحذَافيرِها وهذا يحصُلُ بعافِيَةِ جِسْمِه .

المملوكُ ينهِى أنه ٱتَّصل به تألُّمُه فشَقَّ ذٰلك عليه، ووصلَ من القَلَق إلىٰ حَدٍّ لم يَصِــلِ المَوْلىٰ والحمدُ للهِ إليه؛ وٱبتهلَ إلىٰ اللهِ فى مُعافاة جَسَدِه، وأن يُعضِّدَه ببَقاء والدِه وولَدِه؛ ويُضاعِفَ تسهيلَ مآرِبِه ومَقاصِــــدِه ، ويرفَعَ كلمتَه وقدْرَه علىٰ رَغْم مَعْطِس شانِيهِ الأبتَرِ وحاسِدِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

جوابٌ إلىٰ من قَنْطَره فرسُه[1] :

ثَبَّت اللهُ قواعِدَ مَجْدِه، وبلَّغه سَـعْدا لاتبلُغه الآمالُ لبُعْــدِه ؛ وأهمىٰ علىٰ محبِّيه سحائبَ جُودِه ورِفْدِه .

(١) جارىٰ فى هذا الفعل اللغة العامية والصواب قطره قال الشاعر :

قد علمت سلمى وجاراتها * ماقطر الفارس الا أنا

أنظر اللسان ج ٦ ص ٤١٨ .

المملوكُ يخدُم بتحيّة أرقّ من النّسيم، ويشكُر مَواهبَه التى مازالتْ تَحنُو عليه حُنُوّ المُرضعات علىٰ الفَطِيم .

ويُنهِى ورُودَ الخبر بأنه كَبَابِه جوادُه عنـد مازَلّت قوائمُه، وأتحفَتْه فضائلُ المولىٰ ومكارِمُه، فآنزعَجَ لذلك وتألّم، وكاد قلبُـه لولا المبشّر بسلامتِـه أنْ يتكلّم، وجوادُ المَوْلىٰ لاسبِيلَ إلىٰ ذمِّه، فإنه أسْمحُ جَواد، ولا آتّهـامِه بالعَجْز، فإنّه عُرِفَ بإتْهام وإنجـاد :

لٰكِنّه نَظَر الأفلاكَ ساجدةً * إلىٰ عُلاك فلَمْ تَثْبُتْ قوائمه!

والمولىٰ أولىٰ مَنْ قابل عُذْر طِرفه بطَرْف القبُول، وآعتمد عليـه دُونَ سائرِ الخُيُول : فإنّ المولىٰ ولله الحمدُ فى صحة دائمه، وسـلامةِ ملازمه، وهـذا هو القَصْدُ والمُراد، والآستبشارُ الذى تفتَرّ له ثُغورُ الثُّغور وتعمُر به البِلاد، جعله اللهُ فى سعدٍ ماله فَراغٌ ولا نَفَاد، ورزقه مادعا به العِبادُ الفاضل والفاضلُ العِباد، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة كُتُب العيـادة

قال فى "موادّ البيـان" : يجب أن تبنىٰ هذه الأجوبةُ علىٰ وُصُول الرُّقعـة، وما صادفت المريضَ عليه من المَرض، وأنها أهدَتْ رَوْحَ المُدُوء، وأركدَت رِيَاحَ السُّوء، وأقبلتْ بنَسيم الإبلال، وتضوّعَتْ بأرَجِ الآسـتقْلال، وبَشَّرت بالعـافية والسّلامه، وآذنَتْ بالصّلاح والآستِقَامه، وأشباه هذا .

ابن نباتة المِصْرى :

شكَر اللهُ آفتِقـادَها وأُنْسَها، وقلَمها وطِرْسَها، وحمىٰ مِنْ عارض الخَطْبِ لامِنْ عارض الخِصْب شمْسَها، ولا أعدمَ الأولياءَ قصْدَها الجميل، ووُدَّها الجليل، وإحسانَ

رسائلها التى كُرُمَتْ فما صَوْبُ الغَمَام لها رَسِيل ، وأمتع الممالكَ بيُمْنِها التى صحّت بتدبيره فليس غيْرَ النَّسِيم عَلِيل .

و يُنْهِى وُرُودَ المشرَّف الكريم فتلقّاه المملوكُ حَبِيبا وارِدًا ، وطبِيبًا بإحسانه وللجسدِ عائدا ، وفَهِم المملوك ما آنطوىٰ عليــه من الصَّدَقات التى مازالَتْ فى فَهْمه ، والمحبةِ الصادقةِ التى ماعَزَبتْ عن عِلْمه ، وما تضَــمَّن من فصولٍ كانَتْ أنفعَ من فُصُول أبِقْراط لمعالجة جِسْمه ، وأينَ أبِقراطُ من بركاتِ كتابِ مولانا الذى طالَعَ منه كتابَ الشِّــفاء علىٰ الحقيقه ، والنَّجاةِ من عُرْوة البأس الوَثِيقه ، وأدْنىٰ وَرَقَته الحمراءَ لرأسه تبرُّكا و إكْراما وقال : نِعْمَ الجُلَّنارةُ المُعَوِّذَةُ من الشَّقِيقه ، وآستطَبَّ حُروفَها فإنها عن أيْدِى الكريم والكَرَامات ، ولَثَمَ العلامةَ وتمسَّــك بالسُّطور فإنها من أســبابِ الصِّحّة والعَــلَامات ، ووافقتْ عيادةُ مولانا مبادِئَ العافيــة وآذنَتْ بالزِّياده ، وصلَح خطُّه الكريمُ عائدا وما كلُّ خطٍّ يصــلُحُ للعِيَاده ، وما تِلكَ الجارحةُ المتألِّمَــةُ إلا يَدٌ أثقلتْها مِنَنُ مولانا فأعْيَتْ وتألَّمت ، ثم أعانَتْها برَكتُه هى والقدَمُ بالحمل العظيم وتقدّمَتْ ، وما بقِيَّة الجَوارِح إلا عيونٌ كانتْ تنتظِر لُطْفَ الله تعالىٰ و برَكَته وقد قَدِمَتْ ، فشُكْرا لها من بركاتٍ تَنْعَمُ بها قبــلَ الجُسُوم أرواحُها ، وأدويةٍ قلبِيَّة تُعالَجُ بها ذواتُ النُّفُوس فكيف أشباحُها ، لا بَرِح جوْهَرُ كلماتِ مولانا يُؤْذِن بالشِّفاء من العَرَض ، وسِهام أقلامه إذا كتبَتْ عائدةً أو جائدةً أصابت الغرَضَ وفوْقَ الغرَض .

وله : تقبَّــلَ اللهُ منه وفيــه صالحَ الأدْعِيه ، وملأ بمَحَاســن ذكره وبِرِّه الآفاقَ والأنْدِيه ، وشكر هِبَاتِه و بركاتِه التى تنْزِل بعارِض الغيث قبل الإستمطار وترفَعُ عارِضَ الألَمِ قبــلَ الأدْوِيه ، تقبيــلَ معترِف بسابق النِّعم ، مقــيمٍ علىٰ صحّة العُبُودية والولاء فى حالَتَى الصِّحّة والسَّقَم .

وينهى وُرُودَ مشرِّف مولانا الكريم على يد فلان عائدًا من جهة العياده ، وعائدًا من جهة الصِّـلات المعتاده ؛ ومُفْتقِدًا لاعَدِم الأولياءُ فى الشِّـدّة والرَّخاء آفتقادَه ، ما كان إلّا رَيْثَما نَشِقَ العليـلُ نَسَماتِه الصحيحه ، وتناوَلَ كأسَ ألفاظه الصّريحه ؛ وإذا بقانُون المِزَاج قد هَمّ باعتِدَاله ، وكتابِ الشفاءِ والنجاةِ قد تسنَّتْ فوائدُ إقبالِه ؛ فتميّز حال الصحّة من المَرَض ، وآستعمل جَوْهَرَ الألفاظ فعَزَم على زَواله العَرَض ؛ وبلّغ الولدُ فلان المشافَهةَ وكلُّ مَقاصِد مولانا مبتَدَأة مبتَدَعة ، والمملوكُ (١) جوابَها وكلُّ أجوبتِه مُنَوّلةٌ منوَّعه ؛ شكر اللهُ عوارِفَ مولانا المتّصِـله ، ورُسَلَ آفتقاده التى منها العائدُ ومنها الصِّله .

وله : فى جواب كتاب عِيادة وارد فى يوم عِيد على يد من آسمه جمال الدين محمود .

شـكَر اللهُ مِنَنَهـا التى إذا أبدتْ أعادَتْ ، وإذا جادَتْ أجادت ؛ وإذا كَرّرتْ الآفتقـادَ حَلَا وإذا تصـدَّتْ لمَوَدّات القلوب صادَتْ ؛ تقبيـلَ مخلِص فى وَلَائه وآبتهاله ، مُقيم على صحة العهد والحمد فى صِحّته وآعتِلاله .

وينهى وُرُودَ مشرِّفة مولانا الكريمة على يدِ الولدِ جمـال الدين محمود متفقِّدا على العـاده ، مكرِّرا لعيادة الإحسـانِ وإحسانِ العياده؛ فقابل المملوكُ بالحمد وارِدَها ، وبعوائد الآعتِداد عائدَها ؛ وفَهِم ماتضمَّنته من تألُّم قلب المـالك على ضَعْف المملُوك ، وقَلَقِ خاطره على بَدَن كَبِيتِ (٢) العَرُوض مَنْهُوك ؛ وأنه كان آبتدأ ضَعْفُ المملوك فتألَّم ، ثم تَلَا خبرُ الصحة فتَـلَا : ولكنَّ اللهَ سَـلَّم ؛ ثم بلغه أنَّ الآلامَ تراجعَتْ ، وموادَّ واصلَتْ بعد ما قاطعَتْ ؛ فحمَلَتْه خواطِرُ الإشفاق علىّ على تكرير العِيَاده ، وارتقاب فَعَلَات الشفاء المستَجَاده ، جاريًا من إحسانه وآفتقاده على أجمل معْهُود ، باعثا مشرِّفته

---

(١) مراده وناول أى أوصل المملوك الخ تأمل .

(٢) فى الأصول "كثيب" وهو تصحيف من الناسخ .

وحاملَها وكلاهُما حسَنُ الحال محُود ، فعند ماوصَلَا أوصَلَا كمالَ العافيه ، وحقَّقتُ أخيِلَةَ البُرْءِ الشافيه ، وما كان المشكُوُّ إلا مادَّة يسيرةً وزالتْ ، وبقيَّةَ ضَعْف تولَّت بحمد الله وبركة مولانا وما توالتْ ، وما عيَّد المملوكُ إلا وشفاءُ الجسد فى آزْدِياد ، والنفس بالوقت وبالمشَرَّفة فى عيدَيْن قائمين بأعياد ، لا زالتْ مِنَنُ مولانا إزاءَ اللَّحْظ حيثُ دار ، ووُدُّه وحِمَاه جامعين فَضْلَ الجارِ والدَّار .

زهر الربيـــع :

لازالَ محروسَ الشِّيَم ، هاطِلةً سحائبُه بالدِّيَم ، مشكورًا بلسانَىِ الإنسانِ والقَلَم .

المملوك يقبِّل يدَه الشريفــةَ مُؤَدِّيا للواجب ، ويواصِلُ بدعاءٍ صالحٍ أصاره إنعامُه ضَرْبَةَ لازِب .

وينهى إلىٰ كريم علمــه وُرُودَ مشرَّفه الذى أبهجَ الأنفُسَ وضاعفَ الصَّبَابه ، وأفنىٰ الصــبْرَ عن مُحيَّاه وإنْ كان ماأفناه أيْسَرَ صُبَابه ، وأنَّه عَلِم منــه إنعامَه وتشوُّقَه إلىٰ المملوك وإلىٰ سَمَــاعِ أخبارِه ، وما أبْداه من شَفَقةٍ أُلِفَت من إحسانه وعُرِفتْ من كريم نِجَاره ، وتُحُقِّقتْ من شِيَمه علىٰ من يَنْأىٰ عن بابه العالى ودارِه ، فاللهُ يحرُس هٰــذه الأخلاقَ التى هى أرَقُّ من المــاء الزُّلَال ، والشمائلَ التى تفعَل بلُطْفها فِعْــلَ الجِرْيال ، والمملوكُ فوالله لايُحصى شَوْقَه إلىٰ الخدْمة العاليــة ولا يَحْصُرُه ، ولا يَقْدِر علىٰ وصف مايُسِرُّه من الأتْواق ويُظْهِره ، إنمــا الأعتمادُ فى ذٰلك علىٰ شاهدَىْ عدْلٍ من خاطره وقلْبه ، وهما يُغْنِيان المملوكَ عن شَرْح وَلَائه بألسنةِ أقلامِه ووُجُوه كُتْبه ، وأما السؤال عن أخبــار مِزَاج المملوك فإنه كان فى ألمٍ دائم ، وسُقْمٍ مُلازِم : لشــدّة المَرَض ، الذى كاد يحتوى علىٰ جَوْهَرِ جســمه والعَرَض ، فمُــذْ وردَ كتابُ المولىٰ آنتعشَتْ قُوَته ، وآشتدّتْ مُنَّته ، وصدَقَتْ فى طلب تنــاوُل الغذاء شَهوتُه ، وترجَّى

الشفاءَ بعدَ أن كان علىٰ شَفَا التَّلَف ، وكان له كالطبيبِ الآسِى فى إزالة مَرَضِ الأَسَا والأَسَف . وقد حصلت للملوك مَسَرَّتان بكتاب المولىٰ وعافِيَتِه ، وفَرْحتانِ بما أهداه إليه من عَفْو إنعامه ومَحْوِ أثَرِ الألم وتعفِيَتِه ، وكلُّ ذٰلك بسعادَتِه .

ومنـــه : ورد المُشَرَّفُ العالى لا زال قَدْرُ مُرْسِله شرِيفا ، وشَرَفُه الباذِخُ يجعل كلَّ شريفٍ مشْرُوفا ، وسحائبُ جُوده تُهْدى إلىٰ الأولياءِ من مكارمه تَلِيدا وطَرِيفا ، وقواضِبُه تَرُدّ [طَرْف] حوادثِ الأيَّام عنه مَطْرُوفا ، وأياديه تبعثُ لمحبيــه تُحَفا ، وهيبتُه تُهْدِى إلىٰ الأعداء خَوْفا ، والدهْرُ بخدمةِ جَنَابه العالى مشْغُوفا ، فوقفَ عليه وُقوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُسَطَّرِه ، متنزِّه فى ربيع ألفاظِهِ وحُسْنِ أسْطُرِه ، وعَرَفَ منه إحسانًا ماقَبِىَ يعْرفه ، وتفضُّلا مازال المَوْلىٰ بمثله يُتحِفُه ، وما أشار إليه من شِدّة إيثاره ، لرُؤْية المملوك وسماعِ أخباره ، والذى يُنْهِيه أنَّ جسده كان قد تَضَاعف ضَعْفُه ، حتّى أتعبَ الألْسِنَةَ وصْفُه ، فلما وَقَفَ من مشَرَّف المولىٰ علىٰ خَطٍّ هو الوَشْىُ المنمْنَم ، وألفاظٍ هى الرَّحيق المُخَتَّم بل الدُّرُّ المنَظَّم ، وسحرٍ هو محَلَّل وكلُّ سحرٍ مُحَرَّم ، أبَلَّ المملوكُ وبَرَدتْ غُلَّتــه ، وبرَأَتْ عِلّتُــه ، وكان كمن آستوفىٰ نصيبَه من النَّصَب ، وأخذ قِسْمَه من السُّقْم والوَصَب ، فسقَاه مشَرَّفُه الصحةَ فى كاس ، وأفاضَ عليه من العافية أنفَرَ لباس .

آخــــر :

وَرَدَ الكِتابُ فَعَمَّتِ الأفْراحُ * وأضاءَ فى لَيْل الأَسَا الإصْباحُ!

وآفْــتَرَّ ثغرُ للزّمان بفَرْحةٍ * ولِلفظه طَرِبَتْ رُبًى وبِطاحُ!

وتَضَوَّعَتْ أرْواحُ طِيبِ عَرْفُها * تَحْيا بِهِ الأجْسامُ والأرْواحُ!

وسَقىٰ سُلَافَ فَصاحةٍ وبَلاغةٍ * ما المِسْكُ عندَ شَمِيمِها ما الرَّاحُ!

شكر اللهُ مِنته، وأخدمه زَمَنه، ومنَحَه من العَيْش أغضّه وأحسَنه؛ وشَرّف ببقائه الدهرَ وشنّف بمدحه أُذُنَه .

المملوك يُنْهِى إلىٰ علمه وُصولَ مشرّفه الذى تنزّهت الأعينُ فى حُسن مَنْظَره ، وبانِعِ ثمارِ لفظه البديع ووَشْيِ أسطُره، وأنه ٱستَنْشق من ريحه أطيبَ نَفْحَه، وتقمّص منه ثَوْبَىْ دَعةٍ وصِحّه ؛ فشفىٰ داءً شَفّ منه جِسْمُه، وزاد لُوروده سُرورُه وزال همُّه؛ وعلم إنعامَ المولىٰ الذى لا يَشُكُّ فيه ، وإحسانَه الذى لا يحصُره لسانُ مادح ولا يُحصِيه ؛ وما ذكره من الألَم المُلِمّ به وٱشتغالِ خاطرِه الكريم لما ألَمّ بجسْمه، والمرضُ بسعادة المَوْلىٰ قد بَقِيَ منه قُلُّه ، وتقلّص بعدَ ما ٱمتدّ ظلُّه ؛ والعافيةُ تتكمّل إن شاء الله تعالىٰ برُؤْيةِ مُحيّاه الكريم ومشاهدَتِه، والمُثولِ بين يدَيْه العاليتين فى خدمتـه .

النـوع الخامس عشر
(فى الذّم)

ذَمُّ بخيل: لأحمد بن يوسف :

كأنّ البُخلَ والشُّؤم صارا معًا فى سَهمه، وكانا قبلَ ذلك فى قِسْمه، فحازَهما بالوِراثه، وٱستحقّ ما ٱستَمْلك منهما بالشُّفعة ، وأشهَدَ علىٰ حِيازتِهما أهلَ الدِّين والأمانة، حتّى خَلَصا له من كلّ مانع، وسَلِما له من تَبِعةِ كلّ مُنَازِع؛ فهو لا يُصيب إلّا مُخطِيا، ولا يُحسِن إلّا ناسيا، ولا يُنْفِق إلّا كارها، ولا يُنصِف إلّا صاغرا .

وفى مثله : وصلَ كتابُك فرأيناك قد حلّيته بزَخارِف أوْصافك ، وأخلَيْتَه من حقائقِ إنْصافك ، وأكثرتَ فيه الدّعاوىٰ علىٰ خَصْمك ، من غير بُرهانٍ أتيتَ به علىٰ دَعْواك وزَعْمك .

ومنـــه : ولو أراد غيرَ ذلك من الأخلاقِ السَّنِيّه، الشريفةِ الهَنِيَّه، لاستوحَش في سُبُلها ، ووقع في مَضَلّة منها ، ولن يجِدَ من سَلَفِه ولا نفسه دليلًا عليها ، ولا هاديًا إليها .

ومنـــه : لأبي العَيْناء :

أما بعـــدُ ، فلا أعلمُ للمعروف طريقًا أحْذَرَ ولا أوعَرَ من طريقه إليك ، ولا مستَوْدَعًا أقلّ زكاءً ولا أبعَـدَ ثمرةَ خيرٍ من مكانه عنـدك : لأنه يحصُلُ منك في حَسَبٍ دَنِيّ، ولسان بَذِيّ، ونَسَبٍ قَصِيّ، وجهلٍ قد مَلَكَ طِباعَك، فالمعروفُ لديك ضائع، والشُّكرعنـدك مَهجور، وإنمـا غايتُك في المعروف [أن] تُحرِزه، وفي وَلِيّه أن تكفُرَ به .

ومنـــه : لمحمد بن الليث :

بكم عَلَنَ الظُّـلمُ، وظهرتِ البِدَع، واندفَنَ الحقُّ، وعَزَّ الفاجر، وظهر الكافر، وفَشَتِ الآثام ، ونُقِضت الأحكام ، واتُّخِذ عبـادُ الله خَوَلا ، وأموالُه دُوَلا ، ودينُه دَخَلا .

ومنـــه : لأبي عليّ البصير :

عَدُوُّك مُعتزِل عنك، وصديقُك على وَجَل منك، إن شاهدتَه عاقَك، وإن غِبتَ عنه حاقّك؛ تسألُه فوقَ الطاقه ، وترْهَقُه عنـد الفاقه ، وإن اعتذَرَ إليكَ لم تعذِرْه، وإن استنصَرَك لم تنصُره ، وإنْ أنعَمَ عليك لم تشكُره ؛ ولا يزيدُك السِّنُّ إلا نقصا ، ولا يُفيدك الغِنَى إلا حِرصا ؛ تسْمُو إلى الكبير، بقَـدْر الصغير ؛ وتسِفُّ للتَّطْفيف لا للتخفيف ؛ تعترِض الناس بالسُّؤال، غيرمُحتشِم من الإملال، ولا كارِهٍ لأن يُنظَر إليكَ بعين الاستقلال ؛ حتى لقد أحرجتَ الأضغان، وقبَّحتَ الإحسان، وزهَّدتَ

فى اصطناعِ المعروف، وإغاثة الملهوف، والناسُ منك بين أسرارٍ تُفشَى، وبوائقَ تُخشَى؛ وشَناعاتٍ وارِدَه، ونَوادِرَ بارِدَه؛ وُدُّك تملُّق، وشكْرُك تملُّق .

ومنـــه : لسعيد بن حميد :

رجلٌ يَعنُف بالنِّعَم عُنفَ من قد ساءَته مجاوَرَتها، ويستخِفُّ بحقِّها استخفافَ من لايَخِفُّ عليه تحمُّلُها؛ ويُقصِّر فى شُكْرها تقصيرَ مَنْ لايعلمُ أنَّ الشكرَ يرتبِطُها؛ ومن كانتْ هذه حالُه فى اختيارِه لنفسه، فكيف أرجو حُسْنَ اختيـارِه لى ؟ ومَنْ كان فى مُدَّة من ابتلاءِ الله بعيدةِ مابينَ الطَّرَفَيْن لاأدرى أينفُــذُ بى الأجلُ إلى أقصاها؛ أم يُقصَّر بى فى أدناها؛ فكيف يتَّسع الصــدْرُ للصبْر عليه ، إنَّ اللهَ لايخافُ الفوتَ فهو يُمْهِله ، وإنه إنْ ماتَ لم يخرُجْ من ســلطان الله جلَّ وعزَّ إلى سلطان غيره فيعاجِلُه ؛ وأنا على خوفٍ من إعجال المَدى عن بلُوغ [منای فأذهب][1] حرِجًا صدْرى، وعلى ثقةٍ منْ الشُّغُل فى الآخرة بنَفْسى عن التَّشفِّى من أهل عَدَاوتى وترَتى ؛ وأحمدُ الله على المِحْنة ، وأسأله تعجيلَ رَوْح النِّعمة، وفُسحةَ العافية .

النـــوع الســادس عشر
(فى الأخبـــار)

قال فى "موادّ البيان" : كُتُب الأخبار وإن كانت من الكُتُب الكثيرة الدَّوران فى الاستعمال فليسَتْ ممـا يُمكن تمثيلُه ، ولا حصْرُ المعانى الوامقة[2] فيه برُسُوم تشتمل عليها، نعَمْ ولا أن تقدَّم له مقدمةٌ تكون توطئةً لمـا بعدها، كما يجرى الأمرُ فى سائر فُنُون المكاتبات الأُخَر التى لاتخلُو من مقدمات تحُلُّ منها محلَّ الأَساس من البُنْيان،

---

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) مراده الواقعة فيه ولعله مصحف عنه تأمل .

والرأس من الجُثمان ؛ لكن المقدّماتُ التى تُوضَـعُ فى الكتب من شَرْطها أن تكون مشتقّةً من نفس معنىٰ الكتاب، ومُنْهِى الخبر لايمكنه أن يَستنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدّمةً تكون بساطا له ؛ وإنمـا يقول : كتبت من موضـع كذا يومَ كذا، والذى أنهيه كذا؛ بل الذى يلزمه أن يتحدّاه بِطاقتِه، ويتحرّاه بجهده، أن يبيّنَ مايطالِـعُ به من الأخبار؛ ويكشِفَه ويوضّحَه ويُفْصِح عنــه ، ولا يقِفَ منه إلّا عنـد الشفاء والإقناع لتتقرّر صورتُه فى نفس من يُنْهِيه إليه؛ اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدبُ العُدولَ عن لفظه الخاصّ به، والإخبارَ عنه بألفاظٍ تؤدّى معناه، ولا يهجُم علىٰ المُخْبَر بمـا يَسُوء سماعُه ، كأن يكون خبرا يرفَعُه إلىٰ سلطانٍ عن عبدٍ له قد أطْلَق فيه ما يَضَع منه ويُسْقِط مَهَابته ، أو نحو من ذٰلك ممـا يثْقُل علىٰ السلطان المنغص منه؛ فإنه ينبغِى أنْ يُعدَل فى هذا وأمثاله عن التصريح إلىٰ التعريض، ومن التصحيح إلىٰ التَّمْريض، وعن المكاشَفَة إلىٰ التَّوْرِية، وأن يأتِيَ بألفاظ تَدُلُّ علىٰ معانِى مايرُوم إبداءه، ويحْرِص [علىٰ] صورة منْزِلة الســلطان وتوقيره عن قَرْع سمعه بمـا يكْرَهه ولا تجوزُ مقابلَتُه به ؛ وأن يقصِــد إلىٰ آستعمال الإيجاز والإطنـاب فى المواضع التى تحتمل كُلًّا منهما، فهذا ما يمكن أن يُتعرَّف من رسوم هذا الباب .

قال : ومن نَفَذ فهمُــه وخاطِرُه فى الصناعة وتدرّب فيهـا ، يكتفِى بهذه اللُّمْعة ولا يَحتاج إلىٰ زيادةٍ عليها .

فى الإخبار بوُقُوع مطر وسَيْل

من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

فالمــاءُ منه يَفِيضُ علىٰ العُمْران، بعد أنْ ضاقَتْ به المَغَايِضُ والغُدْران، فأَتىٰ علىٰ كثير من التِّلال والرَّوابِى ، فضــلا عن الرَّساتيقِ والقُرىٰ ؛ وصار الوادى علىٰ آتِّساع

عَرْضه، وآمتدادِ طُولِه، وسَعة مَصَبّه، وفُسْحة مَغِيضه، لايَفِى بهَضْمه، ولا يقُوم بحَمْله؛ ففاضَ منه ماعَطّل العُمْران ونَسَف الدُّور ومَحَق الزُّروع، فعظُم به البَلَاء، وكَثُر له الجَلاء، وشمِل الفَساد، وعَظُم الخَراب .

صدر كتاب بإخبارٍ عن الخليفة :

كتبتُ، ومولانا أميرُ المؤمنين فى توطُّد من خِلَافته، وتمهُّدٍ من دَوْلته، وعُلُوٍّ من رَأْيه، ونَفاذٍ من كلمته، وعِزٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ مِنْ شَانه؛ ونِعَم سابغةٍ عليه وعلىٰ أهل طاعتــه؛ قالصةٍ عن أعدائه وأهــل مخالَفته، وآستقامةٍ من أطرافِه وثُغُوره، وآستِتبابٍ من أحوالِه وأُموره؛ والحمــدُ لله علىٰ إحسانه حمدًا لايَقِف دُونَ رضاه، ولا يُحِيط بمقداره سِواه .

صدر بإخبــار عن الوزير :

كتبتُ، وحضرةُ الوِزارةِ الساميةِ فى نِعَمٍ مُخْصِــبةُ الأَكْناف، بَعيدةُ الأَطْراف، سادِرةُ الوَبْل، ساحِبةُ الذَّيْل؛ وما أنظُرُ فيــه من أمرِ دَوْلتــه منتظِم، وأُراعِيه من أحوال رَعِيّتــه ملْتئِم؛ وقد وَطَّأ الله له أَوْعارَ السِّياســة والتَّدْبير، ووَقَفه علىٰ جَوادِّ المصلحة فى التقــديم والتأْخير؛ والحمدُ لله حمــدًا يستقِلُّ بحقِّه فيَقْضيه، وبواجبــه فيؤدِّيه، وينْتَهِى إليه عزُّ سلطانه فيُرْضِيه .

صدر بإخبارٍ عن أمير :

كتبتُ، والأميرُ فى عُلُوٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ من شانِه، وظَفَرٍ يُواكِبُ ألوِيَتَه، ونصرٍ يُصاحِب دَوْلَتَه؛ ووافٍ علىَّ من ظِلِّه، وشَمِلَنى من فَضْله، ماسَبَغ لباسُه، وطابتْ أغراسُه؛ والحمدُ لله آعترافًا بنعمتِه، حمدًا يُوجب شُمولَ منّته؛ ويستدْعِى الشكرَ عليها؛ ويقْضى بمَزيدٍ منها .

صدر بإخبـارٍ عن عافيةِ المكتوب عنه :

كتبتُ، وأنا صالحُ الحال ، وقد مَنّ اللهُ تعـالىٰ بالعافيةِ والإنعاش ، والإقالة والا (١) اش، وأعاد إلىَّ الصحةَ بعد نَبْوِها وذَهَابها، والسلامةَ بعد تَجّعِها وإغْرابِها؛ وأسْبَلَ النِّعمةَ بعـدَ الإنْذار ، والتحذيرِ من الإغْترار ؛ مُمَحِّصًا بمـا أَلَمَّ من الآلام عَصَبَ الأيّام ؛ والحمـدُ لله أولىٰ ماتُليتْ به النِّعم ، وطُرِّز به المفْتَتح والمختَتم ؛ حمـدًا يؤمِّن من التغييرِ والتبديل ، ويُعِيذ من الانتقال والتَّحْويل .

ابن أبى الخصال ، فى الإخبار عن زَلْزَلَة عظيمةٍ وقعتْ بمدينةِ قُرْطُبةَ من الأنْدَلُس .

الشيخُ الأجَلّ ، الولىُّ الأكرمُ الأفضل ، أبو فلان ، الذى أطْرفَهُ اللهُ تعـالىٰ بعَجَائبِ الأخبار ، وأذْهَبَ به فى مَسْلَكِ الاتّعاظ ومَنْهَجِ الادِّكار ؛ أبقاه الله آخذًا فى سَنَنِ الانْزِعاج ونَهْجِ الازْدِجار . المخلِصُ له المَحْضَ الناصِعَ من الوَلاء ، ومَعْرفةَ غَرِيبِ الآثارِ وعَجِيبِ الأَنْباء ، فلان .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

أمّا بعدَ حمـدِ الله الذى جعـل عِبَرَه أنْواعا متلَوِّنةً وصُـنُوفا ، وأرسـلَ الآياتِ (وما نُرْسِـلُ بالآيَاتِ إلّا تَخْويفا) . والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمدٍ المصطفىٰ صلاةً طيِّبةً تعْبَق تَأْرِيجًا وتَضُوعُ تَعْرِيفا ؛ وعلىٰ آله وأصحـابِه الطاهرين الذين حَضَرُوا حُرُوبا وشَهِدُوا زُحُوفا ؛ والدعاءِ لسيدنا الإمامِ أميرِ المؤمنـين فى نَصْرٍ عزيزٍ يُؤَمِّنُ مَذْعورا ويُؤَمِّن مَخُوفا ، فإنى كتبتُه ـ كتبَ اللهُ لكم دَعَةً حافظةً وأمَانا ، وتصديقًا بآياتِ الله البيِّنة وبُرْهانا ـ من موضع كذا ، عندَ ماطَرَأ علينا ما كَحَل العُيونَ بقَذَاها ، ومَنَعها لذيذَ كَرَاها ، وأخْفَقَ الضُّلوعَ الحانيـةَ وأقْلق مَصَارِينَ حَشَاها : وهو أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

(١) بيض فى الأصول لهذا الحرف .

ذَكّر عباده إنْ نفعت الذِّكرىٰ، ونبّههم إنْ تنبّهوا ولم يأمَنوا منه كيْدًا مُبيرا ولا مكْرا؛ وذٰلك بزلزال قضىٰ به علىٰ قُرطُبةَ وبعض أعمالها، وملأ نفوسَ ساكنيها من رَوْعاتها وأوْجالها؛ وحالَتْ لذٰلك فى الخوف[1] والارتفاع أقبح حالها؛ حتّى نحَوْا إلىٰ الاستكانة والضَّراعه، وأطاعَ اللهَ مَنْ لم يكُنْ له قبل ذٰلك طاعةٌ؛ وخشُوا بل كانُوا يوقنُون أنّها زَلزلَةُ الساعه . وكان من عظيم آثارها، وكَريهِ إيرادِها وإصْدارِها، انْهدامُ القُبّة العُظْمىٰ فى المسجد الجامع صانَهُ الله، وكانتْ قُبّةً أُسّس علىٰ التَّقوىٰ بِناؤُها، وذهبَ فى المَشارق والمَغارب ذِكْرُها العاطرُ وثَناؤُها؛ وتهدّمَتْ بسبَب ذٰلك الهَدْم دِيارٌ كثيره، وحدَثَ به حوادثُ مُبيره. وأما تلوكة من أعمالها، وكان فيها مَبْنًى من مَبانِى الرُّوم، فإنه غادَرَها قاعًا صَفصَفا، وقَرًّا نَفْنَفا؛ واضْطرَّ ذٰلك الخَطبُ الفادِح، والرَّجُّ القادح؛ إلىٰ أنْ خرج السيّدُ أبو إسحاق وكافّةُ أهل قُرطُبةَ من دِيارهم، وفرُّوا من الموت بأقْواتِهم وأصحابِهم؛ ثم إنّ اللهَ عزّ وجلّ تدارَكَ بالرُّحمىٰ، وكشَفَ تلكَ الغُمّى، جعل الله ذٰلك صَقْلا لقُلوبنا، وتوبةً عمّا سبَقَ من ذُنوبنا؛ وعَصَمنا من جُرمنا المُوبِقِ وحُوبِنا، وأوْلانا وإيّا كم أمْنًا من الغِيَر، وازْدجاراً بما ظَهر من العِبَرْ؛ وجعل كَلَانَا[2] جميلَ الحوادثِ طيِّبَ الخبَرِ، بمَنّه؛ والسلامُ الطيبُ المبارَك ورحمةُ الله وبركاتُه .

من كلام المتأخرين فى الإخبار بقدوم نائب إلىٰ نيابة .

من ذٰلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلىٰ كافل المَمالك الإسلامية مُخبِرًا له بوُصُوله إلىٰ دِمَشْق، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة . وهو بعد الألقاب :

(١) لعله فى الخفض .

(٢) جرى الكاتب فى كلا على لغة من يعربها اعراب المقصور على حد قوله :

نعم الفتى عمدت إليه مطيتى * فى حين جدّ بنا المسير كلانا — شرح الأشمونى

لا زالتْ آفاقُ المَمَالك مُضيئةً بأنوارِ شمسه، هَنيئةً بأُنْس سعادتِهِ وسَعادةِ أُنْسِـه ، سَنِيَّةَ المَقاصد التى قام فى كَفَالتِها بنَفَاسة نَفْسه ؛ ولا بَرِح يستثمِر من خيرِ الدُّنيا والآخرةِ ماقدّم صُـنْعُه الجميلُ من غَرْسه . تقبيلًا يُشافِه به القلمُ القِرطاس ، ويودّ المملوكُ لو شافَه به الخِدَم ساعيًا سعىَ القلمَ علىٰ الرأس . ويُنهِى قيامَه بوظائِفِ دُعاء يُنسِير الحَلَك ، وولَاء يدُورُ بكواكب الإخلاص إدارةَ الفَلَك، وحمْـدٍ تَذْهب به صَفَحاتُ الصُّحُف حيثُ ذَهَب وتَسْـلُك عُقُودُ الأفلاك حيث سَلَك ، وأنّه خدم بهـذه العُبُوديّة عند وُرُوده إلىٰ دِمَشْق المحروسةِ لنيابةٍ كانتْ عنـايةُ مولانا سـفيرةَ أمْرِها ، ومميِّزةَ بِرِّها ، يوم كذا ؛ وسـعادةُ مولانا السلطان ـ خلّد الله مُلْكه ـ تُعلِّمه وتُعلِّمه ، والغيثُ ببركاتِ الدولة القـاهرة يُسايِره ويَقْدُمه ؛ وثَغْرُ المطر يسابِقُ ثغر المملوك إلىٰ مشافَهـةِ الثرىٰ ولَثْمُه ؛ والرعِيّة منه آمنـةٌ فى سِرْبِهـا ، وادعةٌ بظِلَال الأبواب الشريفةِ مع بُعْـدها دَعَةَ الصَّوارِم فى قُرُبِها ، وباكر المملوكُ يومَ الاثنين الذى بُورِك فيه : فى الخَميسـيْنِ من يوم وجَيْش ، وانتصب لمُهِـمّاتٍ علىٰ مثلها فى الخِـدْمة يَطِيب أن يَرفُع لِينُ العَيْش ، مجتهدًا فيما هو بصَدَدِه، مستمِدًّا من رَبِّه عزّ وجل وسعادةِ سلطانه رَشَدِه، معتدًّا نِعَمَ مولانا فيما يأتى[فى] ذلك من أوفىٰ وأوفرِ عُدَده ومَدَده، والله تعـالىٰ يُعِين المـملوكَ علىٰ شُكْرِ مِنَن مولانا الباطنـةِ والظاهره ، والغائبةِ والحاضره، والمُقيمةِ والمسافِره، ويصِلُ نَفْع المملوك بولَائه فى الدنيا والآخره؛ ويُقيم الرعَايا بالأمْن فى كَفَالته التى مابَرِحتْ بعُيُون الأعداء فإذاهُمْ بالسَّاهِره .

الأجوبة عن كتب الأخبار

قال فى "موادّ البيان" : الأخبارُ علىٰ أكثر الأحوال لاأجْوِبةَ لهـا ، وإنمـا هى مُطالَعاتٌ بأمور يُنْهِيها الخُـدّام، وأصحابُ البُرُد إلىٰ السلاطين، ممـا تخرُج أوامرُهم

إلىٰ الوُلاة بمـا تضَمّنته : ممـا يقتضيه كلُّ خبر ينهىٰ من سياسةٍ عامّة ، أو مصلحة تامّة . قال : فأما ما يستعْمِله الإخوانُ فى المكاتبـة بالأخبار التى يكِلُ بعضُهم إلىٰ بعض الإخبارَ بها ، فمنها مايقتضِى الجوابَ ، ومنهـا مالا يقْتضيه . قال : وأجوبةُ مايقتضى الجوابَ منهـا تُفْتَنُّ بحسَبِ آفتنان الأخبار والأغراض التى يجيب المُجيبُ بها ، وهو أيضا ممـا لا يعبَّر عنه بقوىٍ جامعٍ ولا برَسْم رَسْم كُلِّىٍّ ، وإنمـا يرجَعُ فيـه إلىٰ الأمور التى يبتدأُ بها ويُجابُ عنها .

النـــــوع السابع عشر
(المُدَاعبـــةُ)

قال فى "موادّ البيان" : ومَعانِى المُدَاعبَاتِ التىيستعْمِلها الإخوانُ غيرُ مُتناهِيَه ، والأغراضُ التى ينْتظِمُها المِزَاح وتُعـدُّ من طَلَاقة النفس لا تَقِف عند قاصِـيه : لِأنها مســتَمْلاةٌ من أحوالٍ متباينه ، ومأخوذَةٌ من أُمُور غير معيَّنه ، وحصْرُها فى رُسومٍ جامعةٍ يستحيلُ ، وتمثيلُها غير مُفِيد : لأنه لاتعلُّق لبعضها ببعْض ، ولا نِسبةَ بينَ الواحِد والآخَر ، ثم قال : والأحسَنُ بأهل الوِدَاد والصَّــفاء ، والأليَقُ بذَوِى المخالَصة والوَفَاء ، أن يتنَزَّهوا فى المُداعَبة الدائرةِ بينَهُم عن بَذِىء اللفظ ومُفْحَشه ، ومؤلِمِ الخطاب ومُقْذِعه ، ويكُفُّوا اللسانَ واليَدَ عن الإنطلاقِ بمـا يدُل علىٰ خفّة الأحلام ، والرِّضا بالرَّذْل من الكلام اللائقِ بسُــفَهاء العَوامّ ، ويتحرَّجُوا من إرسالِ قولٍ يبْقىٰ وَصْمةً علىٰ [مَدىٰ الأيَّام] إذْ لافرقَ بين جَرْح اللسانِ وجَرْح اليَدِ ، وقد نطَقَ بهذا المَثَلُ : لما فى ذلك من الترفُّع عن دَنَايَا الأُمُور التى لايتنازَلُ إليها الكُرماء ، والتنَزُّه عن المَسَاقط التى لايستعْمِلُها الأُدَباء ، وصيانةِ المُروءة عما يَشينها ويَخْدشُها ، وتَوْقيرها

عما يَنْقُصها ، والأَمْنِ من الجواب الذى رُبّمـا قَدَح فى النفس وأثّر، وأحمى الصدْرَ وأوْغَر؛ وتَقَل عن التَّوادُد إلىٰ التّضادُد، وعن التّـدانى إلىٰ التّباعُد؛ وقد أشارَ إلىٰ ذلك أميرُ المؤمنين علىّ كرّم اللهُ وجْهَه بقوله من أبياته المنسوبة إليه :

فَـرُبَّ كَلَامٍ يَمِضُّ الحَشَـا * وَفِيهِ من الضَّحْك ما يُستَطابُ

مع مُراعاةِ السلامةِ من المُداخَلة المَنْطوِيَةِ علىٰ الغِلّ ، والمُراآةِ المبنيّة علىٰ المَكْر؛ إذا لم يكُنْ للقابلَةِ علىٰ الابتـداء المُمِضّ بالجواب المريض، وغير ذلك ممـا لا تُؤْمَن عاقبتُه، ولا تُحْسَن عائدتُه . قال : ويكون المستعمَل فى هذا الفَنّ ماخَفّ مَوْقعُه؛ ولَطُف مَوْضِعُه ، وهَشّ له سامِعُه، وتلقّاه الواردُ عليه مستَحْليا لِثمـاره، مستَدْعِياً لأنظاره ، ولا يُعـدَل به عن سَمْت الصِّدق، وطريق الحَقّ ، ومَذْهب التحرُّز من المَذْق؛ ويُقتَصَر فيه علىٰ النادرة المستَطْرَفه، والنُّكتة المُستَظْرَفه؛ واللُّمَعْ المستحْسَنَة، والفِقْرة المستَغْربة، دُونَ الإطالة المُمِلّة ، ولا يجعل المَزْحَ غالباً علىٰ الكلام، مُداخلاً لجميع الأقسام : فإنّ ذلك يُفْسِد معانِىَ المكاتبـه ، ويُحِيل نِظامَ المخاطَبـه ، ويَضَع من مَعْناها وإنْ كان شَرِيفا، ويُوخِمُ لَفظَها وإن كان لَطيفا ؛ ويَذْهَبُ بجِـدِّها فى مَذْهب الهَزْل ويُميله عن القَصْد؛ وإلىٰ ذلك يُشير بعضُهم بقوله :

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالجِدّ راحةً * بلَهْوٍ وعَلِّلْهُ بِشَىْءٍ من المَزْح!

ولٰكنْ إذا أعطَيْتَهُ المَزْحَ فلْيَكُنْ * بِمقْدارِ مايُعْطىٰ الطّعامُ مِن المِلْح!

وأنْ يَقتصِد مع ذلك . ثم قال : وينبغى أن يَقْصِد إلىٰ اَستعْمال الدُّعَابة فى المواضع اللائقة بهـا ، والأحوالِ المشابِهة لهـا ، ولا يُودِعَ باباً من الأبواب ، مالا يحتمِلُه من الخطاب : فإنّ القصْدَ فى هذا النّوع من المكاتبات إنمـا هو الإعْرابُ عن الظَّرْف والبَرَاعة ، والإبانَةُ عن طَلَاقة النَّفْس ، والاَنسـلاخُ من تعبيس الفَـدَامة

والجَهَـامة ، ثم عَقَّب ذلك بأن قال : ومَنْ وَقَف من ذلك عند الحدّ الكافِى ، ولَزِم فيـه الأدَبَ اللائق بأهْلِ التَّصافِى ، دلَّ علىٰ ما ذكرناه ، وشهد لمستعْمله بإحراز ما وصَفْناه ، ومَنْ تعدّىٰ ذلك عُدّ من المُجُون والمُلاعبـة ، وحُسِب من رَذَالة الطبع ونَذَالة الخِيم وسَـفَه اللسان ، وغير ذلك من الأمور التى لاتليقُ بالكاتبين الكِرام ، الذين هم خِيَـارُ الأنَام ، ووُلاةُ النقض والإبْرام . وختم ذلك بأن قال : والكاتب إذا كان مهيَّأً الطبع للانطبـاع برسوم الصِّناعة ومُناسـبةِ أوضاعها ، أغناه الوقُوفُ علىٰ هذا القول المجمَل فى آستعمال مايقَع فى هذا البابِ عن تمثيلٍ مفصَّل . ولم يذكر له مثَـالا .

ابن أبى الخصال :

سـيِّدى وواحِدِى الذى أجَمِّل ذكْرَه ، وأُوالِى شُكْره ، لا زال مَغْناكَ رَحيبـا ، وزَمانُك خَصيبا ، ولا زِلْتَ تأخُذ لأُخْراك نصيبا ، عبدُك فلان مؤدِّيهـا ينتجع الكرام ، ويُبارِى فى جَرْيها الأيّام : فتارة يجْمَع ، وأخرىٰ يفرِّق ، وطورًا يُغرِّب ، وطورًا يُشَرِّق ، وأمّ الحضْرة ـ وصل اللهُ حِراسَتَها ، وأدام بهْجَتها ونَفاسَتها ـ والمُلْك بهـا غَضُّ الشّـباب ، أخضَرُ الجِلْباب ، وإحسانُك إحسانُك ، ومكانُكَ من المُرُوءة مَكانُك ، فأوْسعْه قِرًى ، وآملأ عينَيْه علىٰ الشّـبَع كَرىٰ ، أستغْفر الله ، بل أنجِدْه تِبْنا وعَلَفا ، وأرْكِبْه حَزْنا من الأرض ظَلَفا[1] ، ودُونَكَه لم يقلِّب أرضَه بَيْطار ، ولا لجنايةٍ به جَبّـار ، وجُرْحُه جُبَار ، وعنـده كما علمت دعاءٌ مُبَاح ، وثنـاءٌ فى الشكر مَساءً وصَبَاح ، والسلام .

(١) الظلف بالتحريك ماغلظ من الارض فلم يؤدّ [أى لم يظهـر] أثرا . انظر اللسان ج ١١ ص ١٣٤ .

من كلام المتأخريـــن :

كتب بعضُهم إلىٰ كمال الدّين بنِ الأثير ، وقد جاء إليـــه فى بُسـتانه فلم يجِدْه ولا وجد مَنْ أنصفَه .

حضَر المملوكُ البُسْـتان، مسـتَدْنيًا قُطوفَ الإنعام والإحْسان، وآستَمْطر سحائبَ فضله، وهَزَّ إليه بجِذْع نَخْله ؛ فلم تَتَساقَطْ عليــه رُطَبًا جَنِيًا ، فعلِم أنه قد جاءَ شَيْئًا فَرِيًا ؛ فثبّت نَفْسَه مع تَصاعُد الأنفاس ، والطمعُ ينشده :

* مافى وُقُوفِك ساعةً من بَاس *

فانطلق حتّى أتىٰ القريةَ مستطْعِما أهلَها فأبَوْا أن يُضَيِّفُوه، مستَعْطِفا حاشِيَتَه الرقيقَـةَ فأبوْا[1] حاشِيتُه أن يستَعْطِفُوه، وقال كلٌّ منهم : تُطالِبُ بالقِرىٰ كما تُطالِبُ بدَيْنِك! آرجعْ حيثُ شِئْتَ هــذا فراقُ بَيْنِي وبَيْنِك! وعِلمَ أنه لو أقامَ بها جِدَارا لَمَـا أُعطِىَ عليه أجْرا، ولو حاول قِرًى لسَمِع من التوبيخ مالم يَسْتَطِعْ عليه صَـبْرا، فرجع بخُفَّىْ حنين، بعْدَ مَشَاقّ جرَّعتْ كاساتِ الحَيْن، فأينَ هــذه المعاملة ممـا نُشيعه عنه من كريم الخِلاَل، وكيف نَشْكو نَقْصَ حظٍّ وله كمالُ الإحسان وإحْسانُ الكمَال .

الأجوبةُ عن رِقَاع المُدَاعبـــة

قال فى "موادّ البيان" : ينبغِى للمُجيب عن المُدَاعبة أن يشْتَقّ من نفس الآبتداء جوابًا مناسِبًا لهـا ، وأن يبْنِيَه متىٰ أحبَّ الأخْذَ بالفضــل علىٰ المُسامحة ، وآطِّراح المناقشة، والإغضاءِ عمّـا يَمُضُّ إبقاءً علىٰ المودّة، وتحسينًا لقُبْح الصَّديق ، وتعوُّدا لمادةِ الحلم والآحتمال؛ وأن يَنْحَبَ فى الجواب مَذْهبَ الآختصار ، وإيرادِ النُّكَت الرائعة كما فى الآبتداء، علىٰ ما تقدّم .

(١) كذا فى النسخ وهو على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة .

الفصل الثامن[1]

(فى إخفاء ما فى الكُتُب من السِّرّ)

وهو مما تَمَسُّ الحاجةُ إليه عند آعتراض معترِض من عدوّ ونحوه يحُولُ بين المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه : من مَلِكين أو غيرهما حيث لم تُفِد الملَطَّفات لضرر الرَّصْد وزيادة الفَحْص عن الكُتُب الواردةِ من الجانبَيْن، وهو علىٰ نوعين :

النوع الأوّل

(مايتعلّق بالكتابة، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مايتعلّق بالمكتوبِ به)

وذلك بأنْ يُكتَب بشئ لايظْهَر فى الحال، فإذا وصل إلىٰ المكتوب إليه فعل فيه فِعْلا يكونُ مقرَّرا بين المتكاتبين من إلقاء شئ علىٰ الكتابة، أو مَسْحه بشىء، أو عَرْضه علىٰ النار ونحو ذلك .

وقد ذكروا لذلك طُرُقا :

منها — أن يُكْتَب فى الوَرَق بلَبَنٍ حليبٍ قد خُلِط به نُوشَادِر فإنه لاتُرىٰ فيه صورةُ الكتابة، فإذا قُرِّب من النار ظَهَرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يُكتَب فى الورق أيضا بماءِ البَصَل المعْتَصَر منه فلا تُرىٰ الكتابةُ فإذا قُرِّب من النار أيضا ظَهَرت الكتابةُ .

---

(١) أى من الباب الثانى من المقالة الرابعة وهو آخر فصولها فهى ثمانية لاستة وتقدم فى ج ٦ ص ٣٦٥ أنها ستة موافقة للأصول فتنبه .

ومنها — انه يَكتُب فيا أراد من وَرَق او غيره بماء قد خُلِط فيه زاجٌ، فلا تظْهَر الكتابةُ، فإذا مُسِح بمـاء قد خُلِط فيه العَفْص المدقُوق، ظهرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يَكْتُب فى الورق غيرِ المُنَشَّى بالشَّبِّ المحلُول بمـاء المطر، ثم يُلْقيه فى المـاء أو يَمْسَحُه به، فإنه إذا جَفَّ ظهرتْ فيه الكتابةُ .

ومنها — أن يكتُبَ بمَرارة السُّـلَحْفاة فإنَّ الكتابة بهـا تُرىٰ فى الليـل ولا تُرىٰ فى النهـار .

ومنها — أن تأخُذَ الليمونَ الأسـودَ وعُروقَ الحَنْظل المقْلُوَّة بزيتِ الزيتونِ جزْأينِ مُتساوِيَيْنِ وتَسْحَقَهما ناعِمًا، ثم تُضيفَ إليهما دُهْنَ صَفَار البَيْض وتكتُبَ به علىٰ جسد من شئْت، فإنه يَنْبُت الشَّعْرُ مكانَ الكتابة ، وهو من الأسْرار العَجيبة؛ فإذا أُريد إرسالُ شخص بكتابٍ إلىٰ مكانٍ بعيد، فُعِل به ذٰلك ، فإنه إذا نبتَ الشَّعَر قُرِئت الكتابةُ .

الضــــرب الثـانى
(ما يتعـــلق بالخـــطّ المكتوب)

بأن تكون الكتابةُ بقَلَمٍ اصطَلَح عليه المُرْسِلُ والمُرْسَـل إليـه لايعرِفُه غيرُهمـا ممن لعَلَّه يقِف عليه ، ويسمَّى التعمية ، وأهـلُ زماننا يعبِّرون عنه بحَلِّ المُتَرْجَم ، وفيه نظر : فإنَّ الترجمةَ عبارةٌ عن كَشْف المُعمَّى، ومنه سُمِّى المعبِّر لغيره عن لُغَة لايعرِفُها بلُغَة يَعْرِفُها بالتَّرْجُمان، وإليـه يَحِلُّ لفظُ الحَلِّ أيضا ؛ إذ المرادُ من الحلِّ إزالةُ العَقْد فيصيرُ المرادُ بحلِّ المترجَم ترجمـةَ المترجَم أو حَلّ الحل ، ولو عُبِّر عنه بكَشْف المُعمَّى لكان أوفَق للغرض المطلُوب .

ثم مبنىٰ ذلك علىٰ قاعدتين :

القاعدةُ الأُولىٰ — كيفية التعمية .

اعلم أنّ التعميةَ بالنِّسبة إلىٰ كلّ واحد من الناس باعتبار ما يجهَلُه من الخُطوط ، فيعَمَّى علىٰ العربىِّ فى اللغــةِ العربيَّة بالخُطُوط غير العربيــة ، كالرُّوميَّة والعِبْرانيَّــة ونحوهما ، إذا كانت حروفُ تلكَ اللغةِ تُوافِقُ لغةَ العرب ، أو بقلَمٍ مصطلَح عليه علىٰ وَفْق حُروف العربيــة ؛ وكذٰلك يعمَّى علىٰ غير العربىِّ من الرُّومى ونحوه ممن يجهلُ الخطَّ العربىَّ بالقلم العربىّ ، وعلىٰ ذٰلك .

ثم للناس فى التعمية مَذْهبانِ :

المَذْهَبُ الأوّلُ — أن يُكتَبَ بالأقلام القديمة التى ليستْ بمتَداوَلةٍ بين النــاس ممـا لايعْرِفُه إلّا الآحادُ ، إذا وافق ذٰلك القلمُ اللغةَ التى تُريد الكتابة [بها] .

وقد ذكر ابنُ الدُّرَيْهِم أنّ أقلّ اللُّغات المُغْل وهو سـبعَةَ عشَرَ حرفا ، وأطولهَـا الأرْمنِىُّ ، وهو ستةٌ وثلاثونَ(١) حرفا . ثم قال : والتركىُّ عشرون(٢) حرفاً ، وكذٰلك الفارسىّ إلا أنّ فى الفارسىّ ثلاثةَ أحرف ليستْ فى التُّركى ، وهى الهاءُ والفاءُ والدالُ . وفى التركىّ ثلاثة ليست فى الفارسى : وهى الصادُ والطاءُ المهملتانِ والقافُ ، والعِبْرانىّ والسُّريانىّ اثنان وعشرون حرفا [من أوّل أبجد إلىٰ آخر قرشَتْ . واليُونانىُّ والرومىّ القديمُ أربعةٌ وعشرون حرفا](٣) ولهم قلَمٌ آخر ثلاثون حَرْفا ، والقِبْطىُّ اثنان وثلاثون حَرْفا ؛ وذكر أنّ جميع الأقلام مقطَّعةُ الحروف علىٰ اصطلاح أبجــد ، خلا العربىِّ والمُغلىّ

(١) فى هذا الحصر مخالفة لمـا تقدّم فى ج ٣ ص ١٩ من هذا المؤلف فراجعه وحرر .

(٢) قد تقدّم أنه من أربعة وعشرين الى ستة وعشرين حرفا فتنبه .

(٣) زائد فى بعض النسخ .

والسُّريانىّ فإنّ حروفها تُوصَل وتُقْطَع، وقطع السريانى كالعربى، وأقلامُ المتقدّمين المُقَرّرة : كالرُّومىّ والفَرَنجىّ وغيرهما معلومةٌ لاحاجة إلى التمثيل بشىء منها.

المذهب الثانى — أنْ يَصْطَلِح الإنسانُ مع نَفْسه على قـلم يبْتكِره وحُروف يُصَوِّرها، وقد ذكر ابن الدُّرَيْهِم أنّ الناس اختلفَتْ مقاصِدُهم فى ذلك :

فمنهم — من يصطلِح على إبدال حرفٍ معيّنٍ بحرفٍ آخَرَمعيّن حيثُ وقع فى القلم المعروف بالقُمّى، وهو أنهم جعلُوا مكان كلّ حرف من حروف العربية حرفًا آخر من حروفها؛ فجعلوا الكافَ ميما وبالعكس ، والألفَ واوًا و بالعكس ، والدّال المهملة راءً مهملةً و بالعكس ، والسينَ المهملةَ عينا مهملةً وبالعكس، والفاءَ ياءً مثناة تحتيةً و بالعكس، فيكتب محمد «كطكر» وعلى «سهف» ومسعود «كعسار» وعلى ذلك، وقد نظم بعضهم ذلك فى بيتٍ واحد ذكر فيه كلّ حرف تلو مايُبْدَل به، وهو :

كَمْ أَوْ حَيِطٍ صِلاَ لَهُ دَرْ سَعٌ * فى بَزْ خَيِش غَضٌ ثُجِ تَذَفِق

قال : ومنهم — مَنْ يعكِسُ حروفَ الكلمة فيكتُب محمد «دمحم» وعلى «يلع» .

ومنهـم — من يُبـدِل الحرفَ الأوّلَ من الكلمـة بثانِيه مُطْلَقا فى سائر الكلام فيكتب محمد أخو على «حمدم خا عويل» إلى غير ذلك من التميِيزات .

ومنهـم — مَنْ يُبْـدِل الحروفَ بأعدادها فى الجُمّـل ؛ فيكْتب محمد أربعون، وثمـانية، وأربعون، وأربعة ، وتعمل التعميةُ صفةَ محاسَبة .

ومنهـم — من يكتُب عِوضَ عدَد الحرف حُروفا وهو ابلغُ فى التعمِيَة، فيكتب محمد «لى بو لى اج » لأنّ اللام واليـاء بأربعين وهى عدد مالليم الأولى، والبـاء

والواو بثمانية وهى عدد ما الحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهى عدد ما الميم الثانية، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ماالدال، فكأنه قال : م ح م د . وإن شاء أتىٰ بغير هذه الحروف ممـا يتضمن هذه الأعداد .

ومنهـم — من يجعَلُ لكلِّ حرفٍ آسمَ رجل أو غيره .

ومنهـم — من يَضَع الحروفَ علىٰ منازل القمر الثمانيـة والعشرين علىٰ ترتيبهـا علىٰ حروف أبجد : فيجعل الألف للشُّرَطين ، والباء للبَطين، والجيم للثُّرَيَّا ، وهكذا إلىٰ آخرها ، فيكون بطنُ الحوت للغين من ضـظغ . وربمـا آصطُلِح علىٰ الترتيب علىٰ أسماء البُلْدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذٰلك ، أو صُوَر الطير وغيره من الحيوانات، إلىٰ غير ذٰلك من ضروب التَّعامِي التى لايأخُذُها حَصْر. وأكثَرُ أهل هذا الفنّ علىٰ أن يرسُم الحروفَ أشـكالا يخترِعها قلَمـا له مقطَّعـة علىٰ ترتيب حروف المعجم . والطريق فى ذٰلك أن يُثبِت حروف المعجم ثم يُرتِّب تحتَ كل واحد شكْلا لايمـاثِلُ الآخَرَ، فكلما جاءه فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لايقَعُ عليـه غلطٌ، ثم يفصل بين كلِّ كلمتين : إما بخط أو بنقط أو ببياض أو دائرة أو غير ذلك، وأكثَرُ المتقدِّمين يجعلون الحرفَ المشدّدَ بحرفين، والمتأخرون يجعلونه حرفًا واحدا ، وهذه صور حروفِ مترَجَمٍ كان قد وصل إلىٰ الأبوابِ السلطانية من مُناصحِينَ فى بغداد يُقَاس عليه

ا	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص
ه	ظ	لا	س	نم	عد	‡	مد	محام	/		طه	ع	حو

ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	لا	ى
لل	نعر	⫽	٢	٦	ه	بجد	مى	لا	د	هه	لے	لد	8	كم

القاعدة الثانية — حلُّ المعمّى، وهو مقصودُ الباب ونتيجتُه .

ويحتاج المتصدّى لذلك مع جَوْدة الحَدْس وذَكاء الفطرة أن يعرفَ اللغـةَ التى يروم حلّ مترجَمِها ممـا وَقَع به التعميةُ فيها، ومِقدارَ عدد حُروفِها؛ ولا خفَاءَ فى أن حروفَ العربية ثمـانيةٌ وعِشرون حرفًا ، ويجب أنْ يعرِفَ الحروفَ التى تدخُل كلَّ لغة والحُروفَ الممتنعةَ الوقُوعِ فيها كما تقدّم .

ثم المعَوَّل عليـه ، والمنصَبُّ القول إليـه ، فيما هو متَعارَف فى هذه المملكة لغـةُ العرب التى [هى] أشرفُ اللغات وأبذَخُها .

والناظِرُ فى حَلّ مترجَمِها يحتاجُ إلىٰ أصلين :

الأصلُ الأوّلُ — معرفة الأُسّ الذى يترتّب عليه الحَلّ ؛ والذى تمسّ إليـه الحاجةُ من ذٰلك سبعةُ أُمُور :

أحدها — أن يعرف مَقَادير الحروفِ التى تتركّب منها الكلمة .

وٱعلَمْ أنّ كلام العرب منـه ما يُبْنىٰ علىٰ حرفٍ واحدٍ مثـل «ق» من الامر بالوِقَاية، و «ع» من الأمر بالوَعْيِ؛ ومنه مايبنىٰ علىٰ حرفَيْنِ من الأفعال مثل «قُمْ» فى الأمر بالقيام ، و «كُلْ» فى الأمر بالأكل؛ ومن الحروف نحو : مِنْ فِى رُبَّ هَـلْ بَلْ وما أشـبه ذٰلك ؛ ومن الأسمـاءِ المبنيّة نحو : ذِى ذَا مَنْ كَمْ ؛ ومن الضـمير مع حروف الجرّ نحو : بِكَ لَهُ ؛ ومنـه ما يُبنىٰ علىٰ ثلاثةِ أحرُفٍ وأربعـةٍ وخمسـةٍ فى الحُروف والأفعـال والأسمـاء ، ثم تدخُل فيه أحرف الزيادةِ العشرة ، وهى « هَوِيتـه السّمانَ » وثلاثةُ أحرُف أُخَر ، وهى الفاءُ وباءُ الجرّ وكافُ التشبيه

وكافُ الخطاب إلىٰ أنْ تبلُغَ الكلمةُ علىٰ اصطلاح الكُتّاب [أربعةَ] عشرَ حرْفًا ، كقولك مخاطبًا لرجلين [أنشا] جُنَينةً : أفلمُستَتزهاتِكُمَا أعددتماها .

قال ابن الدُّرَيْهِم : وليس فى كلامِ العربِ كلمةٌ رُباعِيّة الأصل أو خُماسيّةُ الأصل ليس فيها حَرْف من الحُروف الذَّلَقِيّة كاللام والنون والواو، والشَّفَوِية كالفاءِ والميم والباء إلا ماشَذَّ مثل «عَسْجَد» من أسماء الذَّهَب .

قال : ونهايةُ الأسماءِ العربيّة قبل الزّيادة خمسةٌ، وشَذَّ(؟) مثلُ عَنْدَلِيب ، والأفعالِ قبل الزيادةِ أربعةٌ، وليس فى القرءان كلمة خُماسيّةُ الأصل سِوىٰ الأسماءِ الأعْجَميّة مثل إبْراهِيم، ولا يمكنُ أن يتكرّر حرفٌ [فى] كلمةٍ واحدةٍ أكثرَ من خمسة كقول القائل مارأينا [كُكَكَا كَكُكَكَكِكُمْ](١) جمع كُكّة وهو المركب الكبير مثل عُكّة وعُكَك، وأربع كافات فى قولك (٢) وكَكُمْكِك .

الثانى — أن يعرِفَ الحروفَ التى لا يُقارِبُ بعضُها بعضا بمعنَى أنها لا تجتمع فى كلمةٍ واحدة .

واعلم أنَّ فى الأحرف مالا يُقارب بعضُه بعضا مطلقا بتقديم ولا تأخير كالثاء المثلّثة ، فإنها لاتقارِب الذالَ المعجمةَ والزايَ المعجمةَ والسينَ والصادَ المهملتين والضاد المعجمةَ، وكذلك الجيم لاتُقارب الطاء المهملة ولا الظاءَ المعجمة ولا الغينَ

(١) بيض له فى الاصول وقد صححناه من المقام ، ولكن لم نعثر علىٰ هـذا البناء فى كتب اللغة ولعله عامىّ تأمل .

(٢) بياض فى الاصل

المعجمةَ ولا القافَ ولا الكافَ، وما وقع من ذلك في الكلام نحو : نُخْجَة وبَرْجَق وجُرْمُوق وجَولَق وجُلَاهِق ومَنْجَنِيق وجَوْقة وجَوْسَق وصَنْجَق وسَنْجَق وجَرْدَق ونحو ذلك فليست عربيـة : لأنه لا يجتمع في كلام العرب جيم وقاف في كلمة واحدة ، وكذٰلك الدال المهـملةُ لا تقارِنُ الظـاءَ المعجمة والذالُ المعجمة لا تُقارن الزاى المعجَمةَ والصادَ والضادَ والطاءَ والظـاءَ ، وما وقع في الكلام من ذٰلك فليس بعربيٍّ ، مثل طبرزذ فارسيٌّ والزُّطُّ نبطيٌّ ، ولا تقارن السينُ المهملةُ الصادَ المهملةَ والضادَ المعجمةَ والظاء المعجمةَ ، ولا تقارن الصادُ المهملة الضادَ المعجمةَ ولا الظاء المعجمةَ ، ولا تقارن الضادُ المعجمةُ الشـينَ والظاء المعجمتين ، ولا تقارن الطـاءُ المهملةُ الظاء المعجمةَ ، ولا تقارن القاف الغين المعجمةَ(1) ولا الكافَ في كلمةٍ أصلية ، وشـذَّ نَغق الغُرابُ وناقة نَغِيق ، ولا تقارن الكافُ الخاءَ المعجمةَ في كلمة أصلية ، ولا تقارن الميمُ البـاءَ الموحَّدة والفاءَ في كلمة أصليَّة إلا في فَمٍ وأصـله فَوَه ، وأما بَمٌّ لأحدِ أوتار العُود فليس بعربيٍّ ، والحروفُ الحَلْقيَّة لا يُقارن بعضُها بعضًا خلَا الهاءَ فإنها تَعقُبها زائدة ، كهاءِ الضمير وهاء التأنيث ، وتعقب العينَ أصليةً كالعَهْد والعَهْر وعَهِر ، وليس في كلمةٍ أصلية حرفانِ حلقيَّان سِوىٰ ما تقدّم من الهـاء ، وقد تعقُب بواسـطةٍ كعَنْهَب وعَبْهر ، أما حَيْهل فمركَّبة ، ولا يجتمع حرفان من هـذه الخمسة : وهي الهاءُ والطاءُ المهملة(؟) والعينُ والغينُ والخاء المعجمةُ في أوّل كلمة سِوىٰ ماذكر ، ولا في أثناء الكلمةِ إلّا الهاء مع العين كهَلَعَ والهاء مع الغين كأَهْيَغ ، والخاء مع الغين كأخيغ(2) ، والهاء مع الخـاء المعجمة في كلمة واحدة وهي هَبَيَّخَة ، ولا تجتمع الهـاءُ

(1) في الأصول العين المهملة وهوغير مستقيم . وفي كتب اللغة ناقة نغيق «أي باعجام الغين» اذا كانت تبغم مرة بعد مرة .

(2) لم توجد في كتب اللغة التي بأيدينا .

الأصليةُ مع الخاءِ المعجمةِ ، ولا الحاءُ المهملةُ والعينُ المهملةُ إلا أن تكون مركّبة مثل هرقصع (؟) والحَيْعَلة .

الثالث — أن يعرف الحُروفَ التى لا تُقارن بعضَ الحروف فى الكلمات إلّا قليلا، كمقارنة السّين المهملة للشّين المعجمة فى شِسْع والشين مع الزاى كشَزْر والراء مع اللام كوَرَل .

[واعلم] أنّ الحرفَ الواحدَ يتكرر فى الكلمة الواحدةِ كثيرًا مثل دَهْدَه وتَهْتَه ونَهْنَه وحَصْحَص وحَبْحَب وحَمْحَم وجَلْجَل وخَلْخَال وشَعْشَعة وزَعْزَع ودَغْدَغ وبَغْبَغ ونَعْنَع وعَسْعَس وزُعَازِع وغَوْغاء وصَحْصَاح وخَوْخ وما أشبه ذلك .

الرابع — أن يعرف ما يجوز تقديمُه على غيره من الحروف وما يمتنِع ، فالثاء لا تتقدّم الشّينَ المعجمة ، والدالُ المهملة لا تتقدّم على زاى[1] ولا صادٍ مهملة ولا طاءٍ مهملة بدليل أنهم لما عَرَّبوا مُهَنْدِز ، أبدلوا الزاى سينا فقالوا مُهَنْدِس وهَنْدسة، والذالُ المعجمة لا تتقدّم الجيمَ ولا السّينَ المهملةَ ولا الشينَ المعجمةَ ولا العينَ المهملةَ ، ومن هنا لمّا عرّبوا الفالُوذَج من الفارسىّ قالوا فالُوذَق؛ والشين المعجمة لا تتقدّمُها الزاىُ المعجمةُ ولا السينُ المهملةُ ولا الصادُ المهملةُ؛ والطاء المهملةُ لا تتقدّم الكافَ فى كلمة أصلية؛ والسين المهملة لا تتقدّم على الدال المهملة إلّا قليلا كسَدَاب[2] ، والذالُ المعجمة لا تتقدّم على الدال المهملة إلا قليلا كقولك فى الأمر ذُدِ الغَنَم .

(١) فى الأصل " على نون " وهو غير مستقيم كما لا يخفى .

(٢) أورده القاموس بالذال المعجمة وتكلم عليه شارحه ثم قال ويوجد فى بعض كتب النبات بالدال المهملة .

الخـامس — أن يَعْرِف ما لا يقَع فى أوّل الكلمات من الحروف كالجيم لا تقع بعدها التـاء المثناةُ فوق ولا الصادُ المهملة ولا الضادُ المعجمةُ ولا الغين المعجمةُ؛ أما الجِصّ فمعرَّب .

السادس — أن يعرِفَ أنه لا يتكرّر حرفٌ فى أوّل كلمة إلاّ من هذه العَشْرة الأحرفِ وهى: الكافُ واللامُ والميمُ والنونُ والتـاءُ المثناة فوقُ والألفُ والبـاءُ الموحّدة والواوُ والقافُ واليـاءُ المثناة تحتُ ويجمعها قولك «كُلُّ مَنْ تابَ وُقِى» وأقلُّها وقوعا كذلك الياءُ .

السابع — أن يعرِف أكثَرَ الحروف دَوَرَانا فى اللُّغة، ثم الذى يليه من الحُروف فى الكَثْرة إلىٰ أقلِّها دَوَرَانا .

وآعلم أنّ كلامَ العرب أكثرُ مايقَع فيـه علىٰ ما دلَّ عليـه آستقراءُ القرءانِ الكريم الألفُ ثم اللامُ ثم الميمُ ثم اليـاءُ المثناة تحتُ ثم الواوُ ثم النُّون ثم الهـاءُ ثم الراءُ المهـملةُ ثم الفـاءُ ثم القافُ ثم الدالُ المهـملةُ ثم الذالُ المعجمةُ ثم اللامُ ألف ثم الحاء المهملةُ ثم الجيمُ ثم الصادُ المهملة ثم الخـاء المعجمةُ ثم الشـينُ المعجمة ثم الضادُ المعجمة ثم الزايُ المعجمة ثم الثـاءُ المثلَّثة ثم الطاءُ المهملة ثم الغينُ المعجمةُ ثم الظاء المعجمةُ؛ وقد جمع بعضهم أحرفَ الكَثْرة فى قوله (اليمونه) وبعضهم يجمعها فى قوله (اليوم هن) وجمع الحروفَ المتوسطةَ فى قوله (رعفت بكدس نخج)[1] وجمع أحرفَ القلّة فى قوله (ططغ صخذز قش) .

(١) تأمل هذا المثال وما بعده وحررهما .

قال ابن الدُّرَيْهِم : وقد يقع فى لفظ غير القرءان علىٰ خلاف ذلك كما يتعمّدون النّظم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة، وقد يكون الكلام ألفاظا قلائل لاتستوعبُ الحروف .

الأصل الثانى – كيفيةُ التوصّل بالحَدْس إلىٰ حَلّ المترجَم :

قال ابن الدُّرَيْهِم : إذا أردتَ حلّ ماتُرجِم لك، فابدأْ أوّلا بعدد الحروف، وكم تكرّر كلُّ شكلٍ منها مرةً فأثبِته أوّلا فأوّلا . قال : وأوّلُ ماتستخرج الفاصلةَ إن كان الذى عمّى قد بالغ فى التعمية، يعنى بإخفاء الفاصلةِ فى ضِمْن الحروف؛ وذلك أنك تأخذ حرفا فتظُنُّ أنّ الفاصلةَ تكون الثانى فتُجْريه علىٰ ماتقرّر من الكلمات من المقادير علىٰ ماتقدّم؛ فإنْ وافق وإلا أخذتَ الثالثَ ، فإن وافقَ وإلّا الرابع وهكذا حتّى يصحّ لك انفصالُ الكلماتِ، ثم تنظر أكثرَ الحروف دَوَرانا فى الكلام فتُقاربُه من الترتيب المتقدّم فى أكثر الحُرُوف دَوَرانا علىٰ ماتقدّم، فإذا رأيت حرفًا قد وقع فى الكلام أكثرَ من سائر الحروف فتظنُّ أنه الألف؛ ثم الأكثر وُقُوعا بعده فتظُنُّ أنه اللام ؛ ويؤيد صحةَ ظنك أن اللام يُدَار فى أكثر استعمالاته تابعًا للالف ؛ ثم تنظر إن كان فى الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف؛ ثم أوّل ماتلقّق من الكلام الثنائيةَ بتقريب حُرُوفها حتّى يصحّ معك شيءٌ منها فتنظر أشكالَها وترقُمُ عليها، وتُجرِى الكلامَ فى الثُّلاثيّات حتّى يصحّ معك شيءٌ منها فترقُم نظائره؛ ثم تجرى الكلام فى الرُّباعيّات والخُماسيّات علىٰ الوزن المتقدّم؛ وكلُّ مااشتبه فاحتمل احتمالين أو ثلاثةً أو أكثر تُثْبته إلىٰ حين يتعيّن من كلمةٍ أخرىٰ ؛ فما انتظم لك من ذلك

تُثْبِت الباقِيَ عليــه ، و إذا رأيت حرفًا قد تقدّم الألف واللام فى أوّل الكلمة فتظن أنه إما باء واحدة و إما فاء و إما كاف غالبا .

قال : وينبغى أن يكتب للمبتدئ أوّلا كلّ كلمة علىٰ حدتها منفصلةً ، وأن يكتب له الشّــعْر دُون النثر ، فإنّ الوزن يساعده علىٰ ظُهور بعض الحُروف ، كهاء التأنيث وتاء التأنيث الساكنة وتاء المتكلّم والساكن الذى لايمكن أن يكونَ إلا أحد حروف العلةِ الدائرةِ فى الكلام وأمثــالِ ذٰلك ، ثم ضرب لذٰلك مثلا بأنك إذا رأيت هــذه الأسطر مكتوبةً بهذا القلم

قال : فينبغى قبلَ كلّ شيء أن يبدأ فيرقُمَ تحت كلّ شكلٍ من هذه الأشكال كم تكرر مرّة أوّلاً فأوّلاً علىٰ هذا المثال

فيجد قد تكرَّر معه هذا الشكل ه أكثر من كلِّ الأشكال بكثيرٍ، فيعلم أنَّه الألفُ فيرقُم عليه فى مواضعه، ثم المكرَّر بعده أكثَرَ من باقى الأشكال هـذا الشكل ʒ فيظُنُّ أنه اللامُ ويحقِّق ظنَّه كونُه تابعًا للألف فى سبعةِ مواضِعَ من الكلام، ثم ينظُر فيجدُ فيـه حرفًا واحدا كلمةً فيظُنُّ أنهـا اللامُ ألف، ثم يجد الكلمة الثالثـةَ ثُنائيَّةً ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه : بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا غلا فلا كلا هلا ولا، ثم يجد هذا الشكل ⵚ الذى مع اللام ألف قد ورد مكررا فى أوّل كلمـة آمتنع أن يكون جيا أو حاء أو خاء أو سينا أو عينا أو غينا أو هاء فلم يبق معنا سوىٰ بلا تلا فلا كلا ولا ، ثم يجد الكلمةَ الخامسةَ ثُنائيَّةً ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا، ثم يترجَّح أنهـا ما أو يا لأن هذا الشكل ⵊ قد تكرر أكثر من باقى الحروف فيكون إمَّا الميمَ أو اليـاء وإن قاربهما النون لكنْ ما ويا أكثر وقعًا فى الكلام من نا فإنها غريبةُ الوقوع، ثم رأينا هـذا الشكلَ المتقدّم قد تلا الشكلَ الذى مع اللام ألف الذى ظننـا أنه أحد هـذه ه ب ت ف ك وفى الكلمة الثلاثيـة المكرر أولهـا ⵔ ⵎ ⵊ بجـرَّبنا الحروف مع المـيم فظهر منهـا لفظة «فقى» لاغير، ثم نظرنا هذا الحرف ⵎ فوجدناه وقع فى أربعة مواضع فى الكلام لاغير، فقلنا إنه الفاءُ : لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثَرَ من ذلك غالبا، فصَحَّ معنا أنَّ الكلمة الثالثـةَ «فلا» والكلمة الخامسة «يا» والحرفَ المفرد «لا» والكلمة الخامسة منـه هى رابد ذلك أننا وجدْنا الكلمةَ الحـاديةَ عشرةَ قد تكرر [فيها] بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر، ولا يمكن أن يتكرَّر حرف فى مثل هذا المكان سوىٰ الميم إذا جَرَّبته علىٰ جميع الحروف، فقلنا : الممَـات

المَمَاح المَمَار المَمَاس المَمَاع ، ورأينا هذا الشكل ⲧ الذى هو آخر الكلمة قد تكرر أكثر من باقى الحروف بعد الألف واللام والباء ، فبقى أن تكون هـــذه ر س ت ع لأن الميم قد صح معنا ولم يكن النونَ فعلّمنا على الميم فى مواضـــعه ؛ ونظرنا فرأينا هـــذا الشكل ⲧ أوّلَ الكلمة الرابعـــة الثُّلاثيّة وقد صح ثانيها اللام وثالثها الميم فجـــرّبناها على هذه الحروف فسقطتِ الراءُ وبقى أحد هذه : سلم تلم علم ؛ ثم نظرنا الكلمة المجارِيَة للمات المـماع المـماس ، فرأينا قبـــل الألف واللام حرفا يكون أحد هذه ب ل و : لأن الفاء علّمناها ؛ ونظرنا هذا الحرف ᗰ قد تبع الألف واللام قبل الياء ، ووجدناه بين البين فى كلمة ثلاثية تكون إحدى هـــذه أبا أذا أسا أنا ، فجرّبنـــا الكلمة على البـــاء والدال والســـين والنون على أن يكون الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط « ســـلم » ثم جَرّبناها على أن تكون العين فحصل منه بعدَ الحروف الأوّل البياع ؛ ثم على أن تكون تاء فحصل منه الثبات السيات فسقط وبقى أبا أسا أنا ؛ ثم نظرنا الكلمة السابعة وهى ثلاثية أوّلُها اللامُ وثانيها هـــذا الحرف ᗰ الذى قبل الياء وثالثها هذا ⲧ الدائر بين العين والتاء قلنا يقوم منها « لست » وسقط الباء والنون ، وإنمـــا لم يقم منه « كسع » لأنه لمـــا سقطت البـــاء سقطت العين من البياع ، فصح أنَّ تلك « السيئات » ونظيرها « المـــات » والثلاثية « تلم » وســـقط علم ، فرقمنا على التاء فى مواضعها وعلى السين فى مواضعها ، فصارت الثلاثية « أسا » فقد صح معنا من الكلمات : « فلا تَلُمْ يا لستُ المـــاتِ لا أَسَا فتى » وبقىَ الحرف الذى قبلَ السيئات ؛ ثم نظرنا الكلمة العاشرة الثُّلاثية فيها ت ى فجرّبناها على الحروف فظهر منها « حتَّى » لايشارِكُها شىء فعلّمنا على الحاء فى مواضـــعها ؛ ثم نظرنا كلمـــةً خماسيةً قد بقى منهـــا الحرفُ

الوسطُ، فجرَّبناها على الحروف فقام من ذلك : « حَسَرات حسكات حَسَنات »
فعلمنا أنه حسنات : لأن هـذا الشكل ـه تكرر أكثَرَ من باقى الحروف بعـد
الألِف واللام والياء والتاء، وقد صَحَّ الميم فأثبتنا النُّون فى موضعها؛ ثم نظرنا هذا
الشكل ـلا فى أوّل كلمتين ثُلاثِيَّتين وقد صح من إحداهما ن ى ومن الأُخرىٰ
ل ى، فجرَّبنا الحرف فوجدناه إمّا عينا أو واوا، فيقوم منهما عنى على ونى ولى
فتعين أن يكون عينا لقلة الحرف عن مرتبـة الواو ؛ ثم نظرنا كلمة سُباعِيَّة قد بقِىَ
منها حرف مجهول، جَرَّبناها علىٰ الحروف فصحت «البَيَانُ» لايشاركها لفظةٌ أخرىٰ،
والحرف هذا الشكل ـه الذى قبلَ السيِّئات فتعيَّنت الباء فى مواضعها؛ ثم نظرنا
كلمةً سُداسِيَّة ثالثُها حرفٌ مجهول ، فجرَّبناها فظهر منها «الكتاب»؛ ثم نظرنا كلمة
خُماسِيَّةقبل التى قبل«هذه»قد بقِىَ حرفُ الوَسَط [منها] مجهولا، فجرَّبناها علىٰ الحروف
فقـام لحيف لمدنف لمصنف فتعينت « لمصنف » بسبب سياق الكلام بلفظ
« الكتاب » ورقمنا علىٰ الصاد؛ ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقِىَ منها رابعُها مجهولا،
فجرّبناها علىٰ الحروف فصَحَّت «المَوْصِل» وصحَّت الكلمة التى بعد لست أنها «أسلو»
فرقمنا علىٰ الواو؛ ثم نظرنا الكلمة الأولىٰ وهى ثنائيـة أولها ص فجرّبناها فصحت
صَدَّ، وإنما كنا أخّرناها لقِلَّة وَقْع حروفها، ثم علَّمنا علىٰ الدال فوجدنا كلمةً ثنائية آخرها
«د» فجرَّبناها علىٰ باقى الحروف التى لم تظهر، فقام منها جد حد قد هد؛ ثم نظرنا
كلمة ثلاثية فصح أوّلها ت وآخرها ل وسطها هذا الحرف ـــ الذى قبل الدال
فى الثُّنائيـة، فجرَّبناها علىٰ الجيم والحاء والقاف والهاء، فسقطت الهـاء وبقى تجل
تحل تخل؛ ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل علىٰ أن الكلمة قبل أسا «قد» والثلاثية
« تَقُلْ » فانتظم الكلام « لاتَقُلْ قَدْ أَسَا » ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقى منهـا

ثانيها مجهُولا ، فجربناها على باقى الحـروف فصحت « عَذُولى » ، فرقمنا على الذال فى مواضعه، ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التى بين «لمصنف» وبين «الكتاب» أولها هذا الشكل ◯ وقدمع منها «ذا» فعلِمنا أنَّها «هذا» ورقمنا على الهاء، ثم نظرنا الكلمة الخُمَـاسيَّة التى بين «ففِى» وبين «منه» قد بقى رابعُها ، فجرَّبناها على باقى الحروف فصحت «الوجه» ، ثم نظرنا الكلمة السباعية التى قبل الأخيرة وقد بقى منها رابعُها مجهولًا، فجرَّبناها فظهر منها الدُّرَيْهِم، فتكمل الحلُّ وظهر الكلام :

صُـدَّ عَنِّى فلا تَـلُمْ يا عَذُولِى * لَسْتُ أسلُو هَوَاهُ حتَّى المَمَات

لا تَقُلْ قَدْ أسا فَفِى الوَجْهِ منه * حَسَنَاتٌ يَذْهَبْنَ بالسَّيِّئات

هذا البيانُ لمصَنِّف هذا الكتاب، عَلِىّ بن الدُّرَيْهِم المَوْصِلىّ .

وعلى مثل هـــذا المِنوال يَجْرِى الحلُّ ؛ ثم انظر إلى حروف هـذا الكلامِ كيف جاءَتْ أحدًا وعِشرين حرفًا ، ونقص منه ثمـانيةٌ لم تُوجَد فيـه ، فإذا نظرتَ إلى ما قررتُ لك من ترتيب وَقْع الحروف كما جاءت فى الكتاب العزيز، رأيتَ الثمـانية الناقصة هى آخرُ الترتيب سواء لم يختلط منها شىء بتقديم أو تأخير، وهـذا اتفاقٌ : لأنه قد يَقع الحرف قريبا من رُتْبته كما تقدّم ؛ وكما تقدّمت الياء على الميم فى هـذا الكلام، والفاءُ على الميم والنُّون، وتقدّمت الهاءُ على الميم أيضا؛ لكن الأصل معرفةُ وَقْع الحروف بالتقريب وتجربةُ الكلمات ، ومقارَبةُ ما دَلّ عليه سِياقُ الكلام .

ولنَضْرب مثالا آخَر : لتتضِحَ أنواعُ الحَلّ .

وهذا مثال آخر أورده ابن الدُّرَيهم، وهو :

فتعتد المكررات من الأشكال كما مرّ وترقمها على هذه الصفة .

٣٢٢	٣٤	١٧	٣٤	٩	٦	٩	٧	٣٤	٧	٣٤

١	٢	١	١	٢	١	٢	١	٢	٣٤	١	١	١

فتنظر فإذا أكثرها وقعا ثم ثم ثم هـذين ثم هـذين ثم هـذا ثم هـذه فتظن أن هـذا الشكل الألف ، وهـذا في اللام : لكونهما أكثر وقعا

من الجميع فلم يوافق : لأنه قد تقرر أن اللام تكون تابعــة للألف فى أكثر المواضع ولم نجده تبعه البتة ، بل وجدنا العكس فعلمنا أن هـذا ﻟﻰ هو الألف وهــذا ﻻ هو اللام ، ورقمنا عليهــما فى مواضعهـــما فإذا الكلمة الثانيـة الثلاثية فيها لامان، بقى حرف آخرها مجهول؛ بجربناها على الحروف فظهرت الهـاء لايمكن غيرها، فعلمنا أنها « لله » ورقّمنا على الهاء فى مواضعها، ثم وجدنا الكلمة الخماسيّة قد بقىَ رابعُها مجهُولا ، بجرّبناها فظهر الها ألهجا ألها الهنـا ، ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كلّ الحروف بعـد الألف واللام ؛ فظننا أنه الميمُ، لكنه يحتمل أن يكون النون ، وسقط البـاء والجيم فوجدناه فى الثنائيات فى كلمتين قبـل الألف؛ فعلمنا أنهـا « ما » فرقمنا على الميم فى مواضـعها، ثم رأينـا الميم قد تبعـه فى الثُّنائيّات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مض مط مع من ، ورأينـا الحرف كثير الوقوع ، وقد تكررتْ ثلاث لفظات، فعلمنـا أنها « من » ورقمنا على النون فى مواضعه ، ثم رأينا هذا الشكل ﻭ أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفى أوائل الكلمات فقلنـا إنه الواو ، ثم رأينا آخر كلمـة قد بقى منها رابعها مجهولا ، بجرّبنـاها فظهر والبهم والتهـم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهم ؛ ثم وجدنا هـذا الحرف ﻳ الذى فيها قد جاء قبل حرف فى الثُّنائيّات وذلك أكثرُ ما وقع بعـد الألف واللام والميم ، فيحتمل أن يكون اليـاء ، ووجدنا قد بقى من كلمة هذا الحرف فصَحّ أن يكون النُّهىٰ وأُخرىٰ أُولى ، فعلمنا أنها الياء ، بجربنـا الحرف معها؛ فظهر بى نى، ووجدنا كلمة خُماسيّة هـذا الحرف ﻳ رابعُها وبعدُ حرفٌ آخر، بجربناها على الياء والفاء فظهر اللبث اللبـد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفج اللفح اللفظ اللفق؛ ثم وجدنا هذا الحرفَ الآخر ﺇﺫ أوّل كلمة بعده لامان وهاء؛ بجربناها فظهر منهـا الحرف الثالث مجهولا ، جرّبناها ظهر

التّمام الحَمَام الذِّمام الشمام الغَمَام الكمام ؛ فرأينا سياق الكلام يدُلُّ على أنه «ظَلَّل الغَمَام» وتعينت تلك اللفظة والأخرى الفَهْم والثنائيــة ، فرقمنا على الفــاء ؛ ثم رأينا الكلمة الثالثة الثُّلاثيَّة ثانيها لام وآخرُها ياءٌ و بعدها «ما ألْهَمَا» فدل سياقُ الكلام على أنها «على» فرقمنا على العين ، فرأينا الرُّباعيَّة التى بعــد «وآله» قد بقى ثالثُها مجهولا ؛ فجرَّبناها فظهرتْ مَعْجِن مَعْدِن فتعين مَعْدِن والثنائية التى بعدها ؛ وقيل «علم كل» فرقمنــا على الدال فى مواضعه ورأينا الكلمة الأولى قد بقى وسطها مجهُولا ؛ فجرَّبناها وظهرت الثمد الحمد الصمد ، فدلَّ سياقُ الكلام أنها الحمْدُ : لأن بعدها «لله على ما ألها» فرقمنا على الحــاء فى مواضعها ، ورأينا الثالث مر‍ن الرُّباعيَّة التى بين على وظَلَّله ، فجرَّبناها فظهرت « الذى » ورأينا الكلمة الخُماسيَّة التى بعد «مُحَمَّد» قد بقى رابعها [مجهولا] ، فجرَّبناها فظهرت «النبى» فرقمنا على الياء فى مواضعها ورأينا قد بقى ثالثُ السُّداسـيَّة التى بعدَ «من» هــذا الشكل ▭ وهو ثالثُ رُباعيَّــة أوّلهــا الألفُ وثانيها فاء وآخرها حاء ، وثانى خماسيَّة أوّلُها واو وثالثها حاء و رابعها باء وخامسها هاء ، فتعينت الصاد ، فالأولى « الصَّواب » والأُخْرى «أنصح» والأخرى «وصَحْبه» وتعينت الثنائيــة التى هى أول البيت الثـانى بعدَ السـطر الأوّلِ « ثم » والتى تليها « صلاة » وتعين السين فى الســلام ؛ فصار ، «ثُمَّ صلاةُ الله والسَّلامُ» وكلمــا تمرّن الإنسان فى ذلك ظهر له أسْرَع بكثرة المباشرة ، ثم تعين رابع السُّداسيَّة التى بعد أفصح مَنْ أنه الضاد ، وتعيــن بسياق الكلام أن بعد بالضاد « فى اللَّفظِ نَطَق » فرقمنا على القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس المِصْراع « خَلَق » فرقمنا على الخاء ، وتعينت الكلمة التى قبــل « مَنْ خُلِق » أنها « خير » فتكملت الأبياتُ وظهر أنهـا :

الحَمْــــــدُ لِلّهِ علىٰ ما أَلْهَــمَا * مِنَ الصَّوابِ وعلىٰ ما عَلَّما
ثُمَّ صــلاةُ اللهِ والسَّــلامُ * علىٰ الّذِى ظَلَّلَـــــه الغَمَامُ
محمدِ النبيِّ خَــيْرِ مَنْ خَلَقْ * أفصَحِ مَنْ بالضادِ فى اللَّفظ نَطَقْ
وآلِهِ مَعْدِنِ كلِّ عِــلْمِ * وَصَحْبِــهِ أُولِى النُّهىٰ والفَهْمِ

قلت : ومما يلتحق بتعمية الخَطِّ المتقــدّمةِ الذِّكرِ ماحكاه ٱبنُ شيثٍ فى مَعالِمِ الكتَابة : أنَّ بعض الملوك أمر كاتبَــه أن يكتُب عنه كتَابًا إلىٰ بعض أتْباعه يُطَمِّنه فيه ليَقْبِضَ عليه عند ٱنتهازِ فُرصةٍ له فى ذٰلك ؛ وكان بينَ الكاتب والمكتوب إليه صَداقةٌ فكتب الكاتبُ علىٰ ما أُمِرَ به من غير خُروج عن شىءٍ من رَسْمه، إلا أنه حين كتب فى آخرِه « إنْ شاء الله تعالىٰ » جعل علىٰ النُّون صورةَ شَــدّة ، فلما قرأه المكتوبُ إليه، عَرَف أنَّ ذٰلك لم يكن سُدًى من الكاتب فأخذ فى التأويل والحَدْس فوقع فى ذِهْنه أنه يُشير بذٰلك إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿إنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ . فأخذ حِذْره، وٱحترز علىٰ نَفْسه، وبلغ الملِكَ ٱحترازُه علىٰ نفسه فاتَّهم الكاتبَ فى أنه ألحقَ فى الكتَابِ شيئا نَبَّهه به علىٰ قَصْــد الملِك ، فأحضره وسأله عن ذٰلك، وأمره بأن يكتُب الكتَابَ علىٰ صُــورة ما كَتَبَ به من غير خُروج عن شىءٍ منــه ، فكتبه ولم يغــيِّر شيئا من رَسْمه حتَّى إنه أثبتَ صُورةَ الشدّة علىٰ النُّون ؛ فلمــا قرأه الملكُ ونظر إلىٰ صورة الشــدّة أنكرها عليه، وقال : ماالّذى أردتَ بذٰلك ؟ قال : أردت قوله تعالىٰ : ﴿إنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ . فأُعْجِب بذلك وعفا عنــه لصِــدْقه إيّاه .

النـــــوع الثـانى

(الرُّموزُ والإشاراتُ التى لاتعلُّق لها بالخطِّ والكتابة)

وهى التى يعبِّر عنها أهلُ المَعَانى والبيان بالاَستعارة بالكِنايَةِ «بالنون بعد الكاف» وقد يعبَّر عنها بالوحْىِ والإشارة .

ومن غريبِ ما وقع فى ذلك ما حكاه العَسْكرىّ فى "الصناعتين" : أنّ رجلا من بَنِى العَنْبر أُسِرَ فى بَنِى حَنْظلةَ ، وفَهِم عنهم أنهم يَقْصِدون الغارةَ علىٰ قومه بَنى العَنْبرِ ، فقال لبنِى حنْظلةَ : إنّ لى حاجةً عنـد أهلى وأُرِيد رسولًا من قومكم أُرْسِـله فيها ، فأجابُوه إلىٰ ذلك بشرط أنْ يخاطِبَه فى حاجتـه بحُضُورهم ؛ فأحضروا له رجُلا فى الليل وقدْ أوقَدتِ العربُ نيرانَهـا ، فأقبل علىٰ الذى أتَوْه به وقال له : أتَعْقِل ؟ قال : إنِّى لعاقلٌ . فقـال : آنظر إلىٰ السماء ونجومِها ، فنَظر ؛ ثم قال : آنظُرْ إلىٰ نِيرانِ العرب ، فنظر ؛ فقال له : ماأكْثَرُ؟ نجومُ السماء أو نيران العرب؟ فقال : إنّ كُلًّا منها لكثير ؛ قال : إنك إذًا لعاقِل ، ثم دفع إليـه حنظلةً وصُرّةً فيها رَمْل وصُرّةً فيها شَـــوْك ، وقال آذهبْ إلىٰ قومى فادفَعْ إليهم هـــذه الحنظلةَ وهاتَيْنِ الصُّرّتَيْن ، وقُلْ لهم يُعْرُوا ناقتِى الحَمْراء، ويُرْحِلُوا جَمَلِى الأوْرَق ، وسَلُوا أخِى الأعورَ يُخْبِرْكم الخَبَر . فقال الحاضرون : ليس فى هـذا ماينكَر، آذهَبْ فى حاجته ؛ فذهب إلىٰ بنى العَنْبر ودفع إليهم ذلك وقَصّ عليهم القِصّـةَ ورجع ، فبعث القومُ إلىٰ أخيه الأعْورِ فحضر ، فأخبروه الخَبَر . فقـال إنه يقول : أتاكُمْ بنُو حنظَلةَ فى عَدّ الشَّوْك والرَّمْل ، وإنّ نيرانَ العرب تُعادُّ نُجُومَ السماء، ويأمُرُكم أن ترْحَلُوا عن الدَّهْناء وانزِلُوا مكانَ كذا ؛ ففعلوا ورحلُوا لوقتهم فصَبّحهم بنُو حنظلةَ فلم يُدْركوا منهم أحدا .

وفى معنىٰ ذلك ماحكاه المَقَــرّ الشّهابِىّ بنُ فضــل الله فى كتابه "التعريف" : فى الكلام علىٰ المكاتبة إلىٰ الأدفونش مَلِك الفَرَنج بطُلَيْطُلَة من بلاد الأَنْدَلُس، كان خبيثَ النيــةِ ، سَيِّئَ المقاصد لأهل الإسلام ؛ وأنه أرسل مَرّة إلىٰ الملك النــاصر محمد بن قلاوون : صاحب الديار المِصْرية هــدية فيها سَيْفٌ وثوبٌ بُنْدُقِىٌّ وطارقةٌ مستَطِيلةَ تُشْبِه النّعش كأنه يقول : أقتُلُك بهذا السَّيف، وأُكَفِّنك فى هذا الثوب، وأحمِلُك علىٰ هذا النَّعش . قال : وكان الجوابُ أنْ أرسل إليه حَبْلا أسودَ وحَجرا، أى إنه كلب يُرمىٰ بهذا الحَجَر أو يُرْبَط فى هذا الحبل .

قلت : وممــا وقع من ذلك فى زماننا أنه فى الدولةِ الظاهِرِيّة «بَرْقوق» وتمرلنك يومئذ ببلاد العِراق يُغَاوِر الممــالكَ الشامية لقصد الإستيلاء عليها ورَدَ عليه كتابٌ من المملكة الحلَبِية فيــه : أنه وقع بتلك البلادِ سَيْلٌ عظيم ساقَ جملةً من الأُسْد والنُّمورة والحَيّات، وأنه دَفَع حيّةً عظيمةً سَــعةُ رأسها بقَدْرِ قَوْس ، وقرئ الكتابُ بحضرة السلطان، وحملُوا ذلك علىٰ ظاهره : من أنّ المراد حقيقةُ السيل، وأنه لقوّته ساقَ تلكَ الحيّةَ والسِّباع وغيرها، وشاع ذلك بينَ الكافّة من الأمراء وأهل الدولةِ وسائر الرعِيّــة ، ومضىٰ الأمر علىٰ ذلك ؛ ثم ظهر أنّ المقصودَ بذلك السيلِ وما فيــه هو تُمُرلَنْك وعساكره ؛ وأنه كُنِيَ بالحيــة العظيمة عنه نَفْســه ، وبالسِّباع والحيّات عن عساكره .

ومن لطيف ماوقع فى ذلك أنه ورد علىٰ السلطان الملكِ الناصرِ «فَرَج بن بَرْقُوق» فى أواخر دولته كتابٌ عن صاحب تُونُس من بلاد المَغْرِب فى آخره خطابا للسلطان (وعلىٰ إحسانِكم المُعَوّل ، وبيتُ الطُّغرائِىّ فى لاميّــة العجم لايُتأوّل) فسألنى بعضُ أعيان ديوانِ الإنشاء عن المراد من ذلك ولم يكن الكتاب متضمّنا لغير الوصية

علىٰ حُجّاج المَغَـاربة ، وكان رَكْب المغاربة قبلَ تلك الحَجّـة قد عرضَ لهم عارضٌ من عَرَب دَرْب الحجاز آجتاحُوهم فيه ، وقتلوا منهم خَلْقا كثيرا ، ونهبُوا منهم أموالا جَمّةً ، فعرضتُ ذٰلك علىٰ أبيات اللامية ، فلاح لى أنه يُشير إلىٰ قوله فيها :

فقُلْتُ أرْجُوكَ لِجُلَّى لتنصُرَنِى ۞ وأنتَ تَخْذُلُنِى فى الحادِثِ الجَلَلِ

والجُلّى بضم الجيم هى الأمْرُ الجليل العظيمُ ، والجَلَل بفتح الجيم فى اللُّغة من أسماء الأضـدادِ ، يقع علىٰ الشىء الجليل وعلىٰ الشىء الحقير ، كأنه يقول : أنا كنتُ أرجُوك للأمور العِظام لتنصُرَنى فيها فخذَلْتنى فى هـذا الأمر الخَسيس ، وهو الأخذُ بثأر حُجّـاج بِلادى ممن آعتدىٰ عليهـم من عرب بِلادِك : فخاب ظنِّى فيما كنتُ أرجُوه فيـك ، وأؤمِّله منـك ، وأشار بقوله لايُتَأوّلُ إلىٰ أنه لايحملُ الجَلَل فى قول الطُّغرائىّ علىٰ الشىء الجليل كما قال الصَّـلاحُ الصفدىُّ فى شرح اللاميـة ، بل علىٰ الأمر الخَسيس : لأنه هو اللائقُ بالمَقَام .

وآعلم أنَّ مثل هذه الأمورِ تحتاجُ إلىٰ قوة ذكاء وآحتـدام قريحة من الذى يَقَع منـه الرمزُ ، وإلىٰ قوة حَدْس من الذى يحاوِلُ إدراكَ المَقْصَد من تلك [المَعَامِى] كما يقع فى الألغاز والأحاجِىّ للُّغز ، والمتصدّى لحَلِّ ألغازه والجواب عنه ، والله تعالىٰ هو الهادى إلىٰ سبيل الصَّواب .

المقـالة الخـامسـة

في الوِلَايات ، وفيها [أربعـة](١) أبواب

البـاب الأوّل

في بيـان طَبَقاتها وما يقعُ به التفاوُتُ ، وفيـه ثلاثةُ فصول

الفصـل الأوّل

في بيان طَبَقات الوِلَايات، وهي على ثلاثِ طَبَقات

الطبقةُ الأُولىٰ — الخِلَافة ؛ ولِمَا يكتب في وِلَايتها طريقان : إمَّا عهدٌ من الخليفة الأوّل، وإما بَيْعةٌ من أهْل الحَلِّ والعَقْد إن لم يُوجَدْ عهـدٌ من الخليفة قَبْلَه على ماسيأتى بيانُه إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانية — السَّلْطنة ؛ ولِمَا يكتَبُ في ولايتها طريقان : أحدُهما العهْـدُ من الخليفة، والثاني العهْدُ من السلطان قَبْلَه . قال في " التعريف " : أمَّا مَنْ قام من المُلُوك بغير عهْد، فلم تجر العادةُ أن تُكتَبَ له مبايَعةٌ .

الطبقة الثالثةُ — الولاياتُ عن الخلفاء والمُلُوك وما يُكتَبُ عن السلطان بالديار المصريَّة في أقطار المملكة بمصرَ والشامِ والحِجازِ : ممَّا يكتَبُ من ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية .

وهي على خمسـة أنواع :

(١) بياض في الأصل والتصحيح مما تقدم في ج ١ ص ٢٤ من هذا المؤلف .

النـــــوع الأوّلُ

(ولاياتُ أربابِ السُّيوف ؛ وهم علىٰ ثلاثة أصناف)

الصِّنف الأوّل — النُّوّاب من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وغالِبُ مَنْ يكتَب له منهم بالبلاد الشاميـةِ ومُضافاتها ؛ كنُوّابِ السلطنةِ بدِمَشْق وحَلَب وطَرابُلُس وحَماةَ وصَـفَدَ والكَرَك ، ومُقَدَّمى العسـكر بغَزّةَ وسِيسَ ؛ ونُوّابِ القِلاع بالمُدُن العِظام ذواتِ القِلاع الرفيعةِ القَـدْر : كالنائبِ بقلعة دِمَشْقَ ، والنائبِ بقَلْعة حَلَبَ ، والنائبِ بقَلْعة صـفَدَ . أمّا طرابُلُسُ وحَمَـاةُ ، فليس بهما قلعـة ؛ وكذٰلك النِّيابات الصِّغارُ المُضافةُ إلىٰ القواعد الكِبَار : كالقُدْس الشريف وحِمْص ومِصْياف من مُضَافات دِمَشْق ، وقلعةِ المسلمين والرَّحبة والبِـيرةِ والرُّها وشَيْزَر وعَيْنتاب وبَهَسْنىٰ ومَلَطْيَةَ وآياس والأَبُلُسْتَيْن وأَذَنة وطَرَسُوسَ من مضافات حلَبَ ، واللّاذِقيّة وحِصْـن عَكّار من مضافات طرابُلُس وما يجرى مَجْرىٰ ذلك ، علىٰ ما سـيأتى بيانُه مفصلا فى مواضِعِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

أمّا مادُونَها من النِّيابات فإنَّ نُوّاب السلطنة بالمملكة يستقِلُّون بالتولية فيها .

قلت : والضابِطُ فى ذٰلك أنّ كلّ نيابةٍ كان نائبُها تَقدِمةَ ألْف فولايتُها عن السلطانِ بمرسوم شريفٍ من ديوانِ الإنشاء بالأبواب السـلطانية ؛ وكلّ ولايةٍ كان نائبُها جُنْديًّا أو مقـدَّمَ حَلْقة فولايتها عن نائب السلطنة بالمملكة التى هى مُضافةٌ إليها بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بهـا ؛ وكلّ نيابةٍ كان نائبُها أميرَ طَبْلخاناه أو عشرة ربّمـا وَلّى فيها السلطانُ وربما ولّى فيها نائبُ السلطنة ، إلا أنّ توليةَ السلطان لنُوّاب الطبلخاناه أغلَبُ ، وتوليةَ نُوّاب السلطنة لنُوّاب العشرةِ أغلَبُ .

أمّا الديارُ المصريةُ فإنه كان يُكتَبُ فيها أوّلًا لوُلاة الوجهين : القبـلىّ والبَحْرىّ جَرْيا علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى زمَن الخُلَفاء الفاطميّين، وكذٰلك والى الإسكندريّة قبل أن تستقرّ نيابةً ، ووالِيَا الوُلاة بالوجهين قبل أن يستقرّا نيابتَيْن ، فى جماعةٍ أُخرىٰ من أرباب الوظائف : كالنائب الكافل وأتابك الجُيُوش كإسْتادَار وأميراخُور ومقدّم المماليك ووالِى مصرَ والقاهرةِ؛ ثم صارت الكتابةُ لذوِى الوظائف من أرباب السُّيوف قاصرةً علىٰ النـائب الكافل إذا كان موجُودا والنُّوّاب المستَجِدّين بالإسكندرية والوجهين : القبلىّ والبحرىّ؛ وبطل ماعَدَا ذٰلك ممـا كان يُكتَب، وكأنّ المعنىٰ فيه القُربُ من مَقَرّة السلطان؛ والكتابةُ إنمـا تقع فى الغالب مع البُعْد : لتكونَ حجـةً للمتولىّ علىٰ بُعْـد المَدىٰ ، ولا ينتقضُ ذٰلك بمـا يُكتَب للخلفاء والملُوك فى الحضرة، فإنّ ذٰلك من الأمور العامّة التى يُخافُ آنتقاضُها أو جُحودُها، إذ مثـلُ ذٰلك لايجوز فى الولايات عن السلطان : لأنه متىٰ شاء عزَلَ مَنْ ولّاه .

الصّنف الثـانى — ولايةُ أُمَراء العُرْبان، وهٰؤُلاء لاحظّ لهم فى الكتابة بالولاية بالديار المصريّة الآنَ؛ وربّمـا يُكتَب لأمرائهم بالمملكة الشامية : كأمير آلِ فَضْل، وأمير آلِ مِرا ، وأمـير آل عَلِىّ ، ومُقَـدّم جَرْم ، وكذٰلك أمـيرُ مكةَ المشرّفـة ، وأميرُ المدينـة النبوِيّة علىٰ ساكنهـا أفضلُ الصلاة والسـلام ، والتحية والإكرام ، والنـائبُ بالْيَنْبُع من البلاد الحجازيّة . والمعنىٰ فى آختصاص مَنْ بَعُـد منهم ماتقدّم فى الكلام علىٰ أرباب السُّـيوف مع ضَـعْف شأن عَرَب الديار المِصْريّة وعـدمِ الإهتمام بأمرهم .

الصنف الثالث — ولايةُ المُقدّمين علىٰ الطّوائف : كمقدّمى التّركْمان، والأكراد، والجَبَليّة بالبلاد الشاميـة، وأتابِك طائفةِ الإسماعيلية بقِلاع الدّعْوة ، وحاكم البُنْدُق

ونحوهم ؛ وهذه الطوائفُ ممّن يكتَبُ له إلىٰ الانَ ؛ أما حاكم البُنْدُق ، فإنه لم يُعْهَد له كتابةٌ من ديوان الإنشاء بمصر والشام . علىٰ أنَّ المقرَ الشهابيّ بنَ فضل الله قد ذكر وصيّته فى " التعريف " ولعلّه ممن كان يكتَب [له] فى زمانه أو قبلَه ثم تُرِكَ ، وإنما يكون ذلك بحسَب اعتناءِ السلطان بشأن البُنْدُق وعدمِه كما فى لباس الفُتوّة ، وأنه رُبّما اعتنىٰ به بعضُ الملوك فكتب له ثم تُرِكَ .

النــــوع الثـانى

(ولايةُ أرباب الأقلام ، وهم صنفان)

الصّـــنف الأوّل

(أربابُ الوظائف الدينيّـــة ، وهم علىٰ ثمانيةِ أضْرُب)

الضرب الأوّل — أكابرُ القُضـاة بأقطار المملكة : كقُضَاة القُضـاة بالحَضْرة السلطانيــة بالدّيار المِصرية وثغر الإسكَنْدرية ، وكذلك قُضاة القُضـاة بدِمَشْق وحَلَب وطرابُلُس وحَماة وصَـفَد والكَرَك ، وقُضاةُ العَسْـكر بالديار المِصْرية ؛ أما القُضَـاة بالنِّيابات الصّـغار المضافاتِ إلىٰ دمشْـق وحلَب ونحوهمـا فولايتُهم إلىٰ قُضاة القُضاة بهـا ، وقُضاةُ العسكر بدِمَشْق وحلَب ومافى معناهمـا إلىٰ النُّوّاب بتلك الممـالك .

الضرب الثـانى — المُفْتُون بدار العَدْل بالديار المصرية ؛ أما المُفْتُون بدار العدل بالممـالك الشاميّة فولايتُهم إلىٰ نائبِها .

الضرب الثـالث — أكابرُ المحتَسِبين : كمحتَسِبَىْ مصر والقاهرة ؛ أما الممـالك الشاميّةُ فلا يُولَّى فيها إلا نُوّابُها .

الضرب الرابـع — أكابر المدَرِّسين فى عامّة العُلوم بأماكنَ مخصوصةٍ : كالزّاوية الخَشّابيّة بالجامع العَتِيق بمصر، والمدرسةِ الصَّلاحية بتُرْبة الإمام الشافعىّ بالقَرافة، ونحو ذلك بأقطار المملكة من مُدَرِّسى الفِقْه والحديثِ والتفسيرِ وغير ذلك من العلوم الدّينيّـــة .

الضرب الخامس — أكابرُ الخُطَبـاء بجوامعَ مخصوصـةٍ بأقطار المملكة : كجامع الناصِرىّ بقلعة الجَبَل، والجامعِ الأُمَوىّ بالشام ونحوِهما .

الضرب السادس — وُكَلاءُ بيتِ المـال بالدِّيار المِصرية وغيرها .

الضرب السابـع — المتحدِّثون على الوظائف المعتَبَرة : كنِقَابة الأشْراف، ومَشْيَخة الشُّـيوخ، فـما كان بالدِّيار المِصرية فولايتُه من الســلطان، وتوقيعُه من ديوان الإنشاء، وما كان منها بالممـالك الشاميّة فولايتُها إلى نُوّاب السَّلْطنة بها .

الضرب الثـامن — المتحدِّثون على جِهات البِرّ العامّة المصلحةِ: كنظر الأحْباس وأنظار البِيمارسْتانات ونحوها : فـما كان منها بالدِّيار المصريّة : كنَظَر الأحْبـاس والبِيمارسْتانِ المنصُورىّ وما أشبه ذلك فتوليتُه(١) إلى نُوّابها ، مالم يكن لها ناظرٌ خاصٌّ فيكون ذلك مختصًّا به .

---

(١) لعله فتوليه من السلطان، وتوقيعه من ديوان الانشاء، وما كان منها بالممالك الشامية فتوليه الخ كما لايخفى تأمل .

الصـــنف الثـانى

(أرباب الوظائف الدِّيوانيـــة)

ودَواوِينُها علىٰ ثلاثة أضـــرُب :

الضرب الأوّل — دَواوِينُ المـال؛ وأربابُ الخِدَم بها ممن تُكتَب وِلاياتُهم من ديوان الإنشاء : إمَّا ناظِر، أو وَزِير، أو صاحبُ دِيوان، أو شهادةٌ، أو آستيفاءٌ، فأمّا الوِزارة فلا يُصَرَّح بها إلّا للوزِير بالأبواب السُّلطانية، وربما صُرِّح بهـا لوَزِير دمشْقَ إذا وليِها من آرتفعَتْ مرتبَتُه، وإلّا عُبِّر عنه بناظِرِ المملكة .

وأما النَّظَر، فكنظر الدَّواوين المعبَّر عنـه بنظَر الدَّوْلة، ونَظَر الخـاصّ، ونَظَر الخِزَانة الكُبرىٰ، ونظَر البُيُوت «الحاشِيَة» ونظر بيْتِ المـال، ونظر الإِصْطَبْلات السلطانية ، ونظرِ دار الضِّـيافة والأسْواق ، ونظر خَزائِنِ السِّـلاح ، ونظر البَهَـار والكارِمِيّ ، ونظَـر الأَهْراء، ونظر المَوَاريث الحَشْرِيَّة، ونظر ثَغْر الإســكَنْدريَّة المحروس؛ وغير ذٰلك من وظائف الأنظار بالديار المصرية . وكذلك نظَرُ المملكة بدِمَشْقَ إذا لم يُصَرَّح لمتولِّيه بالوِزَارة، ونظر المملَكَة بحلَبَ،ونظر المملكة بطَرَابُلُس، ونظر المملكةِ بحَمَاةَ ، ونظر المملكةِ بصَفَد ، ونظر المملكة بِسِيس، ونظر المملكة بغَزَّة، ونظر المملكة بالكَرَك .

وأمّا صَحَابةُ الدِّيوان، فكصَحَابة دِيوان الجَيْش وصَحابة ديوان الخاصّ ، ونحو ذٰلك .

وأمّا الشَّهادة ، فكشَهادة الخِزَانة الكُبرىٰ، وشهادة خِزانة الخاصّ ونحوهما .

وأمّا الاستِيفاء ، فكاسْتيفاء الصُّحْبة ، واستيفاءِ الدّوْلة ، واسـتِيفاءِ الخاصّ ، ونحو ذلك . ولاحَظّ لغيرِ النُّظّار من دَواوين الأموال بالممالك الشاميّة : من صاحب ديوانٍ ولا شاهدٍ ولا مستَوْفٍ ، فى الكتابة بالوِلاية من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ، بل وِلايتُها من نُوّاب الممالك الشامية بتواقيعَ من دَواوين الإنشاءِ بها .

الضرب الثـانى — دَواوينُ الجُيوش بالديار المصرية وغيرِها من الممـالك الشاميّـة . وأربابُ الخِدَم بها لايخرُجُون عن ناظرٍ ، وصاحبِ ديوانٍ ، وشاهـدٍ ، ومسـتَوْفٍ .

والذين يُوَلَّوْنَ عن السـلطان منهـم [و] تُكْتَبُ تَوَاقِيعُهم من ديوان الإنشـاءِ الشريف ناظِرُ الجيش بالأبوابِ السـلطانية ، وناظِرُ الجيش بدِمَشْقَ ، وناظِرُ الجيش بحلَبَ ، وناظِرُ الجيش بطرابُلُسَ ، وناظِرُ الجيش بحَمَـاةَ ، وناظِرُ الجيش بصَفَدَ ، وناظرِ الجيش بغَزّةَ ، وناظِرُ الجيش بسِيسَ ، وناظِرُ الجيش بالكَرَك ، وصاحبُ ديوان الجيش بالأبواب السلطانية ، والشُّهودُ والمستوفُون بها ؛ أمّا مَنْ عدَا هؤُلاء : من نُظّار الجيش وأصحابِ الدواوين والشُّهود بالممـالك الشامية ، فوِلايتُهم إلىٰ نُوّاب السـلطنة بها .

الضرب الثالثُ — دَواوينُ الإنشاء ؛ وأربابُ الخِدَم بها لايخرُجُون عن كاتبِ سِرٍّ ، وكاتب دَسْتٍ ، وكاتبِ دَرْج .

والذين يُوَلَّوْن عن السلطان من كُتّاب هذه الدّواوين وتُكْتَب تواقيعُهم من ديوان الإنشاء السـلطانىّ صـاحبُ ديوانِ الإنشاء بالأبوابِ السـلطانية ، وصاحبُ ديوان الإنشاء بدِمَشْقَ ، وصاحبُ ديوان المكاتبات بحلَبَ ، وصاحبُ ديوان المكاتَبات

بطرابُلُس ، وصاحب ديوان المكاتَبات بحماة ، وصاحبُ ديوان المُكاتَبات بصَفَد ، وكاتبُ الدَّرْج بسِيس ، وكاتبُ الدَّرْج بغَزَّة ، وكاتبُ الدَّرْج بالكَرَك ، وكاتبُ الدَّرْج بالإسكَندريّة ، وكُتّابُ الدَّسْت وكُتّاب الدرج بالأبواب السلطانية ؛ أما كُتّاب الدَّسْت وكُتّاب الدَّرْج بالممالك الشامية فإلىٰ نُوّابها بتواقيعَ من دَواوين الإنشاء بها .

النوع الثالث

(وِلاياتُ أربابِ الوظائف الصِّناعيّة)

كالأَطِبّاء ، والكَحّالين ، والجرائحِيّة ، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم من سائرِ أربابِ الوظائف التى هى من تَتِمّة نظام المُلْك ؛ فما كان منها بالأبوابِ السلطانية فولايتُه عن السلطان بتَوْقيع من ديوان الإنشاءِ السلطانى ؛ وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلىٰ نُوّاب السلطنة بها .

النوع الرابع

(ولاياتُ زُعَماء أهل الذِّمّة . وهى ضربان)

الضرب الأوّلُ — وِلايةُ بَطارِكة النَّصارىٰ من اليَعاقِبة والمَلَكانيّة[1] .

الضرب الثانى — وِلايةُ رئيس اليَهود الحاكم علىٰ طوائفِهم .

---

(١) لم ينص على من له توليتهما .

النـــــوع الخامس

(ما لا يختَصّ بطائفة ولا يندرج تحت نَوْع)

كصغار الأُمور التى يُكتَب فيهـا لكلّ فَرْدٍ فَرْد : إما ٱبتـداءً ، وإما بالحمل علىٰ مابيَدِه من ولايةٍ سابقةٍ : من نائبٍ أو قاضٍ أو ناظرٍ وقْف أو غير ذٰلك ، ممـا لايَنحصِرُ كثْرةً .

قلت : وربّمـا وَلّى السـلطان فى بعض الوظائف بالممالك الشامية ممـا تختصّ توليتُه بنُوّاب السلطنة إذا كانتِ الوظيفةُ وضـيعةَ المَنْزِلة وأدركتِ المُوَلّى عِنَـايتُه ، وربّما ولّى بعضُ نُوّابِ السلطنة ما تَختصّ توليتُه بالسلطان إذا عظُمتْ رتبةُ النائب وٱرتفعتْ منْزِلتُه ، خصوصًا إذا كان نِظامُ المملكة محلُولا وأمرُها مضْطَرِبا .

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الأوّل من المقـالة الخامسة

(فى بيان ماتجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة الولايات علىٰ سبيل الإجْمال)

قال الشيخ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبيّ رحمه الله فى "حُسْن التوسل": يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى ذٰلك أمورًا .

منها — بَرَاعةُ الاستهلال بذكر الرُّتبـــة، أو الحـالِ، أو قدرِ النِّعمة ، أو لَقَب صاحب الولاية ، أو اسمِه ؛ بحيثُ لايكونُ المطَّلـع أجنبيًّا من هذه الأحوال، ولا بعيدًا منها، ولا مباينًا لهـا؛ ثم يستصحِبُ مايناسب الغرضَ و يوافق القَصْـد من أوّل الخُطْبة إلىٰ آخرها .

ومنها — أن يراعِىَ المناسَبة وما تقتضيه الحـالُ : فلا يُعْطِى أحدا فوقَ حَقّه، ولا يصفُه بأكثَرَ مما يُراد من مثله ؛ ويراعى أيضا مقدارَ النعمة والرُّتبة فيكون وصْفُ المِنّة بها علىٰ مِقْدار ذٰلك .

ومنهـا — أن لا يصفَ المتولِّىَ بمـا [يكونُ](1) فيــه تعريضٌ بذَمّ المعْزُول [وتَنْقِيصٌ له](1)؛ فإنّ ذٰلك ممـا يُوغِر الصُّـدور، ويُورِث الضَّغائن فى القلوب، ويدلُّ علىٰ ضَعْف الآراء فى اختيار الأوّل ، مع إمكانِ وصْف الثانى بمـا يحصُل به المقصُود من غير تعريض بالأوّل .

ومنها — أن يتخيَّر الكلامَ والمعانِىَ فإنه ممـا يَشِيع ويَذِيع ، ولا يُعْـذَر المقصِّر فى ذٰلك بعَجَلة ولا ضِـيقِ وقت ، فإنّ مَجَال الكلام متّسع ، والبـلاغة تظْهَر فى القليل والكثير .

---

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٠ .

قلت : ومنها أن يَحْرِص الكاتبُ علىٰ أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى السّـطْر الأوّل أو الثانى ولا يُؤخّرها عن ذٰلك . وممـا كان يراعىٰ فى ذٰلك أن تكون الخطبةُ من أوّلها إلىٰ آخرها علىٰ رَوِىّ واحدٍ فى السّجْع ، وكذٰلك الدعاءُ فى أوّل صِغَار التواقيع والمَراسِيم المبتدأة بلفظ « رُسِم » بخلاف مابعد ذٰلك إلىٰ آخر ما يكتب، فإنه يتّفق فيه روىُّ السجعتين والثّلاثِ فـا حولَها ، ثم يخالَفُ رويُّها إلىٰ غيره ؛ ولا يكلَّف الكاتبُ الإتيانَ بجميعها علىٰ روىٍّ واحد ؛ وعلىٰ ذٰلك كانت طريقـة فُحُول الكُتّاب بالدولة التركية، كالقاضى محيى الدّين بن عبد الظاهر، والشـيخ شهابِ الدين محمود الحلبي، والمقرّ الشهابىّ بن فضل الله، ومَنْ عاصرهم إلّا فى القليل النادر؛ فإنه رُبّمـا وقع لبعضهم مخالفةُ رَوِىّ الخطبة ؛ وإلىٰ هذا قد جنَح غالب كُتّاب ديوان الإنشاء فى زماننا ومالُوا إليه : لمـا فى ٱلتزام الرّوىّ الواحد فى جميع الخُطْبـة من التكلّف وعُسْر التلفيق علىٰ مَنْ يتعاناه .

ثُمّ الكلامُ فيما يُكتَب فى الولاية قد يكون جميعُه بلفظ الغَيْبـة، مثل أن يقال : عَهِـد إليه بكذا ، أو قلّده كذا ، أو فَوّض إليه كذا ، أو أنْ يستقرّ فى كذا ، ونحو ذلك، ثم يقال : وأَمَرَه بكذا ، أو ونحن نُوصِـيه بكذا ، أو فعلَيْه بكذا ، وما أشبه ذٰلك ؛ وقد يكون جميعُه بلفظ الخِطاب، مثـل أن يقال : وقد عهِـدَ إليكَ بكذا، أو قلّدك كذا، أو فوّضَ إليك كذا ثم يقال : ونحن نُوصيكَ بكذا، أو فعليكَ بكذا، ونحوه ؛ وقد يُصَـدَّر بلفظ الغَيْبة ثم يُلتفَت منها إلىٰ الخطاب ؛ وقد يُصَـدَّر بلفظ الخطاب ثم يلتفَتُ منه إلىٰ الغيبـة بحسَبِ مايُؤْثِره الكاتب وتُؤدّى إليه بلاغتُه ممـا ستَقِفُ علىٰ تنويعه فى خِلَال كلامهم فى أصناف الوِلَايات الآتية فى هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــل الثـالث

من البـاب الأول من المقالة الخامسة

(فى بيان مايقعُ به التفاوتُ فى رُتَب الولايات، وذلك من سبعةِ أوجُه)

الوجـــه الأوّل

(الألقـابُ ، وهى عـلىٰ ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(ألقابُ الخُلَفـاء)

وسبيلُها الاختصارُ دُونَ البَسْط، ٱكتفاءً بما هو ظاهِرٌ من أُبَّهة الخِلافة، وعُلُوّ مَقَام الإمامة، إذ هى الزَّعامة العُظمىٰ، والرتبةُ التى هى أعلىٰ الرُّتَب وأسمىٰ .

وهى صنفان :

الصنفُ الأوّل — ألقابُ الخلفاء أنفُسهم، وغايةُ مايُنعَتُ به الإمام وأميرُ المؤمنين.

الصنف الثانى — ألقابُ أوليـاءِ العَهْد بالخلافة ، وألقابُهم نحوُ السـيِّد الجليل وذَخيرة الدِّين، ونحو ذلك علىٰ ماسيأتى بيانُه فى عهُود الخلفاء عن الخُلَفاء .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ المُلُوك، وهى صنفان أيضا)

الصنفُ الأوّلُ — ألقابُ السلطان نفْسِه ، والكُتَّابُ تارة يبتدئُونَها بالسلطان، وتارة يبتدئُونها بالمَقَام، ولكلٍّ منهما نعوتٌ تخصُّه، وسيأتى الكلامُ علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ عُهُود الملوك عن الخلفاء، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — ألقابُ أولياء العهْد بالمُلْك ، والملوكِ المنفَردين بولايةِ صِغَار البُلْدان عن السلطان الأعظم ، وهى لاتُفتتَح إلّا بالمَقام ليس إلّا ؛ ولها نعوتٌ تخصُّها يأتى الكلامُ عليها فى الكلام علىٰ عهُودهم أيضا .

النـــوع الثـالث

(ألقـابُ ذَوى الولاياتِ الصادرات عن السلطان : من أرباب الوظائفِ الواقعةِ فى هـــذه المملكة)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ الألقـاب فى مقدّمة الكِتاب أنّ أصولَ الألقاب المستعملةِ فى ذٰلك خمسةُ ألقاب علىٰ الترتيب : وهى المَقَرّ، ثم الجَنَاب، ثم المَجْلس، ثم مَجْلس مضـافا : كمجلس الأمير، ومجلِس القاضى ، ومجلِس الشـيخ ، ومجلس الصَّدْر، ثم الاقتصارُ علىٰ المضاف إليه وحذفُ المضاف : كالأميرِ والقاضى والشيخ والصَّـدْر ؛ ويلتحق بذٰلك لأهل الذِّمّة الحَضْرة ، وحَضْرة الشـيخ ، والشيخ مجرّدًا عن حَضْرة ، وتقدّم فى الفصل الأوّل من هـذا الباب أنّ أربابَ الولايات خمسةُ أنواع : أربابُ السُّيوف ، وأربابُ الأقلام ، وأربابُ الوظائف الصِّناعية ، وزُعَماء أهل الذمّة ، ومَنْ لايختص بطائفةٍ لِصغَرهم . وجميعُ هـذه الأنواع علىٰ اختلاف أصنافهم لا يخرُجُون عن الألقاب المتقدّمة ؛ وقد تقدّم الكلامُ علىٰ هـذه الألقاب ونُعوتِها لمن يُكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف مستوفًى فى المكاتَبات ، إلّا أنه قد يُولّىٰ عن السـلطان مَنْ لم يؤهَّل للمكاتبة عنـه ، كأكثرِ أرباب الوظائف من حَمَلة الأقلام وغيرهم ، فاحْتيِج إلىٰ تعريف مراتبِ الألقاب لكلِّ نوع من أرباب الولايات .

فأما أربابُ السُّيوف، فأعلىٰ ألقابِهم المَقَرّ، وأدناها مجلِسُ الأمير، ثم الأمير مجرّدا عن مجلس .

وأمّا أرباب الوظائف الصِّناعيَّة، فأعلىٰ ألقابِهم المجلسُ وأدناها مجلِسُ الصَّـدْر، ثم الصَّدرُ مجرّدا عن مجلس .

وأما من لايختص بطائفة لصغره، فيقتَصَر فيه علىٰ لقب التعريف وهو فلانُ الدِّين إن عُظِّم وإلّا آقتُصِر علىٰ آسمه خاصَّة .

وأما زعماء أهل الذِّمَّة، فأعلىٰ ألقابهم الحَضْرة، ثم حَضْرة الشيخ، ثم الشيخ مجرّدًا عن حَضْرة .

وآعلم أنَّ كلَّ مَنْ كانت له مكاتبـةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، فلقَبُ وِلايتِـه ونُعوتُه كما فى مكاتبته، غير أنه يُزادُ فى آخر النُّعوت المركَّبـة ذكر آسمِه العلم، ونسبتُه إلىٰ السلطان: كالناصِرىّ، والظاهِرىّ، ونحوهما إن كان ممن يَنْتَسب إليه بنيابةٍ ونحوها، ثم إن كانت مكاتَبتُه تُفْتتَح بالدعاء نُقِل ذٰلك الدعاء من أوّل المكاتبة إلىٰ مابعد آسمه والنسبة إلىٰ السلطان فى الولاية، كما إذا كانت مكاتبتُه : أعَزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم، فإنه يُدْعىٰ له عقِيبَ آسمه والنسبةِ إلىٰ السلطان ـ إن كانت ـ بأعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَه، وكذٰلك فى البواقى .

وإن كانت مكاتبتُه تُفْتَتَح بغير الدعاء: كصدرَتْ هذه المكاتبةُ ونحو ذلك ، فإنه يدعىٰ له فى الولاية عقِبَ الآسم والنسبةِ إلىٰ السلطان ـ إن كانت ـ بمـا يُدْعىٰ له فى مكاتبتـه فى آخرِ الألقاب، كما إذا كان من أرباب السُّـيوف ومكاتبتُه صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى أو المجلس السامىّ بالياء فإنه يُدْعىٰ له بمثل: أدامَ اللهُ سعادتَه، وأدام اللهُ رفعتَه، ونحو ذلك؛ وإن لم تكن له مكاتَبةٌ عن الأبواب السُّلْطانية

كُتِب له فى الولاية مايُناسِبُه من اللَّقب والنُّعوت، ثم يذكر اسمُه والدعاءُ له إن كان مستحقًّا للدعاء؛ وسيأتى لقبُ كلِّ ذى وِلاية من الأنواع الخمسة المتقدّمة الذِّكرِ ونعوتُهُ عند ذكر وِلَايته فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم للألقاب فى الولايات مَحَلّان :

أحدهما — الطُّرّة . ويُقتَصر فيها علىٰ اللَّقب : من المَقرّ أو الجَناب أو المَجْلس أو مجلِس مضافا وما بعده من النعوت إلىٰ اللَّقب المميِّز للوظيفة كالأَميرىّ والقَضائىّ ونحوهما ، ثم يُذكر لقبُه الخاصُّ به وهو الفُلانىّ أو فُلان الدين ، ثم يذكر اسمُه وانتسابُه إلىٰ السلطان إن كان، علىٰ ماسيأتى بيانُه مفصَّلا، إن شاء الله تعالىٰ .

الثانى — فى أثناء الوِلَاية . وهُناك تستوفىٰ النُّعوتُ ويُؤْتىٰ بما فى الطُّرّة فى ضِمْنه إلا أنه يُجعَلُ لقبُ التعريف — وهو الفلانىُّ أو فلانُ الدِّين — بين النعوت المفردة والمركَّبة فاصلا بينهما .

الوجــــه الثـانى

(ألفاظ إسناد الوِلَاية إلىٰ صاحب الوظيفة، ولها سِتُّ مراتبَ)

الأولىٰ — لفظُ العَهْد، مثل أن يقال : أنْ يُعْهَد إليه، وهى خاصّةٌ بالخلفاء والمُلوك .

الثانية — لفظ التَّقليد ، مثل أن يقال : أن يُقَلَّدَ كذا، ويكون مع المَقرّ الكريم والجَنَاب الكريم .

الثالثة — لفظ التَّفويض ، مثل أن يُقَال : أنْ يفوَّض إليه كذا، ويختصُّ بالجناب لأرباب السيوف، وكذٰلك الجنابُ والمجلسُ العالى لأرباب الأقْلام .

قلت : وكُتّابُ زماننا يستعملونها[1] مع المقرّ أيضا ، ولا يستعملون لفظ يُقلّد في التقاليد لتوهّمهم الاكتفاءَ بلفظ تقليد عنها، ولم يعلموا أنّ يقلّد فوق يفوّض كما تقدّم . على أنّ المقرّ الشهابيّ بنَ فضل الله قد صرّح بذلك في "التعريف" كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

الرابعة — لفظ الاستقرار والاستمرار، مثل أن يقال أن يستقرّ في كذا ، أو يستمرّ في كذا . ولفظ يستقرّ مختصّ بالمستجِدّ ، ولفظ يستمرّ مختصّ بالمستقِرّ ؛ ويكونان مع المجلس السامىّ بالياء ، والمجلس السامي بغير ياء لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم ؛ أما المجلس العالى فإن كانت مكاتبته تُفتتح بالدعاء ، مثل : أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى كاتب السلطنة بالكرك ، فإنه يقال فيه أن يُفوّض إليه ، وإن كانتْ مكاتبتُه تُفتتَحُ بصدرتْ هذه المكاتبة كاتب القُدْس ونحوه، فإنه يقال فيه أن يستقِرّ .

الخامسة — لفظ الترتيب، مثل أن يقال : أن يُرتّب في كذا، ويكون مع مجلس مضافا، مثل مجلس الأمير ومجلس القاضي ونحوهما ، وربّما استُعمِلت مع السامى بغير ياء .

السادسة — لفظ التقدّم ، مثل أن يقال أن يُقدّم فلانٌ على الطائفة الفلانيّة ونحو ذلك .

قلت : وهاتان المرتبتان أعني السادسةَ والخامسةَ قد ذكرهما المقرُّ الشهابيُّ بن فضل الله في "التعريف" فقال : وقد يقال أن يُرتّب وأنْ يُقدّم . وهما موجودان في كتابة مُعاصريه بمصر والشام ؛ أمّا كُتّاب زماننا فقد رفضُوهُما جملةً وأضربُوا عن استعمالها بكلّ حال، واكتفَوْا عنهما بالمَرْتبة الرابعة وهي لفظ الاستقرار ،

(١) أى لفظة " يفوّض " .

والواجب إثباتُهما لتفاوُتِ ما بين المَرَاتب . علىٰ أنّ آستعمال لفظ يُرتّب موجودٌ في كلامهم بكثْرة، ولفظ يُقدّم لم يستعمِلوه إلا في النّزْر اليسير، والله أعلم . وهـذه الألفاظُ تقع في الطُّرّة وفي أثناءِ الكلام علىٰ حدّ واحدٍ .

الوجـــــه الثـالث

(الاِفتِتاحاتُ ، وهي راجعةٌ إلىٰ أربع مراتِبَ)

المرتبة الأُولىٰ — الآفتتاحُ بلفظ : هـذه بَيْعة ، أو هذا ما عَهِـد ، ونحو ذٰلك في البَيْعات والعُهُود علىٰ المذهَب القديم ؛ أو بالحمدُ لله . ويقعُ الآبتداء به في العُهُود والبَيْعات إذا آبتُدِئ العهدُ أو البيعةُ بخُطْبة علىٰ ما عليه آستعمالُ أهل زمانِنا ؛ وكذٰلك في التقاليد لأربابِ السيوف والأقلامِ ، والمَرَاسيم المكبَّرة لأرباب السيوف ؛ والتواقيع الكِبَار لأربابِ الأقلام .

المرتبة الثانية — الآفتتاحُ بأمَّا بعدَ حمدِ الله . ويقعُ الآبتداءُ به في المَرْتبة الثانية من أرباب المراسيم المكبَّرة من أصحاب السُّيوف ، والمرتبةِ الثانية من أرباب التَّواقيع من أصحابِ الأقلام .

المرتبة الثـالثةُ — الآفتتاحُ بِرُسِمَ بالأمرِ الشريف ، ويقع الآفتتاحُ به في المرتبـة الثالثة لأرباب التَّواقيع والمَرَاسِيم من سائر أربابِ الوِلايات .

المرتبة الرابعةُ — ما كان يُستعْمَلُ من الآفتتاح بأما بعدُ فإنّ كذا . أومَنْ حَسُنَتْ طَرائقُه ، وحُمِدت خَلائقُه ، فإنه احَقُّ ، وما أشبهَ ذٰلك ؛ كما أشار إليه في "التعريف" إذ كانَ الآنَ قد رُفِض وتُرِك علىٰ ما سيأتي بيـانُه في موضعه إن شاء الله تعـالىٰ ؛ وقد كان ذلك يُستَعْمَل فيما تقدّم لأرباب السُّيوف والأقلامِ جميعاً .

الوجـــــه الرابع

(تعدُّدُ التحميد فى الخُطْبة أو فى أثناء الكلام واتحادُه)

فقد قال فى " التعريف " فى الكلام علىٰ عُهُود المُلُوك للمُلُوك : وكُلَّما كَثُرت التحميداتُ فى الخُطَب، كان أكْبَرَ : لأنها تدلُّ علىٰ عِظَم قَدْر النِّعمة ؛ وذكر فى الكلام علىٰ عُهود الخلفاء عن الخُلَفاء أنه يُنْتهىٰ فى التحميد إلىٰ سَبْعة .

الوجـــــه الخامس

(الدعاءُ . وله ثلاثة مواضـــع)

الموضع الأوّلُ — فى طُرَّة الوِلَاية بعــد ذكر ما يُكْتَب فى الطُّرّة من ألقــابه ، ولا يُزاد فيه علىٰ دَعْوة واحدة تناسبه .

الموضع الثــانى — فى أثنـاءِ الولايةِ بعد آستيفاء الألقابِ وذكرِ الأسمِ ؛ وهو ما فى الطُّرّة من الدعوة المناسبة له بغيرِ زائدٍ علىٰ ذلك .

الموضع الثالث — [فى] آخرِ الولايةِ بالإعانة ونحوها . قال فى "التثقيف": وأقلُّها دعوتان، وأكثرُها أربعٌ . قال فى "التعريف" : ومَن آستُصْغِر من المُوَلَّيْن لايُدْعىٰ له فى آخرِ ولايته .

ثم قد تقدّم فى المكاتَبَات أنَّ الدعاءَ مع تنزيه الله تعالىٰ : كأعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ، وضاعف الله [تعــالىٰ] نعمةَ الجناب ونحو ذلك أعلىٰ من حذفه[1] ؛ كأدام اللهُ سعدَه، وأعزّه الله ونحو ذلك ؛ ولا شكَّ أنه فى الولايات كذلك .

---

(١) أى حذف التنزيه وفى الأصل حذفها أى جملة التنزيه .

الوجـــــه السادس
(طُولُ الكلام وقِصرُه ، فكلَّما عظُمت الوظيفةُ وآرتفعَ قدرُ صاحبها كان الكلام فيها أبسَـطَ)

قال فى "حُسْن التوسل" : ويحسُن أنْ يكونَ الكلامُ فى التقاليد منقسِما أربعةَ أقسام متقاربة المَقادير، فالرُّبعُ الأوّل فى الخُطْبة ؛ والرُّبُعُ الثانى فى ذكر مَوْقِع الإنعام فى حق المقلَّد ، وذكر الرتبــة وتَفْخيم أمرها ؛ والربعُ الثـالثُ فى أوصاف المُولَّى[1] ، وذكرِ ماينـاسبُ تلك الرتبةَ ويُناسبُ حالَه من عَدْل وسياسةٍ ومَهَابة وبُعْد صيت وسُمْعة وشجاعةٍ إن كان نائبا ؛ ووَصف الرأى والعَــدْل وحُسْن التدبير والمعرفة بوُجُوه الأموال ، وعِمـارة البلاد ، وصلاح الأحوال ، وما يناسبُ ذلك إنْ كان وزيرا ؛ وكذلك فى كلِّ رتبة بحسَبها ؛ والربع الرابع فى الوَصايا .

قال فى "التعريف" : والذى أختـارُه آختصارُ مقْــدار التحميدة [التى][2] فى الخُطْبة والخُطَب مطلقا وإطالةُ ما بعــد ذلك ؛ والإطنابُ فى الوصايا [اللهم][2] إلا لمن جَلَّ قدْرُه [وعظُم أمره][2] فإن الأولى الاقتصارُ فى الوصايا على أهمّ الجُمْليَّات ، ويعتذرُ فى الاقتصار بما يُعْرَف من فضله ، ويُعْلَم من عِلْمه ، ويُوثَق به من تجْربته ومن هذا ومثله . قال : والكاتب فى هــذا [كلّه][2] بحسَب ما يراه ، ولكلِّ واقعة مَقَال يليقُ بها ، ولمَلْبَس كلِّ رجل قدرٌ معروف لايليقُ به غيرُه ؛ وفى هــذا غِنًى لمن عَرَف ، وكفايةٌ لمن عَلِم ؛ على أن المقرّ الشهابىَّ تابع فى ذلك القاضى « محيى الدين آبن عبــد الظاهر» رحمه الله، فإنك إذا تأملْتَ تقاليــدَه وتواقيعَــه، وجدتَها كلَّها

---

(١) فى حسن التوسل ص ١١٠ «المقلد» وهى بمعناها .

(٢) الزيادة من التعريف ص ٨٨ .

كذلك ، ولكلّ وجهٌ ظاهر ؛ فإنّ المطوّل للخطبة لا يُخليها من بَراعةِ الاستهلال ، المناسبةِ للحال، والمقصّر لها مُراعٍ لزيادة الإطناب فى الوَصْف .

قلت : ولا يخفىٰ أن ماذكراه فى التقاليد يجىءُ مثلُه فى العُهُود لجريها علىٰ مُوجبها من مُولٍّ ومُولًّى .

أما إذا كانت الولايةُ بَيْعةً فإنه يجعَلُ موضِعَ الوَصَايا ذكْرَ آلتزام الخليفةِ البِرَّ والإحسانَ للخلق ، ووَعْدَ النظر فى أمُور الرعية ، وصلاح أحْوالهم ؛ وذكر التحليف للخليفة ، أوله وللسلطان إن كان معه سلطان قام بعقْد البَيْعة له علىٰ الوَفَاء بالعَهْد والدُّخُول تحت الطاعة . قال فى "حسن التوسل" : والأمْرُ الجارى فى ذلك علىٰ العادة معروفٌ لكنه قد تَقَع أشياءُ خارجةٌ عن العادة فيحتاجُ الكاتبُ فيها إلىٰ حُسْن التصرُّف علىٰ مايقتضيه الحالُ؛ وذكر من ذلك تقليدًا أنشأه لمتملِّك سِيسَ، وتقليدًا كتبه بالفُتُوّة؛ وسيأتى ذكر ذلك مع ماشاكله فى مواضعه إن شاء اللهُ تعالىٰ .

الوجـــه السـابع

(قطــع الورق)

وآعلم أنَّ الولاياتِ من ديوان الإنشاءِ بالأبواب السلطانية بجملتها يَنْحصر قَطْعُ الورَق فيها فى خمسة مَقاديرَ لا يتعدّاها :

أحدها ــ قَطْع البغـدادىّ الكامل ؛ وهو مختصٌّ بالبَيْعات والعُهُود مُطْلَقا علىٰ أىِّ الافتتاحات كان .

الثـانى — قَطْع الثلثَيْن من المنصورىّ، وهو لأجل الوِلاياتِ السُّـلطانياتِ لأرباب السُّيوف وبعضِ أرباب الأقلام، ولا يفتَتح فيها إلَّا بالحمد .

الثالث — قطع النِّصف منه،وهو لما دُونَ ذلك،ولا يفتَتح فيه إلَّا بالحمد أيضا :

الرابع — قطع الثُّلُث منه ، وهو لمـا دُونَ ذلك .

وآعلم أنه إذا وُلِّيَ صاحبُ وظيفــةٍ تستحِقُّ قطعَ النصف وظيفةً أُخْرىٰ تستحق قَطْع العـادة ، فإنه يُراعىٰ مقدارُ صاحبِها ويُزادُ علىٰ مِقْـدار العادة ؛ إلا أنه لا يَبْلُغ مَبْلَغَ رتبة وظيفَتِه العُلْيـا ، بل ينبغى أن يتَوسَّط بينهما ؛ فيكتب له فى قَطْع الثلث لتكون رتبة بين رُتْبتين فتحصُل مراعاةُ تعظيمه من حيث الزيادةُ علىٰ قَطْع العادة ، ومراعاةُ قدر الوظيفة من حيثُ إنها لم تَبْلُغ شأْوَ وظيفتِه العُلْيا ؛ أما إذا وُلِّيَ منحطُّ القدر وظيفةً تستحق القَطْع الكبير، فإنه يكتَبُ له فيه ، وتكون توليتُه لهـا رَفْعًا إلىٰ درجَتها .

الخامس — قطعُ العـادة، وهو أصغَرُها، والأصلُ أن يفتَتح فيــه بلفظ «رُسِم بالأمر الشريف» وربمـا علتْ رتبــةُ صاحبِ الوِلاية ولم يؤهَّـلْ للكتابة فى قطع الثلث فيُكْتَب له فيه : أما بعدَ حمد الله، وهو قليلُ الآستعمال، فإن آستُعْمِل أما بعدُ فإنَّ كذا ، أو إنَّ أَوْلىٰ ، أو إن أَحقَّ ونحو ذلك كُتِب فى قَطْع العادة أيضا .

الباب الثانى

من المقالة الخامسة فى البيعات، وفيه فصلان

الفصل الأول

(فى معناها)

البَيْعات جمع بَيْعة، وهى مصدر[1] بايَعَ فلانٌ الخليفةَ يُبايِعه مُبايعةً؛ ومعناها المعاقَدةُ والمُعاهَدةُ، وهى مُشَبَّهة بالبَيْع الحقِيقِىّ . قال أبو السَّعادات بْنُ الأثير فى نهايته فى غريب الحديث : كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما باعَ ماعِنْدَه من صاحِبه وأعطاه خالصةَ نَفْسه وطاعَتَه ودَخِيلةَ أمْرِه . ويقال : بايَعَه، وأعطاه صَفْقةَ يدِه؛ والأصلُ فى ذٰلك أنه كان من عادةِ العربِ أنه إذا تَبايَعَ اثنانِ صَفَقَ أحدُهما بيده على يَدِ صاحِبه .

وقد عَظَّم الله تعالى شأنَ البيعةِ وحَذَّر من نَكْثِها بقوله خطابا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وأمر بمبايعة المُؤمنات فى قوله تعالى : ﴿ يٰأَيُّها النَّبِىُّ إذَا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وبايع النبىُّ صلى الله عليه وسلم الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهم بَيْعَتَيْن .

---

(١) ليس مراده المصدر الصناعى كما لا يخفى والأوضح "وهى اسم مصدر لبايع" الخ تأمل .

الفصـــــل الثـانى

(فى ذكر تنويع البَيْعات ، وهى نوعان)

النــــوع الأوّل

(بَيْعـاتُ الخُلَفــاء، وفيهــا سبعة مقـاصِـدَ)

المقصـــــد الأوّل

(فى أصل مشروعيتها)

فالأصْل فى ذٰلك بعد الإجماع ماثَبَت فى الصحيحين من حَديث عائشة رضى الله عنها " أنّه لمـا تُوُفِّىَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ، آجتَمعتِ الأنصارُ إلىٰ سَعْدِ بْنِ عُبادَةَ فى سَقِيفَةِ بَنِى ساعِدَةَ ، فقالُوا : مِنّا أميرٌ ومِنْكُمْ أميرٌ ، فذهب إليهم أبو بَكْرٍ وعُمَرُ وأبو عُبَيْـدَةَ بنُ الجَرّاح ، فذهَبَ عُمَرُ يتكلّمُ فأسـكَتَهُ أبو بَكْرٍ ، وكان عُمَرُ يقُول : ما أرَدتُ بذٰلك إلّا أنّى قد هَيَّأتُ كَلامًا أعْجَبَنِى خَشِيتُ أن لَايَبْلُغَهُ أبو بَكْر ، ثم تكَلَّمَ أبو بَكْرٍ فتكَلَّمَ أبلغَ النـاسِ . فقال فى كلامِه : نَحْنُ الأُمَراءُ وأنتُمُ الوُزَراء . فقال الحُبَـابُ بنُ المُنْذِر : لَا واللهِ لانَفْعَلُ ! مِنّا أميرٌ ومِنْكُمْ أَمير . فقال أبو بَكْر : لَا ولٰكِنّا الأُمَراءُ وأنتُمُ الوُزَراءُ . فبايِعُوا عُمَرَ أَوْ أبَا عُبَيدةَ . فقال عمرُ : بَلْ نُبايِعُكَ فأنْتَ سيِّدُنا وخَيْرُنا وأحَبُّنا إلىٰ رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ، فأخذ عُمَرُ بيدِه فبايَعَه وبايَعَ النّاسُ " .

وهــذه أوّلُ بيعةٍ بالخلافَةِ كانتْ فى الإسلام ، ولكن لم يُنْقَل أنه رضى الله عنه كُتِبَ له مبايعةٌ بذٰلك ، ولعلّ ذٰلك لأنّ الصحابةَ رِضوانُ الله عليهم كانوا إذا بايَعُوا لايَحْتَحُون البَيْعَةَ بعد صُدُورها ، بخلاف مابعد ذٰلك .

المقصـــــد الثـانى

(فى بيانِ أسبابِ البَيْعة المُوجبة لأخْذها علىٰ الرَّعيَّة)

وهى خمســـة أسباب :

السببُ الأوّل — موتُ الخليفة المتصبِ من غير عَهْد بالخلافة لأحدٍ بعــده ، كما فى قِصّة الصِّــدِّيق المتقدِّمة بعد وَفَاة النبيّ صلّى الله عليه وسلم ؛ أو بتَرْكها شُورىٰ فى جماعة معيَّنة ، كما فعل عمَرُ رضى الله عنه عند وَفَاته حيثُ تَرَكها شُورىٰ فى ستة : علىّ بنِ أبى طالب ، والزُّبيرِ بن العَوَّام ، وعُثْمانَ بنِ عفّان ، وعبدِ الرحمٰن بنِ عَوْف ، وطلحةَ ، وسعدِ بنِ أبى وَقّاص ، رضى اللهُ عنهم .

السبب الثـانى — خَلْع الخليفةِ المتصبِ لمُوجِب يقتضِى الخَلْع ، فتحتاجُ الأمةُ [إلىٰ] مبايعةِ إمام يقُوم بأمورها ، و يتحمَّل بأعبائها .

السبب الثالث — أن يتوَهَّم الخليفةُ خُروجَ ناحيةٍ من النَّواحى عن الطاعة فيُوجِّهَ إليهم من يأخُذ البيعةَ له عليهم : لينقادُوا لِأمْرِه ، ويدخُلوا تحتَ طاعتِه .

السبب الرابع — أن تُؤْخَذَ البيعةُ لخليفة المعهودِ إليه بعدَ وَفَاة العاهد ، كما كانتِ الخلفاءُ الفاطميُّون تفعَلُ فى خِلافتهم بمصر ، وكانوا يُسَمُّون البيعةَ سِجِلًّا كما كانوا يُسَمُّون غيرَها بذٰلك .

السبب الخـامس — أن يأخُذَ الخليفةُ المتصبُ البيعةَ علىٰ الناس لولىّ عهــده بالخلافة بأن يكون خليفةً بعدَه إمضاءً لعَهْده ، كما فعل معاويةُ رضى الله عنه فى أخذه البيعةَ لولده يَزِيدَ .

المقصـــــــد الثـــالث

(فى بيان ما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كَتابة البَيْعة)

وآعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كَتابة البَيْعة أمورا :

منها — أن يأتِىَ فى بَراعة الاستهلال بمـا يتهيأ له من آسم الخليفة أو لَقَبه : كفلانِ الدِّين، أولقَبِ الخلافة : كالمتوكِّل أو المستكْفِى، أومقتضىٰ الحال المُوجِب للبَيْعة من موتٍ أو خَلْع ونحوهما، أو غير ذٰلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة وعُلُوّ قدْرها ورِفْعة شأنها، وأنها الغايةُ التى لافَوْقَها، والدرجةُ التى لابَعْدَها ؛ وأن كلّ رُتْبة دُونَ رُتْبتها ، وكلّ مَنْصِب فرعٌ عن مَنْصِبها .

ومنها — أن ينبِّــه علىٰ مَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام ، ودِعايَة الضَّرورةِ إليه ، وأنه لايستقيمُ أمْرُ الوجود وحالُ الرعِيَّة إلّا به ، ضرورةَ وُجوبِ نصبِ الإمام بالإجماع ، و إن شذَّ عنه الأصمُّ مخالف ذٰلك .

ومنها — أنْ يُشِيرَ إلىٰ أنَّ صاحبَ البَيْعة آستوعبَ شُروطَ الإمامةِ وآجتمعتْ فيـه ، ويصِفَه منها بمـا يعِزُّ وُجودُه ، ويُتَمَــدَّحُ بحصوله : كالعِلْم والشَّجاعة والرأى والكِفاية ؛ بخلاف مالا يعِزُّ وجودُه ولا يُتَمَدَّحُ به و إن كان من الشروط : كالحُرِّيَّة والذُّكورة والسمْع والبَصَر ونحو ذٰلك ؛ فإنَّ الوصف بذٰلك لا وجْهَ له .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أفضلِيَةِ صاحبِ البَيْعة وتقدُّمه فى الفضل وآستيفاءِ الشُّروط علىٰ غيره : ليخْرُج من الخلاف فى جَواز تولِيَةِ المفضُول مع وُجود الفاضل .

ومنها — أن يَنَبّه علىٰ أنّ المختارين لصاحب البَيْعة ممن يُعْتَبَر ٱختيارُه من أهل الحَلّ والعَقْد : من العلماء والرُّؤساء ووجُوه النـاس الذين يتيسّر حضُورُهم علىٰ الوجه المعتَبَر .

ومنها — أن يَنَبّه علىٰ تعيين المختارِين للبَيْعة ، إن كان الإمامُ الأوّلُ نصّ عليهم ؛ إذ لايصِحُّ الاختيار [من] غير من نَصّ عليه ، كما لايصحُّ إلا تقليدُ من عَهِد إليه .

ومنها — أن ينَبّـه علىٰ جَرَيان عَقْـد البَيْعةِ من المختارين ، ضرورةَ أنه إن ٱنفردَ شخصٌ بشروط الإمامة فى وَقْته لم يَصِرْ إماما بمجرّد ذٰلك .

ومنها — أن يَنَبّه علىٰ سبب خَلْع الخليفة الأوّل إن كانت البيعةُ مترتّبة علىٰ خَلْع ، إذ لايصح خَلْع الإمام القائم بلا سبَب .

ومنها — أن ينبّه علىٰ قَبُول صاحب البيعةِ العقدَ وإجابته إليه إذ لابُدّ من قَبُوله .

ومنها — أن ينبّه علىٰ أنّ القَبُول وقع منـه بالآخْتِيار : لأنه لايصِحُّ الإجبارُ علىٰ قَبُولها ؛ اللهم إلّا إن كان بحيثُ لايصلُح للإمامة غيرُه فإنه يجبَرُ عليها بلا خِلَاف .

ومنها — أن يَنَبّه علىٰ وُقُوع الشهادة علىٰ البَيْعة ، خروجًا من الخلاف فى أنه هل يُشتَرَط الإشهادُ علىٰ البيعة أم لا ؟ .

ومنها — أن ينبّه علىٰ أنها لم تقْترن ببَيْعةٍ فى الحالِ ولا مسبُوقةٍ بأُخرىٰ ، إذ لايجوز نَصْبُ إمامَيْن فى وقتٍ واحدٍ وإنْ تباعَدَ إقليماهُمَا ، خلافا للأُستاذ أبى إسحاق الأَسْفَرايِينِى حيثُ جوّز نصْبَ إمامين فى إقليمَيْن .

ومنها — أن يَنَبّـهَ علىٰ أنه بمجرّد البَيْعـة تجبُ الطاعةُ والآنقيادُ إليـه ، ويجب علىٰ كافّة الأمة تفويضُ الأمور العامّة إليـه ، وطاعتُـه فيما وافَقَ حكمَ الشرع وإنْ كان جائرا .

ومنها — أن يعزِّىَ فى الخليفة الميت ويُهنِّئَ بالمستقِرّ إن كانت البيعةُ مبنيّةً علىٰ موتِ خليفةٍ، وأن يبيّن (١) سببَ خلْع الخليفة الأوّل إن كانت مرتّبةً علىٰ خَلْع .

أما التّعزيةُ والتهنئةُ بموت الأوّل، فعليه جرىٰ عامّة الكُتّاب ، إلّا أنه يختصّ فى عُرْفهم بمـا إذا كانـ الخليفةُ الأوّلُ شـديدَ القُرْب من الثانى، كأبيه وأخيه وٱبن عمّــه .

وكان الأوّلون يتعاتَون ذٰلك فى خطاب الخلفاء بالتهنئة بالخلافة بعدَ أقاربهم ، وقد رُوِى أنّ عطاءَ بنَ أبى صَيْفِيّ دخل علىٰ يَزيدَ بن معاويةَ فهنّأه بالخلافة وعزّاه فى أبيه فقال :

رُزِئْتَ بأمير المؤمنين خليفـةِ الله، وأُعطيتَ خِلافةَ الله، قضىٰ معاويةُ نَحْبَــه ، فغفرَ اللهُ ذَنْبه ؛ ووُلِّيت الرِّياسه، وكنتَ أحقَّ بالسِّياسه ؛ فٱحتَسِبْ عندَ الله جليلَ الرَّزِيّه، وٱشكُرْه علىٰ جَزِيل العطِيّــه ؛ وعَظَّم اللهُ فى معـاويةَ أَجْرَك ، وأحسنَ علىٰ الخلافة عَوْنَك .

وتعرّضتْ أعرابيّة للنصور فى طريق مكّةَ بعد وَفَاة أبى العَبّاس السَّفّاح، فقالت :

ياأميرَ المؤمنينــ ٱحتَسب الصّبر، وقدّم الشُّكر ؛ فقد أجزلَ اللهُ لك الثّواب فى الحالين، وأعظَمَ عليك المِنّةَ فى الحادثَيْن ؛ سَلَبَكَ خليفةَ الله، وأفادكَ خِلافَةَ الله ؛ فسلِّم فيما سَلَبَك ، وٱشكر فيما مَنَحك ؛ وتجاوزَ اللهُ عن أمير المؤمنين ، وخارَ لكَ فيما ملّكك من أمر الدُّنيا والدِّين .

وأما التعريف (١) بسبب الخَلْع ، فلأنه لا يصحّ خلْعُ الإمام بغير مُوجِب للخَلْع .

ومنها — أن يشير إلىٰ ذكر السلطان القائم بالبَيْعة إن كان القائمُ بهـا سلطاناً علىٰ ما ٱستقرّت عليه قاعدةُ الكُتّاب فى ذٰلك .

(١) سبق التنبيه على هذا فى الصفحة قبل .

ومنها — أن ينبّه على أنّ من آستُحلِف فى البَيْعة من وُجوه الدولة وأعيان المملكة إن جرى حَلِفٌ، ويذكر صفةَ حلِفهم وما آلتزمُوه من الأيْمان المؤكّدة، والمَواثيق المغلّظة .

المقصد الرابع

(فى بيان مواضع الخلافة التى يستدعى الحالُ كتابةَ المبايَعات فيها)

وهى أربعة أمور :

أحدها — موتُ الخليفة المتقدِّم عن غير عهد لخليفة بعده ، وهو موضوعها الأصلىّ الذى عليه بُنيتْ .

الثانى — أن يَعْهَد الخليفةُ إلى خليفة بعده ، ثم يموتَ العاهد ويستقرّ المَعْهود إليه بالخلافة بالعَهْد بعده، فتؤخَذله البَيْعةُ العامّة على الرّعية، إظهاراً لوقُوع الإجماع على خلافته، والاتّفاق على إمامته .

الثالث — أن تؤخَذ البيعةُ للخليفة بحضرة وِلايته ، ثم تُنفَّذ الكتُبُ إلى الأعمال لأخْذ البَيْعة على أهلها، فيأخذُ كلُّ صاحب عملٍ له البيعةَ على أهل عَمَله .

الرابع — أن يَعْرِض للخليفة خَلَلٌ فى حال خلافته : من ظهور مخالِف أو خُرُوج خارجىّ، فيحتاج إلى تجديد البَيْعة له حيثُ وَقَع الخلافُ .

ولكلٍّ من هذه الأحوال ضَرْبٌ من الكتابة يُحتاجُ فيه إلى بيان السبَب الموجب لأخْذ تلك البيعةِ .

المقصـــد الخامس
(فى بيـان صورة مايُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء، وفيها أربعة مذاهب)

المـــذهب الأوّل
(أن تُفتتحَ المبايعةُ بلفظ « تُبَايِع فلانا أمـيرَ المؤمنيـن » خطاباً لمن تُؤْخذ عليـه البَيْعة)

ويذكر ما يقعُ عليـه عقدُ المُبايعة، ويأتى بمـا سَنَح من أمر البَيْعـة ، ثم يذكر الحلِفَ عليها؛ وعلىٰ ذٰلك جرىٰ مصطَلَح كُتَّاب خلفاء بنى أُميَّةَ، ثم خلفاءِ بنى العبَّاس بعدهم ببغدَادَ .

وٱعلَمْ أنه قد تقَـدّم فى المَقْصد الأوّل من هـذا الفصل أنه لم يُنْقَـل أنه كُتِب للصدّيق رضى الله عنه ولا لمن وَلِىَ الخلافةَ بعـده من الصَّحابة من غير عهدٍ بيعةٌ . ولمـا كانتْ خلافةُ بنى أُميَّة ، وآلَ الأمْرُ إلىٰ عَبْد الملِكِ بنِ مَرْوان ، وأقام الحجّاجَ ٱبنَ يوسُفَ علىٰ إمَارة العِراق، وأخذ فى أخْذ البيعة لعبد الملك بالعِراق ، رتَّب أيمانا مغلَّظةً تشتمل علىٰ الحَلِف بالله تعالىٰ والطَّلاقِ والعَتَاق والأيمان المُحْرِجات يُحْلَف بها علىٰ البَيْعة ، وٱشتهرَتْ بين الفُقَهاء بأيمـانِ البيعةِ، وٱطّرد أمرُها فى الدولة العبَّاسيَّة بعد ذٰلك . وجرىٰ مصطلَحُهم فى ذٰلك علىٰ هذا الأُسْلوب .

وهـذه نسخةُ مبايعـةٍ ، ذكرها أبو الحُسيْن بن إسحـاقَ الصـابِى فى كتابه "غُرَر البَلاغة" وهى :

تُبَايِع عبـدَ الله أميرَ المؤمنين فلانا بَيعةَ طَوْع وٱختِيار ، وتبرُّع وإيثار ، وإعلانٍ وإسْرار، وإظْهارٍ وإضْمار ، وصِحّة من نَغَل ، وسلامة من غير دَغَل ، وثباتٍ من غير

تبديل، ووقار من غير تأويل ، واعتراف بما فيها من اجتماع الشمل، واتصال الحبل، وانتظام الأمور، وصلاح الجمهور، وحقن الدماء، وسكون الدهماء ، وسعادة الخاصة والعامه، وحسن العائدة على أهل الملة والذمه — على أن عبدالله فلانا أمير المؤمنين عبدُ الله، الذى اصطفاه، وخليفتُه الذى جعل طاعته جارية بالحق، ومُوجَبةً على الخلق، ومُوردةً لهم موارِدَ الأمن، وعاقدةً لهم معاقِدَ اليُمْن، وولايتَه مُؤْذِنةٌ لهم بجميل الصُّنع، ومؤدِّيةٌ بهم إلى جزيل النَّفع، وإمامتَه الإمامةُ التى اقترن بها الخيرُ والبركه، والمصلحةُ العامّةُ المشتركه، وأمّل فيها قمعَ المُلْحد الجاحد، وردَّ الجائر الحائد، ووقْم العاصى الخالع، وعطْفَ الغازى المُنازِع — وعلى أنّك ولىُّ أوليائه، وعدوُّ أعدائه : من كلِّ داخلٍ فى الجُمْله، وخارجٍ عن المِلّه، وحائدٍ عن الدَّعوه. ومتمسِّكٌ بما يدليه ، عن إخلاصٍ من رأيك ، وحقيقةٍ من وفائك ؛ لا تنقُض ولا تنكُث ولا تُخلِف ولا تُوارى ولا تُخادِع، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل ؛ علانيتُك مثلُ نيّتك ، وقولُك مثلُ طَوِيّتك — وعلى أن لا ترجِع عن شىءٍ من حُقُوق هذه البيعةِ وشرائطِها على مَرّ الأيام وتطاوُلها ، وتغيُّر الأحوال وتنقُّلها ، واختلافِ الأزمانِ وتقلُّبها — على أنّك فى كلّ ذلك من أهل المِلّة الإسلامية ودُعاتها، وأعوانِ الدولة العبّاسيّة ورُعاتها، لا يُداخِل قولَك مُواربةٌ ولا مُداهنه ، ولا تعترِضه مغالطةٌ ولا تتعقّبُه مخالفه، ولا تخِيس به أمانه، ولا تغُلُّه خيانه؛ حتّى تلقى الله تعالى مقيماً على أمرِك ، وفيًّا بعهدك ؛ إذ كان مبايعو وُلاة الأمور وخلفاء الله تعالى فى الأرض ﴿ إنّما يُبايِعون الله يدُ الله فوقَ أيديهم فمن نكث فإنّما ينكُثُ على نفسِه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ .

عليك بهذه البيعة — التى أعطيت بها صَفقة يدك ، وأصفيت فيها سريرةَ قلبك ؛ والتزمت القيامَ بها ماطال عُمرُك ، وامتدّ أجلُك — عهدُ الله إنّ عهد الله كان

مسئُولا ؛ وما أخذه علىٰ أنبيائِهِ ورُسُله وملائكتِه وحَمَلةِ عَرْشــه من أيمــانٍ مغلَّظةٍ وعُهُودٍ مؤكَّده، ومَواثيقَ مشــدَّده ، علىٰ أنك تَسْمَع وتُصْغِي، وتُطِيع ولا تَعْصِي، وتعتدِلُ ولا تَمِيل، وتسـتقيم ولا تَحِيد ، وتَفِي ولا تَغْدِر، وتثبُتُ ولا تتغيَّر؛ فمتىٰ زِلْتَ عن هذه المَحَجَّة حاقرا لأمَانتِك، ورافِضًا لديانَتِك؛ فجحدْتَ اللهَ تعالىٰ رُبُوبِيَّته، وأنكرْتَه وَحْدانِيَّته ؛ وقطعْتَ عِصْمةَ محمدٍ صــلّى الله عليه وســلم وجذَذْتَها، ورميْتَ طاعَتَــه وراءَ ظهرِك ونبذْتَها ؛ ولَقِيتَ اللهَ يومَ الحشرِ إليه، والعَرْضِ عليــه، مُخالِفًا لأمْرِه، وخائنًا لعَهْده، ومقيمًا علىٰ الإنكارِ له ، ومُصِرًّا علىٰ الإشراكِ به ؛ وكُلُّ ما حلَّله الله لك محرَّمٌ عليــك، وكُلُّ ما تملكه يومَ رُجُوعِك عن بَذْلِك، وآرتجاعِكَ ما أعطيْتَه في قولك : من مالٍ موجودٍ ومَذْخُور، ومَصُــوغ ومَضْروب، وسارِحٍ ومَرْبوط، وسائم ومعقُول؛ وأرضٍ وضَــيْعه، وعَقَار وعُقْــده، ومملوكٍ وأَمَه، صــدقةٌ علىٰ المَسَاكين ، محرَّمةٌ تلىٰ مرّ السّنين ؛ وكُلُّ امرأةٍ لك تملكُ شَعَرها وبَشَرها ، وأُخرىٰ تتزوّجُها بعدها، طالقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّنَّة لا رجعةَ فيــه ولا مَثْنَوِيّةَ؛ وعليك الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحرامِ الذى بمكّةَ ثلاثين دَفْعَــة حاسِرًا حافِيــا ، راجلًا ماشِـــيا ، نَذْرا لازما ، ووَعْدا صادقا ، لا يبرِّئُك منها إلا القضاءُ لهــا ، والوفاءُ بها ؛ ولا قَبِلَ اللهُ منك تَوْبةً ولا رَجْعةً؛ وخذَلَك يومَ الاستنصار بحَوْله ، وأسلمَك عنــد الاعتصام بحبْله ؛ وهذه الْيمِينُ قولُك قلتَها قَوْلا فَصِيحا ، وسرَدْتَها سَرْدا صحيحا ؛ وأخلصْتَ فيها سِرَّك إخلاصًا مُبِينا ، وصدَقْتَ فيما عَزْمِك صِدْقا يَقِينا؛ والنيةُ فيها نيةُ فلان أميرِ المؤمنين دُونَ نِيَّتك ، والطَّوِيَّةُ فيها طوِيَّتُه دُونَ طوِيَّتك؛ وأشهدتَ اللهَ علىٰ نَفْسك بذلك وكفىٰ باللهِ شَهيدا ، يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نفس عليها حافظًا ورَقِيبا .

⁂

وهـذه نسخةُ بَيْعةٍ أُخرىٰ من هذا الأُسلوب ، أوردها آبنُ حَمْدُونَ فى تَذْكِرته ، وربَّمـا وافق فيها بعضَ ألفاظ البيعة السابقةِ، وهى :

تُبايعُ الإمامَ أميرَ المؤمنين فلانا بيعةَ طَوْعٍ وإيثـار ، وآعتِقادٍ وإضمار ، وإعلان وإسْرار ؛ وإخلاصٍ من طوِيَّتك ، وصِـدْقٍ من نِيَّتك ؛ وآنشراحِ صـدرِك وصِحّة عزيمتك ؛ طائعًا غيرَ مُكْرَه ، ومُنْقادا غيرَ مُجْبَر ؛ مُقِرًّا بفضلها ، مُذْعِنـا بحقِّها ؛ معترِفا ببركتها ، ومعتـدًّا بحُسْن عائدتها ؛ وعالمـًا بمـا فيها وفى تَوْكيدهامن صَلَاح الكافّة ، وآجتماعِ الكلمـة [من] الخـاصّة والعامّه ، ولَمِّ الشَّعَث ، وأَمْن العَواقِب ، وسُكُونِ الدَّهْماء ، وعِزِّ الأوليـاء ، وقَمْعِ الأعداء ــ علىٰ أنَّ فلانا عبدُ الله وخليفتُه ، المفترَضُ طاعتُه ، والواجبُ علىٰ الأمة إقامتُه ووِلايتُه ؛ اللازمُ لهم القيامُ بحقِّه ، والوفاءُ بعهْده ؛ لاتشُكُّ فيـه ، ولا ترتابُ به ، ولا تُداهِن فى أمره ولا تَميل . وأنك وَلِيُّ وليِّـه ، وعدُوُّ عدوّه : من خاصٍّ وعامّ ، وقريبٍ وبعيـدٍ ، وحاضِرٍ وغائبٍ ؛ متمسِّكٌ فى بيْعته بوَفَاء العهْد ، وذِمَّة العَقْد ؛ سريرتُك مثـلُ علانِيَتِك ، وظاهرُك فيه وَفْقُ باطِنك ــ علىٰ أنْ أعطيتَ اللهَ هـذه البَيعةَ من نَفْسِـك ، وتوكيدَكَ إيَّاها فى عُنُقِـك ، لفلانٍ أميرِ المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك ، وآسـتِقامةٍ من عَزْمك ، وآستمرارٍ من هَوَاك ورَأْيك ــ علىٰ أن لاتتأوَّلَ عليـه فيها ، ولا تَسْـعىٰ فى نَقضِ شيءٍ منها ، ولا تقْـعدَ عن نَصْره فى الرَّخاء والشِّـدّة ، ولا تَدَعَ النصرَله فى كلِّ حالٍ راهنةٍ وحادثة ؛ حتّى تلقىٰ الله مُؤْذِنا بهـا ، مُؤَدِّيا للأمانةِ فيها ؛ إذ كان الذين يُبـايعونَ وُلاةَ الأمر ، وخلفاءَ الله فى الأرض ﴿ إنَّمـا يُبايِعُـونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوقَ أَيْديهِـمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمـا يَنْكُثُ علىٰ نفسه ﴾ .

عليكَ بهذه البيعة ـ التى طوّقتها عُنُقك، وبَسَطْتَ لها يدَك، وأعطيتَ فيها صَفْقتك، وما شُرط عليكَ فيها: من وفاء ومُوالاة، ونُصْح ومشايعه، وطاعة وموافقة واجتهاد ومتابعه ـ عهدُ الله إنَّ عهدَ الله كان مَسْئُولا . وما أخذ اللهُ تعالىٰ علىٰ أنبيائه ورُسُله عليهم السلام، وعلىٰ مَنْ أخَذَ من عباده، وَكِيدات مَوَاثِيقه ومُحْكَمات عُهُوده، وعلىٰ أن تَمَسَّكَ بها ولا تُبَدِّل، وتستقيمَ ولا تَميل، وإن نكثتَ هذه البيعةَ أو بدَّلت شَرْطا من شُروطها، أو عَفَّيت رسْما من رُسُومها، أو غَيَّرت حُكْما من أحكامها، معلِنًا أو مُسِرًّا أو مُحتالا أو مُتأوِّلا، أو زِغتَ عن السبيل التى يَسْلُكُها من لا يُحَقِّر الأمانه، ولا يستحِلُّ الغَدْر والخيانه، ولا يستجيزُ حَلَّ العقود، فكلُّ ما تملكه من عينٍ أو وَرِق أو آنيه، أو عَقَار أو سائمة، أو زَرْع، أو ضَرْع، أوغير ذلك من صُنُوف الأملاك المعتدّه، والأموال المُدّخره، صدقةٌ علىٰ المساكين، مُحرَّمٌ عليك أن ترجع من ذٰلك إلىٰ شىء من مالك بحيلةٍ من الحِيَل، علىٰ وَجْه من الوجوه، وسببٍ من الأسباب، أو مَخْرَج من مَخارج الأيمان، وكلُّ ما تعتدّه فى بقيّة عمرك من مالٍ يقِلُّ خَطَرُه أو يجِلُّ فتلك سبيلُه إلىٰ أن تتوفّاك منيّتُك أو يأتيك أجلُك، وكلُّ امرأةٍ لكَ[1] اليومَ: وأخرىٰ تتزوّجها بعدها مدّةَ بقائك طالقٌ ثلاثًا بتاتًا، طلاقَ الحَرَج والسُّنّة لا مَثْنويّةَ فيه ولا رجْعَة، وعليك المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجّة حافيا، حاسِرًا راجلا، لا يَرْضىٰ اللهُ منك إلّا بالوفاء بها، ولا يقبلُ اللهُ منك صَرْفا ولا عَدْلا، وخذلك يوم تحتاجُ إليه، وبرّأك من حَوْله وقُوّته، وألجأك إلىٰ حَوْلك وقُوّتك، والله عزَّ وجل بذٰلك شهيدٌ، وكفىٰ به شَهيدا .

---

(١) فى الأصول "وكل علوك لك اليوم من ذكر وأنثى مدة" الخ وهو غير مناسب كما لا يخفى .

* * *

وهـذه نسخة أخرى من هـذا الأسـلوب ، أوردها أبو الحسين الصابى فى " غُرَر البلاغة " وهى :

تُبايِعُ أميرَ المؤمنين بقُوّةٍ من بَصيرتك ، وصِحّة من سَريرتك ، وصَفاءٍ من عَقِيدتك ، وصِدْقٍ من عَزِيمتك ، علىٰ الرِّضا [به] والوَفَاء له ، والإخلاصِ فى طاعته ، والاجتهادِ فى مُناصحته ، وعَقْد النيّة علىٰ مُوالاته ، وبَذْل القُدْرة فى ممالاته ، وأن تكونَ لأنصاره عَوْنا ، ولأوليـائه حِزْبا ، ولأعدائه حَرْبا ، عارفينَ بمـا فى ذلك من الحَظّ ، ومعترفين بمـا يلزَمُ فيه من الحقّ ، ومحافظين علىٰ ماحَرَس المِلّةَ الإسلاميّة ، والدولةَ العبّاسيه ، ثبّت الله قواعِدَها ، وأحكم مَعاقِدَها ، وزادها آستمرارا علىٰ مَرّ الدُّهور ، وآستقرارا علىٰ كَرّ العُصُور ، وعِزّا علىٰ تنَقُّل الأمور ، وآشتِدادا علىٰ تغلُّب المَقْدور ، فإن خالفتُ ذلك مُسِرّا أو مُعْلِنا ، وحُلْتُ عنه مُظْهِرا أو مُبْطِنا ، وحلَلْتُ عقُودَه ناكِثًا أو ناقضا ، وتأوّلتُ فيه مُحاوِلا للخُروج منه ، وآستثنيتُ عليه طالبًا للرجوع عنه ، فبرِأَنِى اللهُ من حوله وقُوّته ، وسلَبَنِى ماوَهَبَ من فضْله ونِعمته ، ومنعنِى ماوعدَ من رأفته ورحمته ، وخلّانى من يَدَيْه ، يومَ الفَزَعِ الأكبر لدَيْه ، وحنث كلّ يمين حلَفها المسـلمُون علىٰ قديم الأيّام وحدِيثها ، والتّناهى فى تأكيدها وتشديدها ، وأعرَوْها من لباس الشُّبْهه ، وأخلَوْها من دَواعى المخاتَلَه ، وهذه اليمينُ يمِينى : أوردتُها علىٰ صِدْق من نِيّتى ، وصحّـةٍ من عزِيمتِى ، وآتّفـاقٍ من سرِّى وعَلانِيَتى ، وسرَدْتُها سَرْدا متتابِعا من غير فَصْـل ، وتلفظت بها تلفُّظا من غير قطع ، والنيّةُ فيها نيّةُ فلان : علىٰ حُضُور منـه وغَيْب ، وبُعْـد وقُرْب ، وأُشْهِد الله تعالىٰ بمـا عقدْتُه علىٰ نفسى منها ، وكفىٰ بالله شهيدا علىٰ من أشهده ، وحسيبًا علىٰ من آجترأ علىٰ إخفار عهْده ، ونقض عقده .

قلت : فإن كان من تؤخذ عليـه المبايعة آثنين ، أُتِى فى المبايعة بصيغة التثنية؛ أو ثلاثة فأكثر، أُتِى بصيغة الجمع . ولم أقِف علىٰ كيفية وضعهم لذٰلك فى الكتابة، والذى يظهر أن المبايعة كانتْ تكتَبُ علىٰ الصورة المتقـدّمة ، ثم يكتُب المبايِعُون خطوطهم بصُدُورها عنهم؛ كما يفعل الآنَ فى تحليف من يحلَّف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممـالك الشامية ، أو يُشْهَد عليهـم فى آخر البيعة بمعاقَدتهم عليها ورضاهُم بها ونحو ذٰلك .

المـــذهب الثـانى
(ممـا يكتب فى بَيْعـات الخلفـاء)

أن تُفْتتح المبـايعةُ بلفظ « من عبْدِ الله ووليِّـه فلانٍ أبى فلان الإمام الفُلانى » إلىٰ أهل دَوْلته ، ونحو ذٰلك[1] بالسَّلام عليهم، ويُؤْتىٰ بما سَنَح من الكلام، ثم يُقال : أمّا بعدُ، فالحمدُ لله ؛ ويؤتىٰ علىٰ وصْـفِه بشريف المَنَـاقب، وآستحقاقِه للخلافة ، وآستِجْماعه لشُرُوطها، وما يجْرِى هذا المَجْرىٰ؛ ثم ينْخرِطُ فى سِلْك البيعة ، ويذكُر القـائمَ بأخذها علىٰ الناس من سُلْطانٍ أو وزيرٍ عظـيم أو نحو ذٰلك؛ ويذكُر من أمر ولايةِ الخليفةِ ما فيـه آسـتجلابُ قلُوبِ الرعية والأخذُ بخواطرهم وما ينْخـرط فى هذا السِّلْك .

وهذه نسخةُ بَيْعةٍ من هذا الأسْـلوب ، لولىِّ عهْد بعد موْتِ العاهد ، كُتِب بها لبعض خُلَفاء الفاطميين ، ليس فيها تعرُّض لذكر الوزير القائم بها، وهى :

---

(١) لعله ونحو ذلك ويتبع ذلك الخ تأمل .

من عبد الله ووليّه «أبي فلان فلان بن فلان» الإمام الفلاني، بأمر الله تعالى أمير المؤمنين، إلى من يضمّه نطاق الدولة العلوية: من أمرائها وأعيانها، وكبرائها وأوليائها؛ على اتّساع شعوبهم، وعساكرها على اختلاف ضروبهم؛ وقبائل عربها القيسيّة واليمنيّة، وكافّة من تشمله أقطارها من أجناس الرعيّة: الأمير منهم والمأمور، والمشهور منهم والمغمور؛ والأسود والأحمر، والأصغر والأكبر؛ وفّقهم الله وبارك فيهم .

سلامٌ عليكم، فإنّ أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو، ويسأله أن يصلّي على محمد خاتم النبيّين، وسيّد المرسلين، صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديّين، وسلّم تسليما .

أما بعد، فالحمد لله مولي المنّ الجسيم، ومبدي الطّول العميم، ومانح جزيل الأجر بالصّبر العظيم، مفيد النعم المتشعّبة الفنون، ومدني المهج المتعالية لتناول المنون؛ ومبيد الأعمار ومفنيها، وناشر الأموات ومحييها؛ والفاتح إذا استغلقت الأبواب، والقائل: ﴿لكلّ أجلٍ كتاب﴾ الذي لا يغيّر ملكه مرور الغير، ولا يصرف سلطانه تصرّف القدر؛ ولا يدرك قدمه وأزليّته، ولا ينفد بقاؤه وسرمديّته؛ مسلم الأنام للحِمام، ومصمي الأنفس بسهام الاخترام؛ ومورد البشر من المنيّة منهلا ما برحوا في رنقه يكرعون، ولمرّه المشرق يتجرّعون؛ ومعزّز ذلك بقوله: ﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنةً وإلينا ترجعون﴾ .

والحمد لله الذي نصب الأنبياء لمراشده أعلاما، وحفظ ببعثهم من الحقّ والهدى نظاما؛ وجعل نبوّة جدّنا محمد صلّى الله عليه وسلم لنبوّاتهم ختاما، وعضّد بوصيّه أبينا

امير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كَالا للدِّين و إتمـاما ، وٱستخلَص من ذُرّيتهما أئمةً هادينَ إتقانًا لصَـنْعته و إحْكاما ، وأنامَ الحُجّـــة علىٰ الأُمَم بأنْ أقامَ لكلّ زمانٍ منهم إمامًا، وعاقَبَ بيْنَ أنوار الإمامة فإذا ٱنقبَضَ نورٌ ٱنبَسَط نُور ، وتابـعَ ظُهورَ بُدُوره لِيُشرِق طالعٌ إثرَ غاربٍ يغُور ، رحمــةً شاملةً للعــالَمين ، وحكمةً تامّةً حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خيرُ الوارِثين ، ولم يُخْلِ نَبِيًّا مع ما شرَّفه [به] من تناوُلِ وَحْيه وتلقّيه ، ولا عَصَم إماما مع ٱختِصاصِــه بفُروع مَنْصب الإمامة وترَقّيه ، من لِقَــاء المنيّه ، ووَدَاع الأُمنيّه ، بل أجّل لكلٍّ منهم أجَلًا مكتوبا ، وفَسّح له أمَدًا محصُورا محسوبا ، لايقْصُرُه عن وُصُوله تَضيِيله ، ولا يَصِل إلىٰ تجاوُزه بقُوّة ولا حيله ، قُدْرةٌ محكمَة الأســباب ، وعِبْرةٌ واضحةٌ لأُولِي الألباب ، وقضــيّةٌ أوضحَها فُرقانُه الذى أقرّ بإعجازه الجاحدُون ، إذ يقول مخاطبا لنبيه : ﴿ وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإنْ مِتَّ فَهُمُ الخَــالِدُونَ ﴾ .

والحمــدُ لله الذى مَنَــح أميرَ المؤمنين من خَصائص الإمامة وأنْوارِها ، وحازَ له من ذَخائرِها وأودَعَه مِــن أسْرارها ، ماخوّلَه فاخرَ تُراثِها ، وأصارَ له شَرَفَ ميراثِها ، وجعله القائمَ بحقّه ، والمرشِدَ لخلْقه ، والماحِيَ بهُدَاه لِيَلَّا من الضّلال بهيا ، والحاوِيَ بخلافته مجدًا لايزالُ سَناؤُه عظِيما : ﴿ ذلكَ الفضْلُ مِنَ اللهِ وكَفىٰ بِاللهِ عَليما ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنــين علىٰ أنْ أوضَحَ بآبائه الأئمــة سُبُلَ الحقــائق ، فأصبحُوا خلفاءَ الخــالِقِ وأئمّــةَ الخــلائق ، وخوّلَه ما ٱختصّهم به من الإمامه ، ورفَعــه بها إلىٰ أشمَخ منــازلِ العُلَا وأرفَع مَواطِن الكَرامه ، ويستمِدُّه شُـكْرا يُوازِى النِّعَمَ التى أشبَقَتْ [له] علىٰ سرير الخلافة وسِرِّها نَدَما ، وصَبْرا يُوازِنُ الفجيعةَ التى قَلَّ لها فيضُ المَـــدَامع دَمًا .

ويسأله أن يصلّي على جدّه محمد الذي فضّ بجهاده جموعَ الإلحاد، وحصد باجتهاده مَنْ مال عن الهُدَىٰ وحَاد، وصَدَع بما أُمِر به حتّى عمّ التوحيد، ودانَتْ لمُعجِزاته الأممُ وقد دعَاها وهو المُفردُ الوحيد؛ ولم يزلْ مبالغًا فى مرضاة ربّه، حريصًا على إظهار دينه بيده ولسانه وقلبه؛ حتّى آستأثر به وقبضه، وبدّله من الدنيا شرفَ جِوَاره وعوّضَهُ؛ وأصاره إليه أفضلَ نبيّ بصّر وبشّر، وأحيا دينَ الله وأنشر؛ وعلىٰ أبيه أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب إمامِ الأمّه، وأبى الأئمّه؛ وقُدوةِ السعداء، وسيِّد الشّهداء؛ وعاضدِ الدِّين بذى الفقار، ومَنْ لم يَزَل الحقّ إلىٰ ذَبّه شديدَ الافتقار؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آبائه والأئمة من ذرّيّتهما الذين أيقظُوا العُقولَ بإرشادِهم من السِّنَه، وأفاضُوا من العدْل والإحسان ماألهجَ بتمجيدهم الألسِنَه.

وإنّ الإمامَ الفلانىّ لدين الله أميرَ المؤمنين كان وليًّا لله شرّفه الله وآستخلَصه، وأفردَه بإمامة عَصْره وخَصّصه؛ وفوّض إليه أمرَ خلافته، وأحلّه محلًّا تقعُ مَطارحُ الهِمَم دُونَ علوّه وإنافته؛ فقام بحقّ الله ونَهَض، وعمِل بأمره فيما سَنّ وفَرَض؛ وقهر الأعداءَ بسَطَواته وعزَائمه، وصرّف الأمورَ بأزِمّة التدبير وخزائمه؛ وبالغ فى الذّبّ عن أشياع المِلّه؛ وآجتهَدَ فى جِهَاد أعداءِ القبله؛ ووقف علىٰ مصلحةِ العباد والبلادِ أملَه، ووفّر علىٰ مايُحظِى عندَ الله قولَهُ وعمَلَه؛ ولم يترُك فى مرضاة خالقه مشقّة إلا آحتمَلَها، ولارويّةً إلا صرّفها فى إرشادِ خلقه وأعمَلَها؛ حتّى بلغ الغايةَ المحدُوده، وآستكمَلَ الأنفاسَ المعدُودَه؛ وأحسنَ اللهُ له الاختيار، وآثرله النُّقلةَ من هذه الدار والزُّلفىٰ بسُكنىٰ دار القَرَار، والفوزَ بمصاحبة الأنبياء الأبرار، والحُلُولَ فى حظائر قُدسه مع آبائه الأئمّة الأطهار؛ فسار إليه طاهرَ السّريره، جميلَ المَذْهب والصّوره؛ مستوجبًا بسَعْيه أفضلَ رضوانه، ممهّدًا بالتقوىٰ لتدبيره أكنافَ جنانه.

وأمير المؤمنين [يحتسب] عند الله هذه الرزيّة التى عظُم بها المُصاب، وعظم عند تجرّعها الصّاب ؛ وأضرمت القلوبَ نارا ، وأجرت الآماقَ دمًا مُمَارا[1] ؛ وأطاشت بهَولها الأكبادَ بالحَرَق، وكحّلت الأجفانَ بالأرَق ؛ وكادت لهُجُومها الصدورُ تَقذِف أفئدتَها، والدنيا تنزِع نضرتَها وبهجتَها ؛ وقواعدُ الملّة تضعُف وتَهِى ، والخطوبُ الكارثةُ تُصِرّ[2] ولا تنتهى، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ! تسليماً لأمره الذى لا يُدفَع، وإذعاناً لقضائه الذى لا يُصَدّ ولا يُمنَع .

وكان الإمام الفلانىّ لدين الله أميرُ المؤمنين عند نُقلته جعل لى عَقْدَ الخلافه ، ونصّ علىّ بارتقاءِ مَنصِبها المخصوص بالإنافه ؛ وأفضىٰ إلىّ بسرّها المكنون ، وأودعَنى غامضَ علمها المَصُون ؛ وعَهِد إلىّ أن أشمَلَكم بالعَدْل والإحسان، والعطف والحَنان ؛ والرحمة والغُفران، والمنّ الرائق الذى لا يكدّره آمتنان ؛ وأن أكونَ لأعلام الهُدىٰ ناشرا ، وبما أرضىٰ الله مُجاهِرا ، ولأحزاب القِبلة مُظافِرا مُظاهِرا ، ولأعداء الملة مُرغِما قاهرا ؛ ولمَنار التوحيد رافعا ، وعن حَوْزة الإسلام بغاية الإمكان دافعًا ؛ مع علمه بما خُصِصتُ به من كَرَم الشِّيَم، وفُطِرتُ عليه من الخِلال القاضيةِ مصالحَ الأمَم ؛ وأُوتيتُه من آستحقاق الإمامة وآستيجابها ، ومُنِحتُه من الخصائص المُبرَمة لأسبابها .

فتعزّوا جميعَ الأولياء ، وكافّةَ الأمَراء ، وجميعَ الأجناد ، والحاضرِ من الرّعايا والباد ؛ عن إمامكم المنقول إلىٰ دار الكَرامه ، بإمامكم الحاضر الموجودِ الذى أورثه الله مَقامَه ؛ وآدخُلوا فى بَيْعته بصُدورٍ مشروحةٍ نقيّه ، وقلوبٍ علىٰ محض الطاعة مطويّه ؛ ونيّات

(١) مار الدم سال وأماره أساله . انظر القاموس .

(٢) أى تدوم من قولهم أصر علىٰ الأمر داوم عليه .

فى الوَلَاء والمشايَعة مَرْضِيّة ، و بصائرَ لاتزال بنُور الهُـدىٰ والاستبصار مُضيّة ؛ وأميرُ المؤمنين يسألُ اللهَ أن يجعل إمامته محظُوظةً بالإقبـال ، دائمةَ الكمال ؛ صافيةً من الأكدار ، معضُودةً بمُواتاة الأقـدار ؛ و يوالى حمْدَه علىٰ مامَنحه من الاصطفاء الذى جعله لأمور الدِّين والدنيا قِوَاما ، وأقامه للبريّة سـيّدا و إماما ؛ فاعلمُوا هـذا واعملُوا به ، والسلامُ عليكم و رحمةُ الله و بركاته .

وكتب فى يوم كذا من شهر كذا سنة كذا .



وهذه نسخة بيعة : كتب بهـا عن الحافظ لدين الله الفـاطمىّ بعـدَ وفاةِ ابن عمـه الآمرِ بأحكام الله ، قام بعَـقْدها الوزيرُ أبو الفتح يانِس الحـافظى ؛ اقتصر فيهـا علىٰ تحميـدةٍ واحدةٍ ، وعَزَّى بالخليفـة الميِّت ؛ ثم انتقل إلىٰ مقصُود البَيْعـــة ، وهى :

من عبدِ الله ووليّه عبدِ المجيد أبى المَيْمُون ، الحافظ لدينِ الله أميرِ المؤمنين ، إلىٰ كافّة أهـل الدولة شريفِهِـم ومشْرُوفِهم ، وأميرِهـم ومأمُورِهم ، وكبيرِهـم وصغيرِهم ؛ وأحمَرِهم وأسْوَدِهم ، وفّقهم الله و باركَ فيهم .

سـلامٌ عليكم ، فإنّ أميرَ المؤمنين يحمَد إليكم اللهَ الذى لاإلٰه إلّا هو ؛ و يسألُه أن يصلى علىٰ جدّه محمدٍ خاتَمِ النبيين وسيِّد المرسَلين ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، الأئمة المهْدِيِّين ؛ وسلَّم تسليما كثيرًا .

أما بعد ، فالحمدُ لله اللطيف بعبادِه و برِيّته ، الرءُوف فى أقداره وأقضِيَته ، المُهيْمن فلا يخرج شىءٌ عن إرادتِه ومَشيئته ؛ ذى النِّعم الفائضـة الغامِرة ، والمِنَن المتتابِعة

المتظاهرَه، والآلاءِ المتواليـةِ المتَناصِرَه ، القائل فى محكم كتابه : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ فى الحياةِ الدُّنْيا وفِي الآخِرَةِ ﴾ . مدَبِّرِ أرضه بخُلَفائه، الذين هم زينةٌ للدنيا وبَهْجَه، وهادى خَلْقِه بأوْليائه، لئلا يكونَ للنَّاس علىٰ اللهِ حُجّه ؛ فسُبْحانَ الذى هو للنعم مُسْبِـغ وبالكرم جَدِير، و﴿ تَبَـارَكَ الَّذِى بِيَـدِهِ المُلْكُ وهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنين أنْ جعَلَه خليفةً دُونَ أهل زَمانِه، وأوجبَ ثوابَ المستَجيبين له بكَفَالتـه وضَمانه، وجعلهم يومَ الفَزَعِ الأكبرِ مكْنُوفِينَ بحِفْظه مشمُولِينَ بأَمَانه ؛ وأوْزَعَه الشُّـكْرَ علىٰ ما ٱسترعاه إيّاه من أمرِ هذه الأُمَّه ، ونَقَله إليْه من تُرَاث آبائه الهُداةِ الأَئِمَّه، وكشفه بإمامته من أبْخع نائبةٍ وأفظع مُلِمَّـه .

وصَلَّى اللهُ علىٰ جدّنا محمّدٍ رسولِه الذى أخبر الأنبيـاءُ المرسَلُونَ بصِفتِه ونَعْته، وتَداولُوا البُشْرىٰ بمـا يُسـتقْبَلُ من زمانِه وبعثِه ؛ وذكَرُوه فيما أتَوْا به من كلِّ كتاب أوحاه اللهُ وأنزَلَه ،وٱعترفُوا بأنه أفضَلُ من كلِّ من نَبّأه اللهُ وأرسَلَه ؛فيَسّر اللهُ سبحانَهُ ما كان مُرتَقَبًا من ظُهُوره، وأذِن فى إشراقِ الأرض بمـا ٱنتشر فى آفاقِها من نُورِه؛ وبعثَهُ ـ جلّتْ قُدرتُه ـ إلىٰ الأُمّة بأسْرِها قاطِبَـه ، وجعل ألسِـنةَ الأغمادِ مجادِلةً لمن خالف شَرْعَه مخاطِبَه ؛ فكان لآيةِ الكُفْرِ ماحيا، وفى مصالحِ البَرِيّةِ ساعِيًا، وإلىٰ سبِيلِ ربِّه بالحِكْمَة والمَوْعِظة الحَسَـنَةِ داعِيًا؛ إلىٰ أن لمَعَتْ آياتُ الحقِّ وسطَعَتْ، وٱنحَسَمتْ مادّةُ الباطلِ وٱنقطعَتْ؛ وظهَر من آياته ما كَبُرَ له المُخْبِتُون، وٱشتهَر من مُعجِزاته ما خُصِم به المتعَنِّتُون ، وخاطبه اللهُ فيما أنزَلَ عليه بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ . فحينئذ نقلهُ اللهُ إلىٰ ما أعدّ له من جنّاته، وخصّه بشرف الشّفاعة

فى يوم مُجازاته، وصدّقه وعْدَه فيما بوّأه من النعيم المُقيم : ﴿ ذٰلكَ فَضلُ اللهِ يُؤتيه مَنْ يشاءُ واللهُ ذُو الفَضْل العَظيم ﴾ .

وعلىٰ أبينا أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب أَوْلىٰ الناس بالنبىّ ، وأوّلِ من اتّبعه من ذَوِى قرابةٍ وأجنبىّ ، وابنِ عمّه الذى اختصّه بمُؤاخاته ، وجعله خليفةً علىٰ كافّة الناس بعدَ وفاته ، وتحمّل بأمر الله ، فيما ولّاه وأولاه ، وخطبَ الناسَ فى حَجّة الوَداع فقال : «من كُنتُ مَوْلاه فَعلِىٌّ مَوْلاه» ، وعلىٰ آلهما الكِرام الأبْرار ، وعترتِهما المصطفَيْن الأخيار ، وهُداةِ المسلمين وقُدوتِهم ، وأمراءِ المؤمنين وأئمّتهم ، الذين حكَموا فأقسَطوا وما قَسَطُوا ، وسلك الحاضِرون منهم سَنَنَ أسلافهم الذين فَرَطُوا ، واقتفَوْا آثارهم فى السِّياسة فما قصّروا ولا فرّطوا ، ولم يزل كلٌّ منهم عاملاً من ذٰلك بما حسّن أيامَه ، فاعلاً فى أمر الدِّين ما رفَع منَاره ونشر أعلامَه ، حتّى اختار اللهُ له ماعندَه فنصّ علىٰ مَنْ أقامه الاستحقاقُ مُقامه ، وسلّم عليهم أجمعين سلامًا لا انقضاء لأمَدِه ، ولا انقطاعَ لمَدَده ، فنيل المطالب بكرمه ومَلَكُوتُ كل شيء بيَدِه .

وإنَّ الحقّ إن خَفِىَ حيناً فلا بُدَّ لهلاله من الإبدار وانبساطِ النُّور ، وإن الشمسَ إن توارتْ بالحِجاب فما أوشكَ عودتَها إلىٰ البُزُوغ والظُّهور ، وإنَّ حسنَ الصبر إلىٰ أن يبلُغَ الكتابُ أجلَه يُؤمّن من تدليسة الشيطانِ بالغُرور ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ فى كتابه ، الذى هدانا به ، : ﴿ وإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإنَّ ذٰلكَ مِن عَزْمِ الأُمُور ﴾ .

وإنَّ الله تعالىٰ لرأفتِه بمن أبدعَهُ من خَلقه وأنشاه ، ولسابقِ عِلْمه فى عِمارة هذه الدار علىٰ ماأرادَه عزَّ وجلَّ وشاه ، لايُخْلِى الأرضَ من نُورٍ يستضىءُ به السارى فى الليلِ البَهيم ، ولا يَدَعُ الأمّة بلا إمام يَهْدى إلىٰ الحَقّ وإلىٰ طَريقٍ مُسْتقيم ؛ فهو جَلّ وعَلَا أعدَلُ من أن يَحمل جِيدَ الإيمانِ من حِلىٰ الإمامة عاطلا ، أو يترك

الخلق هَمَــلا وقد قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَــا السَّــمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وما بَيْنَهما باطِلًا ﴾ .
بل يقْطَعُ أعذارَ العِبَاد فيما خَلَقهم له ووقفَهم، ويَهْديهم بالأئمة إلىٰ التوفُّر علىٰ عَمَــل ماألزمهم وكَلَّفهم ؛ فالأمور محروسةُ الترتيبِ محفُوظةُ النِّظام، والأرضُ إذا أظلمتْ لفَقْد إمامٍ، أضاءتْ وأشرقتْ لقِيـام إمَام . وقد علِمَ الكافَّةُ أنَّ حجةَ الله فى أرضه، والمجتَلِبَ من الأعمــال مالم يُرْضِــه، والمحسنَ إلىٰ البريَّة ببعثِه علىٰ المصالح وحَضِّه ؛ الإمامَ الآمِر بأحكام الله أميرَ المؤمنين الذى آتاه اللهُ الحُكْمَ صبِيًّا، ورَفَعه من إرْث النبوّة مكانًا عليّــا ؛ وآستَخْلفه علىٰ خلقِه فكان للفضل باسِطًا ولرايةِ العَــدْل ناشِرا، وجعله لشَمْل المحاسن جامِعًا ولأئمة الخُلَفاء الراشدين عاشِرا؛ لم يزلْ ناظرًا فى البعيد والقَريب، عاملًا فى سياســة الأُمَّة عمــلَ المجتهِد المُصيب ؛ مستقصِياً حِرْصَــه فى المحافظة علىٰ إعزاز المِلَّه، مستنفِداً جُهْدَه فى الجِهَاد فيمن خالَفَ أهل القِبْــله، باذلًا من جزيل العَطَاء وكثيره ما لا يُعرَفُ معه أحدٌ من خاصَّــته بالفقر ولا يُنْسَب معه إلىٰ القِلَّه ؛ حتّىٰ آستوفىٰ مُدّتَهُ المَوْهو به، وآستوعَبَ غايَــة المكتُو به ؛ وناله من القَضَاء ما أخرجه من الدُّنيا سَعيدا، وأقدَمَه علىٰ الله شَهيدا، وأصارَهُ إلىٰ ماأعدّ له من نَعيم لايُرِيد به بَدِيلا ولايطْلُب عليه مزيدا؛ وكان آنتقالُه إلىٰ جِوَار ربِّه تبارَكَ وتعالىٰ، كآنتقال أبيه أميرِ المؤمنين علىِّ بنِ أبى طالب بَغْيًا من الكافرين وآغتِيالا .
وقد كان يَذْكُر مايعْلَمُه من حقِّ أميرِ المؤمنين[1] تارةً مُجاهِرا وتارة مُخافتا، إلىٰ أنْ صار علىٰ بَسْط القول فى ذٰلك وتبيينِه مُثابِرا مُتهافِتا، وأفصحَ بمــا كان مستَبْهِما مستعْجِما، وصَرَّح بمــا لم يزَلْ فى كَشْــفه ممرِّضًا وعن إفصاحه مُحْجِما؛ وذٰلك لمَــاَّ ألفاه أشرفَ فَرْع من سِنْخ النبوّه، ورآه أكْرَم فى نجَارة الأُبُوَّه ؛ وعلمه من أباه الأمير[2] أبَا القاسم

---

(١) المراد به الحافظ لدين الله صاحب هذه البيعة .

(٢) جرىٰ الكاتب علىٰ لغة القصر .

عَمِّه سلامُ الله عليه الذى هو سَلِيلُ الإمامة القليلُ المِثْـل ، ونجلُ الخلافة المخصوصُ من الفَخْر بأجزل حظّ وأوْفَرِ كِفْل ؛ كان المستنصرُ بالله أميرُ المؤمنين سمّاه ولىَّ عهد المســلمين ، وتضمَّن ذلك ما خرجَتْ به توقيعاتُه وتسو يغاتُه إلىٰ الدواوين ؛ وثُبِّت فى طُرُز الأبنيه ، وكُتُبِ الأبتياعات والأشرِيَه ، وعلمته الكافّةُ علمًا يقينا ظلّت فيه غيرَ مُرْتابةٍ ولا ممترِيَه ، وفى ضمن ذلك باطنٌ لايعقلهُ إلا العالمُون ، ولا يُنْكِره إلا من قال فيهم : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ . وذلك أنَّ أميرَ المؤمنين الغرضُ والمَقْصد ، والبُغيةُ والمَطْلَب ، وله عَهْد بالتلويح والإشارَه ، و إليه أوحىٰ بالنّصّ و إن لم يُفْصِــح فيه بالعبـاره ، وكان والدُه الأميرُ أبو القاسم ـ قدَّس الله رُوحَه ـ بمنزلة الأشجار التى يُتأنَّى بهـا إلىٰ أنْ يظْهر زَهَرُها ، والأكمامِ التى يُنْتَظَر بها إلىٰ أن يخرج ثمرُها ، والزَّرَجُونة التى نَقَلتِ المـاءَ إلىٰ العُنْقود ، والسّـحابةِ التى حَملتِ الغيثَ فعمّ نفعُه أهلَ السُّهول والنُّجود ، ومـا يبيِّن ذلك و يُوضِّحه ، و يحقّقه و يصحّحه ، وتَثْلَج به للمؤمنين صُدُور وتَقْوىٰ أفئِــده ، وتَشْهد البصائرُ أنّ النعمةَ به علىٰ الإسلام متتابعةٌ متجدِّدَه ، أنّ الأمرَيْنِ إذا تشابهَا من كلِّ الجهات ، وكانتْ بينهما مُدَد مُتطاولاتٌ متباعدَات ؛ فالسابق منهما يُمَهِّد للتـالِى ، والأوَّلُ أبدًا رمزٌ علىٰ الثانى ؛ ولا خِلافَ بين كافّة المسلمين فى أنَّ اللهَ تعـالىٰ أمر جدَّنَا محمدًا صلىٰ الله عليه وسـلم بعَقْد ولايةِ أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب صلىٰ اللهُ عليه فعَقَدها له يومَ غَدِيرخُمّ ، وأميرالمؤمنين علىٌّ ٱبنُ عمِّــه وكان له حينئذ عَمٌّ حاضر ، وأمضىٰ ما أُمِر به والإسلامُ يومئذٍ غَضٌّ وعُودُه ناضِر ؛ وكذلك أنّ أمير المؤمنيـــن ، هو ٱبنُ عمّ الإمامِ الآمرِ بأحكام الله أميرِ المؤمنين ؛ وقد نصّ مع حضور عُمُومته عليــه ، وفعل مافعَل جدُّه رســولُ الله ٱقتداءً به وٱنتهاءً إليه ؛ وكان أبو علىّ المنصورُ الإمامُ الحـاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين صلواتُ الله عليه ، جعل ٱبنَه عبدَ الرَّحيم إليـاسَ ولىَّ عهد المسلمين ، وميّزه بذلك

علىٰ كافّة الناس أجمعين، ونقش اسمَه فى السّكّة، وأمر بالدعاء له علىٰ المنابر وبمكّة، وألبسه شَدّةَ الوَقار المرصّعةَ بالجوهر، وآستنابَهُ عنه إمامَ الأعيادِ فى الصلاة وفى رُقِىّ المِنبَر، وأقامه مُقامَ نَفْسه فى الاستغفار لمن يُتوفّى من خواصّ أوليائه، وفى الشّفاعة لهم بتَقَبُّل مُناجاتِه ومَسْموع دُعائه، مع عِلْمِـه أنه لايَنالُ رُتبـةَ الخلافه، ولا يبلغ درجةَ الإمامه؛ وأن الإمام الظاهرَ لإعزاز دينِ الله ــ صلى الله عليـه ــ هو الذى خُلِقَ لها، وحِينَ حُمِّل أعباءَها أقلّها وما آستثقلَها؛ وإنمـا تحتَ ذٰلك معنًى لطيفٌ غامض، وسرٌّ عن جُمْهور الناس مستترٌ وبرقُه لأُولى البصائر وامِض: وهو أنّ مكْنُونَ الحِكْمة، ومكتُومَ علم الأمـة، يَدُلّان علىٰ أنّ الإمامَ المنصورَ أبا علىّ، سيَفْعل فيمن يستخلِفُه بعده مثلَ فِعْل النبىّ؛ وقد علم الإمام الحاكم ــ عليه السـلام ــ أنّ المرادَ بذٰلك مَنْ يأتى بعده ممن أَوْلده أو أنسَله، لأنّ ولَدَه حاضرٌ والمقصُودُ مَنْ لاوَلَدَ له؛ فجعل وِلايةَ عبد الرحيم العهْدَ تأسِيسا لمـا سيكون، وتَنْلا للنُّفُوس من الاِنْزِعاج إلىٰ أن تَشْمَلَها الطُّمأنينة والسُّكون؛ فلمّا أفضىٰ اللهُ إلىٰ الإمام المنصور أبى علىّ الإمامِ الآمرِ بأحكامِ اللهِ أميرِ المؤمنين بالخلافة التى جعلها واجبًا له حقّا، ووافق جدّه ــ عليه السـلام ــ وكان لقبُه من لقبِـه مشتقّا، ظهر المنكَتِم، ووَضَح المستتِر؛ وعاد التعريضُ تَصْريحا، والتمريضُ تَصْحِيحا، والرَّمْزُ إبانَه، والنصُّ علىٰ أمير المؤمنين أمانه؛ فاقتدىٰ بجـدّه رسولِ الله صلّى الله عليه وسـلم فى آستخلاف أمير المؤمنين مع حُضُور عُمُومته، وفعـل فى ذٰلك فَعْلَتَه وجرىٰ علىٰ قضيّته؛ وكَشَف عمّا أبهمَهُ الإمامُ الحاكمُ بأمر الله قدّس الله لطيفَتَه فتَساوىٰ الخاصُّ والعامُّ فى معرفته؛ ثم حلّه أميرُ المؤمنين محلّ نفسـه فى الجُلُوس علىٰ الأسمِطه، وعمّـل لأوليائه ورعيّته فى ذٰلك بالقَضايا المُحِيطه؛ ونَصَبه مَنْصِبَه فى الصلاة علىٰ مَنْ جرتْ عادتُه بالصلاة علىٰ مثله؛ وجمع فى اعتمادِ ذٰلك بينَ إحسانه وفضـله وبينَ امتنانه وعَدْله؛ وإذ قد تبيّن هـذا

الأمرُ الواضحُ الجَلِيّ ، وتساوىٰ فى علمه الشانئُ والوَلِىّ ؛ وعلم هو ماخَصَّ الله به أميرَ المؤمنين من الإمامه ، وأزاله عن العُقُول من ضَبابِ متكاثِف وغَمامه ؛ وشَمِله به من فَضْله ورافته ، ونصَبَه فيه من مَنْصِب خلافته ، التى أيّدها بوليّه ووزيره ، وعضّدها بصفيّه وظهيره ، السيد الأجل أبى الفتح يانس الحافظىّ الذى جعله الله علىٰ آعتنائه بدَوْلة أمير المؤمنين من أوْضح الشواهد والدلائل ، وصَرَف به عن مملكته محذُورَ الصُّروف والغَوَائل ؛ وأقام منه لمُناصحة الخلافة مُخْلِصا جمعَ فيه أسبابَ المَناقب والفَضائل ، وأيده بالتوفيق فى قوله وفِعْله فأربىٰ علىٰ الأَواخِر والأوائل ؛ ودلّت سيرتُه الفاضلةُ علىٰ أنه قد عَمَر مابينَ الله وبيْنَه ، وحكمتْ سُنّته العادلةُ أن كلّ مدْح لا يبلغُ شاءَه وكلّ وصف لا يقعَ إلّا دُونه ؛ والله يضاعف نِعَمه عنده ولدَيْه ، ويفتَحُ لأمير المؤمنين مشارقَ الأرض ومَغارِبَها علىٰ يدَيْه ؛ وهذا يحقّق أنّ الإسلام قد أحدثَ له قُوَّةً وتمكينا ، وأن ذَوِى الإيمان قد آزدادُوا إيمانا واستِبْصارا ويقينا ؛ فيجبُ (1) عليكم لأمير المؤمنين أن تدخُلوا فى بَيْعته مُنشرحةً صُدُورُكم ، طيّبةً نفوسُكم ؛ مجتهدِين له فى خدْمة تُقابِلون بها إحسانَه ، متقرّبين إليه بمناصحة تُحظِيكم عندَ الله سبحانَه ؛ عاملين بشرائط البَيْعة المأخُوذة علىٰ أمثالكم الذين يُتّبَعون فى فعلهم ، ويقعُ الإجماع بمِثْلهم ؛ ولكم علىٰ أمير المؤمنين أن يكون بكم رَحِيما ، وعن الصغائر مُتجاوِزا كريما ، وبالكافّة رءُوفا رفِيقا ، وعلىٰ الرَّعايا عَطُوفا شفيقا ، وأن يصفح عن المسىء مالم يأْتِ كبيره ، ويُبالِغَ فى الإحسان إلىٰ مَنْ أحسن السِّيره ؛ ويُولِىَ من الإفضال مايستخلِصُ الضمائر ، ويُسبِغَ من الإنعام مايقتضى نَقاءَ السرائر ؛ وأمير المؤمنين يسألُ اللهَ أن يعرِّفكم بركَةَ إمامته ، ويُمْنَ خلافته ؛ وأن يجعلها ضامنةً بلُوغَ المطالب ، كافلةً لكافّتكم بسعادة المبَادِئ والعَوَاقب ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(1) هذا متعلق إذ قد تبين كما لا يخفىٰ .

المـــــــذهب الثـالث

(أن تُفتتح البيعةُ بعدَ البسملة بخُطبة مفتتَحة بالحمدُ لله، ثم يؤتىٰ بالبعديّة ويُتخلّص إلىٰ المقصود، وقد يُذْكَر السلطان القائمُ بهـا وقد لا يُذْكَر . وعلىٰ ذلك كانتْ تكتَبُ بيعاتُ خُلفاء بنى أُميّة بالأندلُس، ومن آدّعىٰ الخلافة ببلاد المَغرِب)

وهذه نسخةُ بيْعةٍ كتب بهـا طاهرُ الأندَلُسيّ، فى أخذ البيعة علىٰ أهل دانِيَـة من الأندَلُس، للرشيد بن المأمون الأُموىّ، وهو متصبٌّ فى الخلافة : نكُلّف توهُّمه من الرعية . آقتصر فيهـا علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ، وليس فيها تعرُّض لسلطانٍ قائم بعقْدها، وهى :

الحمدُ لله الذى أسبَغَ إنعامَه باطناً وظاهِرا، وسوَّغَ إفضاله هامِلاً وهامِرا، وأعجزَ عن وصْف إحسانه ناظِما وناثِرا، وقَهر الخلقَ ناهيًا وآمرا، وتعـالىٰ جَدُّه فلا ترىٰ له مُضاهِيًا ولا مُظاهِرًا، ولا مُوازِيا ولا مُوازِرا، ونصر الحقَّ وكفىٰ به وليًّـا وكفىٰ به ناصِرا، وجعل جَدّ المطيع صاعِدًا وجَدّ العَصِىّ عاثِرا، وحذّر من الخلاف باديًا وحاضِرا، وماضِيًا وغابِرا .

نحمدُه سبحانَه علىٰ نِعَمه حمدَ من أصبح لعُلَق الحمد ذاخِرا، ونشكُره علىٰ مِنَنه ولن يُعْـدِم المزيدَ منه شاكِرا، ونَضرَع إليه أن يجعل حظَّنا من برَكة الاعتصام وافِرا، ووجْهَ نِيَّتنا فى الانتظام سافِرا، وأن يمنحَ أولياءَه النصرَ ظاهرًا والفتحَ باهِرا، وأعداءه الرُّعب شاجِيًا والرُّغم شاجِرا، ونشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ شهادةَ من أقرّ له بالوحدانيـة صاغِرا، وأضحىٰ لأوامره ممتثِلًا ولنواهيه مُحاذِرا، ونسأله أن يجعلَ حزْب الإيمـان

ظافرا، ويُمِدّه بنَصْره طالبًا للثار ثائرا؛ وصلّى الله على سيدنا محمد رسوله الذى آنتخبه من صَفْوة الصَّفْوة كابرًا فكابرا، وجعله بالفضيلة أوّلًا وبالرِّسالة آخرا؛ فأيقظ بالدِّعاية ساهيًا وناسيًا وسكّن بعد الإبانة منافيا ومنافرا، وأذهب بنُوره ليلًا من الجهالة ساترا؛ وقام بجهاد الكَفَرة لَيْثا خادرا، وباشر بنفسه المكارهَ دارعا وحاسِراً؛ وشهد بَدْرا مبادرا، وحُنَيْنًا مُنْذِرًا بالخبر نادرا؛ وظهَر عليهم فى كلّ المَشاهد غالبا وما ظَهَروا نادرا؛ وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبُه وخليفتُه، المعلومةُ رأفته، أبو بكر الذى آقتحم لهَوْل الرِّدّة مصابِرا، وسلّ فى قتال الرُّوم أهلِ الجَلَد والشّدّة سيْفا باترا؛ ومنهم القوىُّ فى ذات الله عمرُ الذى أصبح به رَبْعُ الإسلامِ عامرا، ولم يَخْشَ فى الله عاذلاً ولم يَرْجُ غادِرا(١)؛ ومنهم الأصدَقُ حياءً عثمانُ مُلاقِى البلوى صابِرا، والخَفِرُ الذى لم يُرَ للأذِمّة خافرا؛ ومنهم أقضاهم علىٌّ الذى قاتل باغيًا وكافرا، وبات لخوف الله ساهِرا؛ ورضى اللهُ عن الإمام المهدىّ الذى أطلعه نُورا باهِرا، وبحرًا للعلم زاخِرا، وأتى به والضَّلالُ يجرّ رَسَنَه سادِرا، والباطلُ يُثْبِتُ ويَنْفِى وارِدا وصادِرا؛ فجدّد رسمَ الحقِّ وكان داثِرا، وقام بآرائه عَلَمًا هاديا وقَرْما هادِرا؛ وعن الخلفاء الراشدين المرشِدين مَنْ أصبح حائدًا عن الحقّ جائرا، المجاهدين خائلاً بالعهد خاترا.

أما بعدُ، فإنّ الله سبحانَه جعل الإمامةَ للناس عِصْمه، ومَنْجاةً من رَيْب الآلْتِباس ونِعمه، بها تَمَهَّدُ عِمارةُ الأرض، ويتجدّدُ صلاحُ الكلّ والبعْض؛ ولولاها ظَهَر الخلَل، وآختلط المَرْعىُّ والهَمَل؛ وآرتُكِبت المآثم، وآستُبيحت المحارِم؛ وآستُحِلّت المَظالم، وآنتَقَم من المظلُوم الظالم؛ وفَسَدَ الآئتلاف وآفترق النِّظام، وتَساوى الحلالُ والحَرَام؛ فآختار لأمْرهم رُعاةً أمَرَهم بالعدل فعَدَلُوا، وبالتواصُل

(١) أى لم يخف وفى بعض النسخ «ولا يرج غادرا» وهو غير مناسب.

فى ذات الله والتقـاطُعِ فقطعوا فى ذاتِ الله ووصَلُوا ، وعدَلُوا بين أهْلِيهم وأقْرَبِيهم فيما وُلُّوا ، ونَهَضُوا بأعبـاء الكِفاية والحِماية وآسـتقلُّوا ، وألزمهم الآتِّفاق والآنقياد ، وحظَر عليهم الآنشِقاق والعِناد ، فلَكُو بأزِمَّة العقل قِيادَ الأمُور ، وأشرقَتْ بسِيرتهم المباركةِ أقاصِى المعْمُور ، وشاهد النَّاسُ فواضِلَ إمامهم ، وتبيَّنُوا من سيرتِهم العادلة عُلُوّ محلِّهم فى الخلائف ومَقَامِهم ، ولم يُطْرَقْ فى مُدّتهم للإسلامِ جَنَاب ، ولا آقْتُحِم له باب ، وأنَّى وسُيُوفُهم تقْطُر من دِمَاء الأعداء ، وبلادُهُم ساكنةُ الدَّهْمـاء ، والكَفَرةُ بالرُّعْب المُخامِر والداءِ العَيَاء ، وأهلُ الإيمان ، يجرُّون ذُيولَ العَزائم ، وعَبدةُ الصُّلْبان ، يعثُرُون فى ذَيْل الهَوان الدائم ، إلىٰ أنْ عَدِمتِ الأرضُ منهم بِحارَها الزَّواخِر ، وأنوارَها البَوَاهِر ، ورأتْ بعـدَهم العُيونَ الفوارقَ والمُتُونَ الفواقِر ، وآكفهَرَّ وجهُ اللأْوَاء ، وتفرّقت الفِرقُ بحَسَب الأهْواء ، وسُفِكت الدِّماء ، ورُكِبتِ المَضَلَّةُ العَمْياء ، وآحتُقِبتِ الجَوائر ، وأُهمِل الشرْعُ والشّـعائر ، ثم إنَّ الله تعـالىٰ أذِنَ فى كشْف الكُرَب ، وأطلَع بالغَرْب نُورا مَلأَ الدَّلْوَ إلىٰ عَقْـد الكَرَب ، وهو النُّور الذى أضاء للبَصائر والأبْصار ، وطلع علىٰ الآفاق طُلُوعَ النَّهـار ، وذُخِرتْ أيّامُه السـعيدةُ لدَرْك الثار ، وكَلِفتْ به الخلافةُ وطال بهـا كَلَفُهُ ، وقام بالإمامة مثـلَ ما قام بها الخلفاء الراشدون سَلَفُه ، وذلك هو الخليفـةُ الإمامُ أمير المؤمنين الرشيدُ بالله آبنُ الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين ، وخَلَّد فى عَقِبهم الإمامةَ إلىٰ يومِ الدِّين ، وهو الأسَدُ المَصُور ، ومَنْ أبوه المأمونُ وجدّه المنْصُور ، العريقُ فى الخلافه ، والحقيقُ بالإمامـة والإنافه ، بجَمع ماآفترق ، ونَظْم الأمورَ ونَسَـق ، ومنَع الحَوْزةَ أن تُطْرق والملّةَ أن تفترِق أو تُفرَّق

وهذه نسخةُ بيعةٍ كتَبَ بها أبو المطَرِّف بنُ عُمَيرةَ الأندلُسىّ بأخذ البيعة على أهل شاطِبةَ من الأندلُس لأبى جعفر المستَنْصِر بالله العبّاسىّ ، قام بعَقْـدها أبُو عبدِ الله محمد بنُ يوسفَ بنِ هُودٍ صاحبُ الأندلس ، ثم أخذ البيعةَ بعد ذلك عليهم لنَفْسه ، وأن يكون ابْنُه ولىَّ عهْده بعدَه ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعَلَ الأرضَ قَرارا ، وأرسـلَ السَّماء مِدْرَارا ، وسَخَّر ليْلا ونَهارا ؛ وقدَّر آجالًا وأعْمارا ، وخَلَق الخَلْق أطْوارا ، وجعل لهم إرادةً واخْتيارا ، وأوجَدَ لهم تفكُّرا واعتبارا ، وتعاهَدَهم برحمته صِغَارا وكِبَارا .

نحمَدُه حمدَ من يرجُو له وَقَارا ، ونَبرأ ممن عانَدَه استِكْبَارا ، وألحَدَ فى آياته سَفَاهةً واغْتِرارا ؛ وصلَّى الله على سيدِنا محمد الشريف نِجَارا ، السامى نَخَـارا ؛ فرفع اللهُ[(1)] من شريعتِه للأُمَّة مَنَارا ، وأطْفأ برسالته للشِّرْك نارا ، حتَّى عَلَا الإسلامُ مِقْدارا ، وعَزَّ جارًا ودارًا ؛ وأذعنَ الكُفْرُ اضْطِرارا ، واستَسْلَمَ ذِلَّةً وصَغَارا ؛ فمضَى وقد ملأَ البسيطَةَ أنْوارا ، وعمَّها بدَعْوته أنجادًا وأغْوارا ؛ وأوجب لوُلَاة العَهْد بعـده طاعةً وائْتِمَارا ، فجزاه اللهُ أفضـلَ ماجزىٰ نبيًّا مختارا ، ورسولًا اجتباه اختِصاصًا وإيثارا ؛ صلَّى الله عليـه وعلى آله الطيبين آثارًا واختيارا ، وعلى أصحابه الكِرامِ مهاجِرِين وأنصارا ، صلاةً نُواليها إعلانا و إسرارا ؛ ونرجُو بها مغفِرةَ ربِّنا إنَّه كانَ غفَّارا .

أما بعـــدُ ، فإنَّ المستأْثِر بالدَّوام ، اللَّطيفَ بالأنَام ؛ أنشأهم على التغايُرِ والتباين ، واضْـطرهم إلى التَّجاوُرِ والتعاوُن ؛ وجعل لهم مصلَحةَ الاشتراك ، ومنفعةَ الالتحام

(1) لعله " الذى رفع الله به من " الخ . تأمل .

والاشتباك ، طريقًا إلى الأفضل فى حياتهم ، والأسعد لغاياتهم ؛ وبعث النبيين مُرَغِّبين ومحذِّرين، ومبشِّرين ومُنْذِرين؛ فأدَّوا عنه ماحَمَّل، وبيَّنوا ماحرَّم وحلَّل؛ وكان أعمَّهم دَعْوه ، وأوثقهم عُرْوه ؛ وأعلاهم فى المنزلة عِنْده ذِرْوه ، وأعطفهم للقلوب وهى كالحِجارةِ أو أشدُّ قَسْوه ؛ المخصوصُ بالمقام المحمود، والحوض المَوْرُود، وشفاعةِ اليومِ المشْهود، ولواءِ الحمدِ المعْقُود؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلم أفضَل صلاة تُفْضى إلى الظِّلِّ الممْدود، وتبلغُنا من شفاعته أفضَل موْعُود ؛ بعثه الله للأحمر والأسْود، والأدنى والأبْعَد ؛ فصدَع بأمره وظلامُ الليلِ غيرُ مُنْجاب، والدَّاعى إلى الله غيرُ مُجَاب ؛ وأهلُ الجاهليَّة كثيرٌ عَدَدُهم ، شديدٌ جَلَدُهم ، بعيدٌ فى الضَّلالة والغَوَاية أمَدُهم؛ فسلَك من هِدايتهم سبيلا ، وصبَر لهم صبْرًا جميلا ، يُحِبُّ صَلاحَهُم وهم العَدُوّ ، ويَلِين لهم إذا جَدَّ بهم العُتُوّ ، ويجْهَد فى إظهار دِينه ولدِينِ الله الظهُورُ والعُلُوّ ؛ حتَّى انقادُوا بين سابقٍ سبقَتْ له السَّعاده، ولاحق تداركَتْه المشيئة والإرادَه؛ ولما رُفِعتْ رايةُ الإسلام، وشفعَتْ حُجَّةَ الكتاب حُجَّةُ الإسلام؛(١) ودُعِىَ الناس إلى التزامِ الأحْكام ، ونُهُوا عن الاستقسام بالأزْلام، أخبَتُوا إلى الربِّ المعبُود، وأشفقُوا من تَعَدِّى الحدُود، ووُعِظوا فى الأيمان والعُهُود؛ فأتمَرُوا للشرع حينَ أمَر، وخافُوا وَخامَةَ مَنْ إذا عاهد غَدَر ؛ فكان الرجلُ يدَعُ الحوضَ فيما لايعلَمُه، ويترُكُ حقَّه لأجل يمين تلزَمه، وشُرِعت الأيمانُ فى كلِّ فنٍّ بحسَب المحلوف عليه، وعلى قدر الحاجةِ إليه؛ فواحدةٌ فى المال لحقِّ الأداء، وأربعٌ مخمَّسةٌ عند مُلاعَنةِ النِّساء، وخمسونَ انتهىَ إليها فى أحكام الدِّماء ، فتُوثِّق للحُدود على مَقَادِيرها ، وجرت أُمور العباداتِ والمعاملاتِ على أفضل تقديرِها ؛ وقُبِض رسول الله صلَّى الله عليه وسلم والعدلُ قائم ، والشرْعُ على القَوِى والضعيف حاكِم، والربُّ

(١) لعل المراد بالأول الدين وبالثانى الانقياد إن لم يكن مصحفا عن الاستسلام .

جلّ جلالُه بما تُخفى الصدورُ عالم ؛ وقام بعده الخلفاءُ الأربعة أركانُ الدّين ، وأعضادُ الحقّ المبين ؛ يحمِلُون الناسَ علىٰ سَنَنِه الواضح ، وينفِّذُون أمورَ المَصَالح ، ويتفقَّهُون فى الأحكام وُقوفًا مع الظاهر وترجيحًا للراجح ؛ وكانوا يتوقَّفُون فى بعض الأحيان، ويطلُبُون للشُّبَه وجهَ البيَان، ويستظهِرون علىٰ تحقيقِ كثيرٍ من الوقائع بالأيمان؛ حتّى كان علىٌّ كرم الله وجهه يستثبِتُ فى الدِّرايه، ويستحلِفُ الراوِىَ علىٰ الرِّوايه ؛ وما أنكر ذٰلك أحدٌ، ولا أعوزَه من الشرع مستَنَد؛ رضى الله عنهم أئمَّةً بالعَدْل قَضَوْا ، وعلىٰ سبيله مَضَوْا ، والسِّيرةَ الجليلةَ تخيَّروا وآرتضَوْا ؛ وعن سيد الأَنَام ، ومستنزِل دَرّ الغَمَام، عمّ نبيِّنا عليه أفضلُ الصلاة والسلام؛ الحامِى الحَدِب ، والمَعْقِل الأَشِب؛ والغيثِ الهامِلِ المُنْسكِب، أبى الفضْل العبّاس بن عبدالمطّلب؛ وعن الفائزين بالرُّتْبة الكريمه، والصُّحْبة القديمه، والمَنَاقب العظيمه؛ بُدُورِ الظَّلام وبُحُورِ الحِكَم ، وصُدُورِ أنديَة الفضلِ والكَرَم ؛ وسائرِ صحَابِه عليهم السلامُ الذين أسلموا علىٰ عُمْرِه[1]، وأسلفُوا جِدّا فى نَصْره، وأدركُوا من بركة عِيانه وزمانه مالامُدْرِكَ لحصره ؛ كرّم الله مآبَهُم، وأجزَل ثوابَهُم، وشكر لهم صَبْرَهم وآحتِسابَهم ؛ فلقد عَقَدُوا نيَّةَ الصِّدق عند قِيامِهم لأداء فريضةِ الإطاقَه، وآستباحُوا صلاةَ الشكر حينَ رفَعُوا حدَثَ الرِّدّة وأراقُوا سُؤْرَ الشِّرك وقد آستحَقَّ بنجاسَتِه الإراقَه، وآبتزُّوا كِسرىٰ زِينَتَه فأبرزُوها علىٰ سُراقَه ؛ فرأَوْا عِيانًا ما أخبر به سيدُ المرسَلِين، وملَكُوا مازُوِىَ له منها فاطَّلع عليه بحقِّه المبِين ؛ وذهبُوا فأظلَمَتِ الأرض من بعْدِهم، وتنكّرتِ المَعارِفُ لفَقْدِهم، وآختلطَ الهَمَل والمَرْعىّ، وتشابَهَ الصَّرِيحُ والدَّعِىّ ؛ وثارتِ الفِتَنُ من كل جانِب ، وصارت الحقوقُ نُهبةَ [كل] ناهِب ؛ ولمّا بَرِحَتِ[2] العُهود ، وتُعدِّيت

(١) مراده على عهد النبى وفى زمنه .

(٢) لعله ولما تركت العهود . تأمل .

المُدُود، بلغ الوقتُ المحدود، وطلعتْ ببياض العَدْل الراياتُ السُّود، تحتها ساداتُ النـاس، وذادةُ موقف البأس، وشُهُبُ اليوم العمَاس، ونُجُبُ البيت الكريم من بنى العبّاس، فأعادوا إلى الأمر رونقَـه، ونفَوْا عن الصَّفو رنَقه، وحَمَوْا حُرَمَ المسلمين، وأحيَوْا سُـنّةَ ابن عمِّهم سـيِّد المرسلين، فأصبحتِ الأمورُ مضبوطه، والثُّغور محوطه، والسُّبل آمنه، والرعيّةُ فى ظلّ العَدْل والأمْن ساكنه، وكان الناسُ قبلَهم قد ركبُوا الصَّعْبَ والذَّلُول، وامتطُوا الحَزْنَ والسُّهول، فوثِقوا منهم بطاعتِهم، واستحلفُوهم على بيعاتِهـم، ذلك بأنهم ألزمُوهم منهـا واجباً على القطْع، لازماً بإلزام الشّرع، ووجدُوا لمصلحة الارتباط بالأَيمـان شواهدَ من الآثار المنقوله، والأُصول المقبوله، ومَنْ أعطى من نفسه كلّ ما عليها، وراعى جملةَ المصالح وكلّ ما تطرّق إليها، فكيف لا يكونُ فى سَعةٍ من هـذا التكليف المستَنِد إلى الآثار الشرعيّه، الداخلِ فى أقسام المَصالح المرعيّه، كما سلَف من الأئمة المُهتَدِين، آباء أمير المؤمنين وخليفةِ ربّ العالمين، ابن عم سيّدنا وسيّد المرسلين، صلواتُ الله عليهم أجمعين.

لمّـا دعا الناسَ بالمملكة القُلَانية حَماها اللهُ إلى حُجّتهم القويّه، وإمرتِهم الهاشميّه، مجاهدُ الدين، بسيفِ أمير المؤمنين، جمـالُ الإسـلام، مجدُ الأنام، تاجُ خَوَاصّ الإمام، فخرُ ملوكه، شرفُ أمرائه، المتوكِّلُ على الله تعالى أميرُ المسلمين أبو عبد الله محمدُ بنُ يوسُف بن هود، أسـعدَ اللهُ أيامه، ونصرَ أعلامَه، وقام لذلك متوحِّدا المقَام الكريم، مشمِّرا عن ساعِد التَّصميم، ماضيًا على القول مضاءَ الحُسام القاضب، غاضبًا لأمر الله ورضاه على غاية هـذا الغاصب، مالَتْ إليه الأجياد، وانثالت عليه البِلاد، فانتظمَها مدينةً مدينه، وجعل التوكّلَ على الله سبحانه شريعةً منيعة وذريعةً مُعينه، وتقـدّمَ ـ أيده الله ـ بأخذ البيعة على نفسه وعلى أهـل الملّة قاطبـةً للقائم بأمرِ الله سـيِّدنا ومولانا الخليفـــة الإمام المستنصر بالله أبى جعفر

أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلىٰ آله الخلفاء الراشدين ؛ وكان له فى ذلك المَرامُ السَّعيد، والمَقامُ الحميد، والقَدَمُ[1] الذى رضىَ إبداءَه وإعادَته المُبْدئُ المُعيد؛ وخاطب الدّيوانَ العزيزَ النبوىَّ ـ خلَّد الله شرَفه ـ متضرِّعا لوسائلِ خِدْمته، متعرضا لعوَاطف رحْمَتِه ؛ وبعث رسُولَه علىٰ أصْدق رجاء فى القَبُول ، وأثبتِ أمَلٍ فى الإسْعاف بالمأمُول ؛ وأثناءَ هـذه الإرادةِ القَوِيمه، والسَّعادةِ الكريمه ؛ تفاوضَ أهـلُ البِلاد فى توثيقِ عَقْدِهم للسلطان فلان ـ المشارِ إليه الذى هو حُكْم من أحكام الإجْماع المنعَقِد ، وأصلٌ أفضىٰ إليه نظَرُ الناظرِ واجتهادُ المجتَهِد ؛ إذ أجالُوا الأمْرَ فيما يَزِيدهُ وَثاقَه، ويكْسُو وجْهَه علىٰ الأيام بِشْرا وطَلاَقه ؛ ويجعـل القلوبَ مطمئنَّةً برُسُوخه فى الأعْقاب، وثُبُوته علىٰ الأحْقاب؛ فلم يَرَوْا رأْيا أسَدّ، ولا عمَلا أحْصَفَ وأشَدّ؛ من أن يطْلُبوه بعقْد البيعة لابْنِه الواثِق بالله المعتصِم به أبى بكرٍ محمد بنِ مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين ـ ، علىٰ أن يكونَ ولِىَّ عهـدِهم مُدّةَ والِده مَدّ اللهُ فى حَيَاته، وأميرَهم عند الأجَل الذى لابُدَّ من مُوافاته ؛ فأمضىٰ لهم ذلك من اتّفاقهم ، وأثبتُوا علىٰ ماشرَطَته بيعتُـه فى أعناقهـم ؛ وبعـد ذلك أتىٰ صولةُ الإسـلام ، وصِلةُ دار السـلام، وورد رسول مَثابَة الجلاله ، ونِيَـابَة الرِّساله؛ ومُلتزَم المَلاَئك ، ومعْتَصم المَمَالك؛ ومعـه الكتابُ الذى هو نصٌّ أغنىٰ عن القِيـاس ، بل هو نورٌ يَمْشِى به فى الناس ؛ وأدّىٰ إلىٰ السلطان فلان المشارِ إليه من تشريف الدِّيوان العزيز النبوىّ ماوَسَمَه من الفَخار بأجَلِّ وَسْمِه، وقلَّده السيْفَ الصارمَ وسَمّاه بٱسْمِه؛ فتلاقىٰ السيْفان المضْرُوبُ والضارِب ، واشْتَبه الوَصْـفَان المـاضى والقاضبْ ؛ وبرزَتْ تلكَ الخِلَعُ فابيضَّ وجهُ الإسلام من سَوَادها، ووُضِع الكتابُ فكادتِ المَنابِرُ تَسعىٰ إليه شوْقًا من أعْوادها ؛ وقُرِئت وَصَايَا الإمام ، علىٰ الأنام ؛ فعلمُوا أنهـا من تُراثِ الرِّساله ،

(١) ذكر القدم لأنه بمعنى السبق تأمل .

وقالوا : كافِلُ الإسلام جدّدَ له بهذا الصُّقع الغربيّ حُكْمَ الكَفَالة ، وسَمِعُوا من التقدُّم بإنصافهم ، والتهمّم بمَواسِطهم وأطْرافهم ، جُمَلاً عفَّروا لها الجِبَاهَ جُوداً بالجهد ، وسجَدُوا للشُّكْر والحمد ؛ فأدرَكُوا من بركة المَشَاهد أثبتَ شَرَف وأبقَاه ، ورأَوْا حقيقةَ ما كادتِ الأوهامُ تزُولُ عن مَرْقاه ؛ وآزدادوا يقيناً بفضل ما صارُوا إليه ، ورأَوْا عِيَاناً يُمْنَ مابايَعُوا عليه ؛ فتوافَتْ طوائِفُهم المتبوعه ، وجماهيرُهُم المجموعه ، بِدَاراً إلى المَرَاضِي الشريفه ، وبناءً على وَصَايَا عَهْدِ الخليفه ، أن يُجدِّدوا البَيْعةَ لمجاهِدِ الدِّين ، سيفِ أميرِ المؤمنين ، تولّى الله عَضُدَه ، ولابنه الواثق بالله المعتصِم به أنهضه الله بإمْرته بعْدَه ، ولم تَعْدُ أن تكونَ الزِّيادةُ الطارئةُ شَرْطاً في تقرير الإمْرة المؤدّاة وإثباتها ، أو جاريةً مَجْرَى السُّنَن التي يُؤمَرُ المصلِّي بالإعادة عند فَوَاتها ؛ فأعادوا بَيْعته أداءً للفَريضة ورجاءً للفَضِيله ؛ وآستَنَدُوا إلى الإشارات الجليله ، بعدَ الاستخارات الطويله ؛ ورأَوْا أنْ يأخُذوا بها عادةَ البَيْعات العبّاسيّه ، واتخاذُ حُكْمِ الأصل طريقُ الإلحاقات القياسيّه ؛ فبايَعُوا على تذكُّرِ بيعةٍ أكّدوها بالعُهود المستحفَظه ، ووثّقوها بالأيمانِ المغلَّظَه ؛ وبادَرُوا بها نِداءَ مُنادِيهم ، وأعطَوْا على الإصْفاقِ بها صَفْقةَ أيْدِيهم .

ولمّا آنتهى ذلك إلى المَلَإ من أهل فلانةَ وجِهاتها ، رأَوْا أن يَخْلُفَ من سَبَق ، ويصْدُقُوا النِّيّةَ مع مَنْ صَدَق ، ويعْقِدُوا ما عقَدُوه على ماصرّح به العهْدُ الشريف ونَطَق ؛ فحضر منهم العلماءُ والصُّلحاءُ ، والأجنادُ والوُزَراءُ والفُقهاءُ ، والكافّةُ على تبايُنهم في المَرَاتب ، وتفاوُتِهم في المَنَاصب ، وآختلافِهم في المَوَاطن والمكَاسب ؛ فأمْضَوْها بيعةً كريمةَ المَقَاصد ، سليمةَ المَعَاقد ، عَهْدُها مُحْكَم ، وعَقْدُها مُبْرَم ؛ ومُوجَبُها طاعةٌ وسَمْع ، والتقيُّد بها سُنّة وشَرْع ؛ ويعْمُرونَ بها أسْرارَهُم ، ويُفْنُون عليها أعمارَهُم ؛ ويَدِينُون بها في عُسْر ويُسْر ، وربح وخُسْر ، وضيق ورفاهيَة ، ومحبّة

وكَرَاهِيَه ، تبرّعوا بذلك كلّه طَوْعا ، وآستوفَوه فصْلًا فَصْلًا ونَوْعا نَوْعا ، وعاهدُوا عليها الذى يعلم السِّرَّ وأخفىٰ ، وأضمَرُوا منها علىٰ ما أبرّ على الظاهر وأوفىٰ ، وتقبّلُوا من الوَفَاء به ماوصف الله به خليلَه إذ قال : ﴿وإبراهيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ ، وأقسموا بالله الذى لاإلٰهَ إلا هو عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحيم ، وبما أخذَه علىٰ أنبيائه الكِرام من العُهود المؤكَّده ، والمَوَاثيق المُشَدَّده ، علىٰ أنهم إن حادُوا عن هذه السبيل ، وآنقادُوا لداعى التحريف والتَّبديل ، فهم بُرَآءُ من حول الله وقوته إلىٰ حَوْلهم وقُوّتهم ، تاركون ذِمَّته الوافيةَ لذِمَّتهم ، والأيْمانُ كلها لازمةٌ لهم علىٰ مذهب إمامِ دار الهجرة ، وطلاقُ كل آمرأةٍ فى مِلْكِ كل واحدٍ منهم لازمٌ لهم ثلاثا ، وأيُّما آمرأةٍ تزوّجها فى البلاد الفلانيـة فطلاقُها لازمٌ له ، كلّما تزوّجَ واحدٌ منهن واحدةً خرجتْ طالقا ثلاثا ، وعلىٰ كلِّ واحدٍ منهم المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام علىٰ قدمَيْه ، مُحْرِمًا من مَنْزِله بحَجّةٍ كفَّارةً لاتُجْزِئ عن حَجّة الإسلام ، وعبيدهُم وأرِقّاؤُهم عُتَقاءُ لاحقُونَ بأحرار المسلمين ، وجميعُ أموالهم عَيْنا وعَرْضا ، حَيوانًا وأرْضا ، وسائرُ مايَحْويه المُتملَّكُ كُلًّا وبعضا ، صدقةٌ لبيتِ مال المسلمين ، حاشىٰ عَشَرة دنانير . كلُّ ذٰلك علىٰ أشدّ مذاهب الفَتْوىٰ ، وألزمها لكلمةِ التَّقوىٰ ، وأبعدها من مخالَفة الهَوىٰ والظاهر والفَحْوىٰ ، أرادُوا بذٰلك رضا الخلافة الفلانيـة والفلانية (بلقبي السلطنة) للسلطان وولده المأخُوذ لهما البيعةُ بعد بَيْعته ، وأشهدُوا اللهَ علىٰ أنفسهم ، وكفىٰ بذلك آعتِزاما وآلتزاما ، وشدًّا لما أُمِر به وإحكاما : وَ﴿مَنْ نَكَثَ فَإنَّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه﴾ ﴿ومَنْ يفعَلْ ذٰلكَ يَلْقَ أثاما﴾ . وهم يرفعُون دعاءَهم إلىٰ الله تضرُّعا وآستِسْلاما ، ويسألُونه عِصمةً وكفايةً آفتِتاحا وآختِتاما ، اللهم إنّا قد أنفذْنا هذا العقد آقتداءً وآهتِماما ، وقضَيْنا حقَّه إكمالًا وإتمامًا ، وأسلَمْنا وجْهنا إليك إسْلاما ، فعرِّفنا من خيره وبركتـه نَماءً ودوَاما ، وآكلأْنا بعينك حركةً وسُكُونا ويقَظَةً ومَنَاما :

و﴿ هَبْ لَنَـا مِنْ أزواجِنَا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا للمُتَّقِينَ إماما ﴾ إنك أنتَ اللهُ منتهىٰ الرَّغَبات، ومجيبُ الدَّعوات، وإلٰهُ الأرض والسَّمٰوات .

⁂

وهــذه نسخةُ بيعة مرتَّبة علىٰ موتِ خليفة، أنشأتُها علىٰ هــذه الطريقة لموافقتها رَأْى كُتَّاب الزمان فى ٱفتتاح عُهُود الملوك عن الخلفاء بالحمــدُ لله كما سيأتى بيانه فى موضــعه إن شاء الله تعالىٰ؛ وتعرضت فيها إلىٰ قيامِ ســلطانٍ بعقْدِها : لمطابقة ذٰلك لحال الزَّمان، وهى :

الحمدُ لله الذى جعَــلَ الأُمَّةَ المحمدية أبذَخَ الأُمَمِ شَرفا ، وأكرَمها نِجارًا وأفضَلَها سَلَفا، وجعل رُتْبَة الخلافة أعلىٰ الرُّتَب رتبةً وأعزَّها كَنَفا ، وخصَّ الشجرةَ الطيِّبةَ من قريش بأنْ جعــل منهم الأئمــةَ الخُلَفا، وآثرَ الأُسْرَةَ العبَّاسيَّةَ منها بذٰلك ، دعوةً سبقَتْ من ٱبن عمِّهم المُصْطفىٰ ، وحفِظ بهم نِظامَها علىٰ الدَّوام بجعــل ممن سلَفَ منهم خَلَفا .

نحمَدُه علىٰ أنْ هيَّأَ من مقدِّمات الرُّشَد ماطاب الزَّمانُ به وصَفَا، وجدَّدَ من رُسُوم الإمامة بخــير إمامٍ مادَرَس منها وعفَا، وأقام للسلمين إمامًا تأرَّج الجوُّ بنَشْره فاصبح الوُجُودُ بعَرْفه معترِفا .

ونشهدُ أنْ لاإلٰهَ الَّا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ مخلص تمســكَ بعهْدها فوَفىٰ، وأعطاها صَــفْقةَ يده للبايَعــة فلا يَبْغى عنها مَصْرِفا، وأنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى تدارَكَ اللهُ به العالَمَ بعد أنْ أشفىٰ فشَفىٰ، ونَسخَتْ آيةُ دينــه الأديانَ وجَلاَ بشِرْعته المُنيرة من ظُلْمة الجهل سَدَفا ، وجعَلَ مُبايِعَه مُبايِعا لله يأخُذُه بالنَّكْث ويُوفِّيه أجْره علىٰ الوَفا، صلَّى الله عليــه وعلىٰ آلِه الأطهار وعِتْرِته الشُّرفا، ورضى اللهُ عن أصحــابه

الذين ليس منهم مَنْ عاهد اللهَ فغَدر ولا وَادَّ فى الله جَفَا، خصوصًا مَنْ جاء بالصِّدْق وصَدَّق به فكان له قرابةٌ وصَفوةَ الصَّفا ، والمرجوعَ إليه فى البَيْعة يوم السَّقيفة بعدما آشرأبّت نحوَها نفوسٌ كادتْ تذوبُ عليها أسَفًا ، والقائمَ فى قتال أهلِ الرِّدّة من بنى حنيفةَ حتّى آستقامُوا على الحنيفيَّة السَّمْحة حُنَفا. ومَن آستحالَ دَلْوُ الخلافة فى يَده غَرْبا فكان أفْيَدَ عبقرِىٍّ قامَ بأمرِها فكَفَى، وعمّتْ فتوحُه الأمصارَ وحُمِلَتْ إليه أموالُها فلم يُمْسِكها إقتارًا ولم يُبَذِّر فيها سَرَفا . ومَنْ كان فضلُه لسَهْم الآختيار من بيْنِ أصحابِ الشُّورى هَدَفا ، وجمع الناسَ فى القُرءان على صَحِيفةٍ واحدةٍ وكانتْ قبلَ ذلك صُحُفا. ومَنْ سرى إليه سِرُّ : "أمَا تَرضَى أنْ تكُونَ منّى بمنزلة هارُونَ من مُوسَى " فغَدَا يجرّ من ذَيْل الفخَار سَجْفا، وآستولى على المَكارم من كلِّ جانبٍ فحازَ أطْرافَها طَرَفًا طَرَفا ، وعلى سائرِ الخلفاء الراشدين بعدهم ممّن سلَك سبيلَ الحق ولطريق الهُدى آقتفَى؛ صلاةً ورِضوانًا يُذْهِبان الداءَ العُضَالَ من وَخامة الغَدْر ويَجْلُبان الشّفا ، ويرفَعانِ قدْرَ صاحبهما فى الدنيا ويُبوِّئانِ منتحِلَهما من جَنّات النعيم غُرَفا .

أمّا بعدُ، فإنّ عَقْد الإمامة لمن يقُومُ بأمْر الأمّة واجبٌ بالإجماع، مستنِدٌ لأقْوى دليلٍ تنقَطِع دُونَ نقْضه الأطْماع ، وتَنْبُو عن سَماع ما يخالفُه الأسْماع ؛ إذ العبادُ مجبولون على التبايُنِ والتغايُر، مطبُوعون على التحالُف والتناصُر ؛ [مضطرُّون إلى التّعاوُنِ والتّجاوُر، مفتقِرون إلى التعاضُدِ والتّوَازُر][1] ؛ فلا بُدَّ من زعيمٍ يمنعُهم من التظالُم، ويحمِلُهم على التناصُف فى التداعى والتحاكُم ، ويُقيم الحُدودَ فتُصانُ المَحارمُ عن الآنتهاك ، وتُحفَظ الأنساب عن الآختلاطِ والآشتراك، ويَحمِى بيضةَ

(١) زائد فى بعض النسخ .

الإسـلام فيَمْنَعُ أن تُطْرَق ، و يصُونُ الثُّغورَ أن يُتَوصَّل إليها أو يُتَطرَّق : لِيَعِزَّ الإسلامُ دارا ، ويَطمئِنَّ المستخفِي لِيـلا و يأْمَنَ الساربُ نَهارا ؛ ويَذُبُّ عن الحُرَم فتُحتَرَم، ويَذُودُ عن المنْكَرات فلا تُغْشىٰ بل تُصطَلَم ؛ ويُجَهِّز الجيوش فتَنكَأُ العدُوّ ، وتُغير علىٰ بلاد الكُفْر فتَمنَعُهم القَرار والهُدُوّ ؛ و يُرْغِمُ أنْفَ الفئـة الباغية ويَقْمَعُها ، ويُدْغِمُ الطائفةَ المبتَـدِعةَ ويَرْدَعُها ؛ ويأخُذُ أموالَ بيتِ المـال بحقّها فيُطـاوَع ، ويصرفها إلىٰ مستحقِّيها فلا يُنـازَع ـ لاجَرَم اعتُـبرَ للقيام بهـا أكمَلُ الشُّروط وأتَمُّ الصِّفات ، وأكرَمُ الشِّيَم وأحسَنُ السِّمات .

وكان السـيدُ الأعظمُ الإمامُ النبوِيّ ، سليلُ الخلافه ، ووَلِيُّ الإمامه ، أبو فلان فلان العبّاسِيّ المتوكِّل علىٰ الله « مثلا » أميرُ المؤمنين ، سَلَكَ الله تعالىٰ به جَدَدَ آبائه الراشدين ؛ هو الذى جمع شُروطَها فوَفَّاها ، وأحاطَ منها بصفاتِ الكمال واستَوْفاها ؛ ورامَتْ به أدنىٰ مَراتِبِها فبلغَتْ إلىٰ أعْلاها ، وتَسوّر مَعَالِيَها فرقِيَ إلىٰ أعلاها ، واتَّحَدَ بهـا فكان صُورتَها ومَعْناها ـ وكانتِ الإمامةُ قد تأيَّمت ممن يقُومُ بأعبائها ، وعَزَّت خُطّابُها لقِلَّة أكفائِها ، فلم تُلْفِ لهـا بَعْلا يكونُ لها قَرِينا ، ولا كُفئًا تَخطُبه يكونُ لدَيْها مَكِينا ، إلّا الإمامَ الفلانيَّ المشار إليه ، فدعَتْـه لخِطْبتها وهى بيتُ عِرْسِـه : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فأجاب خِطْبَتَها ، ولبَّى دَعْوتَها : لتَحَقُّقه رَغْبَتَها إليـه ، وعِلْمِه بوجُوب إجابَتِها عليـه ؛ إذ هو شِـبْلُها الناشئُ بِغَابِها ، وغَيْثُها المستَمْطَر من سَحَابِها ؛ بل هو أسـدُها الهَصُور ، وقُطْب فَلَكِها الذى عليه تدُور ؛ ومَعقِلُها الأمنَعُ الحَصين ، وعِقْدُها الأنفَسُ الثَّمين ، وفارِسُها الأرْوعُ ولَيْثُها الشَّهير ، وابنُ بَجْدَتِها الساقطةُ منه علىٰ الخَبِير ، وتِلادُها العليمُ بأحوالها ، والجَديرُ بمعرفة أقوالِها وأفعالها ، وتَرْجُمانُها المتكلِّم بلِسانِها ، وعالِمُها المتفَنِّنُ فى أفْنانِها ، وطبيبُها العارفُ بِطِبِّها ، ومُنْجِدُها الكاشِفُ لكَرْبِها .

وحين بلغت من القصد سولها، ونالت بالإجابة منه مأمولها، وحرم على غيره أن يسومها لذلك تلويحا، أو يعرج على خطبتها تعريضا وتصريحا، احتاجت إلى ولي يوجب عقدها، وشهود تحفظ عهدها؛ فعندها قام السلطان الأعظم الملك الفلاني (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) خلد الله سلطانه، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه؛ فانتصب لها وليا، وأقام يفكر في أمرها مليا؛ فلم يجد أحق بها منه فتجنب عضلها، فلم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها؛ فجمع أهل الحل والعقد، المعتبرين للاعتبار والعارفين بالنقد: من القضاة والعلماء، وأهل الخير والصلحاء، وأرباب الرأي والنصحاء؛ فاستشارهم في ذلك فصوبوه، ولم يروا العدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه؛ فاستخار الله تعالى وبايعه، فتبعه أهل الاختيار فبايعوا، وانقادوا لحكمه وطاوعوا؛ فقابل عقدها بالقبول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت، ومضى حكمها على الصحة وانبرمت. ولما تم عقدها، وطلع بصبح اليمن سعدها، التمس المقام الشريف السلطاني الملكي الفلاني المشار إليه أعلى الله شرف سلطانه ورفع محله، وقرن بالتوفيق في كل أمر عقده وحله، أن ينال عهدها الوفي، ويرد منها موردها الصفي: ليرفع بذلك عن أهل الدين حجبا، ويزداد من البيت النبوي قربا؛ فتعرض لنفحاتها من مقراتها، وتطلب بركاتها من مظناتها؛ ورغب إلى أمير المؤمنين، وابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، أن يجدد له بعهد السلطنة الشريفة عقدا، ويأخذ له على أهل البيعة بذلك عهدا؛ ويستحلفهم على الوفاء لها بما عاهدوا، والوقوف عند ما بايعوا عليه وعاقدوا: ليقترن السعدان فيعم نوءهما، ويجتمع النيران فيبهر ضوءهما؛ فلباه تلبية راغب، وأجابه إجابة مطلوب وإن كان هو الطالب؛ وعهد إليه في كل ما تقتضيه أحكام إمامته في الأمة عموما وشيوعا، وفوض له حكم الممالك الإسلامية جميعا؛ وجعل إليه أمر السلطنة المعظمة بكل

نِطَاق، وألقىٰ إليه مَقالِيدَها وصَرَّفه فيها علىٰ الإطْلاق ؛ وأقامه فى الأمة لعَهْد الخلافة وَصِيًا، وجعله للإمامة بتَفويض الأمرِ إليه وليًا؛ ونَشَر عليه لواءَ المُلْك وقلّده سيْفَه العَضْب ، وألبَسَــه الخلعةَ السَّوداء فابيَضَّ من سَوادِها وجْهُ الشرق والغَرْب ؛ وكَتَبَ له بذٰلك عهــدًا كَبَتَ عدُوَّه، وزاد شَرَفه وضاعَفَ سُمُوّه ؛ وطُولِب أهــلُ البيعة بالتَّوثِيق علىٰ البَيْعتيْن بالأيمــان فأذعَنُوا ، وآستُحْلِفُوا علىٰ الوَفَاء فبــالَغُوا فى الأيمــانِ وأمْعَنُوا ؛ وأقســمُوا باللهِ جَهْد أيمــانهم ، بعــد أن أشهدُوا اللهَ عليهم فى إسْرارِهم و إعْلانِهــم ؛ وأعطَوُا المواثِيــقَ المغَلَّظةَ المشــدَّده ، وحَلَفوا بالأيمــانِ المُؤكَّدة المعَقَّده، علىٰ أنهم إن أعْرَضُوا عن ذٰلك أو أدْبَرُوا، وبَدَّلوا فيه أو غَيَّرُوا ؛ أو عَرَّجُوا عن سبِيله أو حادُوا، أو نَقَصُوا منه أو زادُوا ؛ فكُلٌّ منهم بَرِىءٌ من حَوْل الله وقوّتِه إلىٰ حوْلِ نفْسِه وقوّته، وخارجٌ من ذِمَّته الحصينةِ إلىٰ ذِمّته ؛ وكُلُّ آمرأةٍ فى نكاحه أو يتزوَّجُها فى المستقْبَل فهى طالقٌ ثلاثا بَتاتا، وكُلّما راجعها فهى طالقٌ طلاقا لايقْتضِى إقامة ولا ثَبَاتا ؛ وكلُّ ممــلوكٍ فى مِلْكه أو يملِكُه فى المســتقبل حُرٌّ لاحِقٌ بأحرار المســلمين، وكلُّ ما مَلَكه أو يَمْلِكُه من جَمَــاد وحيوانٍ صــدقةٌ عليه للفُقَراء والمساكين؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيتِ اللهِ الحَرام، والوقوفُ بعرفَةَ وسائرِ المَشَاعِر العِظَام ؛ مُحرمًا من دُوَيْرَةِ أهــلِه ماشِيا، حاسِرًا عن رأسه و إن كان به أذًى حافِيا ؛ يأتى بذٰلك فى ثلاثينَ حَجّة متتابعةً علىٰ التمام، لاتُجْزِئه واحدةٌ منها عن حَجّة الإسلام ؛ و إهــداءُ مائةِ بدنةٍ للبيت العَتيق كلَّ سنةٍ علىٰ الدَّوام، وعليه صومُ جميع الدَّهْر إلّا المَنْهِىَّ عنــه من الأيّام، وأنْ يَفُكَّ ألفَ رقبــةٍ مؤمنةٍ من أَسْر الكفر فى كلّ عام ؛ يمِينُ كلٍّ منهم فى ذٰلك علىٰ نيــةِ أمير المؤمنين ، وسلطانِ المسلمين ، فى سِرّه وجَهْره وأوّلِه وآخِره، لانِيّــة للحــالف فى ذلك فى باطنِ الأمر ولا فى ظاهِره ؛ لا يُورِّى فى ذٰلك ولا يستَثْنِى ، ولا يتأوّلُ ولا يستَفْتِى ؛ ولا يَسْعىٰ فى نَقْضها، ولا يخالِفُ فيها

ولا في بعضها، متى جنح إلى شيء من ذلك كان آثما، وما تقدم من تعقيد الأيمان له لازما، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، ولا يجزئه عن ذلك كفارة أصلا؛ كل ذلك على أشد المذاهب بالتخصيص، وأبعدها عن التساهل والترخيص؛ وأمضوها بيعة ميمونه، باليمن مبتدأة بالنجح مقرونه؛ وأشهدوا عليهم بذلك من حضر مجلس العقد من الأئمة الأعلام، والشهود والحكام؛ وجعلوا الله تعالى على ما يقولون وكيلا، فاستحق عليهم الوفاء بقوله عزت قدرته: ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾. وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يضاعف لهم بحسن نيتهم الأجور، ويلجئون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليه بقوله: ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾. إن شاء الله تعالى.

* * *

وهذه نسخة بيعة مرتبة على خلع خليفة، أنشأتها على هذه الطريقة أيضا، وتعرضت فيها لذكر السلطان القائم بها، على ماتقدم في البيعة المرتبة على موت خليفة، وهي:

الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مثابة للناس وأمنا، وأقام سور الإمامة وقاية للأنام وحصنا، وشد لها بالعصابة القرشية أزرا وشاد منها بالعصبة العباسية ركنا؛ وأغاث الخلق بإمام هدى حسن سيرة وصفا سريرة فراق صورة ورق معنى؛ وجمع قلوبهم عليه فلم يستنكف عن الانقياد إليه أعلى ولا أدنى؛ ونزع جلبابها عمن شغل بغيرها فلم يعرها نظرا ولم يصغ لها أذنا، وصرف وجهها عمن أساء فيها تصرفا فلم يرفع بها رأسا ولم يعمر لها مغنى.

نحمـده على نِعم حلَت للنفوس حين حلّت ، ومِنَنٍ جلَت الخطوبَ حين جلّت ، ومسارّ سرتْ إلى القلوب فسرّت ، ومَبـارّ أقرّت العيون فقرّتْ ؛ وعوارف أمّت الخليقةَ فتوالتْ وما ولّت ، وقدمِ صِـدْقٍ ثبتتْ إن شاء الله فى الخلافة فمـا تزلزلتْ ولا زلّتْ .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تكونُ لنـا من دَرَك الشُّكوك كالئَـه ، ولِمهَاوِى الشُّبَه دارِئه ، وللمَقاصد الجميـلة حاوِيه ، ولشُقّة الزَّيغ والارتياب طاوِيَه ؛ وأنّ محمّدا عبـدُه ورسولُه الذى نَصَح الأمّة إذ بلّغ فشفَى عليلَها ، وأوردَها من مَناهِل الرُّشـد ماأطفأ وهَجَها و بَرّد غليلَها ، وأوضَح لهم مَناهِجَ الحقّ ودعاهُمْ إليها ، وأبانَ لهم سُـبُل الهِدايةِ : ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فإنّمـا يَهْتَدِى لِنَفْسِـهِ ومَنْ ضَـلَّ فإنّمـا يَضِلُّ عليها﴾ صلّى الله عليه وعلى آلِه أئمة الخير وخَيْرِ الأئمّه ، ورضِى عن أصْحابه أولياءِ العَدْل وعُدُولِ الأُمّه ، صلاةً ورِضْوانا يعُمّان سائرَهم ، ويشْمَلان أولَهم وآخرَهُم ؛ سيّما الصديقِ الفائزِ بأعلى الرُّتبتين صِدْقا وتَصْديقا ، والحائزِ قصَبَ السبق فى الفضيلتين عِلْما وتحقيقا ، ومَنْ عدلَ الأنصارُ إليه عن سَعْد بن عُبادةَ بعد ماأجمَعُوا على تَقْديمه ، وبادَرَ المهاجِرُون إلى بَيْعته آعترافا بتَفْضيله وتكْرِيمه . والفارُوقِ الشديدِ فى الله بأْسا واللّيّنِ فى الله جانبا ، والمُوفِى للخلافة حَقّا والمؤدّى للإمامةِ واجِبـا ؛ والقائمِ فى نُصْرة الدّين حَقّ القيـام حتّى عمّت فتُوحُه الأمصار مشارقَ ومَغاربا ، وأطاعتْـه العناصرُ الأربعة : إذْ كان لله طائعا ومِنَ الله خائفا وإلى الله راغبا . وذِى النُّورَيْن المعوّل عليـه من بينِ سائرِ أصحاب الشُّورى تنْوِيهـا بقَـدْره ، والمخصوص بالاختيار تفخيما لأمْره ، من حُصِر فى بيْتـه فلم يمنَعْه ذلك عن تِلاوة كتاب الله وذِكْره ، وشاهد سُيوفَ قاتلِيه عِيانا فقابَلَ فَتكاتِها بجميلِ صَـبْره . وأبى الحسن الذى أعْرَضَ عن الخلافة حينَ سُئِلَها ، وآستعفَى منها بعْدَ ما آضْطُرَّ إليها وقَبِلها ؛ وكُشِف له عن حقيقة

الدنيا فما أمّ قِبلتها بقلبه ولا ولّى وجهه قِبَلها، وصرّح بمقاطعتها بقوله : « ياصفراء غُرّى غيرى يابيضاء غُرّى غيرى » لمّا وصلها من وصلها ؛ وسائر الخلفاء الراشدين بعدهم، الناهجين نهجهم والواردين وِردَهم .

أما بعد، فإنّ للإمامة شروطًا يجب آعتبارها فى الإمام، ولوازم لايُغتفر فواتها فى الابتداء ولا فى الدّوام ، وأوصافاً يتعيّن إعمالها، وآداباً لايسع إهمالها ؛ من أهمّها العَدَالةُ التى مِلاكُها التقوى ، وأساسُها مراقبةُ الله تعالى فى السّرّ والنّجوى ؛ وبها تقعُ الهَيبةُ لصاحبها فيُجَلّ ، وتَميلُ النّفوس إليها فلا تمل ؛ فهى المَلَكةُ الداعيةُ إلى تَرْك الكبائر وآجتنابها ، والزاجرةُ عن الإصرار على الصغائر وآرتكابها؛ والباعثةُ على مُخالَفة النفس ونَهيِها عن الشّهوات ، والصارفةُ عن آنتهاك حُرُماتِ الله التى هى أعظَمُ الحُرُمات؛ والموجبةُ للتعفّف عن المَحَارِم، والحاملةُ على تجنُّب الظّلامات وردّ المَظَالم. والشّجاعةُ التى بها حمايةُ البَيْضة والذّبُّ عنها،والاستظهارُ بالغَزْو على نِكايةِ الطائفة الكافرةِ والغضّ منها؛ والقُوّةُ بالشوكةِ على تنفيذ الأوامرِ وإمضائها، وإقامةِ الحدودِ وآستيفائها، ونَشْر كلمة الحق وإعلائها، ودَحْض كلمة الباطل وإخفائها ، وقطْع مادّةِ الفسادِ وحسْم أدوائها؛ والرأىُ المؤدّى إلى السياسةِ وحُسْن التدبير، والمُغْنِى فى كثيرٍ من الأماكن عن مَزِيد الجِدّ والتشمير؛ والمعينُ فى خُدَع الحرب ومَكايده، والمُسْعِف فى مَصادر كلّ أمرٍ وموارِده .

هذا وقد جعلَنا اللهُ أمّةً وسَطا ، ووعَظَنا بمن سَلَف من الأمَم ممن تمرّدَ وعَتا أو تجبّرَ وسَطَا، وعصَمَ أُمّتنا أن تجتمعَ على الضّلال، وصانَ جَمْعنا عن الخَطَل فى الفِعال والمَقَال ؛ وندَبنا إلى الأمْر بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وسوّغ لأئمّتنا الاجتهادَ فى النّوازل والأحكام فاجتهادُهم لايُنكَر؛ خصوصًا فى شأن الإمامةِ التى هى

آكدُ أسـباب المَعَالم الدينيّـة وأقواها ، وأرفعُ المناصبِ الدُّنيويّة وأعْلاها ؛ وأعزُّ الرُّتَب رُتْبةً وأغلاها ، وأحقُّها بالنظر فى أمرِها وأوْلاها . وكان القائمُ بأمرِ المسلمين الآنَ فلانُ بنُ فلان الفلانىّ ممّن حادَ عن الصِّراط المستقيم ، وسلَكَ غيرَ النَّهج القويم ؛ ومالَ عن سَنَن الخُلَفاء الراشدين فأدرَكه الزَّلَل ، وقارفَ المآثِمَ فعادَ بالخَلَل ؛ فعاثَ فى الأرض فَسَادا ، وخالفَ الرُّشد عِنَادا ، ومالَ إلىٰ الغَىِّ آعْتِيادا ، وأسلَمَ إلىٰ الهوىٰ قِيَـادا ؛ قد آنتقَلَ عن طَوْر الخلافه ، وعزيزِ الإنَافه ، إلىٰ طَوْر العامّة فاتّصف بصِفَاتهم ، وآتَّسم بسِمَاتهم ؛ فمُنكَرٌ يجبُ عليه إنكارُه قد باشَره ، وصديقُ سَوْء يتعيّن عليه إبعادُه قد وازَرَه وظاهَرَه ؛ إنْ سلك فسبيلَ التُّهمة والآرتياب ، أو قصَدَ أمْرا فمَا فيه غيرَ الصَّواب ؛ منهمِكٌ علىٰ شَهَواته ، منعكِفٌ علىٰ لَذّاته ، متشاغلٌ عن أمرِ الأمّة بأمرِ بَنِيه وبَنَاته ؛ الجُبْنُ رأسُ ماله ، وعدَمُ الرأى قرينُـه فى أفعاله وأقواله ؛ قد قَنِـع من الخلافة بآسْمِها ، ورضِىَ من الإمامةِ بوَسْمِها ؛ وظَنَّ أنَّ السُّودَد فى لُبْس السَّواد فمال إلىٰ الحَيْف ، وتوَهَّم أنَّ القاطعَ الغِمْدُ فقطَعَ النظَر عن السَّيْف .

ولَمَّـا آطَّلع الناسُ منه علىٰ هذه المنْكَرات ، وعرَفُوه بهذه السِّمَات ، وتحقَّقُوا فيه هذه الوَصَمَات ؛ رغِبُوا فى آستِبْداله ، وأجمعُوا علىٰ خَلْعه وزَوَاله ؛ فلجَـئُوا إلىٰ السلطان الأعظَمِ الملك الفلانى (بالألقـاب السلطانية إلىٰ آخرها) نصر الله جُنودَه ، وأسْمىٰ جُدُودَه ، وأرْهَف علىٰ عُدَاة الله حُدُودَه ؛ ففوَّضُوا أمْرَهم فى ذلك إليْـه ، وألقَوْا كَلَّهم عليه ؛ فجمع أهلَ الحلِّ والعَقْد منهم ، ومَنْ تصْدُر إليهم الأمورُ وترِدُ عنهم ؛ فآستخارُوا الله تعالىٰ وخلَعُوه من وِلَايته ، وخرجُوا عن بَيْعته ، وآنسلَخُوا عن طاعتِه ؛ وجَرّدُوه من خِلافته ، تجريدَ السَّيْف من القِرَاب ، وطَوَوْا حكمَ إمامتِه ، كطَىِّ السِّجِلّ للكِتاب . وعند ماتَمَّ هـذا الخَلْع ، وآنطوىٰ حكمُه علىٰ البتِّ والقَطْع ، آلتمس الناسُ إماما يقُوم بأمور الإمامة فيُوفِيها ، ويجمع شُروطَها ويستَوْفيها ؛ فلم يجِدُوا لهـا أهلا ،

ولا بها أحق وأولى ، وأوفى بها وأملى ، من السيد الأعظم الإمام النبوى سليل الخلافة ، وولى الإمامة أبى فلان فلان العباسى الطائع لله « مثلا » أمير المؤمنين . لازال شرفه باذخا ، وعرنينه الشريف شامخا ؛ وعهد ولايته لعهد كل ولاية ناسخا ، فساموه بيعتها فلبى ، وشاموا برقه لولايتها فأجاب وما تأبى ؛ علما منه بأنها تعينت عليه ، وانحصرت فيه فلم تجد أعلى منه فتعدل إليه ؛ إذ هو ابن بجدتها ، وفارس نجدتها ، ومزيل غمتها ، وكاشف كربتها ؛ ومجلى غياهبها ، ومحمد عواقبها ، وموضح مذاهبها ، وحاكمها المكين ، بل رشيدها الأمين ؛ فنهض المقام الشريف السلطانى الملكى الفلانى المشار إليه : قرن الله مقاصده الشريفة بالنجاح ، وأعماله الصالحة بالفلاح ؛ وبدر إلى بيعته فبايع ، وأتم به من حضر من أهل الحل والعقد فتابع ، وقابل عقدها بالقبول فمضى ، ولزم حكمها واقتضى ، واتصل ذلك بسائر الرعية فانقادوا ، وعلموا صوابه فمشوا على سننه وما حادوا ؛ وشاع خبر ذلك فى الأمصار ، وطارت به مخلقات البشائر إلى سائر الأقطار ؛ فتعرفوا منه اليمن فسارعوا إلى امتثاله ، وتحققوا صحته وثباته بعد اضطرابه واعتلاله ؛ واستعاذوا من نقص يصيبه بعد تمامه لهذا الخليفة وكماله ؛ فعندها أبانت الخلافة العباسية عن طيب عنصرها ، وجميل وفائها وكريم مظهرها ؛ وجادت بجزيل الامتنان ، وتلا لسان كرمها الوفى على وليها الصادق : ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فجدد له بالسلطنة الشريفة عهدا ، وطوق جيده بتفويضها إليه عقدا ؛ وجعله وصيه فى الدين ، ووليه فى أمر المسلمين ؛ وقلده أمر الممالك الإسلامية وألقى إليه مقاليدها ، وملكه أزمتها وحقق له مواعيدها ؛ وعقد له لواءها ونشر عليه أعلامها ، وصرفه فيها على الإطلاق وفوض إليه أحكامها ؛ وألبسه الخلعة السوداء فكانت لسؤدده شعارا ، وأسبغ عليه رداءها فكان له دثارا ؛ وكتب له العهد فسقى المعاهد صوب العهاد ، ولهج الأنام

بذكره فاطمأنّت العبادُ والبلاد ؛ وعنـد ما تمّ هذا الفصل، وتقرّر هـذا الأصل ، وأمستِ الرّعايا بمـا آتاهمُ اللهُ من فضـله فرِحين، وبنعمتـه مستبشرين، طُولِبَ أهلُ البَيْعة بمـا يحمِلُهم علىٰ الوفاء، ويمنعُ بَيْعتَهم من التكدّر بعد الصّفاء : من توثيق عَقْـدها بمؤكّد أيمـانها ، والإقامة علىٰ الطاعة لخليفتها وسُلْطانها ؛ فبادرُوا إلىٰ ذلك مُسْرعين ، وإلىٰ داعيـه مُهْطِعين ، وبالغُوا فى المَوَاثيـق وأكّدُوها ، وشـدّدُوا فى الأيمـان وعَقّدُوها ، وأقسمُوا بالله الذى لا إلٰهَ إلّا هو عالمُ الغَيْب والشّهادة، عالِمُ خائنة الأعْيُن وما تُخْفى الصُّدور فى البَدْء والإعادة، علىٰ الوَفاءِ لها والمُوَالاة، والنُّصْح والمُصافاة ، والمُوافَقة والمُشايَعة ، والطاعة والمُتابَعة ؛ يُوالُون مَنْ والاهما ، ويُعادُون مَنْ عاداهمـا ، لا يَقعُدون عن مُناصَرتِهما عند إلمـامِ مُلِمّة، ولا يَرْقُبُون فى عدُوّهما إلّا ولا ذِمّة ؛ جارِينَ فى ذلك علىٰ سَنَنِ الدّوام والآستمرار ، والثُّبوت واللُّزوم والآستِقْرار ؛ علىٰ أنّ من بدّلَ منهم من ذلك شَرْطا أو عَفّىٰ له رَسْمـا ، أو حادَ عن طريقـه أو غيّرله حُكما ، أو سَـلَكَ فى ذلك غيرَ سبيل الأمانة، أو آستحلّ الغَـدْر وأظهَرَ الخِيانة، مُعْلِنا أو مُسِرّا فى كلّه أو بَعْضه، متأوّلا أو مُحْتالا لإبْطاله أو نَقْضه؛ فقد برِئ من حولِ اللهِ المتينِ وقُوّته الواقيه ، وركْنه الشـديد وذِمّته الوافيه ، إلىٰ حول نَفْسه وقُوّته ، وركْنه وذمّتـه ؛ وكُلُّ آمرأةٍ فى عِصْمته الآنَ أو يتزوّجُها مدّةَ حياتِه طالقٌ ثلاثا بصريح لَفْظ لا يتوقّف علىٰ نيّة، ولا يُفرّقُ فيه بين سُـنّة ولا بِدْعة ولا رجْعةَ فيـه ولا مَثْنَويّة؛ وكلُّ مملوك فى مِلْكه أو يملِكُه فى بقيّـة عُمُره من ذكرٍ أو أُنثىٰ حُرٌّ من أحرار المسلمين ؛ وكلُّ ما هو علىٰ مِلْكه أو يملكُه فى بقيّـة عُمُره إلىٰ آخر أيّامه من عينٍ أو عَرَض صدقةٌ للفُقَراء والمساكين؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيت الله الحرام ثلاثين حَجّةً بثلاثين عُمْرةً راجلًا حافيًا حاسرا ، لا يقبلُ الله منه غيرَ الوفاء بها باطنًا ولا ظاهرا؛ وإهْداءُ مائة بدنة فى كل حَجّـة منها فى عُسْرته ويُسْرته، لا تُجْزئُه

واحدةٌ منها عن حَجّة الإسلام وعُمْرته ؛ وصومُ الدهر خلا المنهيّ عنه من أيّام السَّنه ، وصلاةُ ألفِ ركعةٍ في كل ليلةٍ لا يُباح له دُونَ أدائها غَمْض ولا سِنَه ؛ لا يقبلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلا ، ولا يُؤْجَر على شيء من ذٰلك قَوْلا ولا فِعْلا ؛ متى ورّى في ذلك أو آستثنى ، أو تأوّل أو آستفتى ، كان الحنثُ عليه عائدا ، وله إلى دار البَوَار قائدًا ؛ معتمِدًا في ذٰلك أشدَّ المَذَاهب في سِرّه وعلانِيَته ، على نِيَّة المستحلِف له دُونَ نِيَّته ؛ وأمضَوْها بيعةً محكمَةَ المَبَاني ثابتَةَ القوَاعد ، كريمَةَ المَسَاعي جميلةَ المقاصد ، طيِّبَةَ الجَنَى جليلةَ العَوائد ، قاطعةَ البراهين ظاهرةَ الشَّواهد ؛ وأشهَدُوا على أنفُسهم بذٰلك مَنْ حضر مجلِسَ هذا العَقْد من قُضاة الإسلام وعُلَمائه ، وأئمة الدِّين وفُقَهائه ؛ بعد أن أشهَدُوا الله عليهم وكفى بالله شهيدا ، وكفى به للخائنين خَصِيما : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . والله تعالى يجعلُ آنتقالَهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يُسْرى إلى يُمْنى ؛ ويحقِّق لهم بمن آستخلَفه عليهم وَعْدَه الصادقَ بقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ .

إن شاء الله تعالى .

المـــــذهب الرابع

(ممـا يُكتَب فى بَيْعات الخلفاء أن يفتتح البيعة بلفظ : هذه بيعة ،
ويَصِفَها ويذكُر ما يناسِبُ ، ثم يعزِّى بالخليفة الميِّت ، ويهنِّى بالخليفة المستقرّ ،
ويذكر فى حقّ كلٍّ منهما ما يَلِيق به من الوَصْف علىٰ نحوِ مما تقدّم)

وهذه نسخةُ بيعةٍ أنشأها المَقَرّ الشِّهابيُّ بنُ فضل الله ، علىٰ ما رأيته فى " الجواهر المُلتَقَطة " المجموعةِ من كلامه ، للإمام الحاكم بأمر الله [1] « أبى العبّاس » « أحمد بن أبى الرَّبيع سُلَيمان » [المستكفى بالله] ابنِ الإمام الحاكم بأمر الله ، بعد موتِ أبيه .

وذكر القاضى تقىُّ الدين بن ناظِرِ الجيش فى " دُسْتُوره " أنه إنمـا عَمِلها تجربةً [2] لخاطِره ، وهى مُرتَّبة علىٰ موتِ خليفة .

ونصها بعد البسملة الشريفة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَـا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَـا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هـذه بيعةُ رِضْوان وبَيْعةُ إِحْسان ، وبيعةُ رِضًا تَشْهَدُها الجمـاعة ويَشْهَد عليها الرحمٰن ؛ بيعـةٌ يلزَم طائرُها العُنق ، ويَحُوم بشائرُها علىٰ الأُفُق ، وتَحمِلُ أنباءَها البَرارِيُّ والبِحارُ مشحونةَ الطُّرُق ؛ بيعةٌ تَصلُح لِنسَبها الأُمّه ، وتُمْنَح بِسَبَبِها النِّعمه ، وتُؤلِّف بهـا الأَسْباب وتجعل بَيْنَهم مودَّةً ورَحْمـه ؛ بيعةٌ تَجْرِى بهـا الرِّفاق ، وتتراحَمُ زُمَرُ

---

(١) كذا فى تاريخ أبى الفداء وابن إياس والعبر أيضا ووقع فى ج ٣ ص ٢٦٥ من هذا المؤلف أن لقبه المستعصم والصواب ماهنا .

(٢) أى امتحانا لفكره .

الكواكب على حوض المجرة للوفاق ؛ بيعة سعيدة ميمونه ، بيعة شريفة بها السلامة في الدين والدنيا مضمونه ، بيعة صحيحة شرعيه ، بيعة ملحوظة مرعيه ، بيعة تسابق إليها كل نية وتطاوع كل طويه ، وتجمع عليها أشتات البريه ؛ بيعة يستهل بها الغمام ، ويتهلل البدر التمام ، بيعة متفق على الإجماع عليها ، والاجتماع لبسط الأيدى إليها ؛ انعقد عليها الإجماع ، وانعقدت صحتها بمن سمع لله وأطاع ، وبذل في تمامها كل امرئ ما استطاع ، وحصل عليها اتفاق الأبصار والأسماع ، ووصل بها الحق إلى مستحقه وأقر الخصم وانقطع النزاع ، وتضمنها كتاب كريم يشهده المقربون ، ويتلقاه الأئمة الأقربون .

﴿ الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كُنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ : ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ . وإلينا ولله الحمد وإلى بني العباس . أجمع على هذه البيعة أرباب العقد والحل ، وأصحاب الكلام فيما قل وجل ؛ وولاة الأمور والأحكام ، وأرباب المناصب والحكام ، وحملة العلم والأعلام ، وحماة السيوف والأقلام ، وأكابر بني عبد مناف ، ومن انخفض قدره وأناف ؛ وسروات قريش ووجوه بني هاشم والبقية الطاهرة من بني العباس ، وخاصة الأئمة وعامة الناس ؛ بيعة ترى(1) بالحرمين خيامها ، وتخفق على المأزمين أعلامها ، وتتعرف عرفات ببركاتها وتعرف بمنى أيامها ، ويؤمن عليها يوم الحج الأكبر ، وتؤم ما بين الركن والمقام والمنبر ؛ ولا يبتغى بها إلا وجه الله الكريم ، وفضله العميم ؛ لم يبق صاحب سنجق(2) ولا علم ، ولا ضارب بسيف ولا كاتب بقلم ؛ ولا رب حكم ولا قضاء ، ولا من يرجع إليه في اتفاق ولا إمضاء ؛ ولا إمام مسجد ولا خطيب ، ولا ذو فتيا يسأل

(1) لعله ترى بالحرمين تأمل .

(2) في الأصل سيف وهي تصحيف .

فيُجيب، ولا مَنْ بين جَنَبتي المساجد ولا من تضُمُّهم اجنحةُ المحـاريب ، ولا مَنْ يجتهد فى رأيٍ فيُخطِئُ أو يُصيب ؛ ولامتحدِّثٌ بحديث، ولا متكلِّم بقديم وحديث؛ ولا معروفٌ بدينٍ وصَلَاح، ولا فُرسانُ حربٍ وكِفَاح ؛ ولا راشقٌ بسِهَام ولا طاعنٌ برِماح، ولا ضاربٌ بصِفَاح، ولا ساعٍ علىٰ قدَم ولا طائرٌ بغير جَنَاح ؛ ولا مخـالِطٌ للناس ولا قاعدٌ فى عُزْله، ولا جمعُ كَثْرة ولا قِلَّه ؛ ولا مَنْ يستقِلُّ بالجَوزاء لِواؤه، ولا يقِلُّ فوْقَ الفرقد ثَواؤُه؛ ولا بادٍ ولا حاضر، ولا مُقيمٌ ولا سائر، ولا أوّلٌ ولا آخِر، ولا مُسِرٌّ فى باطن ولا مُعْلِنٌ فى ظاهر؛ ولا عربٌ ولا عَجَم، ولا راعِى إبل ولا غَنَم؛ ولا صاحبُ أناةٍ ولا إبْدار، ولا ساكنٌ فى حضَر وباديةٍ بِدَار؛ ولا صاحبُ عَمَـد ولا جِدَار، ولا ملَجِّجٌ فى البِحار الزاخرةِ والبرَارِىِّ القِـفَار؛ ولا من يتَوَقَّلُ صَهَواتِ الخيل، ولا مَنْ يُسْبِل علىٰ العَجَاجة الذيل ، ولا من تطْلُع عليــه شمسُ النهار ونُجُوم الليل ؛ ولا من تُظِلُّه السماء وتُقِلُّه الأرض ، ولا مَنْ تَدُلُّ عليه الأسماء علىٰ آختلافها وترتفِعُ درجاتٌ بعضِهم علىٰ بعض؛ حتّى آمَنَ بهذه البَيْعة وأمَّنَ عليها، ومَنَّ اللهُ عليه وهداه إليها ؛ وأقرّ بها وصدّق ، وغَضَّ لهـا بصَرَه خاشـعًا وأطْرق ؛ ومدّ إليها يَدَه بالمُبَايَعه، ومُعتَقَده بالمُتَابعه؛ رضِىَ بها وآرْتضاها، وأجاز حُكْمَها علىٰ نَفْسه وأمضاها؛ ودخل تحتَ طاعتِهـا وعَمِـل بمقتضاها : ﴿ وقُضِىَ بَيْنَهُـمْ بِالحَقِّ وَقِيـلَ الحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نصب الحاكم ليَحْكُم بين عِبَاده وهو أحكَمُ الحاكمين ، والحمدُ لله الذى أخَذَ حقَّ آلِ بيتِ نبيِّه من أيْدِى الظالمين ؛ والحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، والحمدُ لله رب العالمين .

وإنه لمـّا آستأثر اللهُ بعبْده سُليمانَ أبى الرَّبيع الإمامِ المستكفى بالله أميرِ المؤمنين ــ كَرَّم اللهُ مثواه ــ وعَوَّضه عن دار السّلام بدار السّـلَام ، ونقله فزكّى بدنَه عن

شهادة السّلام بشهادة الإسلام؛ حيثُ آثره ربُّه بقُربه، ومهّد بجنبه وأقدمه على ماأقدمه مَنْ يرجُوه لعمله وكَسْبه ، وخار له فى جِوَاره رَفِيقا، وجعل له على صالح سَلَفه طرِيقًا ؛ وأنزله ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقا﴾. اللهُ أكبرُ ليومه لولا مخلّفه كادت تَضِيقُ الأرضُ بما رَحُبَت ، وتُجْزَىٰ كلُّ نفس بما كَسَبَتْ ؛ وتُنْبِئُ كلُّ سريرةٍ بما أَدّخرتْ وما خَبَّتْ ؛ لقد اضطرم سعيرٌ، إلا أنّه فى الجَوانح ، لقد اضطربَ مِنبرٌ وسريرٌ، لولا خَلَفُه الصالح ، لقد اضطرب مأمورٌ وأميرٌ، لولا الفكرُ بعْدهُ فى عاقبة المَصَالح؛ لقد غاضَت البِحار، لقد غابَت الأنوار، لقد غالب البُدُور مايلحقُ الأهلّةَ من المِحَاق ويُدْرِك البَدْرَ من السّرار؛ نُسِفتِ الجبالُ نَسْفا، وخبتْ مصابيحُ النُّجوم وكادتْ تُطْفَىٰ : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . لقد جُمِعتِ الدنيا أطرافَها وأزمَعَتْ علىٰ المَسِير، وجُمعت الأمّةُ لهَوْل المَصير، وزاغَتْ يومَ موْتِه الأبصار : ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ . وبقِيَتِ الألبابُ حَيارىٰ ، ووقفَتْ تارةً تَصَدّق وتارةً تَمارىٰ؛ لاتَعرِف قرارا ، ولا علىٰ الأرض استقرارا : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عَمَّا أرضعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترَىٰ النَّاسَ سُكَارىٰ وما هُمْ بِسُكَارىٰ ﴾ .

ولم يكن فى النَّسَب العباسىّ ولا فى جميع من فى الوُجُود، لافى البيتِ المسترشديّ ولا فى غيره من بيوت الخلفاء من بَقايَا آباء لهم وجُدُود ، ولا مَنْ تلِده أُخرىٰ الليالى وهى عاقرٌ غيرولُود ؛ من تسلّمَ إليه أمّةُ محمد صلىٰ الله عليه وسلم عَقْدَ نيّاتها، وسِرّ طويّاتها ؛ إلا واحدٌ وأين ذلك الواحد ؟ هو والله من انحصر فيه استحقاقُ ميراث آبائه الأطهار ، وتُراثِ أجداده ولا شيءَ هو إلا ما اشتمل عليه رِداءُ الليل والنّهار ؛ وهو ابنُ المنتقل إلىٰ ربّه، وولَدُ الإمام الذاهبِ لصُلْبه؛ المجمَعُ علىٰ أنه فى الأنام،

فردُ الأيّام، وواحدٌ وهكذا فى الوُجود الإمام ؛ وأنه الحائزُ لِما زُوِّرَتْ عليه جُيوبُ المَشارِق والمَغارِب، والفائزُ بملك مابين الشارق والغارب ؛ الراقى فى صَفيح السماء هذه الذِّروةَ المنيفه، الباقى بعدَ الأئمة الماضينَ رضى الله عنهم ونِعْم الخَليفه؛ المجتمعُ فيه شروطُ الإمامه ، المتَّضع لله وهو من بيتٍ لا يزال المُلْك فيهـم إلىٰ يومِ القيامه ؛ الذى تَصفَّح السَّحابَ نائلُه ، والذى لا يغُرُّه عاذرُه ولا يُغَـيِّره عاذلُه ؛ والذى :

تعوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتّٰى لو آنّه * ثَنَاها لقَبْضٍ لم تُطِعْـه أناملُه

والذى :

لا هُوَ فى الدُّنيـا مُضيـعٌ نصيبَهَ * ولا وَرَقُ الدُّنْيا عن الدِّين شاغِلُه

والذى ما آرتقىٰ صَهْوة المِنْبَر بحضرة سلطانِ زمانِهِ إلّا قال ناصرُه وقام قائمه ؛ ولا قَعَـدَ علىٰ سرير الخلافة إلّا وعُرِفَ بأنّه ما خاب مستكْفيه ولا غاب حاكمُه؛ نائبُ الله فى أرضه، والقائمُ بمَقَام رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخليفتُه وآبنُ عمِّه، وتابِـعُ عملِه الصالح ووارِثُ عِلْمه، سيدنا ومولانا عبدُالله ووليُّه «أحمد أبو العَبَّاس» الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، أيّدَ الله تعالىٰ ببقائه الدِّين، وطوّق بسَيْفه [رقاب] المُلْحدين ، وكبتَ تحتَ لِوائِه المعتَـدِين ؛ وكتَب له النصرَ إلىٰ يوم الدين ؛ وكَفَّ بجِهَاده طوائفَ المُفْسدين، وأعاذَ به الأرضَ ممَّن لايَدِين بِدِين ؛ وأعاد بعَدْله أيامَ آبائه الخلفاءِ الراشـدين والأئمة المَهْديين؛ الذين قضَوْا بالحق وبه كانُوا يَعْـدِلون، وعليه كانُوا يعمَلُون؛ ونَصَر أنصارَه، وقدَّر آقتِداره؛ وأسكن فى قلوب الرعيَّة سكينَتَه ووَقَارَه ، ومكَّن له فى الوُجود وجمعَ له أقْطارَه .

ولمَّا آنتقل إلىٰ الله ذٰلك السيدُ ولَحِق بدار الحقِّ أسْلافَه، ونُقِل إلىٰ سرير الجنة عن سَرير الخلافه ؛ وخَلا العصرُ من إمام يُمْسِـك ما بقِىَ من نَهاره ، وخليفة يُغالب

مُرْبَدَّ الليل بأنواره ، ووارثِ نبي بمثله ومثلِ أبيه آستغنىٰ الوجُود بعد ابن عمه خاتَم الأنبياء صلىٰ الله عليه وسلم عن نبيٍّ مقتَفٍ علىٰ آثاره؛ ونَبيَ ولم يَعْهَدْ فلم يبقَ إذ لم يُوجَد النصُّ إلّا الإجماع ، وعليه كانت الخلافةُ بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نِزَاع ، آقتضتِ المصلحةُ الجامعةُ عَقْدَ مجلِسٍ كُلُّ طَرَفٍ به معْقود ، وعَقْدَ بيعةٍ عليها اللهُ والملائكةُ شهُود ، وجُمِع النـاسُ له ﴿ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له الناسُ وذٰلِكَ يومٌ مَشْهُود ﴾ . فحضَرَ من لم يُعْبأْ بعده بمن تَخَلَّف، ولم يُرْبأْ[1] معـه وقد مدّ يدَه طائعا بمن مَدَّها وقد تكَلَّف ؛ وآجتمعُوا علىٰ رأْيٍ واحدٍ وآستخارُوا الله تعالىٰ فيه فخَـار ، وناهيكَ بذٰلك من مُختار ؛ وأُخِذتْ بيعةٌ تُمَـدُّ إليها الأيْمـان ، ويُشَدّ بها الإيمـان؛ وتعطىٰ عليها المَوَاثِيق، وتُعرَض أماناتُـها علىٰ كلّ فريق ؛ حتّىٰ تقـلّد كلُّ من حضر فى عُنُقه هـذه الأمانَه ، وحطَّ يدَه علىٰ المصـحف الكريم وحَلَف بالله العظيم وأتمَّ أيمـانَه ؛ ولم يَقْطع ولم يستثْن ولم يتردَّد، ومن قَطَع من غير قصدٍ أعاد وجَدّد؛ وقد نَوىٰ كلُّ مَنْ حلف أنَّ النيةَ فى يمينه نيّةُ من عُقِدت هذه البيعةُ له ونيةُ من حَلَف له ، وتذمَّم بالوفَاء فى ذمّته وتكفَّله ؛ علىٰ عادةِ أيمـان البيعة بشُروطها وأحكامِها المردَّده، وأقسامِها المؤكَّده؛ بأن يبذُل لهذا الإمام المفترضة طاعتُه الطاعه، ولايُفارقَ الجمهورَ ولا يُظْهِرَ عن الجماعة آنْخِلاعَه؛ وغيرِ ذٰلك ممـا تضمَّنته نُسَخُ الأيمـان المكتتَبُ فيها أسمـاءُ من حلف عليها ممـا هو مكتوبٌ بخُطوط من يكتُب منهم ، وخطوط العُدُول الثِّقات عمَّن لم يَكْتُبْ وأذنوا لمن يكتب عنهم ؛ حسَبَ مايشْهَدُ به بعضُهم علىٰ بعض ، ويتصادقُ عليـه أهلُ السماء والأرض ؛ بيعةٌ تمَّ بمشيئة الله تمـامُها ، وعَمَّ بأَصْوَب الغَدَق غَمَامُها؛ ﴿ وقالوا الحمدُ للهِ الذى أذْهَبَ عنَّا الحَزَن ﴾ . ووهبَ لنا الحسَن؛ ثم الحمدُ لله الكافى عبْـدَه ، الوافى وَعْدَه، المُوافى لمن يُضاعِفُ علىٰ كل

(١) أى لم يبال به ولم يكترث . انظر اللسان والقاموس .

مَوْهِبة حَمْدَه؛ ثم الحمدُ لله علىٰ نِعمٍ يرغَبُ أميرُ المؤمنين فى ٱزدِيادها، ويرهَبُ إلّا أن يقاتِلَ أعداءَ الله بأمْدادها ؛ ويرْأَبُ بها ماآثرفيها أثرممـاليكه (؟) مابانَ من مُباينةِ أضـــدادِها .

نحمدُه والحمد لله، ثم الحمدُ لله كلمةٌ لا تَمَلُّ من تَرْدادها، ولا تَخِل بمـا يُفوّق السِّهامَ من سَدَادها؛ ولا تَظلُّ إلّا علىٰ مايوجب كثرةَ أعْدادِها، وتيسير إقرار علىٰ أورادِها؛ ونشهدُ أنْ لاإلٰه إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتقايَسُ دَمُ الشهداء ومَدُّ مِدادها، وتتَنافَسُ طُرَرُ الشَّـباب وغُررُ السَّحاب علىٰ ٱستمدادها ؛ وتُجانَسُ رُقومُها المدبَّجـة وما تلبَسه الدولةُ العباسيَّة من شِعَارها، والليالى من دِثَارِها، والأعداءُ من حِدَادها؛ ونشهدُ أنَّ سـيدنا محمدا عبدُه ورسولُه صلَّى الله عليه وسـلم وعلىٰ جماعةِ آلِهِ مَنْ سَفَل من أبنائها ومن سَـلَف من أجدادِها ؛ ورضى اللهُ عن الصحابة أجمعين ، والتابعين لهم باحسانٍ إلىٰ يوم الدين .

وبعـدُ، فإنّ أمير المؤمنين لـمّـا أكسبه الله تعالىٰ من ميراث النُّبوّة ماكان لجَدّه، ووَهَبه من الملك السُّلَيْمانىّ عن أبيه مالا ينْبغِى لأحدٍ من بعده ؛ وعَلَّمه مَنْطِقَ الطيرِ بمـا تحمِّلُه حمائمُ البطائقِ من بَدَائع البيـان ، وسخَّر له من البَريد علىٰ مُتُون الخيـل ماسَخَّر من الرِّيح لسليمان؛ وآتاه من خاتَم الأنبيـاء ماأمدّه به أبُوه سـليمان وتَصرَّف، وأعطاه من الفَخَار ماأطاعه به كلُّ مخلوق ولم يَتخلَّف؛ وجعل له من لِبَاس بنى العبَّاس مايقضِى له سوادُه بسُؤْدَد الأجداد، وينفُضُ علىٰ كَحَل الهُدْب مافَضَل عن سُوَيْداء القلب وسَوَاد البصر من السَّوَاد؛ ويَمُدُّ ظِلَّه علىٰ الأرض فكلُّ مَكانٍ حَلَّه دارُ مُلْك وكُلُّ مدينـةٍ بَغْداد ؛ وهو فى لَيْـله السَّجَّاد، وفى نهـاره العَسْكرِىُّ وفى كرمه جَعْفَرٌ الجَوَاد ـيُدِيم الأبتهالَ إلىٰ الله تعالىٰ فى توفيقه، والآبتهاجَ بما يُغِصُّ كلَّ عدُوٍّ بريقه؛ ويَبْدَأ يومَ هذه المُبايعة بما هو الأهمُّ من مَصَالح الإسلام، وصالح الأعمال ممـا يتحلَّى

به الإمام، ويُقدِّمُ التقوىٰ أمامَه، ويقرُن عليها أحكامَه، ويتَّبع الشرعَ الشريفَ ويقف عنده ويُوقِفُ الناس، ومَنْ لايحمِلُ أمرَه طائعًا علىٰ العين حملَهُ بالسَّيف غَضبا علىٰ الرَّاس، ويعجِّلُ أميرُ المؤمنين بما يَشْفِي به النُّفوس، ويُزِيل به كَيْدَ الشيطان إنه يَئُوس، ويأخُذُ بقلوب الرَّعايا وهو غنيٌّ عن هذا ولٰكنْ يَسُوس؛ وأميرُ المؤمنين يُشهِد الله وخليقَتَه عليه أنه أقرَّ كلَّ آمرِئٍ من وُلاة الأمور الإسلاميَّة علىٰ حاله، وآستمَرَّ به فى مَقِيله تحتَ كَنَف ظِلَاله؛ علىٰ آختلاف طبَقَات وُلَاة الأمور، وتفرُّقهم فى الممالك والثُّغُور؛ برًّا وبحرًا، سَهْلا ووَعْرا، وشَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا؛ وكُلِّ جليلٍ وحَقِير، وقَليلٍ وكَثِير؛ وصَغِير وكبِير، ومَلِك ومملُوك وأمير، وجُنْدىٍّ يَبْرُق له سيفٌ شَهِير، ورُمْحٌ طَرِير؛ ومَنْ معَ هٰؤلاء من وُزَراءَ وقضاةٍ وكُتَّاب، ومَنْ له يدٌ تَبِقُ فى إنشاءٍ وتحقيقِ حساب؛ ومَنْ يتحدَّثُ فى بَرِيد وخَرَاج، ومن يُحتاجُ إليه ومن لا يُحتاج؛ ومَنْ فى الدُّروس والمَدَارس والرُّبُط والزَّوَايا والخَوَانِق، ومَنْ له أعظَمُ التعلُّقات وأدْنىٰ العلائق؛ وسائرَ أربابِ المراتب، وأصْحابِ الرَّواتب؛ ومَنْ له فى مال الله رِزْقٌ مقسوم، وحقٌّ مجهولٌ أو معلُوم؛ وآستِمْرارَ كلِّ أمرٍ علىٰ ماهو عليه، حتّى يستخيرَ اللهَ ويتبيَّنَ له مابين يدَيْه؛ فما زاد تأهيلُه، زاد تفضيلُه؛ وإلّا فأميرُ المؤمنين لايُرِيد سِوىٰ وجهِ الله، ولا يُحابِي أحدًا فى دِين، ولا يُحامى [عن] أحد فى حقّ؛ فإن المُحاماةَ فى الحقِّ مداجاةٌ علىٰ المسلمين؛ وكلُّ ما هو مستمِرٌّ إلىٰ الآنَ، مستقِرٌّ علىٰ حُكْمِ الله ممّا فَهَّمه الله له وفَهَّمه سليمان، لا يغيِّرُ أميرُ المؤمنين فى ذٰلك ولا فى بعضه، معتبر مستمرٌّ بما شكَرَ اللهَ علىٰ نعمه وهكذا يُجازِىٰ من شَكَر، ولا يكدِّر علىٰ أحدٍ مورِدا نَزَّهَ اللهُ به نِعمَه الصافيةَ عن الكَدَر، ولا يتأوَّلُ فى ذٰلك متأوِّلٌ ولا من بَطَر النعمةَ أو كَفَر، ولا يتعلَّل متعلِّل فإنَّ أمير المؤمنين يَعُوذُ بالله ويُعيذ أيّامه من الغِيَر، وأمَرَ أميرُ المؤمنين ـ أعلىٰ اللهُ أمرَه ـ

أن يُعْلِنَ الخطباءُ بذكره وذكرِ سلطان زمانه على المنابر فى الآفاق، وأن تُضْرَبَ باسمهما النُّقودُ المتعامَلُ بها على الإطْلاق ، ويُبْتَهج بالدعاء لهما عطْفَ الليل والنهار ، ويُصَرَّحَ منه بما يُشْرِق به وجهُ الدِّرْهم والدِّينار، وتُباهِى به المنابرُ ودورُ الضرب : هاتيك تَرْفَعُ ٱسْمَهما على أسِرَّة مُهودها، وهذه على أسارِيرِ نُقُودها؛ وهذه تقامُ بسببها الصَّلاة، وتلك تُدامُ بها الصِّلات؛ وكلاهما تُستمالُ به القلوب، ولا يُلام على ماتعيه الآذانُ وتُوعِيه الجُيوب؛ وما منهما إلّا من تُحَدَّق بجواره الأحداق، وتميلُ إليه الأعناق؛ وتُبْلَغ به المقاصد، ويقوى بهما المُعاضِد؛ وكلاهما أمرُه مطاعٌ، من غير نزاع ، وإذا لمعَتْ أزِمَّةُ الخُطَب طار للذَّهَب شُعاع ؛ ولولاهما ما ٱجتمع جمعٌ ولا ٱنضمّ، ولا عرفَ الأنامُ بمَنْ تأتمّ ؛ فالخُطَب والذهبُ معناهما واحد، وبهما بذكر الله قِيَامُ[1] المساجد؛ ولولا الأعمال، مابُذِلت الأموال، ولولا الأموال، ماوُلِّيت الأعمال؛ ولأجْلِ ما بينهما من هذه النِّسبه، قيل إنَّ الملكَ له السِّكَّة والخُطْبه؛ وقد أسمع أميرُ المؤمنين فى هذا الجمع المشْهُود مايتناقلُه كلُّ خطيب ، ويتداوَلُه كلُّ بعيد وقريب ، وإنَّ الله أمر بأوامر ونهى عن نَواهٍ وهو رقيب ؛ وتستفرغُ الأولياءُ لها السَّجايا، وتتضَرَّعُ الخطباءُ فيها بنُعوت الوَصايا؛ وتَحَلَّى بها المزَايا، ويتكلَّم بها الواعظُ ويُخْرج من المشايخ الخبَايا من الزَّوايا ؛ وتسمُرُ بها السُّمَّار ويترنَّم الحادِى والملَّاح، ويُروق تجْوُها فى الليل المُقمِر ويُرقَم على جَنْب الصَّباح ؛ وتُعطَّر بها مكةُ بِطْحاءها وتحيا بحديثها قُباه ، ويلقِّنُها كلُّ أبٍ فَهِم ٱبنه ويسال كلُّ ٱبنٍ أن يُجيب أباه ؛ وهو لكم أيُّها الناسُ من أمير المؤمنين رُشْد وعليكم بيِّنه ، وإليكم مادعاكُمْ به إلى سبيل ربِّه من الحِكْمة والموْعظة الحسنه؛ ولأمير المؤمنين عليكم الطاعةُ ولولا قيامُ الرَّعايا بها ما قَبِل اللهُ أعمالها ، ولا أمسَكَ بها البحر ودحا الأرضَ وأرْسى جبالَها ؛ ولا ٱتفقت

(١) كذا ضبط فى بعض النسخ ولعل الصواب قِيَام، أو قِوام . تأمل .

الآراءُ علىٰ من يستحقّ وجاءتْ إليه الخلافةُ تجُرّ أذيالَها ، وأخذها دُونَ بني أبيه ولم تكُنْ تصلُح إلّا له ولم يكُنْ يصلُح إلّا لها ؛ وقد كَفَاكم أميرُ المؤمنين السُّؤال بما فَتَح لكم من أبواب الأرزاق ، وأسبابِ الارتفاق ؛ وأحسن لكم علىٰ وِفَاقكم وعلّمكم مكارمَ الأخلاق ، وأجراكم علىٰ عوائِدكم ولم يُمسكْ خَشْيةَ الإملاق ؛ ولم يَبْقَ علىٰ أمير المؤمنين إلّا أن يسيرَ فيكم بكتابِ اللهِ وسنةِ رسوله صلّى الله عليه وسلم ، ويعمَلَ بما ينتفِعُ به مَنْ يجيء ـ أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ من بعده ، ويَزيدَ علىٰ كل من تقدّمَ ، ويُقيمَ فروضَ الحج والجهاد ، ويُنيمَ الرعايا بعدْله الشامل في مِهاد ؛ وأمير المؤمنين يُقيمُ علىٰ عباده مَوْسمَ الحجّ في كل عام ، ويشمَلُ سُكّان الحرمين الشريفين وسَدَنةَ بيتِ الله الحرام ؛ ويجهّزُ السبيل علىٰ عادته ويرجُو أن يعودَ إلىٰ حاله الأوّل في سالف الأيّام ، ويتدفّقَ في هذين المسْجدين بحرُه الزاخر ويُرسلَ إلىٰ ثالثهما البيتِ المقدّس ساكبَ الغمام ؛ ويقُومَ بقَومة قُبُور الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ أينَ كانُوا وأكثرُهم في الشام ؛ والجُمعُ والجماعاتُ هي فيكم علىٰ قَديم سُنَنها ، وقَويم سَنَنها ؛ وستَزِيدُ في أيّام أمير المؤمنين بمن انضمّ إليه ، وبما يتسلّمُه من بلاد الكُفّار ويُسلِم علىٰ يديه .

وأمّا الجهاد ، فيكْتفي باجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بأُموره ، المقلّدِ عنه جميعَ ماوراء سَريره ؛ وأمير المؤمنين قد وَكَل إليه ـ خلد الله سلطانه ـ عَناءَ الأيّام ، وقلّده سيفَه الراعب بَوارِقُه ليَسُلّه واجدُه علىٰ الأعداء [وإلّا] سَلّ خَيَالَهُ عليهم في الأحلام ؛ ويؤكّد أمير المؤمنين في ارتجاع ماغلَب عليه العدا ، وانتزاع [مابأ] يديهم من بلاد الإسلام فإنّه حَقُّه وإنْ طال عليه المَدىٰ ؛ وقد قدّم الوصية بأنْ يُوالي غزْوَ العدُوّ المخذول بَرًّا وبحرا ، ولا يَكُفّ عمّن يَظْفَر به منهم قتْلا وأسْرا ، ولا يَفُكّ أغلالا ولا إصْرا ، ولا ينفَكّ يرسل عليهم في البحر غِرْبانًا ، وفي البرّ من الخيل عقْبانا ؛ يحمل

فيهما كلّ فارس صَقْرا، ويحمِى الممـالكَ ممن يحوزُ أطرافها بإقدام، ويتخوّلُ أكنافَهَا الأقدام ؛ وينظُر فى مصالح القِلَاع والحُصُون والثُّغور ، وما يُحتاج إليـه من آلاتِ القتَال، وما تُحتاج به الأعداءُ ويعجزُ عنه المُحْتال، وأمّهاتِ الممـالك التى هى مَرَابِطُ البُنُود ، ومَرَابِضُ الأُسُود ، والجَنَاحُ الممدود ؛ ويتفقّدُ أحوالَهُمْ بالعَرْض ، بمـا لهم من خَيْل تعْقِد [بالعجاج] ما بين السماء والأرض؛ ومالهم من زَرَد مصُون، وبَيْض مَسَّها ذائبُ ذهبٍ فكانتْ كأنّها بَيْضٌ مكْنون؛ وسيوفٍ قَوَاضِب ، ورِماحٍ لكثْرة طعنها من الدِّماء خَواضِب ، وسِهام تُواصِـل القِسِيّ وتفارقُها فتحِنُّ حنِينَ مفـارِقٍ وتَزْجُرُ القوس زجْرةَ مُغاضِب .

وهـذه جملةٌ أرادَ أميرُ المؤمنين بهـا تَطْيِيبَ قلوبِكم، وإطالةَ ذيْل التطويل علىٰ مطْلوبكم ؛ وماؤكم وأموالُكم وأعراضُكم فى حمَـايةٍ إلا ماأباح الشرعُ المطهّر، ومَزِيدُ الإحسان إليكم علىٰ مِقْدار مايخفىٰ منكم ويظْهر .

وأما جُزْئيّات الأمور ، فقد علِمْتم بأنّ فِيمن تقلّد عن أمير المؤمنين غِنىً عن مثل هـذه الذِّكرىٰ ، وفتىً حتّى لا يَشْـغَل بطلب شيء فكرا ؛ وفى وُلَاة الأمور، ورُعاة الجُمُهور؛ ومَنْ هو سِدَاد عمله ، ومِدَادُ أمـله ، ومُرادُ من هو منكم معشر الرعايا من قِبَله ؛ وأنتم علىٰ تَفاوُتِ مقاديرِكم وديعةُ أمير المؤمنين ومَنْ خَوّلكم .وأنتم وهم فمـا مِنْكم إلّا من آستعرف أمير المؤمنين وتمشى فى مراضى الله علىٰ خُلُقه ، وينظر ما هو عليه ويسير بسـيرته المُثْلىٰ فى طاعة الله فى خلقه ؛ وكلُّكم سواء فى الحق عند أمير المؤمنين وله عليـكم أداءُ النّصيحه ، وإبداء الطاعة بسَرِيرةٍ صحيحه ؛ وقد دخل كلُّ منكم فى كَنَف أمير المؤمنين وتحت رأفتـه، ولزِمَ حكْمَ بيعته ؛ وأُلْزِم طائِرَه فى عُنُقه ، ويستعمل كلٌّ منـكم فى الوفاء ما أصبحَ به عليما : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمـا عاهَدَ عليهُ اللهَ فسَيُؤْتِيهِ أجْرا عظيما ﴾ .

هذا قولُ أميرِ المؤمنين، وعلىٰ هذا عُهِد إليه وبه يَعْهَد، وماسوىٰ هذا فهو فُجُور لا يُشْهَد به عليه ولا يَشْهَد؛ وهو يعملُ فى ذلك كلّه ما تُحمَد عاقبتُه من الأعمال، ويحمِلُ منه ما يصْلُح به الحال والمآل؛ وأميرُ المؤمنين يستغفرُ اللهَ علىٰ كل حال، ويستعيذُ بالله من الإهمال؛ ويَخْتِمُ أمير المؤمنين قولَه بما أمر اللهُ به من العدل والإحسان، ويَحمَدُ الله وهو من الخلق «أحمَد» وقد آتاه اللهُ مُلْكَ سليمان؛ والله تعالىٰ يمتّع أميرَ المؤمنين بما وَهَبه، ويملّكه أقطارَ الأرض ويُورِثه بعد العُمُر الطويل عقِبَه؛ ولا يزال علىٰ أَسِرَّة العَلْياء قُعودُه، ولباسُ الخلافة به أُبّهة الجلالة كأنّه ما مات منصورُه ولا رَدِىَ مَهْدِيُّه ولا ذهب رَشِيدُه (١) .

المقصـد السادس

(فيما يكتب فى آخر البَيْعة)

إذا انتهىٰ إلىٰ آخر البَيْعة، شرع فى كتابة الخَواتم علىٰ ما تقدّم، فيكتُب: "إن شاء الله تعالىٰ" ثم يكتب التاريخ. ثم الذى يقتضيه قياسُ العُهُود أنه يكتب المستَنَد عن الخليفة فيكتب «بالإذنِ العالى المَوْلَوِىّ الإمامىّ النبوىّ المتوكّلىّ ـ مثلا ـ أعلاه الله تعالىٰ» وكأنّ الخليفة الذى عُقدت له البيعةُ هو الذى أذِن فى كتابتها .

قلت: ولو أُسْقِط المستَنَدُ فى البيعات فلا حرج بخلاف العُهُود: لأنها صادرة عن مُوَلٍّ وهو العاهد، فحُسن إضافة المستَنَد إليه، بخلاف البيعة فإنها إنما تصْدُر عن أهل الحَلّ والعَقْد كما تقدّم . ويُكتفىٰ فى المستَنَد عنهم بكتابة خُطُوطهم فى آخر

(١) هذه المعاهدة من قلم القاضى الفاضل ليست لابسة حلل بلاغته ولا متسربلة جلابيب فصاحته فهى تجربة لم تنقح ومسودة لم تصحح كما أشار إليه ابن ناظر الجيوش فليتنبه .

البيعة كما سيأتى ؛ ثم بعــد كتابة المستَنَد ـ إن كُتِب ـ تُكتَب الحمدلةُ والصلاةُ علىٰ النبيّ صلىٰ الله عليه وسـلم والحَسْبلة ، علىٰ ماتقــدّم فى الكلام علىٰ الفَوَاتح والخَوَاتم فى مقدّمة الكتاب .

ثم يكتُب مَنْ بايع من أهل الحلّ والعقد والشهود علىٰ البَيْعة .

فأما منْ تَولّى عقــدَ البيعة من أهل الحلّ والعقْد فيكتب : « بايعتُه علىٰ ذٰلك، وكتب فلانُ بنُ فلان» ويدعو فى خلال ذٰلك قبل آسمه بمـا يناسب : مثل أن يقال « بايعتُــه علىٰ ذٰلك قدّس الله خلافَتَه » أو « زاد الله فى شَرَفه » أو « زاد الله فى آعتِلائه» وما أشبه ذلك .

وأما الشهود علىٰ البَيْعة فالواجب أن يكتُب كلٌّ منهـم : «حضَرْتُ جَرَيانَ عقد البَيْعــة المذكورة، وكتب فلانُ بنُ فلان» كما يكتب الشاهد بجَرَيان عقــدِ النكاح ونحوه؛ ولا بأس أن يدعُوَ فى رسم شهادته قبل كتابة آسمه بما يناسب : مثل « قَرَنَها اللهُ تعالىٰ باليُمْن أو بالسداد » أو « عَرّف الله المسلمين بركَتَها » وما أشبه ذلك .

المقصــــــد السابع

(فى قَطْع الورق الذى تُكتب فيه البيعةُ ، والقلمِ الذى تُكتَب به ، وكيفيّـــةِ كتابتها ، وصورةِ وضْـــعها)

وآعلم أنّ البَيْعاتِ لم تكن متدَاوَلةَ الآستعمال لقلّة وُقُوعها، فلم يكن لها قَطْع ورق، ولا تصويرٌ متعارَفٌ فيتبع؛ ولٰكنه يُؤْخَذ فيها بالقياس وعمومِ الألفاظ .

فأمّا قَطْع ورقها، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقاديرِ قَطْع الورق نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القَلَم والدّواة" أنّ قطع البغدادىّ الكامل للخُلَفاء والملُوك . ومقتضىٰ

ذلك أن البيعات تكتب فيه ، وهو قياس ماذكره المقر الشهابى بن فضل الله فى "التعريف" من أن للعهود قطع البغدادى الكامل على ماسيأتى ذكره .

قلت : لكن سيأتى فى الكلام على عهود الخلفاء أنها الآن قد صارت تكتب فى قطع الشامى الكامل ، وبينهما فى العرض والطول بون كبير على ما تقدم بيانه فى الكلام على قطع الورق ؛ وحينئذ فينبغى أن تكون كتابة البيعات فى قطع الشامى مناسبة لما تكتب فيه عهود الخلفاء الآن .

وأما القلم الذى يكتب به فبحسب الورق الذى يكتب فيه : فإن كتبت البيعة فى قطع البغدادى ، كانت الكتابة بقلم مختصر الطومار إذ هو المناسب له ؛ وإن كتبت فى قطع الشامى ، كانت الكتابة بقلم الثلث الثقيل إذ هو المناسب له .

وأما كيفية الكتابة وصورة وضعها ، فقياس ماهو متداول فى كتابة العهود وغيرها ، أنه يبتدأ بكتابة الطرة فى أول الدرج بالقلم الذى تكتب به البيعة سطورا متلاصقة لا خلو بينها ، ممتدة فى عرض الدرج من أوله إلى آخره من غير هامش . ثم إن كانت الكتابة فى قطع البغدادى الكامل ، جرى فيه على القاعدة المتداولة فى عهود الملوك عن الخلفاء على ماسيأتى ذكره ، ويترك بعد الوصل الذى فيه الطرة ستة أوصال بياضا من غير كتابة : لتصير بوصل الطرة سبعة أوصال ؛ ثم يكتب البسملة فى أول الوصل الثامن بحيث تكون أعالى ألفاته تكاد تلحق الوصل الذى فوقه بهامش عريض عن يمينه قدر أربعة أصابع أو خمسة مطبوقة ؛ ثم يكتب تحت البسملة سطرا من أول البيعة ملاصقا لها ؛ ثم يخلى مكان بيت العلامة قدر شبر جريا على قاعدة العهود وإن لم تكن علامة تكتب ، كما يخلى بيت العلامة فى بعض المكاتبات ولا يكتب فيه شىء ؛ ثم يكتب السطر الثانى تحت بيت العلامة على

تحت السطر الذى تحتَ البسملة فى بقيَّة الوصل الذى فيه البسملةُ ؛ ويحرِص أن تكون نهايةُ السجعة الأولىٰ فى أثناء السطر الأوّل أو الثانى ؛ ثم يسترسل فى كتابة بقيّة البيعة ويجعل بين كل سطرين قَدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش كما سيأتى فى العهود ؛ ويستصحِب ذٰلك إلىٰ آخر البيعة ، فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخرها كتب "إن شاء الله تعالىٰ" ثم التاريخ، ثم المستند ، ثم الحَمْدلةَ والصلاةَ علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والحَسْبلةَ ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفواتح والخواتم فى مقدّمة الكتاب؛ ثم يكتُبُ من بايعَ من أهل الحَلّ والعقد خُطوطَهم، ثم الشهودُ علىٰ البيعة بعدهم .

وإن كانت الكتابة فى القطع الشامىّ ، فينبغى أن ينقُصَ عددُ أوصال البياض الذى بين الطرّة والبسملة وصلين فتكون خمسة، وينقص الهامش فيكون قَدْرَ ثلاثة أصابع علىٰ ما يقتضيه قانونُ الكتابة .

وهذه صورة وضعه فى الورق ممثّلا لهـا بالطرّة التى أنشأتُها لذٰلك، والبيعة الثانية من البيعتين اللتين أنشأتُهما

بياض بأعلىٰ الدرج بقـدر إصبع

هذه بَيْعةٌ ميمُونه ، باليُمْن مبتَدَاة بالسعد مَقرونه ؛ لمولانا السيدِ الجليل الإمام النبوىّ المتوكِّل علىٰ الله أبى عبدِ الله محمدٍ أمير المؤمنين ، آبن الإمام المعتضِدِ بالله أبى الفتح أبى بَكْر العبّاسىّ : زاد اللهُ تعالىٰ شرفَه علُوّا ، وفخاره سُمُوّا . قام بعَقْدها السلطانُ السيدُ الأعظم ، والشاهنشاه المعظّم ، الملكُ الظاهر أبو سعيد برقُوق ، خلّد الله تعالىٰ سلطانَه ، ونصر جُيُوشَه وأعوانه ؛ بمجمعٍ من أهل الحلّ والعَقْد ، والأعتِبار والنقد : من القُضَاة والعلماء والأمراء، ووجوه الناس والوزراء والصُّلَحاء والنُّصَحاء؛ وإمضائها علىٰ السّداد، والنُّجْح والرشاد . علىٰ ماشرح فيه

بياض ستة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمدُ لله الذى جعلَ بيتَ الخلافة مَثَابةً للناس وأمْنا وأقام

بيت العلامة

تقدير شبر

سُورَ الإمامة وِقَايةً للأنام وحِصْنا ، وشدّ منها بالعِصَابة

تقدير ربع ذراع

القُرشيّة أزْرا وشاد منها بالعُصْبة العبّاسيّة رُكْنا ، وأغاث

تقدير ربع ذراع

الخلقَ بإمامِ هُدًى حَسُن سِيرةً وصَفَا سريرةً فراقَ صورةً ورقَّ معنى ،

ثم يأتى على الكلام إلى آخر البيعة على هذا النَّمط إلى أن ينتهىَ إلى

قوله : والله تعالى يجعلُ آنتقالهم من أدْنى إلى أعلى ومن يُسْرى إلى يمنى ،

ويحقِّق لهم بمن آستخلَفه عليهم وعْدَه الصادقَ بقوله تعالى : ﴿ وعَدَ اللهُ

هامش الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

إن شاء الله تعـالىٰ

كتب فى الثانى من جمادىٰ الأولىٰ شــلا

سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة

بالإذن العالى المولوى الإمامى النبوى المتوكلى شــلا

أعـــــــلاه الله تعـالى

الحمدُ لله وحدَه ، وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبِه وسلامُه

حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل

صورة خط المبايعين للخليفة من أهل الحل والعقد

بايعته علىٰ ذلك	بايعته علىٰ ذلك	بايعته علىٰ ذلك
قدّس الله تعالىٰ خلافته	زاد الله تعالىٰ فى شرفه	زاد الله تعالىٰ فى أعتلائه
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

صورة خط الشهود على البيعة

حضرت	حضرت	حضرت
جَرَيان عقد	جَرَيان عقد	جَرَيان عقد
البيعة المذكورة	البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة
قرنَهـا الله تعالىٰ	قــرَنَها الله تعالىٰ	عَرَّف اللهُ المسلمين
باليُمْن والبركة	بالسَّـداد	بركتَهـا
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

النــوع الثـانى

(مِن البَيْعات ، بيعاتُ المـلوك)

واعلم أنَّ المقرّ الشّهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "التعريف" : أنَّ مَنْ قام من الملوك بغير عهد ممن قبْله لم تجر العادةُ بأن تُكتَب لهم مبايعةٌ ؛ وكأنّه يريد آصطلاحَ بلاد المَشْرِقِ والديارِ المِصْرية ؛ أما بلادُ المغرب فقد جرتْ عادة مصطَلَحهم بكتابة البَيْعات لمُلوكهم ، وذلك أنه ليس عندهم خليفةٌ يَدِينون له ، يتقلّدون المُلْكَ بالعهد منه . بل جُلُّهم أو كلُّهم يدّعى الخلافةَ فهم يكتُبون البيعاتِ لهذا المعنىٰ .

وهذه نسخةُ بيعةٍ من هـذا النوع ، كُتِب بها للسـلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان أبى الحَجّاج بن نَصْر بن الأحمر الأنصارىّ ، صاحبِ حمراء غَرْناطةَ من الأندَلُس ، مفتتحةٌ بخُطبة علىٰ قاعدتهم فى بَيْعات الخلفاء علىٰ ماتقدّم ذكره ، وربما تكرّر الحمدُ فيها دلالةً علىٰ عِظَم النعمة . من إنشاء الوزير أبى عبدالله محمدِ بنِ الخطيب صاحب ديوان إنشائه ، علىٰ مارأيتُه فى ديوان ترسُّله ، وهى :

الحمدُ لله الذى جلّ شانا، وعزّ سُلطانا ، وأقام علىٰ رُبُوبِيّته الواجبةِ فى كلّ شىء خَلَقه بُرهانا، الواجبِ الوجودِ ضرورةً إذ كان وُجودُ ماســواه إمْكانا، الحىّ القيُّومِ حياةً أبديّةً سَرْمديّةً منزّهة عن الابتداء والانتهاء [فلا تَعْرِف وقْتا ولا تَستَدْعى زمَانا، العلــيم الذى يعْــلَمَ السّرّ وأخفىٰ](١) فلا يعزُبُ عن عِلْمه مِثقــالُ ذرّة فى الأرض ولا فى السماء إلّا أحاط بها عِلْمــا وأدركها عِيَانا، القــديرِ الذى ألقت الموجُوداتُ كلُّها إلىٰ عَظَمتــه يَدَ الخُضُوع استِسْلاما له وإذْعانا . المُريدِ الذى بمشــيئته تصريفُ الأقدار، واختلافُ الليلِ والنّهار ، فإن منَع مَنَع عَدْلا وإن مَنَح مَنَح إحسانا ، شَهِد تداوُلُ المُلوكِ بدَوَام مُلْكه ودلّ حدُوثُ ماســواه علىٰ قِدَمه ، وأثنتْ ألسِــنَةُ الحىّ والجمــادِ علىٰ مَواهِبه وقِسَــمه ، وفاضَ علىٰ عَوَالم السماء والأرض بحرُ جُوده العميم النّوال من قَبْل السؤال وكَرمِه ، وإنْ مِنْ شَىْء إلا يُسَبّح بحمده ويُثْنِى علىٰ نِعَمه سرا وإعلانا . فهو اللهُ الذى لاإلٰهَ إلّا هو ليس فىالوجود إلّا فعلُه ، ألَا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ وإليه يَرْجِعُ الأمرُ كُلُّه، وَسِعَ الأكوانَ علىٰ تباينها فَضْلُه ، وقدّر المواهبَ والمقاسِمَ عدلُه ، مَنْعا ومَنْحا وزيادةً ونُقصانا .

والحمدُ لله الذى بيده الاختراعُ والإنشاء ، مالكِ الملك يُؤْتِى المُلْكَ مَنْ يَشَاء ويَنْزِع الملك ممّن يَشَاء، سبَقَ فى مكنُون غيبه القَضاء، وخَفِيتْ عن خلقه الأسبابُ وعَمِيتْ عليهم الأنباء، وعجزَتْ عقُولُهم أن تُدْرِك منها كُنْهًا أو تكْشِف منها بيَانا .

والحمدُ لله الذى رفَعَ قُبّةَ السماء ما اتّخذ لها عِمَادا ، وجعل الأرضَ فِراشًا ومِهَادا، وخلق الجبالَ الراسِــيَةَ أوْتادا ، ورتّب أوضاعَها أجنــاسا متفاضلة، وأنواعًا متباينةً مُتقابِلة : حَيوَانًا ونباتًا وجمادًا ، وأقام فيها علىٰ حكمة الإبداع دلائلَ باهرةَ الشُّعَاع

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب لابن الخطيب (ص ٤٨ ج ١) .

وأشهادا ، وجعل الليلَ والنهارَ خِلفةً والشمسَ والقمرَ حُسْبانا . وقدّر السياسةَ سياجا لعالَم الإنسان يضُمُّ منه ما ٱنتشر ، ويطوِى من تعدّيه ما نشر ، ويحمِلُه على الآداب التى تُرشِدُه إذا ضَلَّ وتُقيمه إذا عَثَر ، وتجبُرُه على أن يلتزم السُّنَن ويتّبع الأثَر ، لُطفا منه شَمِلَ البَشَر وحَنَانا .

ولما عَمَر الأرضَ بهذا الجنس الذى فضّله وشرّفه ، ووهَبَ له العقلَ الذى تفكّر به فى حكمته حتّى عَرَفه ، وبما يجبُ لرُبُوبيّته الواجبةِ وصَفَه ، جعلهم درجاتٍ بعضُها فوقَ بعض فَقْرا وغِنًى وطاعةً وعِصْيانا . وٱختار منهم سَفَرةَ الوحْى وحملةَ الآيات ، وأرسل فيهم الرُّسُل بالمعجزات ، وعرّفهم بما كلّفهم من الأعمال المفترَضات : ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ . يومَ ٱعتبار الأعمالِ وٱعتبار الحَسَنات ، ونَصَب العدْلَ والمجازاةَ فى يوم العَرْض عليه قِسطاسًا وميزانا .

نَحمَدُه وله الحمدُ فى الأُولى والآخره ، ونُثنى على مَوَاهبه الجَمّة وآلائِه الوافره ، ونَمُدّ يدَ الضَّراعة ، فى موْقف الرَّجاء والطّاعة ، إلى المَزيد من مِنَنه الهامِيَة الهامِرَهْ ، ونسألُه دَوامَ أَلْطافِه الخافِيَة وعِصَمِه الظاهره ، وٱتّصالَ نِعَمه التى لا نَزالُ نتعرّفُها مَثْنى ووُحْدانا . ونشهدُ أنّه اللهُ الذى لا إلٰهَ إلّا هو وحدَه لا شريكَ له . [شهادةً نجِدُها فى المَعاد عُدّةً واقيه ، ووسيلةً للأعمال الصالحة إليه راقيه ، وذخيرةً صالحةً باقيه ، ونُورا يَسعى بين أيدينا ويكونُ على الرضا والقبول فينا عُنْوانا[1]] . ونشهد أنّ سيدنا ومولانا محمّدا النبيَّ العربيَّ القرشيَّ الهاشميَّ عبدُه ورسوله الذى ٱصطفاه وٱختاره ، ورَفَع بين النبيّين والمرسلين مِقْدارَه ، وطهّر قلبه وقدّس أسرارَه ، وبلّغه

(١) الزيادة من ريحانة الكتاب ص ٤٩ .

من رِضَـاه اختيارَه ، وأعطاه لِواءَ الشفاعة يَقْفو آدمُ ومَنْ بعــده من الأنبياءِ الكِرام آثارَه ، وجعله أقْرَبَ الرُّسُل مكانةً وأرفعَهم مكانًا . رسولُ الرحمــه ، ونُورُ الظُّلْمه ، وإمامُ الرسُل الأئمّــه ، الذى جمع له بين مَزِيّة السَّبْق ومزية التَّتِمّه ، وجعل طاعته من العذابِ المقيم أمانًا . صاحبُ الشَّفاعة التى تؤمَّل ، والوســيلةِ التى إلى الله بهــا يُتَوسَّل ، والدرجةِ التى لم يُؤْتَها المَلَكُ المقرَّب ولا النبيُّ المُرْسَل ، والرتبةِ التى لم يُعْطِها اللهُ سواه إنسانًا . انتخَبَه من أشرفِ العَرَب أُمًّا وأبًا ، وأزكَى البريَّة طينــةً وأرفعها نَسَبًا ، وابتعثَه إلى كافَّة الخلق عَجَمًا وعَرَبا ، ومَلأ بنُور دعوتِه البسيطةَ جنُوبا وشَمالا ومَشرِقا ومَغرِبا ، وأنزل عليه كتابَهُ الذى آمنتْ به الجنُّ لمَّـا سمِعَتْه وقالوا ﴿إنَّا سَمِعْنا قُرْآنًا عَجَبا﴾ . تمامًا على الذى أحسَنَ وتفصيلًا لكلِّ شىء وتِبيانا . فصدَعَ صلَّى الله عليه وسـلم بأمْرِ من اختار ذاتَهُ الطاهرةَ واصــطَفَاها ، وأدّى أمانَةَ الله ووفّاها ، ورأى الخلائقَ على شفى المتَالِف فتلافَاها ، وتتبَّع أدواءَ الضَّلال فشَفَاها ، ومَحا معالِمَ الجهــل وعَفَّاها ، وشادَ للخلقِ فى الحقِّ بُنْيانا . مؤيَّدا بالمُعجزات التى حُجَجُها تُقْبَل وتُسَـلَّم : فمن جذْع لِفراقِه يتألَّم ، وجَمَـادٍ بِصِدْق نُبُوّته يتكلَّم ، وجيش شَكَا الظَّمَأ ففَجَّر لديه المَعِين منه بَنَـانا . وأىُّ مُعْجِزةٍ ككتاب الله الذى لاتنقضى عجائبُه ، فهو اليَمُّ والعُلومُ النافعةُ كلُّها مَذَانِبُه ، وأفُقُ الحق الذى تَهْدى فى ظُلُمات البرِّ والبحر كواكبُه ، والحُجّةُ البالغةُ التى أصبحَتْ بين الحق والباطل فُرْقانا . فأشرقتِ الأرضُ بنُور ربِّها وآياتِه ، وتمّت كلمةُ الله صِدْقًا وعَدْلا لامُبَدِّلَ لكلماته ، وبلغ مُلْكُ أُمّتــه مازُوِى له من أقطار المعمُور وجهاتِه ، حتّى عَمَر من أكناف البســيطةِ ، وأريافِ البِحار المحيطة ، وِهَادا وكُثْبانا . ونُقِلَتْ كنوزُ كِسْرى بعِزِّ دعوته الغالبــه ، وظَفِرتْ بفَلْج الخصام أيدى عزائِمها المُطالبه ، وأصبح إيوانُ فارسَ مَجَرَّ رِماح العَرَب العاربه ، وقَذَفَتْ جُنودَ قيصَر من ذوابِلها بالشُّهب الثاقبه ، حتّى فرّ عن مَدَرتِه الطيِّبة

آبَا بالصَّفْقة الخائبه، وخلَصَتْ إلىٰ فُسْطاطِ مصر بكتائبها المُتعاقبه، فلا تسمَعُ الآذانُ فى إقامتِهم إلّا إقامةً وأذَانا . ولا دليلَ أظهرُ من هـذا القُطْر الأندلُسِىّ الغريبِ الذى خلَصتْ إليه سُيوفُها أثباجَ البِحار، علىٰ بُعْد المَراحل ونُزُوح الدِّيار، وتكاثُفِ العمالات وآختلافِ الأمصار، ومُنْقطَع العِمارة بأقصىٰ الشَّمال ومَحَطّ السُّفّار، طلعَتْ عليه كلمةُ الله طُلُوعَ النهار، وآستوطنَتْه قبائلُ العرب الأحرار، وأرغمتْ فيه أُنُوفَ الكُفّار، ضِراباً فى سبيلِ اللهِ وطِعانا .

ولمّا آستقام الدِّين، وتمّ معالمَ الإيمان الرسُولُ الأمين، وظَهر الحقُّ المُبين، وراقَ من وَجْه المِلّة الحنيفيّة السَّمحةِ الجَبِين، وأخذ المَسالكَ والمآخذَ الإفصاحُ والتبيين، وتقرّرتِ المستَنَدات المعتَمَداتُ سُنّةً وقرآنا ، أشعره الوحْىُ بالرِّحْلة عن هذه الدار، والإنتقالِ إلىٰ محلّ الكرامة ودارِ القَرار، وخيّره المَلَكُ فاختار الرَّفيقَ الأعلىٰ مُوفَّقا إلىٰ كرم الاختيار، [و]وجَدَ صَحْبُه رضى الله عنهم فى الاستخلاف بعده والإيثارِ حُجَجا مُشْرِقةَ الأنوار، أطلقَتْ بالحقّ يدًا وأنطقتْ بالصِّدْق لسانا .

صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحابته ، وأُسْرته الطاهرة وعِصَابته ، وأنصاره وأصهاره وقَرابته، الذين كانوا فى مُعاضَدته إخوانا ، وعلىٰ إعْلاء إمْرة الحقّ أعوانا . نُجوم المِلّة وأقمارها، وغُيوثها الهامية وبِحارُها ، وسُيوف الله التى لاتَنْبو شِفَارُها، وأعلام الهدىٰ التى لاتَبْلىٰ آثارُها، ودعائم الدِّين التى رَفعتْ منه علىٰ البِرّ والتقوىٰ أركانا .

وحيّا اللهُ وجوهَ حَىّ الأنصار بالنعيم والنَّضْره ، أُولِى البأس عند الحَفِيظة والعفو عند القُدْره ، الراضُون أن يذهَبَ الناسُ بالشاة والبعير ويذْهَبُوا برسولِ الله صلّى الله عليه وسلم فنِعْمَتِ المَنْقبةُ والأثْره، الحائزُون ببيعة الرِّضوان فضلًا من الله ورضوانا . وُزَراؤه وظُهراؤه فى كل أمر ، وخالصته يومَ أُحُد وبَدْر، لم يزالوا صدرا فى كلّ

قَلْب وقَلْبـا فى كلّ صدر ، يَصْلَوْن دُونَه كلّ جمر ، ويَفْـدُونَه بنُفُوسهم فى كلّ سِرّ وجهر ، ويعمَلُون فى إعلاء دينـه بِيضًا عِضَابًا وسُمْرا لِدَانا . صلاةٌ لا تزالُ سحـائبُها ثَرّه ، وتحيةٌ دائمةٌ مستمِرّه ، ما لَهِجت الألْسُنُ بثنائهم ، ووقفَت المَفاخِرُ علىٰ عَلْيائهم ، وتُعُلِّمت المواهِبُ من آلائهم ، وقَصُرت المحـامدُ علىٰ مُسمَّياتهم وأسمـائهم ، وكان حُبُّهم علىٰ الفَوْز بالجنة ضَمـانا .

ونسألك اللهم لهـذا الأمر النَّصْرِىّ الذى سَبَبُه بسببِهم موصُول ، وهم لفُرُوعه السامية أُصُول ، فيالَهَا من نُصُول خلَقَتها نُصُول ، أنجزَتْ وعْدَ النصر وهو ممْطُول ، وأحيت رُبُوعَ الإيمانِ وهى طُلُول ، نَصْرا عزيزًا وفتْحا مبينا ، وتأييدًا علىٰ أعدائك وتمكِينا ، ومُلْكا يبقىٰ فى الأعقـابِ وأعقابِ الأعقابِ وسُـلطانا . وأعِنَّا اللهمّ علىٰ ما أوجبْتَ له من مفروض الطـاعه ، وتأديةِ الحقّ بجَهْد الإسـتِطاعه ، واعْصِمْنا بإيالته العادلةِ من الإضَاعه ، واجعلْنا من مَرْضاته علىٰ سَنَنِ السُّنّة والجماعه ، واجعَلْها كلمةً باقيةً إلىٰ قيام الساعه ﴿ واعفُ عنّا واغفِرْ لنَا وارْحمْنا أنتَ مَوْلانا ﴾ .

أما بعدَ ما افتُتِح به من تحميدِ الله وتمجيدِه ، والثناء الذى تتعطّرُ الأنديةُ بتَرْدِيده ، فإنّ من المشهور الذى يعضِّـده الوجودُ ويؤيِّده ، والمعلومِ الذى هو كالشمس ضَلَّ من يُنْكِره أو يجْحَدُه ، والذائع بكلِّ قُطْر ترْويه رُواةُ الأنبـاءِ وتُسْنِده ، ماعليه هـذا المُلْك النَّصْرىُّ الحمىٰ ، الأنصارىُّ المُنْتمىٰ ، الذى يُصيبُ شاكلةَ الحقّ إذا رمىٰ ، ويَعُمّ العبـادَ والبلادَ غيْثُه مَهْما هَمىٰ : من أَصالةِ الأعْراق ، وكرَم الأخلاق ، والفضل الباهر الإشْراق ، والجهادِ الذى هو سَمَر الرَّكْب وحديثُ الرِّفَاق ، وأنّ قومه الملوكَ الكِرام إن فُوخِروا بنسبٍ ذكَرُوا سعدَ بن عُبادةَ ومجْدَه ، أو كُوثِرُوا بعددٍ غلَبوا بالله وحْدَه ، أو استُنْصِروا فرّجُوا كلّ شدّه ، واستظْهَرُوا من [عزْمِهم](١) الموهُوب ،

(١) من زيادة الكاتب .

وصَـبرهم على الخطوب، بكلّ عَدَد وعُدَه ، دارُهم الثغـرُ الأقصى ونِعمَتِ الدّار ، وشِعَارُهم «لا غالِبَ إلّا الله» ونِعْم الشّعار ، زُهّادٌ إذا ذُكِر الدِّين ، أُسودٌ إذا حَمِيت المَيَـادين ، جبالٌ إذا زَحَفَت الصُّفوف ، بُدُورٌ إذا أظلَمتِ الزُّحُوف ، غيوثٌ إذا مُنِـع المعرُوف ، أفرادٌ إذا ذُكِرت الأُلُوف ، إنْ بُويِعوا فالملائكةُ وُفُود [وحملةُ العِلْمِ][1] وحملةُ السِّـلاح شُهُود ، وإن وَلَدُوا فالسُّيوفُ تمائمُ[1] والسُّروج مُهُود ، وإن أصحَروا للعدُوّ فالظِّلال بُنُود ، وجُنودُ السبع الطِّباقِ جُنُود ، وإن أظلم الليلُ أسهرُوا جُفُونَهم في حياطة المسلمين والجُفُونُ رُقُود .

وإنّ هـذا القُطرَ الذى ٱنتهى سَـيْلُ الفتح الأوّلِ إلى ناحيتـه ، وأُجيلتْ قِداحُ الفوز بالدّعوة الحنيفيّـة على الأقطار فأخذ الإسـلامُ بناصيتِه ، كان من فَتْحه الأوّل ماقد عُلِم ، حَسَبَ ماسُطِّر ورُسِم ، وإنّ موسى بنَ نُصَير وفتاه ، حلّ من فُرضة مَجَازه مَحلَّ موسى وفَتَاه ، وحلّ الإسـلامُ منه دارَ قَرار ، وخِطَّةً خليقةً بٱرْتيـادٍ وٱختيار ، وبلدًا لايُحصى خَيرُه ، ولا يَفْضُـلُه بشيءٍ من المزيّة ماعدا الحَرَمين غَيْرُه ، وٱمتدّتِ الأيّامُ حتّى تأنّس العدُوّ لرَوْعتِـه ، وخَفّ عليه ما كان من صَرْعته ، وقدَحَ فأورى ، وأعضل داؤُه وٱستَشرى ، وصارتِ الصُّغرى التى كانت الكُبْرى ، فلولا أنّ الله عَمَدَ الدِّين منهم بالعُمْدة الوَثِيقه ، حُماةِ الحَقِيقه ، وأئمةِ الخليقَهْ ، وسُلالةِ مفتتِحى اليمـامةِ ومفتتِحى الحَدِيقه ، لأجهز النصل ، وٱجتُثّ من الدِّين الفرعُ والأصـل ، لكنّهم ٱنتُدِبوا إلى إمساكِ الدِّين بها ٱنتِـدابا ، ووصَلُوا للإسلام أسْبابًا ، وتناولَها منهم صَقرُ قَبِيـلِ الخَزْرَجْ ، ذُوالحُسام المُضَرّج ، والشاء المؤَرّج ، أبو عبدِ الله الغالب بالله محمدُ ٱبن يوسف بن نصر أميرالمسلمين ، المنتَدَب لإقامة سنّة سيد المرسلين ، قُدوةُ الملوك المجـاهدين : نضّر الله وجهه وتقبّـل جِهاده ، وشـكَر دفاعَه عن حوزة الإسـلام

(١) من ريحانة الكتاب .

[وجلاَدَه ، فانقشعتِ الظُّلمــه ، وتمـاسَكَت الأمّه ، وكفّ العـدُوّ وأقصر ، ورأىٰ الإسـلامُ بمَن آستَنصر ، وآستَبصَر فى الطاعة][(1)] من آستبصر ، وهبّتْ بنصر الله العَزائم ، وكثُرتْ علىٰ العـدُوّ الهَـزائم ، وتوارثُوا مُلْكها ولَدًا عَن أب ، مسـتندين إلىٰ عَدل وبَذْل وبَسَالة وجَلَالة وحَسَب ، تتّضح فى أُفُق الجَلال نجومُ سيَرِهم هاديةً للسائرين ، وتفرَق من سَطَواتهم فى الله أُسودُ العَرين ، إلىٰ أن قام بالأمر وُسْـطىٰ سِـلْكهم ، وبركةُ مُلْكهم ، الخليفـةُ الواجبُ الطاعة بالحق علىٰ الخَـلْق ، الشهيرُ الجـلالةِ والبَسَالةِ فى الغرْب والشّرْق ، أميرُ المسلمين بواجِبِ الحق ، ساحبُ أذيال العَفَاف والطّهاره ، السعيدُ الإيالة والإماره ، البعيدُ الغـارَه ، مَنْ ذُعر العدوُّ لبأس حُسَامه ، وذُخر الفتحُ الهنيُّ لأيّامه ، صدرُ الملوك المجاهدين ، وكبيرُ الخلفاءِ العادلين ، البعيدُ المَدىٰ فى حِمايةِ الدِّين ، السعيدُ الشهيد ، أبُو الوليد ، آبن المَوْلى الهمامِ الأوحد ، الرفيـع المُمَجّد ، الطاهرِ الظاهرِ الأعلىٰ ، الرئيس الكبير الجليل المقـدّس الأرضىٰ ، « أبى سعيد » بن أبى الوليد ، بن نصر . فأحيا رحمه اللهُ معالِمَ الكِتَاب والسـنّة ، وجلّى بنُور عدْله غياهبَ الدُّجُنّه ، وأعزّ الإسلامَ وحَمَاه ، ورمىٰ ثُغْرة الكُفْر فأصْماه ، قدّس الله رُوحَه الطيِّب ، وسقىٰ لحـدَه من الرحمـة الغَمَامَ الصيِّب ، وأوْرث المُلْكَ الجهاديّ من ولده خيْرَ ملِك قُبِّلتْ منه كَفّ ، وآسـتدار به موكبٌ للجهاد مُلْتفّ ، وشمخ بخِدْمته أنف ، وسَمَا إلىٰ مشاهدته طَرْف ، وتأرّج من ذكره عَرْف ، وجرىٰ إلىٰ بابه حَرْف ، مولانا الملِكَ الهُمام ، الخليفةَ الإمام ، من أشرق بنُور إيَالتِه الإسلام ، وتشرّفتْ بوجوده الليـالي والأيّام ، بَدْرُ المُلْك وشمسُه ، وسِرُّ الزمان الذى قَصُر عن يومه أمسُـه ، الذى آشتهر عدْلُه ، وبَهَر فضلُه ، وظهرتْ عليه عِنـايةُ ربّه ، وكان الخضوع له فى سَلْمه وحَرْبه ، مولانا أميرُ المسلمين ، وقُدوةُ الملوكِ المجاهدين والأئمة

(1) الزيادة عن ريحانة الكتّاب لابن الخطيب وهى لازمة لاستقامة الكلام .

العارفين ، السعيدُ ، الشهيدُ، الطاهرُ، الظاهر، الأوحدُ الهُمام، الخليفة الإمام (أبو الحجّاج) رفعَ الله درجتَه فى أوليائه، وحَشَره مع الذين أنعم عليهم من أنبيائه وشُهدائه ؛ فوضحت المَسالكُ وبانَتْ ، وأشرقتِ المعاهدُ وآزدانتْ ، وشمِل الصُّنعُ الإلٰهىّ واللُّطف الخفىّ أقطارَ هــذه الأمة حيث كانَتْ . ولما آختار اللهُ له ماعنده، وبلغَ الأمدَ الذى قدّره سبحانه لحياته وَحَدَّه، وقَبَضه إليه مستغفِرا لذنبه، مطمئنًّا فى الحـالة التى أقربُ ما يكون العبـدُ فيها من رَبِّه ؛ كأنمـا تأهّب للشهادةِ [فاختار] مكانَها وزمانَها، وطهّر بالصوم نَفْسه التى كَرَّم اللهُ شانها، وطيَّب رَوحها ورَيْحانَها، فوقعت آراءُ أرباب الشُّورىٰ التى تِصحُّ الإمامة باتّفاقها ، وتنعقدُ بعَقْد ميثاقِها : من أعلام العلم بقاعدة [مُلْكه] غَرْناطة حرسها اللهُ تعالىٰ التى غيرُها لها تَبَع، وحُماةِ الإسلام الذين فى آرائهم للدين والدنيا مُنْتفَع ، وخُلَصاءِ الثِّقات، ووُجوه الطَّبقات، علىٰ مبايعة وارثِ مُلْكه بحقِّه ، الحائز فى مَيْدان الكمال وإحراز ماللإمامة من الشروط وإ[كمال] خَصـل سَبْقه ، كبـيرِ وَلَده، وسابقِ أمَدِه ؛ ووارثِ مُلْكه، ووُسْطىٰ سِلْكه ، وعِمَادِ فُسْطاطه ، وبَدْرِ الهالة من بِسَاطه ، مولانا قمرِ العَلْياء، ودُرّةِ الخُلَفاء، وفَرْعِ الشجرة التى أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها فى السماء ؛ الذى ظهرَتْ عليه مخايِلُ المُلْكِ ناشِئا ووليدا، وآستشْعرتِ الأقطارُ به وهو فى المَهْد أمانًا وتمهيدا ، وآستشرف الدِّينُ الحنيفُ فأتلع جِيـدا، وآستأنَف شبابًا جديدا ، ناصرِ الحقِّ، وغياثِ الخلْق ؛ الذى تمـيَّز بالسكينة والوَقَار، والحياءِ المُنْسدِل الأستار، والبَسَالةِ المرهُوبةِ الشِّفار ، والجُود المُنْسكب الأمطار، والعـدلِ المُشْرِق الأنوار ؛ وجمعَ الله فيه شُروطَ الملك والآختيار، مولانا، وعُمْدة ديننا ودُنْيانا ، السلطان الفاضل، والإمامِ العادل، والهمامِ الباسل ، الكريمِ الشمائل ، شمسِ الملك وبَدْرِه، وعَيْنِ الزمانِ وصَدْرِه، أميرِ المسلمين، وقُرّة أعين المؤمنين ، أبو عَبْد الله : وصـلَ الله أسبابَ سَـعْده ، كما حَلَّى أجيـادَ

المنابر بالدُّعاء لمجده، وجعل جُنودَ السماء من جُنْده، ونَصَره بنَصْره العزيز فما النَّصرُ إلا مِن عِنْده، ورأوْا أن قد ظَفِرتْ بالعُروة الوُثْقىٰ أيديهم ، وأمِنَ فى ظلِّ الله رائحُهم وغاديهم، ودلَّت علىٰ حُسْن الخواتم مَبَاديهم ؛ فتبادَرُوا وٱنثالُوا، وتبخْتَرُوا فى ملابِس الأَمْن وٱختالُوا ؛ وهبُّوا إلىٰ بَيْعته تطيرُ بهم أجنحةُ السُّرور، ويُعْلِن ٱنطلاقُ وُجُوهِهم بانْشِراح الصُّـدور؛ وٱجتمع منهم طوائفُ الخاصَّة والجُمْهور : ما بين الشريف والمَشْروف ، والرُّؤساءِ أُولى المَنْصِب المعْروف ؛ وحَمَلةِ العلم وحملةِ السُّيوف، والأُمَناء ومَنْ لَدَيْهم من الأُلُوف ، وسائرِ الكافَّة أُولى البِدَار لمثْلها والخُفُوف ؛ فعقَدُوا له البيعةَ الوثيقةَ الأَسَاس ، السعيدةَ بفضلِ الله علىٰ النـاس ، البريءَ عهدُها من الارْتياب والالْتِباس ؛ الحائزةَ شُروطَ الكمال، الماحيةَ بنُور البيان ظُلَمَ الإشْكال ، الضَّمينةَ حُسن العُقْبىٰ ونُجْحَ المآل، علىٰ ما بُويِع عليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم ومَنْ له من الصَّحابة والآل؛ وعلىٰ السَّمْع والطـاعه، ومُلازَمة السُّنَّة والجَماعه؛ فأيديهم فى السِّلْم والحَرْب رِدءٌ ليَده ، وطاعتُهم إليه خالصةٌ فى يومِه وغَدِه؛ وأهواؤُهم متَّفِقة فى حالَىِ الشِّدّة والرَّخاء، وعُقُودهم محفوظةٌ علىٰ تداوُلِ السَّرَّاء والضَّرَّاء ؛ أشهَدُوا عليها الله وكفىٰ بالله شهيدا ، وأعطَوْا صَفَقات أيمانهم تثْبيتا للوفَاء بها وتأكيدا ، وجعلوا منها فى أعناقهم ميثاقًا وثيقًا وعهدًا شـديدا ؛ والله عز وجل يقول : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ومن أصْدَقُ من اللهِ وَعْدا أو وَعِيـدا . وهم قد بسَطُوا أيديهم يستنْزِلُون رحمةَ الله بالإخلاص والإنَابه ، وصرَفُوا وُجُوهَهم إلىٰ من أمَرَهم بالدعاء ووعدَهم بالإجابَه؛ يسألُونه خيْرَ مايقْضيه، والسيْرَ علىٰ مايُرْضيه .

اللهمَّ بابَكَ عنـد تقلُّب الأحوالِ عَرَفْنـا ، ومن بحرِ نِعَمِك العميمةِ ٱغترفْنـا ، وعفْوُك ستَرَ من عيُوبنا كلَّ ما ٱجترَحْنا وٱقترَفْنا ؛ ومن فَضْلك أغنيْتَنا، وبمِنِّك التى

لاتنام حرستنا وحيتنا [فانصر حيّنا وارحم ميّتنا][1] وأوزعنا شكر ما أوليتنا، واجعل لنا الخير والخيرة فيما إليه هديتنا .

اللهمّ إنّ قطرنا من مادّة الإسلام بعيد ، وقد أحدق بنا بحرٌ زاخرٌ وعدوٌّ شديد ، وفينا أيِّم وضعيف وهَرِمٌ ووَليد [وأنتَ مولانا ونحنُ عبيد .

اللهم مَنْ بايَعنا فى هذا العقد][1] فاسعِدْنا بمبايعته وطاعته، وكن له حيثُ لا يكونُ لنفسه بعد استنفادِ جُهْده فى التحفُّظ واستطاعته، وكُفَّ عنه كَفَّ عدوّك وعدُوّه كلّما هبّت به رياح طمّاعته؛ يامَن يُفْرِده العبدُ بضراعته، ويعُوذُ بحفْظه من إضاعته .

اللهمّ أَدْعنّا حقّه فإنّا لانقوىٰ علىٰ ادائه، وتولّ عنّا شكر ماحَمِدناه من سيرته وسيرة آبائه، واحمِله من توفيقك علىٰ سوَائه .

اللهمّ إنّا إليه ناظرُون، وعن أمره صادرُون، ولإنجاز وعدك فى نصر من يَنْصُرك منتظِرُون؛ فاعِنه علىٰ ماقلّدته، وأنجز لدينا علىٰ يدَيْه ماوعَدْته؛ فما فقَد شيئا مَنْ وَجدك، ولا خاب من قصَدَك، ولا ضلّ من اعتَمَدك، آمين آمين يارب العالمين .

وكتب الملأُ المذكورون أسماءَهم بخطوط أيديهم فى هذا الكتاب ، شاهدةً عليهم بما التزموه دُنيا ودِينا ، وسلكُوا [منه] سبيلًا مُبِينا ؛ وذٰلك فى الثانى والعشرين لشوّال من عام خمس وخمسين وسبْعِمائة .

قلت : وقد أخبر آخر هذه البيعة بأن المبايعين للسلطان تُوخَذُ خُطُوطُ أيديهم فى كتاب البيعة شاهدة عليهم بما بايعوا عليه . والظاهر أن كتابةَ البيعة عندهم كما فى مكاتباتهم فى طُومارٍ واحدٍ كبيرٍ متضايق السُّطور، وأنه ليس له طُرّة بأعلاه كما فى كتابة المصريين .

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لأبن الخطيب .

البـاب الثـالث

من المقـالة الخامسة فى العُهُود، وفيه فصلان

الفصـــــــل الأوّلُ

(فى معنىٰ العَهْد)

العهْدُ لفظٌ مشتَرَك يقع فى اللغة علىٰ ستة مَعانٍ :

أحدها — الأمَانُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ .

الثـانى — اليَمينُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ﴾ .

الثالث — الحِفَاظ . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم : " حُسْنُ العَـهْدِ مِنَ الإيمـان " .

الرابع — الذِّمّة . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم " لايُقْتَل مُسْـلِمٌ بكافر ولا ذُو عَهْدٍ فى عَهْده " .

الخامس — الزّمان . ومنه قولهم : " كان ذلك علىٰ عَهْدِ فلان " .

السادس — الوَصيَّة . ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ ولَقَدْ عَهِدْنَا إلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِيَ ﴾ وهو المراد هنا .

قال الجَوهرىّ : ومنه اشْتُقّ العهدُ الذى يُكْتَب للوُلاة[1] .

---

(١) بهامش الاصل هنا حاشية نصها «ولهم سابع ، وهو قولهم فى الدعاء للملك بعد موته : سقى الله عهده برحمته أى مكانه المدفون فيه يسق بالرحمة . فصح أن يطلق على الزمان والمكان .

الفصـــل الثـانى
(فى بيانِ أنواعِ العُهُـــود ، وهى ثلاثةُ أنواع)

النـــوعُ الأوّل
(عهودُ الخُلَفاء عن الخُلَفاء ، ويتعلّق النظرُ به من ثمـانيةِ أوجُه)

الوجــــهُ الأوّل
(فى أصـــل مشروعيّتهـا)

والأصـلُ فى ذٰلك ماثبت فى الصحيحين من حديثِ آبنِ عمَرَ رضى الله عنهما، أنه قيل لعُمَرَ عِنْدَ موته "ألا تَعْهَدُ؟ فقال: أأتحمّلُ أمرَكُمْ حيًّا وميتًا؟ إنْ أَستَخْلِف فقد آستَخْلَفَ مَنْ هو خيرٌ منّى، [يعنى أبا بكر][1]: وإنْ أترُكْ فقد ترَكَ مَنْ هو خيرٌ منّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم" . فأثبتَ آستخلافَ أبى بكر رضىَ الله عنه بذٰلك، مشيرًا إلىٰ مارُوِى : "أنّه لما آشتدّ بأبى بكرِ الصدّيقِ رضى الله عنه الوَجَعُ، أرسلَ إلىٰ علىّ وعُثْمانَ ورجالٍ من المهاجِرِين والأنصارِ، فقال : قد حَضَر ما تَرَوْن، ولا بُدّ من قائمٍ بأمرِكم ، فإن شِئْتم آستخَرْتم لأنْفُسكم، وإن شِئْتم آستخَرْتُ لكم . قالوا : بل آخْتَرْ لنا، فأمَرَ عثمانَ فكتبَ عهْدَ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه (علىٰ ماسيأتى ذكره) ــفقال عمر : لا أُطِيقُ القِيامَ بأُمور الناســ فقال أبو بكر هاتُوا سَيْفِى ! وتهدّدَه فانقاد عمرُ، ثم دخل عليه طلحةُ فعاتَبَه علىٰ آستخلافِ عُمَرَ . فقال : إنّ عُمَرَ واللهِ خيرٌ لكم وأنتم شرٌّ له ، واللهِ لو ولَّيْتُكَ لجعلْتَ أنْفَكَ فى قَفَاك، ولرفَعْتَ نفْسَك فوقَ قَدْرِها حتّى يكونَ اللهُ هو الذى يَضَعُها . أتيتَنِى وقد دَلَكْتَ عينَك ، تريدُ أن تَفْتِنَنى عن دينى

(١) الزيادة من صحيح مسلم (ج ٢ ص ٨٠) .

وتَرُدّني عن رأيي، ثم لا أقام الله رِجْلَك، والله لئن بلغني أنك غمصته وذكرته بسوء لألحقنك بحمضات قُنّة حيث كنتم تُسْقَوْن ولا تَرْوَوْن، وترعون ولا تَشبعون، وأنتم بذلك بجحون راضون، فقام طلحة فخرج ".

قال العسكري : الحَمَضات جمع حَمْضة ضَرْبٌ من النّبت، والقُنّة أعلى الجبل .

قال الماوردي : وكان آستخلافُ أبي بكر رضي الله عنه عُمَرَ باتّفاقٍ من الصحابة من غير نكيرٍ فكان إجماعا .

وقد عهِدَ عمرُ رضي الله عنه إلى ستةٍ، وهم عثمانُ ، وعليٌّ ، وطلحةُ، والزُّبَيْرُ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف، وسعدُ بن أبي وقّاص ؛ وتركها شُورى بينهم ، فدخلُوا فيها وهم أعيانُ العصر وأشرافُ الصّحابة رِضوانُ الله عليهم .

الوجـــــه الثـانى

(فى معـــنى الآســـتخلاف)

قال البغوي رحمه الله في كتابه " التهذيب " في الفقه : الآستخلافُ أن يجعلَه خليفةً في حياته ثم يخْلُفَه بعده . قال : ولو أوصى بالإمامة فوجهان[1] : لأنّه يخرج بالموت عن الوِلاية فلا يصِحُّ منه توليةُ الغير . وآستشكلَ الرافعيُّ رحمه الله هذا التوجيهَ بكلّ وصية، وبأنّ ماذكره من جعله خليفةً بعده : إن أُريد به آستنابتُه فلا يكون ذلك عَهْدا إليه بالإمامة . وإن أُريد جعلُه إماما في الحال، فهو : إمّا خلعُ نفس العاهد، وإمّا آجتماع إمامين في وقت واحد . وإن أُريد جعله خليفة أو إماما بعد موته فهو الوصية من غير فرق .

---

(١) أى وأصحهما عنده عدم الجواز . بدليل التعليل .

قلت : وهـذا جُنوحٌ من الرافعيّ رحمه الله إلىٰ صحّة الخلافة بالوصيّة أيضا ، كما تصح[1] بالاستخلاف .

الوجـــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه)

واعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة العهد بالخلافة أمورا :

منهـا — براعةُ الاستهلال بذكر مايتّفِق له : من معنىٰ الخلافة والإمامة واشتقاقِهما، وحالِ الوِلاية ، ولقبِ العاهِد والمعهُود إليه، ولقبِ الخلافة ، إلىٰ غير ذٰلك ممـا سبق بيانُه فى الكلام علىٰ البيعات .

ومنها — أن يُنبِّه علىٰ شَرف رُتْبة الخلافة، وعُلُوّ قدرها، ورِفعة شأنها، ومَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام، ودِعَاية الضرورة إليه، ونحو ذلك ممـا سبق فى البيعات أيضا .

ومنها — أن يُنبّه علىٰ اجتماع شروطِ الإمامة فى المعهُود إليـه من حِينِ صـدور العهد بهـا من العاهد ، فقد قال المـاورديّ : إنه تُعتبَر شروط الإمامة فى المعهُود إليه من وَقْت العهد ، حتّٰى لو كان المعهودُ إليـه صغيراً أو فاسقًا وقتَ العهد و بالغًا [عدْلا] عند الموت ، لم تَصِحّ خلافتُـه حتّٰى يسـتأنِفَ أهلُ الاختيارِ بيْعتَه . قال الرافعيّ رحمه الله : وقد يُتَوقّف فى هذا . قال النوويّ رحمه الله فى "الروضة" : لاتَوقُّفَ . والصواب ماقاله المـاورديّ .

ومنها — أن ينبّه علىٰ اجتهاد العاهِدِ وتروِّى نظره فى حقّيّة المعهود إليـه : فقد قال الماورديّ : وإذا أراد الإمامُ أن يَعْهَد بالإمامة، فعليه أن يُجْهِد رأيَهُ فى الأحَقّ بها، والأقْومِ بشُروطها، فإذا تعيّن له الاجتهاد فى أحد، عَهِد إليه .

(١) فى الأصول كما لاتصح الخ والظاهر أن « لا » زائدة من الناسخ تأمل .

ومنها — أن يُشير إلىٰ تقدُّم الاستخارة علىٰ العهد ، وأنَّ استخارته أدته إلىٰ المعهود إليه ؛ فإنَّ الاستخارةَ أمرٌ مطلوب فى كل أمر، خصوصًا أمرَ المسلمين وعُمومَ الولايةِ عليهم ، فإنَّ اختيارَ الله للخلق خيرٌ من اختيارهم لأنفُسِهم، والله يقُولُ الحقَّ وهو يَهْدِى السَّبِيل .

ومنها — أن ينَبِّه على أنَّ عهدَه إليـه بعد مَشُورة أهل الاختيار ومراجَعتِهم فى ذلك، وتصويبِهم له ، خروجًا من الخلاف . فقد حكىٰ الرافعىُّ رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهودُ إليه أجنبيًّا من العاهد ليس بوَلَد ولا والِدٍ : هل يجوزُ أن ينفَرِد بعقْد البيعةِ له وتفويضِ العهْدِ إليه ولا يستشيرَ فيه أحدا؟ أصحُّهما الجوازُ: لأنَّ العهدَ إلىٰ عمر رضى الله عنه لم يُوَقَّف علىٰ رضا الصحابة رضوان الله عليهم ، ولأنَّ الإمام أحقُّ بها، فكان اختيارُه فيها أمضىٰ، وقولُه فيها أنفَذ .

وحكىٰ المـاوردىّ فى جواز انفراد العاهدِ بالبيعة فيما إذا كان المعهودُ إليه والدًا أو ولدا ثلاثَةَ مذاهب :

أحدهـا — ما اقتصر الرافعىُّ رحمـه الله علىٰ نسبته إلىٰ المـاوردىِّ، ومقتضىٰ كلامه ترجيحُه : أنه يجوزُ الانفرادُ بعقْدها للوَلَد والوالد جميعا : لأنه أميرُ للأمة نافذُ الأمر لهم وعليهم؛ فغُلِّب حكمُ المَنْصِب علىٰ حكم النسب ، ولم يجعلْ للتُّهمة طريقًا علىٰ أمانته، ولا سبيلًا إلىٰ معارَضَته .

والثـانى — أنه لا يجوزُ انفرادُه بها لوَلَد ولا والد حتّٰى يُشاوِرَ فيه أهلَ الاختيار فيرَوْنه أهلا لها ، فيصحُّ منه حينئذ عَقْدُ البيعة : لأن ذلك [منه] تزكيةٌ [له] تجرى مَجْرىٰ الشهادة، وتقليدُه علىٰ الأمة يجرى مَجْرىٰ الحكم؛ والشهادةُ والحكمُ ممتنِعان من الولد والوالد للتُّهمة، لمـا جُبِل عليه من المَيْل إليهما .

والثالث — أنه يجوز أنْ ينفرد بعقد البيعة لوالده دونَ ولَده : لأنَّ الطبع إلىٰ الولَد أميل ؛ فأما عقدُها لأخيه وغيره من الأقارب والمناسبين فكعقدها للأجانب في جواز الانفراد بها .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ العلم بحياة المعهود إليه ووجوده إن كان غائبا . فقد قال الماوردىّ : إنه لو عهد إلىٰ غائبٍ مجهولِ الحياة لم يصحّ عهدُه، وإن كان معلومَ الحياة صحّ، ويكونُ موقوفا علىٰ قدومه .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أن المعهود إليه منصوصٌ عليه بمفرده، أو وقع العهدُ شورىٰ في جماعةٍ وأفضت الخلافةُ إلىٰ واحدٍ منهم بإخراج الباقين أنفُسهم منها ، أو ٱختيارِ أهل الحَلّ والعقد أحدَهم : إذ يجوز للخليفة أن يعهد إلىٰ ٱثنين فأكثرَ من غير تقديم البعض علىٰ البعض، ويختارُ أهلُ الاختيارِ بعد موته واحدًا ممن عهد إليه : فإنَّ عمرَ ٱبن الخطاب رضى الله عنه جعلها شورىٰ في ستة، فقال : الأمرُ إلىٰ علىّ وبإزائه الزبيرُ بنُ العوام، وإلىٰ عثمانَ وبإزائه عبدُ الرحمٰن بنُ عوف ؛ وإلىٰ طلحةَ وبإزائه سعدُ بن أبي وقّاص . فلما توُفِّى عمرُ رضى الله عنه، جعل الزبيرُ أمرَه إلىٰ علىّ ، وجعل طلحةُ أمرَه إلىٰ عثمانَ، وجعل سعدٌ أمره إلىٰ عبد الرحمن بنِ عوف؛ فخرج منها ثلاثةٌ، وبقيت شورىٰ[1] في عثمان وعلىّ، ثم بايَعَ علىٌّ عثمانَ . والمعنىٰ في الشورىٰ انه لايجوز أن تُجعلَ الإمامةُ بعد العاهد في غير المعهودِ إليهم .

ومنها — أن يُنبِّه علىٰ عَدَد المعهود إليهم وترتيبهم إن كان قد رتّب الخلافةَ في أكثرَ من واحد ، إذ يجوز أن يَعْهَد إلىٰ ٱثنين فأكثرَ علىٰ الترتيب . فلو رتّب

---

(١) أى بعد أن أخرج عبد الرحمن منها نفسه . وفى كتاب الأحكام السلطانية للماوردى فصارت الشورى بعد الستة فى هؤلاء الثلاثة وخرج منها أولئك الثلاثة ... ... ثم بعد الثلاثة فى ٱثنين علىّ وعثمان .

الخلافةَ فى ثلاثة مثلا ـ فقال : الخليفةُ بعدى فلان، فاذا مات، فالخليفةُ بعدَه فلان، [فإذا مات فالخليفة بعده فلان](١) كانت الخلافة منتقلة إليهم على ما رتّبها . ففى صحيح البخارىّ من رواية آبنِ عمَرَ رضى الله عنهما " أنَّ رســولَ الله صلّى الله عليه وسـلم آستَخْلَفَ علىٰ جَيْشِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بنَ حارثَةَ ـ وقال: إن أُصيبَ فجعفرُ بن أبى طالب، فإن أُصيبَ فعبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ، فإن أُصيبَ فليَرْتَضِ المسلمون رجُلا، فتقدّم زيدٌ فقُتِل، فأخذَ الرايةَ جعفرٌ وتقدّم فقُتِل، فأخذَ الرايةَ عبدُالله بنُ رَوَاحةَ وتقدّم فقُتِل، فآختار المسلمونَ بعــده خالدَ بنَ الوليد " . قال المـاوردىّ : وإذا جاز ذلك فى الإمارة جاز مثلُه فى الخلافة . قال : وقد عَمِل بذلك فى الدولتين مَنْ لم يُنْكِر عليه أحدٌ من علماء العصر :

فعهد سليمانُ بنُ عبد الملك إلىٰ عمرَ بنِ عبد العزيز، ثم بعــده إلىٰ يَزيدَ بن عبد الملك، وأقرّه عليه مَنْ عاصره من الناس، ومَنْ لاتأخذُه فى الله لومةُ لائم .

ورتّبها الرشــيدُ فى ثلاثةٍ من بَنيه : الأمينِ، ثم المأمون، ثم المؤتَمَن، من غير مَشُورةٍ(٢) من عاصره من فُضَلاء العلماء .

ولو قال العاهد : عهِدْتُ إلىٰ فلان، فإن مات فلانٌ بعد إفضاء الخلافةِ إليـه، فالخليفةُ بعده فلان، لم تصحّ خلافةُ الثانى، ولم ينعقِدْ عهدُه بها : لأنه لم يَعْهَدْ إليه فى الحال، وإنمـا جعله ولىّ عهده بعد إفضاء الخلافةِ إلىٰ الأوّل، وقد يموت قبل إفضائها إليه فلا يكون عهدُ الثانى بها مُنْبرِما .

ومنها ـ أن يُنَبِّهَ علىٰ أنَّ صدُورَ العهد فى حال نُفُوذ أمرِ العاهد وجَوَازِ تصرُّفه، فإنه لو أراد ولىُّ العهد قبـل موت العـاهد أن يُرِدَّ ما إليه من وِلَاية العهدِ إلىٰ غيره

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٠ ويظهر أنها سقطت من قلم الناسخ .

(٢) فى "الأحكام السلطانية" عن مشورة الخ حرر .

لم يجز: لأنّ الخلافة لا تستقرُّ إلا بعدَ موت المستخلِف . وكذا لوقال : جعلته وليّ عهدٍ إذا أفضتِ الخلافةُ إلىّ لم يجز: لأنه ليس فى الحال بخليفة، فلم يصحّ عهدُه بالخلافة .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ قَبُول المعهود إليه العَهْدَ، فإنه إذا عَهِد الإمامُ بالخلافة لىٰ مَنْ يصحّ العهدُ إليه علىٰ الشّروط المعتَبَرة فيه، كان العهدُ موقوفا علىٰ قَبُول المعهودِ إليه : فإن قَبِل صحَّ العهدُ وإلّا فلا، حتّى لو امتنع من القَبُول بُويِع غيره . والعبرةُ فى زَمن القَبُول بما بين عَهْد العاهد ومَوْته علىٰ الأصح، لتنتقلَ عنه الإمامةُ إلىٰ المعهُود إليه مستقِرّةً بالقَبُولِ المتقدّم . وقيل : إنما يكون القَبُول بعد موت العاهدِ : لأنه الوقتُ الذى يَصحُّ فيه نظَرُ المعهودِ إليه .

ومنها — أن يُورِد من وَصايَا العاهدِ للمعهود إليه ما يَليق به . وقد ذكر الماورديُّ أنّ الذى يلزَمُه من أمور الأمّة عَشَرةُ أشياءَ :

أحدها — حِفظُ الدِّين علىٰ أصوله المستقِرّة، وما أجمع عليه سلَفُ الأمّة، وأنه إن نَجَم مبتَدِعٌ أو زاغَ ذُو شُبْهة عنه، أوضح له الحُجّةَ، وبيّن له الصَّواب، وأخذه بما يلزمه من الحُقُوق والحدُود : ليكون الدِّين محروسًا من الخَلَل، والأمّةُ ممنوعةً من الزَّلَل .

الثانى — تنفيذُ الأحكام، بين المَتشاجِرين، وقطعُ الخِصام، بين المتنازعين؛ حتّى تعُمَّ النَّصَفَةُ فلا يتعدّى ظالم ولا يَضْعُف مظلُوم .

الثالث — حمايةُ البَيْضَة، والذّبُّ عن الحُرَم : ليتصرّفَ الناسُ فى المَعَايش، وينتشِرُوا فى الأسفار آمنين من تغرير بنفْس أو مال .

الرابـع — إقامةُ الحُـدود لتُصانَ محارِمُ الله تعالىٰ عن الاِنْتهاك ، وتُحْفَظَ حقُوقُ عباده من الإتلاف والاَسْتِهْلاك .

الخامس — تحصينُ الثُغُور بالعُدّة المانعه ، والقُوّة الدافعه ، حتّى لا يظْفَر الأعداءُ بِغِرَّة ينتهكُون بها محرّما ، أو يَسْفِكُون فيها لمسلِم أو معاهَد دَماً .

السادس — جِهادُ مَنْ عانَدَ الإسلامَ بعد الدَّعوة حتّى يُسْلِم أو يَدْخُلَ فى الذِّمّة : ليقام بحقّ الله تعالىٰ فى إظهارِه علىٰ الدِّين كلِّه .

السـابع — جِبَايَةُ الفَىْء(١) والصَّدَقاتِ علىٰ ما أوجبه الشرْعُ نصًّا وآجتهادا من غير حَيْف ولا عَسف .

الثـامن — تقدير العطاء وما يُستَحَقّ فى بيتِ المـال من غير سَرَف ولا تقْتير ، ودفعُه فى وقت لا تقديمَ فيه ولا تأْخير .

التـاسع — آستِكفاءُ الأُمَنـاء ، وتقليدُ النُّصَحاء ، فيما يفوّضه [إليهم من الأعمال](٢) ويكلُه إليهم من الأموال : لتكونَ الأعمالُ بالكُفَاة مضبُوطة ، والأموالُ بالأُمَناءِ محفُوظة .

العـاشر — أن يُباشِرَ بنَفْسه مُشَارَفَةَ الأمور وتصفُّحَ الأحوال : ليَنْهض بسياسة الأمّة ، وحِراسـة المِلّة ، ولا يُعَوِّل علىٰ التفويض تشاغُلًا بلذّة أو عبادة ، فقد يخونُ الأمينُ ويَغُشّ الناصحُ . وقد قال تعـالىٰ : ﴿ يا دَاوُدُ إنّا جعلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الأرْض فاحْكُمْ بينَ النّاسِ بِالحَقّ ولا تَتَّبِـعِ الهَوىٰ فيُضِلَّكَ عن سَبِيل اللهِ ﴾ . فلم يقتَصِر الله

---

(١) يطلق الفىء على الغنيمة والخراج والمراد هنا الثانى .

(٢) الزيادة من "الأحكام" .

تعالى على التفويض دون المباشرة ، بل أمره بمباشرة الحكم بين الخلق بنفسه . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" ولله در محمد بن يزداد وزير المأمون، حيث قال مخاطبا له :

مَنْ كانَ حارِسَ دُنْيا إنَّهُ قَمِنٌ * أنْ لاينامَ وكُلُّ الناس نُوَّامُ!

وكيفَ ترقُدُ عَيْنا مَنْ تَضيَّفه * همَّانِ من أمرِه : حَلٌّ وإبْرامُ!

وحينئذ فيجب على الكاتب أن يضمن هذه الأمور العشرة فى وصايا المعهود إليه . وقد ذكر المقر الشهابى بن فضل الله فى "التعريف" فى وصية ولى العهد بالخلافة ومن فى معناه من الملوك وولاة عهدهم هذه الأمور ممتزجة بأمور أخرى من مهمات الملك وحسن تدبيره وسياسته .

قلت : إنما يحسن إيراد هذا كله فى وصايا ولاة العهد إذا كان الأمر على ما كانت الخلافة عليه أولا من عموم التصرف، أما الآن فالواجب أن يقتصر فى وصاياهم على حسن التأنى فى العهد بالسلطنة لمن يقوم بأعبائها، وأن يكون ما تقدم مختصا بوصايا الملوك فى العهود عن الخلفاء .

الوجه الرابع

(فيما يكتب فى الطرة، وهو تلخيص ما يتضمنه العهد)

وهذه نسخة طرة أنشأتها لينسج على منوالها، وهى :

هذا عهد إمامى قد علت جدوده ، وزاد فى الإرتقاء فى العلياء صعوده، وفصلت بالجواهر قلائده ونظمت بنفيس الدر عقوده . من عبد الله ووليه الإمام المتوكل

علىٰ الله أبى عبد الله محمدِ بن الإمام المعتضـد بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة المقدّسة، لولده السيِّد الجليـل ذخيرةِ الدِّين، وولىّ عهد المسلمين ، أبى الفضـل العباس : بلَّغه الله فيه غايةَ الأمل ، وأقرّ به عينَ الأمة كما أقرّ به عينَ أمير المؤمنين وقد فَعَل على ماشُرِح فيه .

الوجـــــه الخـامس

(فيما يُكتَب لأولياءِ العهـد من الألقـاب)

[وهو] كما سيأتى فى الطريقة الثانيـة من المَذهب الأوّل ممـا يُكتَب فى مَتْن العهد من كلام المقرّ الشهابىّ بن فضـلِ الله فى "التعريف" أنه يقال فيه : الأمير السَّيِّد الجليل، ذخِيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين، أبى فلان فلان . وفى المذْهب الثالث فيما كتب به للمستوثِق بنِ المستكفى ما يوافِقُه ؛ وقد تقـدّم أنه لا يَقَع فى ألقابهم إطنابٌ، ولا تعدُّدُ ألقابٍ، فليقتَصَرْ علىٰ ذلك أو مايشابهه .

الوجـــــه السـادس

(فيما يكتب فى مَتْن العهـد ، وفيه ثلاثة مذاهبَ)

المـــذهب الأوّل

(أن يِفتَتح العهدُ بعد البسملة بلفظ « هذا »)

مثل : «هذا ماعَهِد به فلان لفلان» أو « هذا عهدٌ من فلان لفلان» أو «هذا كتابٌ اكتَتَبه فلان لفلان» ونحو ذلك .

وللكُتّاب فيه طريقتان :

الطريقـــة الأولىٰ

(طريقـــةُ المتقدِّمين)

وهى أنْ لايأتى بخُطبة فى أثناءِ العَهْـد ، ولا يتعرَّض إلىٰ ذكرِ أوصافِ المعهود إليه والثناءِ عليه ، أو يتعرَّض لذلك باختصار ، ثم يأْتى بالوصايا ، ثم يختِمُه بالسلام أو بالدعاءِ أو بغيرِ ذلك ممـا يُناسِب . وعلىٰ ذلك كانتْ عهودُ السَّلَف من الصَّحابة والتابعين فَمَنْ بعدَهم ، آتِّباعًا للصِّدِّيق رضى الله عنه فيما كَتَب به لعُمَرَ بنِ الخطَّاب ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الآستشهاد .

ونسختُه فيما رواه البيهقىُّ فى " السُّنَن " وآقتصر عليـه الشيخُ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ فى " حسن التوسُّل " .

«هذا ماعهِدَ أبو بكر خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم آخرَ عهْدِه بالدنيا وأوّلَ عهدِه بالآخرة : إنى آستخلفتُ عليكم عمرَ بنَ الخطاب فإنْ بَرَّ وعدَلَ فذلك ظنِّى به ، وإن بدّلَ أو غيّر فلا عِلْمَ لى بالغَيب ، والخيرَ أردتُ بكم ، ولكلِّ آمرئٍ ما آكتسبَ مِنَ الإثم : ﴿ وسَيَعْلَمُ الّذينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ﴾ » .

وذكر أبو هلال العسـكرىّ فى كتابه " الأوائل " عن المدائنىِّ أنه حِينَ دعا عثمانَ آبنَ عفَّانَ رضى الله عنه لكتابة العهْد بالخلافة بعـده قال : آكتُبْ « هذا ماعَهِدَ أبو بكرِ بنُ أبى قُحافةَ فى آخرِ عهدِه بالدنيا [نازحا عنها] (١) وأوّلِ عهـدِه بالآخرة داخلًا فيهـا حيثُ يتوبُ الفاجِرُ ، ويُؤْمِن الكافر ، ويَصْـدُق الكاذب ؛ وهو يشهَدُ أن لاإلٰهَ إلّا اللهُ وأنّ محمدًا عبـدُه ورسوله ، وقد آستَخْلَفَ» ـ ثم دهَمَتْه غَشْيةٌ فكتب عثمان : « عُمرَ بنَ الخطَّاب » . فلمّـا أفاق ، قال : أكتبْتَ شيئا ؟ قال نعم عُمَرَ

(١) الزيادة من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

ابن الخطاب . قال : « رحمك الله ، أما إنك لو كتبت نفسك لكنت أهـلاً لها ، اكتُبْ قد استخلف عمرَ بن الخطاب ورضيه لكم ، فإنْ عدَل فذلك ظنّي به ورأيي فيه ، وإنْ بدّل فلِكُلّ نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، والخيرَ أردتُ ، ولا أعلمُ الغيبَ : ﴿وسيعلمُ الذين ظلموا أىَّ منقلَبٍ ينقلِبُون﴾ » .

وعلى هـذه الطريقةِ كُتِب عهدُ عمرَ بنِ عبـد العزيز بالخلافةِ عن سُليمانَ بن عبد الملك ، ثم مِنْ بعده إلى أخيه يزيدَ بنِ عبد الملك .

وهذه نسختهُ فيما ذكره ابنُ قُتيبةَ فى تاريخ الخُلفاء :

هـذا ماعَهِدَ به عبدُ الله سليمانُ بنُ عبد الملك أميرُ المؤمنين وخليفةُ المسلمين . عَهِدَ أنه يَشْهَدُ لله عز وجل بالرُّبُوبيَّة والوَحْدانيَّة ، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه صلى الله عليـه وسلم ، بعثه إلى مُحْسِني عبادِه بَشِـيرا ، وإلى مُذْنِبِيهم نَذِيرًا . وأنَّ الجنةَ والنارَ مخلوقَتان حَقًّا : خلقَ الجنةَ رحمةً وجزاءً لمن أطاعه ، والنارَ نِقْمة وجزاءً لمَنْ عصاه ، وأوْجبَ العفوَ جُودًا وكرمًا لمَنْ عَفا عنه . وأنَّ سليمانَ مُقِرٌّ على نفسه بما يعلمُ اللهُ من ذُنُوبه ، وبما تعلمُه نفسُه من معصية ربّه ، مُوجبا[1] على نفسه استحقاقَ ماخلَق من النِّقمة ، راجيا لنفسه ماخلَق من الرحمة ووعَد من العفو والمغفرة ، وأن المقاديرَ كلّها خيرَها وشرَّها مقـدُورةٌ[2] بإرادته ، مكوَّنةٌ بتكوينـه ، وأنه الهـادى فلا مُغْوِىَ ولا مُضِلَّ لمن هَدَاه وخلَقَه لرحمتـه ، وأنه يُفْتَن الميت فى قبْره بالسؤال عن دِينه ونبيّـه الذى أُرسل إلى أمّتـه ، لامَنْجىَ لمن خرج من الدنيا إلى الآخرة من هـذه المسألة إلا لمن استثناه عز وجلّ فى علمـه . وسليمانُ يسألُ اللهَ الكريمَ بواسع فَضْله ، وعظيم مَنّـه ، الثباتَ على ماأسَرَّ وأعلَنَ من معرفة حقّـه وحقّ نبيه عنـد

(١) كذا فى الأصول بالنصب وكذلك وقع فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

(٢) فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة «خيرها وشرها من الله وأنه هو الهادى الخ» .

مَسْأَلَةَ رُسُله ، والنَّجاةَ من هَوْل فتنة فَتّانيه . ويشهدُ أنَّ الميزان يومَ القيامة حقٌّ يقين ، يزنُ سيئاتِ المسيئين ، وحسَناتِ المحسنين : لِيُرِيَ عبادَه من عظيم قُدْرته ، ماأراده من [الخير] لعباده بما لم يكونُوا يحتسِبُون ؛ وأنَّ من ثَقُلَتْ مَوَازِينُه فأولئك هم المُفْلِحُون ، ومَنْ خَفَّتْ موازِينُه يومَئذ فأولئك هم الخاسِرُون . وأنَّ حوضَ محمدٍ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم يومَ المَحْشَر والمَوْقف للعرْض حقٌّ ، وأنَّ عدَدَ آنيته كنُجُوم السماء ، من شَرِبَ منه لم يظمأْ أبدا ، وسليمان يسألُ الله بواسع رحمته أن لا يُردَّه عن حوض نبيِّه عطشان . وأنَّ أبا بكر وعمرَ خيرُ هذه الأمة بعد نبينا ، والله يعلمُ بعدَهما حيثُ الخيرُ وفيمن الخيرُ من هذه الأمة . وأنَّ هذه الشهادةَ كلَّها المذكورةَ فى عهدِه هذا يعلمُها الله من سِرّه وإعلانه وعَقْدِ ضميره ، وأنه بها عبدَ ربه فى سالف أيّامه وماضِى عُمُره ، وعليها أتاه يقينُ ربه ، وتوفَّاه أجلُه ، وعليها يُبْعث بعد موته إن شاء الله . وأن سليمان كانت له بينَ هذه الشهادة بَلَايَا[1] وسيِّئَاتٌ لم يكُنْ له عنها مَحِيد ولابُدّ ، جرىٰ بها المقدور من الرَّبِّ النافذُ إلىٰ إتمام ماحَدّ ، فإن يعْفُ ويصْفَحْ فذاكَ ماعُرِف منه قديمًا ونُسِب إليه حَدِيثا ، وتلك صفَتُه التى وَصَف بها نفسه فى كتابه الصادِق ، وكلامِه الناطِق ؛ وإنْ يُعاقِبْ وينْتَقِم فبما قدّمتْ يَدَاه ، وما اللهُ بظلَّام للعبيد . وأن سليمان يُحَرِّج علىٰ مَنْ قرأ عهدَه هذا وسمِعَ ما فيه من حكمة أن ينْتَهِيَ إليه فى أمره ونَهْيه ، باللهِ العظيم ، ومحمدٍ رسولِه الكريم ؛ وأن يَدَعَ الإحَنَ المُضْغَنه ، ويأخُذَ بالمكارم المُدْجَنه ؛ ويرفَعَ يديه إلىٰ الله بالضمير النَّصُوح والدُّعاءِ الصحيح ، والصَّفح الصَّريح ؛ يسأله العفوَ عنِّى ، والمغفرةَ لى ، والنجاةَ من فَزَعِى والمسألةِ فى قبرى ، لعلَّ الوَدُودَ ، أن يجعَلَ منكم مُجابَ الدعوة بما منَ اللهِ علَيَّ

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « لم يكن له عنها محيص ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ فى محكم الوحى فان يعف » الخ .

من صَفْحه يعود، إن شاء اللهُ . وأنَّ ولىّ عهد سليمان بن عبد الملك أميرِ المؤمنين، وصاحبَ أمْره بعد موته، فى جُنْـده ورعيَّته وخاصَّته وعامته، وكلِّ من آستخلفنى الله عليه، وآسترعانى النظرَ فيه، الرجلُ الصالح «عمرُ بن عبد العزيز» بن مَرْوان آبنُ عمِّى، لمـا بلَوْتُ من باطن أمْره وظاهِره، ورجوتُ الله بذلك [وأردت] رِضاه ورحمتـه إن شاء الله . ثم من بعده تُسـلَّمُ إلىٰ يَزِيدَ بنِ عبد الملك بن مَرْوان إن بقِى بعْده، فإنِّى مارأيتُ منه إلّا خيرا ولا آطّلعتُ له علىٰ مكْروه . وصِغار ولَدى وكبارُهم إلىٰ عُمَر، إذ رجوتُ أن لايألُوهم رَشَدا وصَلاحا، والله خليفتِى عليهم وعلىٰ جماعةِ المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين، وآقرءُوا عهْدى عليكم السلام ورحمة الله . ومن أبىٰ أمْرِى هذا أو خالَف عهْدِى هذا ـ وأرجو أن لايخالفه أحدٌ من أمة محمد ـ فهو ضالٌّ مضِلٌّ يُستعْتَب، فإنْ أَعتبَ و إلّا فإنى لمن صاحب(؟) عهدى فيهم (١) بالسـيف السيف والقتل القتل، فانهم مستوجبون لهم، وهم لهيبته ملقحون، والله المستعان، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله القديم الإحسان .

تم ذلك والحمدُ لله وحده، وصلواته علىٰ سيدنا محمد وآله .



وعلىٰ نحوٍ من ذلك كتب المأمونُ العباسيُّ عهدَ علىّ بن موسى العَلَوىّ (المعروف بالرِّضىّ) بالخلافة بعده .

وهذه نسخته فيما ذكر صاحب العِقْد :

هذا كتابٌ كتبه عبدُ الله بن هارونَ الرشيد أميرُ المؤمنين بيده، لعلىّ بنِ موسىٰ بن جعفر ولىِّ عهْده .

---

(١) فى كتاب الامامة والسياسة «والا فالسيف والله المستعان» وهى واضحة .

أما بعدُ، فإنّ الله عز وجلّ آصطفىٰ الإسلامَ دينا، وآصطفىٰ له من عباده رُسُلا دالِّين عليه، وهادين إليه، يبَشّر أولهُم بآخرهم، ويصدِّق تاليهم ماضيَهم؛ حتّى آنتهتْ نبوّةُالله إلىٰ محمد صلّى الله عليه وسلم علىٰ فَتْرةٍ من الرُّسُل، ودُرُوس من العلم، وآنقطاعٍ من الوَحْى، وآقترابٍ من الساعةِ؛ فختم اللهُ به النبيِّين وجعله شاهدًا لهم، ومُهَيمنا عليهم؛ وأنزل عليه كتابَه العزيزَ الذى ﴿ لايأْتِيهِ الباطِلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفه تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ . فأحلَّ وحَرّم، ووعَدَ وأوْعَد، وحَذَّر وأنْذَر، وأمَر به (١) ونَهىٰ عنه (١) : لتكونَ له الحجةُ البالغة علىٰ خَلْقه : و﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ، ويَحْيَا مَنْ حَىَّ عن بَيِّنَةٍ وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليم ﴾ . فبلَّغَ عن الله رسالتَه، ودعا إلىٰ سبيلِه بما أمره به من الحكمة والموْعِظة الحَسَنة، والمجادلةِ بالتى هى أحسَن، ثم بالجهاد والغِلْظة حتّى قَبَضه اللهُ إليه، وآختار له ماعِنْده صلّى اللهُ عليه؛ فلمّا آنقضتِ النبوّةُ وخَتَم الله بمحمد صلّى الله عليه وسلم الوَحْىَ والرسالة، جعلَ قِوَامَ الدين، ونظامَ أمر المسلمين، بالخلافةِ وإتمامِها وعزِّها، والقيامِ بحق الله فيها بالطاعةِ التى تُقام بها فرائضُ الله وحُدُوده، وشرائعُ الإسلام وسُنَنُه، ويُجاهَد بها عدُوُّه. فعلىٰ خُلَفاء الله طاعتُه فيما آستحفَظهم وآسترْعاهم من دِينه وعبادِه، وعلىٰ المسلمين طاعةُ خُلَفائهم ومُعاونتُهم علىٰ إقامةِ حقِّ الله وعَدْله، وأَمْنِ السُّبُل وحَقْن الدِّماء، وصلاحِ ذاتِ البَيْن، وجَمْع الألفة؛ وفى إخلال ذلك آضطرابُ حَبْل المسلمين وآختلالهم، وآختلافُ مِلَّتهم، وقَهْرُ دِينهم، وآستعلاءُ عدُوّهم، وتفرُّقُ الكلمة، وخُسرانُ الدنيا والآخرة. فحقٌّ علىٰ من آستخلَفه اللهُ فى أرضه، وأْتَمنه علىٰ خَلْقه [أنْ] يُؤْثِر مافيه رضا اللهِ وطاعتَه ويعْد[ل] فيما اللهُ واقفُه عليه وسائلُه عنه، ويَحْكُمَ بالحق ويعْمَل بالعدل فيما حَمَّله الله وقلّده؛ فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام :

(١) لعل الجار والمجرور فى المحلين زائد من قلم الناسخ .

﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ . وقال عز وجل : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وبلغنا أنّ عمرَ بنَ الخطّاب قال : « لو ضاعت سَخْلةٌ بجانب الفُرات لتخوّفتُ أن يسألنى اللهُ عنها » . وآيْمُ اللهِ إنّ المسئول عن خاصّة نفسه ، الموقوفَ علىٰ عمله ، فيما بينَ الله وبينه ، لَمُتعرِّضٌ لأمر كبير، وعلىٰ خَطَر عظيم ، فكيف بالمسئول عن رعاية الأُمّة ؛ وبالله الثِّقةُ ، وإليه المَفْزَع والرَّغْبة فى التوفيق مع العِصْمة ، والتّسْديد والهداية إلىٰ مافيه ثُبوتُ الحُجّة ، والفوزُ من الله بالرِّضوان والرحمة . وأنظرُ الأئمة لنفسه ، وأنصحُهم فى دينه وعباده وخلافته فى أرضه ، مَنْ عمِل بطاعة الله وكتابه وسنّة نبيه عليه السلام فى مدّة أيّامه ، واجتَهَد وأجهَد رأيَه ونظَره فيمن يُولّيه عَهْدَه ، ويختارُه لإمامة المسلمين ورعايتهم بعدَه ، ويَنْصِبُه عَلَما لهم ، ومَفْزَعا فى جَمْع أُلْفتهم ، ولَمِّ شَعَثهم ، وحَقْن دمائهم ، والأمنِ بإذن الله من فُرقتهم ، وفسادِ ذات بينهم واختلافهم ، ورَفْع نَزْغ الشيطان وكيده عنهم ؛ فإن الله عز وجل جعل العهدَ بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعِزّه وصَلاح أهله ؛ وألهم خلفاءَه من توكيده لمن يختارُونه له من بعدهم ماعظُمتْ به النِّعمة ، وشمِلتْ منه العافية ، ونقَضَ اللهُ بذلك مَرَّ[1] أهل الشِّقاق والعَداوة والسَّعْي فى الفُرْقة والرَّفْض[2] للفتنة ؛ ولم يزَلْ أميرُ المؤمنين منذُ أفضَتْ إليه الخلافةُ فاختبَر بَشاعةَ مَذاقتها ، وثِقَلَ مَحْمِلها وشدّةَ مئُونتها ، وما يجب علىٰ من تقلّدها من ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حَمَّله منها ؛ فأنْصَبَ[3]

(١) فى اللسان ج ٧ ص ١٥ « المرفتح الميم الحبل » .

(٢) أى تركها تسير فى الناس ؛ ففى اللسان الرفض أن يطرد الرجل غنمه وإبله إلى حيث يهوى فاذا بلغت لها عنها وتركها .

(٣) لعله ناظرا فيما بما يقتضيه منصبا وما يجب الخ وبه يستقيم الكلام بعد تأمل .

بدَنَه، وأسهر عينَه، وأطال فِكْرَه فيما فيه عِزُّ الدين، وقمعُ المشركين، وصلاح الأمّة، ونشْرُ العدل، وإقامةُ الكتاب والسُّنّة، ومَنَعه ذلك من الخَفْض والدّعة بَهِيّ العيش: علْما بما اللهُ سائلُه عنه، ومحبّةً أن يَلْقىٰ الله مُناصِحًا له في دينه وعباده، ومختارا لوِلَاية عهْدِه، ورعايةِ الأمّة من بعده، أفضلَ مَنْ يقدِر عليه في دينه وورَعه وعلْمه، وأرجاهم للقيام بأمْرِ الله وحقّه، مناجيًا لله بالاستخارة في ذلك، ويسأله إلهامَهُ ما فيه رضاه وطاعتُه في ليله ونهارِه، ومُعْمِلا في طلَبه والتماسه من أهل بيته من ولَد عبد الله ابن العباس وعليّ بن أبي طالب فِكْرَه ونَظَره، ومقتَصِرا فيمن عَلِمَ حالَه ومذْهبَه منهم على علمه، وبالغًا في المسألة عمّن خَفِيَ عليه أمْرُهُ جُهْدَه وطاقتَه، حتّى استقصىٰ أُمُورَهم بمعرفتـه، وابتلىٰ أخبارَهم مشاهَدَةً، وكشَفَ ماعندهم مُساءلة، فكانت خِيرتُه بعد استخارته لله وإجهاده نفْسَـه في قضاء حقّه وبلاده، من البيتين جميعًا «عليّ بن موسىٰ بن جعفر» بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب: لمَـا رأىٰ [من] فضْلِهِ البارع، وعلمِه الناصع، وورَعِه الظاهر، وزُهْدِه الخالص، وتخلّيه من الدنيا، وتسلُّمِه من الناس، وقد استبان له مالم تزَلِ الأخبارُ عليه متَواطِئة، والألسُنُ عليـه متفقةً والكلمةُ فيـه جامعة، ولمـا لم يَزَلْ يعرِفُه به من الفضل يافعًا وناشئا، وحدَثا ومُكْتَهِلا، فعقَد له بالعقْد والخلافة إيثارًا لله والدِّين، ونظَرًا للسلمين، وطلَبًا للسلامة وثباتِ الحجّة والنجاة في اليوم الذي يقُومُ الناس فيه لربّ العالمين.

ودعا أميرُ المؤمنين ولَده، وأهلَ بيتـه، وخاصّـتَه، وقُوّادَه، وخَدَمَه، فبايعُوه مُسْرعين مسْرُورين، عالمين بإيثارِ أمير المؤمنين طاعةَ الله علىٰ الهوىٰ في ولَده وغيرِهم ممن هو أشْـبَكُ به رَحِمًا وأقرب قرابة، وسمّـاه «الرِّضىٰ» إذ كان رَضيًا عند أمير المؤمنين.

فبايِعُوا مَعْشَرَ بيتِ أمير المؤمنين ومَنْ بالمدينة المحروسة من قُوّاده وجُنْده، وعامة المسلمين « الرِّضىّ » من بعده، على آسم الله و بركته وحُسْن قضائه لدينه وعباده؛ بيعةً مبسوطةً إليها أيديكم، منشرحةً لها صدُورُكم، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها، وآثَرَ طاعةَ الله والنظرَ لنفسه ولكم فيها، شاكرينَ لله على ماألهم أميرَ المؤمنين من نَصَاحته في رِعَايتكم، وحِرْصه على رُشْدكم وصَلَاحكم، راجينَ عائدَه في ذلك في جمع أُلْفتكم، وحقْن دِمائكم، ولَمِّ شَعَثِكم، وسدِّ ثُغُوركم، وقُوّةِ دينكم، ورَغْم عدوّكم، وآستقامةِ أموركم. وسارِعُوا إلى طاعة الله وطاعةِ أميرالمؤمنين، فإنّه الأمْرُ إن سارعتُم إليه، وحمِدتُمُ اللهَ عليه؛ عرَفتُم الحظَّ فيه. إنْ شاء الله تعالى.

✦ ✦ ✦

وعلى هذه الطريقةِ كتب الوزيرُ أبو حفص بنُ بُرْد عهدَ النـاصر لدين الله عبدِ الرحمن بنِ المنصور بنِ أبي عامر العـامرىّ، عن المؤيّد بالله هشام بن الحكم الأُمَوىّ، الخليفةِ بالأندلُس. وهذه نسخته :

هذا ماعَهِدَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله أمير المؤمنـين إلى الناس عامّه، وعاهدَ اللهَ عليـه من نَفْسه خاصّـة وأعطى به صَفْقةَ يمينه بيعةً تامّه؛ بعد أن أنعمَ النظرَ وأطال الاستخارةَ وأهمَّه ماجعل اللهُ إليه من الإمامة، وعَصَبَ بهمن أمر المؤمنين، واتّقى حُلُولَ القَدَرِ بما لايُؤْمَن، وخافَ نُزولَ القضاء بما لايُصْرَف، وخَشِيَ إنْ هَجَم محتومُ ذلك عليه، ونزَلَ مقْدُورُه به، ولم يرفَعْ لهذه الأُمّة عَلَما تأْوِى إليه، ومَلْجأ تنْعطف عليـه، أنْ يكونَ يلقى ربَّه تبارك وتعـالى مفرِّطا ساهياً عن أداء الحق إليها؛ ويُفَمِّص عنـد ذلك من أحيـاء قُرَيش وغيرها من يستَحِقّ أن يُسْنَدَ هـذا الأمْرُ إليـه، ويُعوَّل في القيام به عليـه؛ ويسـتوجبُه بدِينه وأمانته، وهَدْيه وصيَانته،

بعدَ آطِّراح الهوىٰ والتحرِّى للحق ، والتزلُّف إلىٰ الله جلّ جلاله بما يُرْضيه .
وبعدَ أنْ قَطَع الأواصِرَ، وأَسْخط الأقارِبَ؛ فلم يجِدْ أحدًا أجْدَرَ أن يوليِّه عهْدَه ، ويفوِّضَ إليه الخلافةَ بعْدَه : لفضلِ نَفْسه ، وكَرَم خِيمه، وشرفِ مَرْتبته ، وعُلُوّ مَنْصِبه؛ مع تُقَاه وعَفَافه ، ومَعْرِفته وحَزْمه ونَقَاوته ؛ من المأمُونِ الغَيْب، الناصِح الجَيْب «أبي المطرِّف عبد الرحمن بن المنصور» أبي عامر محمدِ بن أبي عامر وفّقه الله ؛ إذ كان أميرُ المؤمنين – أيده الله – آبْتلاه وآختَبَره، ونظر فى شأنه وآعتبَره؛ فرآه مُسارعا فى الخيْرات، سابقًا فى الحَلَبات، مستوليًا علىٰ الغَايَات، جامعا للمأثُرات؛ ومَنْ كان المنصورُ أباه، والمظفَّرُ أخاه؛ فلا غَرْوَ أن يبْلُغَ من سبيل البرّ مَدَاه، ويَحْوِىَ من خِلَال الخير ماحَوَاه ؛ مع أنّ أمير المؤمنين – أيده الله – بما طالَعه من مكنُونِ العِلم ، ووَعَاه من مخْزُون الأثَر، يرىٰ أن يكونَ ولِىُّ عهدِه القحْطانِىّ الذى حدّث عنه عبدُ الله بن عمْرو بن العاص وأبو هريرةَ : أنّ النبىّ صلىّ الله عليه وسلم قال : " لاتقُومُ الساعةُ حتّى يَخْـرُجَ رجُلٌ من قَحْطانَ يَسُوقُ النـاسَ بعَصَاه " فلما آستَوىٰ له الآختيار، وتقابلَتْ عنْدَه فيه الآثار؛ [و]لم يجِدْ عنه مَذْهبا، ولا إلىٰ غيره مَعْدِلا، صَرَّح إليه فى تدبيرِ الأُمور فى حياته، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وَفَاته؛ طائعا راضيًا مجتهِدا، وأمضىٰ أميرُ المؤمنين هـذا وأجازه وأنفذه، ولم يشترط فيه مَثْنَوِيَّةً ولا خِيارا ؛ وأعطىٰ علىٰ الوَفَاء به فى سِرّه وجهره وقولِه وفِعْـلِه عَهْدَ الله وميثاقَه ، وذِمة نبيه محمد صلىّ الله عليه وسلم ، وذِمَمَ الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذِمّةَ نَفْسه : أن لايُبَـدِّل ، ولا يغَـيِّر ، ولا يَحُول ، ولا يَزُول ، وأشهد اللهَ علىٰ ذٰلك والملائكةَ ﴿ وكَفىٰ بِاللهِ شَهِيدا ﴾ . وأشهد من أوقع آسْمَه فى هـذا ، وهو جائز الأمر، ماضِى القولِ والفِعل، بمَحْضَر من ولىِّ عهدِه المأمونِ أبى المطرف عبدالرحمن بن المنصور وفّقـه الله، وقبُوله ما قلّده، وإلزامه نفْسَـه ما ألزمه ؛ وذٰلك فى شهر ربيع الأوّل

سنة ثمـان وتسعين وثلثمائة . وكَتَبَ الوزراءُ والقضاةُ وسائرُ الناس شهاداتِهم بخطوط أيديهـــم بذلك .

الطريقة الثـانيـــة
(طريقـــة المتأخِّرين من الكُتَّاب)

أن يأتى بالتحميد فى أثناء العَهْد، ويأتِىَ من ألقاب ولىِّ العهد بمـا يناسب علىٰ الاختصار؛ وعليها اقتصر المَقَرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى " التعريف " فقال : واعلم أنّ عهُودَ الخلفاء عن الخلفاءلم تجْرِ عادةُ مَنْ سلَف من الكُتَّاب أن يستفتحها إلا بمـا يذكر، وهو :

«هـذا ماعَهِد[به] عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىّ أميرُ المؤمنين، عهد إلىٰ ولَده، أو [إلىٰ] أخيـه الأميرِ السيد الجليل، ذَخيرةِ الدِّين ، وولىِّ عهد المسلمين أبى فلان فلان، أيَّده الله بالتمكين، وأمدَّه بالنصر المُبين ، وأقرّ به عيْنَ أميرِ المؤمنين» . ثم يُنْفِق كلُّ كاتبٍ بعد هذا علىٰ قَدْر سَعَته، ثم يقول :

« أما بعدُ، فإنّ أميرَ المؤمنين يَحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو، ويصلِّى علىٰ نبيه محمدٍ صلّى الله عليه وسـلم » ويخطُبُ فى ذٰلك خُطْبة يُكْثِر فيها التحميدَ وينْتَهِى فيه إلىٰ سبعة؛ ثم يأتى بعد ذلك بمـا يُناسِب من القول : يصِف فكر الذى يتعهّـد فيمن بعْـده؛ ويصِفُ المعهودَ إليه بمـا يليق من الصِّفات الجليـلة . ثم يقول : « عهد إليـه وقلَّده بعـدَه جميع ماهو مقلَّده، لمـا رآه من صَلَاح الأمة، أو صَلَاح الخلق، بعـدَ أن استخارَ اللهَ تعـالىٰ فى ذٰلك، ومكَثَ مدّةً يتدبَّر ذٰلك ويُرَوِّى فيه فكره وخاطِرَه، ويستشيرُ أهـلَ الرأى والنظر، فلم يَرَ أقومَ منه بأمور الأمة ومَصَالح

الدنيا والدِّين» ومن هذا ومثله ؛ ثم يقال : «إنَّ المعهودَ إليه قَبِلَ ذلك منه» ويأتى فى ذلك بمـا يليقُ من محاسن العبارة وأحاسِنِ الكلام .

قلت : ولم أظفَر بنسخة عهدٍ على هذا الأسلوب الذى ذكره المقرُّ الشهابىّ ؛ وقد أنشأت عهدًا على الطريقـة التى أشار إليها، آمتحاناً للخاطر : لأنْ يكونَ عن الإمام المتوكِّل على الله أبى عبـد الله محمدِ بن المعتضِد أبى الفتح أبى بكر، خليفـةِ العصر، لولَده العباس : ليكون أُنْموذَجا يُنْسَج على مِنْواله .

ومن غريبِ الاتِّفاق أنّى أنشأته فى شُهُورِ سنةِ إحدى وثمـانمائة آمتحانا للخاطر كما تقدّم ، وضمَّنته هـذا الكتابَ وتمـادى الحالُ على ذلك إلى أن قبَضَ اللهُ تعـالى الإمامَ المتوكِّل ـ قدّس الله تعالى رُوحَه ـ فى سـنة ثمـان وثمانمـائة ؛ فأجمع أهلُ الحلِّ والعَقْد على مبايعته بالخلافة ؛ فبايَعُوه وحقَّق الله تعالى ما أجراه على اللِّسان من إنشاء العهد باسمه فى الزّمن السـابق ؛ ثم دعَتْنِى داعيةٌ إلى التمثُّل بين يديه الشريفتين فى مستَهلِّ شهرِ ذِى القَعْدة الحرام سـنةَ تسع وثمـانمائة ، فقرأته عليه من أوله إلى آخره، وهو مُصْغٍ له مظهرٌ الابتهاجَ به ، وأجاز عليـه الجائزةَ السنية . ثم أنشأتُ له رسالةً وضمنتُه إيّاها وأُودِعتْ بخزانته العالية عَمَرها اللهُ بطُول بقائه .

وهـــذه نسخته :

هذا عهدٌ سعيدُ الطالع ميمونُ الطائر، مباركُ الأوّل جميلُ الأوسط حميدُ الآخر ؛ تَشهد به حضَراتُ الأملاك ، وترقُمُه كَفُّ الثُّريَّا بأقلام القَبُول فى صحائف الأفلاك ؛ وتُباهِى به مُلُوكُ الأرض ملائكةَ السما، وتَسرِى بنَشْره القَبُولُ إلى الأقطار فتنشُر له بكلِّ ناحيةٍ علَما، وتُطْلِـعُ به سعادةُ الجَدِّ من مُلوك العَدْل فى كلِّ أُفُقٍ نَجْما، وترقُص من فرحها الأنهار فتنقِّطها شمسُ النّهار بذَهَب الأصيل على صَفَحات المـا ؛ عهِدَ به

عبدُ الله ووليُّه أبو عبد الله محمدٌ المتوكِّلُ علىٰ الله أميرُ المؤمنين إلىٰ وَلَدِه السيد الجليل عُدّة الدِّين وذَخيرته ، وصَفِيّ أمير المؤمنين من وَلَده وخيرته ، المستعين بالله أبى الفضل العبَّاس بلَّغ الله فيه أميرَ المؤمنـين غايةَ الأمَل ، وأقرّ به عينَ الخلافة العبَّاسيَّة كما أقرّ به عينَ أبيه وقد فَعَلْ .

أما بعـدُ، فالحمدُ لله حافِظِ نِظام الإسـلام وواصِلِ سَبَبه، ورافِع بيتِ الخلافة ومادّ طُنُبه ، وناظِم عِقْد الإمامة المعظَّمة فى سِـلْك بَنِى العباس وجاعِلِها كلمةً باقيةً فى عَقِبِـــه .

والحمـــدُ لله الذى عَدَقَ أمْرَ الأمة منهم بأعظَمِهم خطَرا ، وأرفَعِهم قَـدْرا ، وأرجَحِهم عَقْلا وأوسَعِهم صَدْرا ، وأجزلِهم رأْيا وأسلَمِهم فِكْرا .

والحمـدُ لله الذى أقرّ عَيْنَ أمير المؤمنين بخيْرِ وَلِىّ وأفضَلِ وَلَد، وشدّ أَزْرَه بأكرم سـيد وأعزِّ سَنَد ، وصرَفَ آختيارَه إلىٰ مَنْ إذا قام بالأمر بعـدَه قيل هذا الشِّبْلُ من ذاكَ الأسَد .

والحمـــدُ لله الذى جمعَ الآراءَ علىٰ آختيار العاهد فما قَلَوْه ولا رفَضُوه ، وجبَل القلوبَ علىٰ حُبِّ المعهود إليه فلم يَرَوْا العُدُولَ عنه إلىٰ غيره بوجه من الوُجُوه .

والحمـدُ لله الذى جدّدَ للرعيَّة نِعمةً مع بَقاء النِّعمة الأُولىٰ، وأقام لأمْرِ الأمّة من بَنِى عمِّ نبيِّه المصطفىٰ الأَوْلىٰ بذٰلك فالأَوْلى ، وآختار لعهد المسلمين مَنْ سبقَتْ إليه فى الأزَلِ إرادتُه فأصبح فى النُّفُوس معظَّما وفى القلوب مَقْبُولا .

والحمـدُ لله الذى أضحك الخلافةَ العبَّاسية بوجُود عبَّاسها ، وأطاب بذِكْره رَيَّاها فتعطَّر الوجودُ بطيبِ أنفاسِهـا ، ورفع قَدْرَه بالعهد إليـه إلىٰ أعلىٰ رُتْبَـة مُنِيفه ،

وخَصَّه بمشاركةِ جَدّه العبّاسِ فى الاسم والكُنْية ففاز بما لم يَفُز به قبْلَه منهم ست وأربعون خَلِيفه [(١)] .

والحمــدُ لله الذى أوْجبَ علىٰ الكافّة طاعةَ أُولى الأمْر من الأئمّـه ، وألزمهم الدُّخولَ فى بيْعــة الإمامِ والانقيادَ إليه ولو كان عبْدًا أسْودَ فكَيْفَ بمن أجْمع علىٰ سُؤْدَده الأُمَه ، وأوضَح السبيلَ فى التعريف بمَقام الآلِ والعِتْرة النبويّة ﴿فلا يَكُنْ أمْرُكُم عليكُمْ غُمّه﴾ .

يحمَـدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما مَنَحه من طِيبِ أُرُومةٍ سَمَتْ أصـلا وزكَتْ فَرْعا ، وحَبَاه من شَرَفِ مَحْتِدٍ راقَ نظَرا وشاقَ سَمْعا ، ووصله به من نِعَم آثرتْ نَفّاعا وأثّرتْ نَفْعا ، ويشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثُونها كالخلافة كابِرًا عن كابر ، ويُوصِّى بها أبدًا الأوّلُ منهم الآخِر ، ويُؤْذِن قيامُهم بنُصْرتها أنّهم مَعْـدن جوهرِها النَّفيسِ ونِظامُ عِقْدِها الفـاخر ؛ ويشهَدُ أنَّ سـيِّدنا محمّدا عبدُه ورسولُه ، الذى خصَّ عمَّه العباسَ بكريم الحِبَاء وشريفِ الإنافَهْ ، ونبَّه علىٰ بَقَاء الأمرِ فى بَنِيه بقوِيٍ ضَلَّ مَنْ أظهر عِنادَه أو أضمر خِلافَه ، حيثُ أسَرَّ إليــه : " ألا أبَشِّرُكَ يا عَمّ بِى خُتِمتِ النبوّةُ وبولَدِكَ تُخْتَم الخِلافه " صلّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعم بركتُها الوَلَدَ والوالد ، ويشْمَل معروفُها المعهودَ إليه ويَعْرِفُ شَرَفَها العاهد ، ويعتَرِف بفضلها المُقِرُّ ولا يَسَــعُ إنكارَها الجاحد ، مانُوِّهَ بذكر الخلافة العباسـيّة علىٰ أعواد المَنابِر ، وخَفَقتِ الراياتُ السُّود علىٰ عساكرِ المَوَاكب ومَوَاكب العساكر ؛ وسلَّمَ تسليما كثيرا .

---

(١) ذكّر اسم العدد علىٰ حد ما أنشده الفراء .

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

هـذا وكلُّ راعٍ مسئول عن رعيّته، وكلُّ آمرِئٍ محمولٌ على نيّته، مخبرٌ بظاهره عن جميلِ ما أكنّه فى صدره وما أسرّه فى طويّته؛ والإمامُ منصوبٌ للقيام بأمر الله تعالىٰ فى عباده، مأمورٌ بالنصيحة لهم جُهْدَ طاقته وطاقةَ آجتهاده، مطلوبٌ بالنظر فى مَصالحهم فى حاضرِ وقتِهم ومستقبله وبَدْءِ أمرهم ومَعاده؛ ومن ثَمّ آختلفتْ آراءُ الخلفاء الراشدين فى العهد بالخلافة وتباينتْ مقاصِدُهم، وتنوّعت آختياراتُهم بحسب الآجتهاد وآختلفتْ مواردُهم؛ فعهِد الصـدّيقُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه متثبّتا، وتركَها عمرُ شورىٰ فى سـتّة وقال: «أتحمّـل أمرَكُم حيًّا وميّتا!» وأتىٰ رضى الله عنه لكلٍّ من المذهبين بما أذعن له الخَصْمُ وسلّم، فقال: «إنْ أعهَدْ فقد عهِد مَنْ هو خيرٌ منّى أبو بكر، وإنْ أترُكْ فقد ترَكَ مَنْ هو خيرٌ منّى رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم» فأخذ الخلفاءُ فى ذٰلك بسنّتهما، ومشَوْا فيـه علىٰ طريقتهما؛ فمن راغبٍ عن العهد وراغبٍ فيه، وعاهدٍ إلىٰ بعيـد منه وآخَرَ إلىٰ آبنه أو أخيه؛ كلٌّ منهم بحسَبِ مايؤدّى إليه آجتهادُه، وتَقْوىٰ عليه عزيمتُه ويترجّحُ لدَيْه آعتمادُه.

ولـمّـا كان أميرُ المؤمنين ــ أحسنَ الله مآبه ــ قد نَوّر اللهُ عينَ بصيرته، وخَصّـه بطهارةِ سِرّه وصفاء سريرته؛ وآتاهُ الله المُلْك والحِكْمه، وأقامه لمَصالح الرعيّة وصلاحِ أمر الأمّه؛ وعلّمه ممّـا يشاء فكان له من علمِ الفِراسـة أوفرُ قِسم، وآصطفاه علىٰ أهلِ عصره وزاده بَسْطةً فى العِلْم والجِسْم؛ فلا يَعْزِمُ أمرا إلّا كان رَشَادا، ولا يعتمد فِعْلا إلا ظهر سَـدَادا؛ ولا يرتئى رأيا إلا أُلْفِى صَوَابا، ولا يُشير بشىء إلا حُمِدت آثارُه بدايةً ونهايةً وآستصْحابا؛ ومع ذٰلك فقـد بَلَا الناسَ وخَبَرَهم، وعلِم بالتجْرِبة حالَهُم وخَبَرهم، وآطّلع بحُسْن النظر علىٰ خَفَايا أمورهم، وما به مصْلحةُ خاصّتهم وجُمهورهم؛ وترجّح عنده جانبُ العهدِ علىٰ جانبِ الإهمال، ورأىٰ المبادرةَ إليه أَوْلىٰ من الإمْهال؛ ولم يزلْ يُروّى فكرتَه، ويُعْمل رويّتَـه، فيمن يصْلُح لهـذا الأمر

بعْدَه ، وينهَض بأعبائه الثقيلةِ وحده ، ويتّبع فيه سُبُلَه ويسلُك طرائقه ، ويقتفى فى السِّيرة الحسنةِ أثره ويَشِيم فى العدل بوارِقَه ، ويُقبِل على الأمر بكلّيته ويقطع النظر عمّا سواه ، ويتفرّغ له من كلّ شاغلٍ فلا يخلِطُه بما عدَاه .

وقد علم أنّ الأحقّ بأن يكونَ لها حَلِيفًا من كان بها خَلِيقا ، والأَوْلىٰ بأن يكُونَ لها قَرِينا مَنْ كان بوَصْلها حَقِيقا ، والأجدَر أنْ يكُونَ لديها مكِينًا من آتخذ معها يَدًا وإلىٰ مَرْضاتِها طَرِيقا ، والألْيَقَ بمَنصِبها الشريف مَنْ كان بمطْلُوبها مَلِيًّا ، والأَحْرىٰ بمكانِها الرفيع مَنْ كان بمقصُودها وفِيًّا ، والأَوْفَق لمَقامها العالِى مَنْ كان خَيْرا مَقامًا وأحسَنَ نَدِيًّا ، وكان ولَدُه السيدُ الأجلُّ أبو الفضل المشارُ إليه هو الذى وجّهت الخلافةُ وجْهَها إلىٰ قِبْلته ، وبالغَتْ فى طَلَبه وألَحّتْ فى خِطْبته ، علىٰ أنه قد أُرْضِع بلِبَانها ورُبّى فى حِجْرها ، وآنتسب إليها بالبُنوّة فضمّته إلىٰ صَدْرها ، وكيف لا تَتَشَبّث بحِباله ، وتتعلّق بأذياله ، وتطمعُ فى قُرْبه ، وتتغالىٰ فى حُبّه ، وتَمِيلُ إلىٰ أُنْسه ، وتُراوِدُه عن نَفْسه ، وهو كُفْؤُها المستجْمِعُ لشرائِطِها المتّصِفُ بصفاتِها ، ونَسِيبُها السامى إلىٰ أعالِيها الراقِى علىٰ شُرُفاتها ، إذ هو شِبْلها الناشِئُ فى آجامها ، بل أسَدُها الحامى لحِمَاها ومُجِيرُها الوافِى بذِمَامها ، وفارِسُها المقدَّم فى حَلْبة سِبَاقها ووارِثُها الحائزُ لجميع سهامها ، وحا كِمُها الطائعُ لأمرِها ، ورشِيدُها المأمونُ علىٰ سِرّها ، وناصِرُها القائمُ بواجِبها ، ومَهْدِيُّها الهادى إلىٰ أفضل مَذَاهبها ؟ قد آلتحَفَ من الخلافة بِردَائها ، وسَكَن من القُلُوب فى سُوَيْدائها ، وتوسّمت الآفاقُ تَفْويضَ الأمر إليه بعد أبيه فظهَر الخَلُوق فى أرجائها ؛ وآتّبع سِيرةَ أبيه فى المعرُوف وآقتفىٰ أثَرَه فى الكَرَم ، وتشبّه به فى المَفَاخر (ومَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ) وتقبّل الله دُعاء أبِيه فوهَبَ له من لَدُنْه وليًّا ، وأجاب نداءَه فيه فمكّن له فى الأرض وآتاه الحُكْمَ صَبِيًّا ، فاستوجبَ أن يكونَ حينئذٍ للسلمين ولىَّ عهْدهم ، واليًا علىٰ أُمورهم فى حَلّهم وعَقْدهم ، متكفِّلا بالأمر فى قُرْبه وبُعْده ،

مُعيناً لأبيــه فى حياته خليفةً له من بعْـدِه، وأن يصرّح له بالآستخلاف ويُوضِّح، ويتلُوَ عليه بلسان التفويض ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ .

وآقتضتْ شفقةُ أمير المؤمنين ورأفتُــه، ورِفقُه بالأمة ورحمتُه، أن ينْصب لهم ولىّ عهدٍ يكونُ بهذه الصّفات متّصفا، ومن بحْره الكريم مغْترِفا، ومن ثِمَـار معروفه المعروفِ مقتطِفا، ولمنْهــله العَذْب وارِدا، وعلى بيتِــه الشريف وسائر الأمّة بالخير عائدا؛ فلم يجِدْ من هو مستكمِلٌ لجميعها، مستوعبٌ لأُصُولها وفُروعها، وهو بمطْلُوبها أملى، وعلى قلوب الرعيّــة أحلى، وللغَلِيل أشْــفى، وبالعهدِ الجميلِ أوْفى، من ولده المشارِ إليه . فاستشار فى ذلك أهلَ الحَلِّ والعقْد من قُضاته وعلمائه، وأُمَرائه ووُزَرائه، وخاصّته وذَويه، وأقاربه وبَنِيه، وأعيان أهل العصر وعامّته، وجُمْهوره وكافّته؛ فرأَوْه صوابًا، ولم يَعرُهم فيه ظِنَّةٌ ولا مُسْترابا[١]، ولا وجدَ أحدٌ منهم إلى باب غيره طريقًا ولا إلى طريقِ غيره بابًا؛ فاستخارَ الله تعالى فيه فاقبلَ خاطرُه الشريفُ عليه، وكرَّر الآستخارةَ فلم يجِدْ عنه مَحيدًا إلّا إليه .

فلمّــا رأى أنّ ذلك أمرٌ قد آنعقد عليه الإجماعُ قوْلا وفعلا، وعُدِم فيه المخالِفُ بل لم يكُنْ أصْلا؛ حمِدَ الله تعــالى وأثنى عليه، وسأله التوفيقَ ورَغِب إليه؛ وجدّد الآستخارةَ وعَهِد إليه بأمر الأمّة ، وقلّده ما هو متقلّده من الخلافة المقدّســة بعدَه على عادةِ مَنْ تقدّمَه من الخُلفاء المــاضين، وقاعدةِ مَنْ سلَف من الأئمة المهْديّين؛ وفوّض إليه ماهو من أحْكامهــا ولَوازِمها، وأُصولهــا ومَعالِمها : من عَهْدٍ ووِصَايه، وعَزْلٍ ووِلَايه؛ وتفويضٍ وتَقْليــد، وآنتزاعٍ وتخْليــد؛ وتفريقٍ وجَمْــع، وإعطاءٍ ومَنْع، ووَصْــل وقَطْع؛ وصِلة وإدْرار، وتقليــلٍ وإكثار؛ جُزْئيِّها وكلِّيِّها، وخفيِّها

(١) اضطره السجع إلى نصب المرفوع .

وجَليّها، ودانيها وقاصيها، وطائعها وعاصيها، تفويضًا شرعيًا، تامًا مَرضيًا، جامعًا لأحكامِ الوِلَاية جَمعا يعمُّ كلَّ نِطاق، ويَسرى حكمُه فى جميع الآفاق، ويدخلُ تحتــه سائرُ الأقاليم والأمصارِ علىٰ الإطلاق، لايغيِّر حكمُه، ولا يُمحىٰ رسْمــه، ولا يَطيشُ سَهمه، ولا يأفِلُ نجمه .

قبِلَ المعهودُ إليه ـ أعلىٰ الله مَقامَه ـ ذلك بمحضَرٍ من القُضاة والحُكّام، والعلماء الأعلام، ولزِمَ حكمُه وآنبرَمْ، وكُتِب فى سِجِلّات الأفلاك وآرتَسَم، وحُمِلت رسائلُه مع بُرُد السَّحاب فطافَتْ به علىٰ سائرِ الأُمَم؛ وهو ـ أبقاه الله ـ مع ماطُبِعت عليه طِباعُه السليمه، وجُبِلت عليه سَجاياه الشريفةُ وأخلاقُه الكَريمه؛ قد تلقّىٰ عن أميرِ المؤمنين من شريفِ الآدابِ ماغُذِّى به فى مَهْــده، وتلقّف منــه من حُسْن الأدَوات مايَروِيه بالسَّــنَد عن أبيــه وجَدّه، ممــا آنطبع فى صَفاء ذِهْنــه الصَّقيل وآنتقَش فى فَهْمِه، وآختلَط من حال طُفُوليّته بدَمِه ولحْمِه وعَظْمِه، حتّى صار طبْعا ثانيا، وخُلُقا علىٰ ممَــرّ الزمان باقِيًا، وآجتمع لديْه الغَريزىُّ فكان أصْلا ثابتا، وفَرْعا علىٰ ذٰلك الأصلِ القوىِّ نابتا؛ لكنْ أميرُ المؤمنين يُوصيه تبرُّكا، ويشْرَح له مايكونُ به ـ إن شاء الله ـ متمسِّكا؛ والمرءُ إلىٰ الأمْرِ بالخير مَنْدُوب، ووصيّةُ الرجل لبَنيه مطلوبةٌ فقد قال تعالىٰ: ﴿ ووَصّى بِهَا إبْراهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ ﴾ .

فعليكَ بمراقبة الله تعالىٰ فمَنْ راقبَ الله نجَــا، و[اجعل] التّقوىٰ رأسَ مالك: ﴿ومَنْ يَتّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وآلجأْ إلىٰ الحق فقد فازَ مَنْ إلىٰ الحق لجَا؛ وكتابُ الله هو الحبلُ المتين، والكتابُ المُبِين، والمَنْهَج القويم، والسبيلُ الواضِحُ والصِّراطُ المستقيم؛ فتمسَّكْ منه بالعُروة الوثقىٰ، وآسلُكْ طريقتَه المُثلىٰ وآهتَد بهَدْيِه فلا تَضلّ ولا تَشقىٰ؛ وسُــنّةُ نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم عليك بالإقتداءِ بأفعالهـا الواضحه، والإصغاءِ لآثار أقوالها الشارحه؛ عالمـًا بأنّ الكتاب والسنة أخوَان لا يفترِقان،

ومُتلازِمانِ بحبْل التبايُن لا يعتَلِقان ، والبِلادَ والرَّعايا فاحْفَظهما بنَظَرك ما ٱستطعْت ، وتثبَّت فى كل قَطْع ووَصْل فأنتَ مسئُول عن كل ما وصَلْتَ وقطَعْت ؛ والآلَ والعِترَةَ النبويَّةَ فَفِيهمَا حقَّ القرابةَ منك ومنْ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم الذى أشرقَتْ به ، وٱعلم أنك إذا أكرمْتَ أحدا منهم فإنما أكرمتَه بسَببه ، وٱتَّبع فى السِّيرة سِيرةَ آبائك الخلفاء الراشدين لاتَزِغْ عنها ، ولا تعمَلْ إلّا بها وبما هو ـ إن ٱستطعتَ ـ خيرٌ منها ، وٱقْفُ فى المعروف آثارَهم المقدَّسةَ لتحْوِىَ من المآثِرِ ماحَوَوْا ، وٱحْذُ حَذْوَهم فى طرِيقِهم المباركةِ وٱبنِ المجدَ كما بَنَوْا ، وٱنْحُ من العمل سنَّةً سلَكتْ المصطفَيْنَ الأخيار ، وٱحرِصْ أن تكونَ من الأئمة الذين يُظلُّهم الله تحتَ عرشه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ يَوْمَ لايَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ولَهُمُ اللَّعْنَةُ ولَهُمْ سُوءُ الدَّار ﴾ . وأسْلِف خيرًا تُذْكَرُ به علىٰ ممرِّ اللَّيالى ، وينتظِمُ ذِكْرُه فى عُقُود الأيَّام كما تنتظم فى السِّلْكِ اللآلى ؛ وليَكُنْ قصْدُك وجهَ الله ليكونَ فى نُصْرتك فإنَّ مَنْ كان الله تعالىٰ فى نُصْرته لايُبالِى ؛ ولْتعلَمْ حقَّ اليقينِ أنَّ حسنَةَ الإمام تُضاعَفُ بحسَبِ ما يترتَّب عليها من المَصالح أو يتجدَّدُ بسببها ، وسيِّئته كذٰلك فمن سَنَّ سيئةً كان عليه إثمُها وإثمُ مَنْ عمِل بها ؛ ودُرْ مع الحقِّ كيفَ دارَ ومِلْ معه حيثُ مال ، وٱعلَمْ بأنَّ الله لا يُغيِّر مابقَوْم حتّى يغيِّروا مابأنفُسِهم وإذا أرادَ اللهُ بقوم سُوءًا فلا مَرَدَّ لَهُ وما لهم مِنْ دُونِه مِن وال ؛ ولا تُخطِرْ ببالك أنَّ هذا الأمرَ آنتهىٰ إليكَ بقُوَّه ، أو يغُرَّكَ ما قدَّمناه من الثناء عليك فالتأثُّر بالمَدْح يُخِلُّ بالمرُوءه ؛ ولا تتَّكِلْ علىٰ نَسَبك فَمَنْ أطاعَ اللهَ أدْخلَه الجنةَ ولو كان عبْدا حبشيّا ، ومَنْ عصاه أدخلَهُ النارَ ولو كان هاشميًّا قُرَشيًّا ، وٱستَنْصِر اللهَ ينصُرْك وٱستعِنْ به يكُنْ لك عَوْنا وظَهيرا ، وٱستَهْدِه يَهدِكَ ﴿ وَكَفىٰ بِرَبِّكَ هادِيًا وَنَصِيرا ﴾ وكُنْ [من] الله خائفًا ومن مكره من المُشفقين ، فإنَّ الأرضَ لِلّهِ يُورِثُها من يَشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتَّقين .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، ووصيّتُه تُملىٰ عليك ؛ ﴿ وذَكِّرْ فإنّ الذِّكرىٰ تَنفعُ المُؤمنين﴾ والله تعالىٰ يبلِّغُه منك أملاً ، ويحقِّق فيك علماً ويزكِّى بك عملاً ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطّ المقدّس الإمامىّ المتوكلىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ ـ أعلاه ، حجةٌ فيه إن شاء الله تعالىٰ .

المـــــذهب الثـانى

(أن يفتتحَ العهدَ بعد البسملة بلفظ «من فلان إلىٰ فلان» كما يُكتَب فى المكاتبات
ثم يأتِىَ بالبعدية ويأتِىَ بما يُناسِبه مما يقتضيه الحالُ من ذكر الوِلاية ،
ووصف المتولِّى، وآختيار المُوَلِّى له ونحو ذلك)

ثم قاعدة كُتّابهم أنهم يأتون بعد ذلك بالتحميد فى أثناء العَهْد .

وهـذه نسخةُ عهدٍ من ذلك ، كُتِب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمىّ ، لولَده حَيْدرةَ بأن يكونَ ولىّ عهد الخلافة بعده ، وليس فيها تعرُّض لتحميد أصلا ، وهو .

مِنْ عبدِ الله ووليِّه عبدِ المجيد أبى الميْمُون الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ، إلىٰ وَلَدِه ونَجْله ، وسُلالته الطاهرةِ ونَسْله ، والمُجْمَع علىٰ شَرَفه والعامل بمرضاةِ الله فى قوله وفعله ، وعَقْده وحلّه ، الأمينِ أبى تُراب حَيْدَرةَ ، ولىِّ عهدِ أمير المؤمنين ، عليه السلامُ .

سلامٌ عليك : فإنّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو ، ويسألُه أن يصلِّىَ علىٰ جَدّه محمدٍ خاتمِ النبيين ، وسيِّد المرسلين ، صلّى الله عليه وعلىٰ آلِه الطاهرين ، الأئمة المهديِّين ، وسلّم تسليما .

أما بعدُ ، فإنّ اللهَ تعالىٰ لبَديع حكمته ، ووَسِيع رحمته ، استَوْدَع خُلفاءه مَنْ خَلَقه وبَرَأه ، وآستكفىٰ أُمناءه مَنْ صوّره وذَرَأه ، ورتّبهم مَرْتَبةَ النفوس من الأجساد ،

ونزَّلهم بمنزلة الضِّـياء من الأزناد ؛ وجعلهم مستخدِمين لأفكارهم فى مصالح البريَّة التى غدَتْ فى أمَانِهم ، وحصلَتْ فى ضَمَانِهم ؛ فظلَّت فى ذِمَامهم ، وسَعِدت فى عِزِّ مَقَامِهم وظلِّ أيَّامهم : لأنَّهم نُصِـبوا للنظر فيما جَلَّ ودَقَّ ، وتَعِبُوا لراحة الكافَّة تَعَبا صَعُب وعَظُم وشَقَّ ؛ وكان ذلك سِرًّا من أسرار الحِكْمة، وضربا من أفضـل تدبير الأُمَّه ؛ إذ لو ساوىٰ بينَ الرئيس والمرءوس ، والسائس والمَسُوس ؛ لاَختلطَ الخُصُوص بالعُمُوم، ولم يبقَ فرقٌ بين الإمامِ والمأمُوم .

وقد آستخلص اللهُ أمير المؤمنين منْ أشرَف أُسْرة وأكرم عِصَابه ، وأيَّده فى جميع آرائه بالحَزَامة والجَزَالة والأَصالة والإصابَهْ ؛ وقضىٰ لأغراضه أن يكونَ السعدُ لها خادِما، وحَتَم لمقاصِده أن يُصاحِبَها التوفيقُ ولا يَنْفَكَّ لها مُلازِما ؛ وجمع له ما تفرّقَ فى الخليقة من المَفَاخر والمَنَاقِب، وألهمه النظَرَ فى حُسْن الخواتم وحميدِ العَوَاقب .

ولـما كان ولِيُّ عهـدِ أمير المؤمنين أكبرَ أبناءِ أميرِ المؤمنـين، والمنتَهِىَ لأشرف المراتِبِ من تقادُم السِّنين؛ وقد آستولىٰ علىٰ الفَخْر باكتِسابه وآنتِسابه، وتصدَّت له مخطوباتُ الرُّتَب ليحُوزَها باستحقاقه وآستِيجَابه ؛ وله من فضـيلةِ ذاته ما يدُلُّ علىٰ النبإ العظِيم، وعليه من أنوار النبوّةِ ما يهتَدى به السارِى فى الليل البَهِيم ؛ وحِينَ حوىٰ تالِدَ الفَخْر وطارِفَه ولم يستَغْنِ بالقـديم عن الحديث ولا بالحَدِيث عن القَدِيم ؛ والصِّفاتُ إذا آختلفَتْ أربابُهـا لا تقَع إلا دُونَه ، والثوابُ الجزيلُ ممـا أعده الله للذين يُخْلِصُون فيه ويتولَّونه ،وليفخَرْ بأنْ خُصَّ من العناية الملكُوتيَّة بالحظِّ الأجْزَل، وليتسَمَّحْ علىٰ البَرَايا ليكُونَ ممدُوحًا بالكتاب المنَزَّل ؛ وليَبْذَخْ فإنَّ وصْفَه لا تَبْلَغ غايتَه وإن آستُخْدِمت فيه الفِكَر،وليَبجَحْ فإن فضله لايُدْرك حقيقةً إلا إذا تُليت السُّوَر، فأمتَعه اللهُ بمَواهبه لديْه وأمتع أميرَ المؤمنين به، وأجْرىٰ أمورَه عاجلا وآجلا بسَبَبِه.

رأىٰ أميرُ المؤمنين أن يختصّه بولاية عهد أمير المؤمنين تميزاً له بهذا النعت الشريف، وسُمُوًّا به إلىٰ مايجب لمجده الشامخ ومحلّه المُنيف ، واقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يُشرّفون به أبناءهم الأكرمين ، وتخصيصاً له بما يبقىٰ فخره علىٰ متجدّد الأزمان ومُتطاول السّنين . وأمر أمير المؤمنين أن يُتخيّر من رجال دولته، ووجوه أجناده وشيعته ، طائفةٌ يكونُ إليه آنتماؤُها ، وإلىٰ شرف هذا النعت آنتسابُها وآعتزاؤُها ، فتُوسَم بالطائفة العهْديّة، وتحظىٰ إذا أخلصتْ فى الولاية بالسّعادة الدائمة الأبديّة ، وتظلّ موقوفةً علىٰ خدمته ، متصرّفةً علىٰ أوامره وأمثلته ، منتهيةً فى طاعته إلىٰ أغراضه ومآربه ، ملازمةً للّازم المتعيّن من مُلازمة الخدمة فى مواكبه ؛ والله تعالىٰ يجعلُ مارآه أميرُ المؤمنين من ذلك كافلًا بالخيرات ، ضامنًا لشُمول المنافع وعمومِ البركات ، إن شاء الله تعالىٰ : والسلامُ علىٰ ولىِّ عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه .

⁂

وهذه نسخةٌ بولايةِ العهد من خليفةٍ لولده بالخلافة علىٰ هذه الطريقة ، من إنشاء القاضى الفاضل ، أتىٰ فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاثَ مرّات ، وهى :

من عبد الله ووليّه فلان أبى فلان الإمام الفلانىّ إلىٰ فلانٍ الفلانى ، والصلاة والسلام علىٰ النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ نحو ماتقدّم فى العهد قبله .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله الذى آستحقَّ الحمدَ بفَضْله ، وأجرىٰ القضاءَ [علىٰ ماأراده](٢) ووَسِعَ الجَرائمَ بعَفوه وعدْله ، وصرّف المَراحمَ بين قوْله وفِعْله ، وأعلىٰ منارَ الحق

(١) لعل هذا جواب الشرط فى أول الفقرة قبل و يكون العامل فى حين بعده محذوفا دل هذا عليه . تأمل .

(٢) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام .

وأرشَدَ إلىٰ أهله ؛ واختارَ الإسلامَ دِيناً وعَصَم المعْتلِقِين بحَبْله ، وأوضح سُبُل النَّجاة بمـا أوْضَح لسالِكيه من سُبْله ؛ وتعالىٰ عُلاه إلىٰ الصِّفات، فلم يُوصَف بمثل قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه ﴾ وتنزّه عن آشـتراك التشبيهات ، فى كلّ جليل الوصف مستقلّه وغيرِ مستَقلّه ؛ علِمَ ما آشتملَتْ عليه خَطَراتُ الأَسْرار ، وأشارتْ إليه نَظَراتُ الأبْصار ، وآنفرجَتْ عنــه غَمَراتُ الأخطار ، وأخفَتْه سَتَراتُ الظلمــاء وباحتْ به جَهَراتُ الأنْوار : ﴿ سَـوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ به وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وسارِب بِالنَّهارِ ﴾ .

والحمدُ لله الذى جعل الدِّين عِنْده الإسلام ، فمن آبتغىٰ غيْرَه ضَلَّ المَنْهج ، وأبعدَ المَعْرَج ، وآستَلْقح المُخْدَج ، وغَلِط المَخْرَج ، وفارقَ النُّورَ الأبْلَجْ ، وركبَ الطريقَ الأعْوَجْ ، وأتىٰ يومَ القيـامة باللِّسان المُلَجْلَج ؛ ومَنْ أسْـلَمَ وجْهَــه إليه فاز بالسَّعْي النَّجيح ، وحاز المَتْجَرَ الرَّبيح ، ووَرَد المَوْرِدَ الأحْمَد ، وَيَمَّ القَصْد الأقْصَد ، ووجَد الجَــدَّ الأسْـعد ، وسلك المَنْهج الأرْشَـد ؛ فهو العُرْوة الوُثقىٰ ، والطريقةُ المُثْلىٰ ، والدرجةُ العُلْيا ؛ وأُمِر به خيْرُ المرسَلِين ، المنعوتُ فى سِيَر الأوَّلِين ، المبعُوثُ بالحق المُبِيـن ، والقائمُ رسولاً فى الأمِّيين ، والهـادى إلىٰ الحقّ وإلىٰ طريقٍ مستقيم ؛ والداعِى الذى مَنْ أجابه وآمَنَ به غُفِر له ما تقدَّم من ذَنْبه وأُجِيرَ من عذابٍ ألـيم ، والمستقِلُّ [بالعِبْء][1] العظيم ، بفَضْـل مامُنِح من الخُلُق العظيم ، والممْدُوحُ بقوله : ﴿ لَقَـدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْـهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمدُ لله الذى وَصَل النبوّةَ بالإمامَهْ ، وجعلَها كلمةً باقيةً فى عَقِبه إلىٰ يوم القيامه ، وخصَّها بالخَصائص التى لاتَنْبغِى إلا لتـامِّ الكَرامه ، وأجار بها خَلْقَــه من مَتَالِف

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام . تأمل .

الطامّة وبوادي النّدامه، وهدىٰ بشرف مَقامه إلىٰ دار المُقامه، وٱستردّ بأنوار تدبيره من ظَلَام الباطِل الظُّلّامه، وأحسَنَ بما أجراه من نَظَره النظرَ للخاصّة والعامهْ، ﴿ إنَّ هٰذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِين ﴾ .

يحمَدُه أميرالمؤمنين أنْ رَفَعه إلىٰ ذلك المحلّ المُنِيف، وٱستَعْمَر به المَقامَ الشريف، وأظهرَ كلمةَ الدِّين الحنيف، ونفىٰ عنه تَغَالِيَ التعمُّق وتَجْديفَ التحريف، وبيّن بموافَقة تَوْفِيق هَدْيه طريقَ التكليف، وأمدّه بموادّ إلهيّة تشتهر فتستغْنِي عن التعريف، وتتّصِل فتقْطَع موادّ التكْييف .

ويسألُه أن يصلّيَ علىٰ جدّه محمدٍ الذى نَسَخ بشريعتِه الشرائع، وهذّب بهدَايتـه المَشَارع، وأيّده بالحُجَج القواطِع، والأنوارِ السّواطع، وجعل من ذُرّيّته جبالَ الله القَوَارع، ومن مِشْكاته نُجومَ الهُدىٰ الطّوالع، وعُدِقتْ صنائعُه بالله إذا ٱفتخَرت المُنْعمون بالصّنائع؛ وعلىٰ أخيـه وأبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب المخصوص بأُخُوّته، وأبى الثقلَيْنِ من عِتْرته، والسابقِ إلىٰ الإسلام فهو بعْـدَه أبو عُذْرته؛ وإلى تفريج الكَرْب عن وجْهه فى الحَرْب فهو ٱبنُ بَجْدَتِه . وعلىٰ الأئمة من ذرّيّتهما مَصابيح الظُّلُمـات، ومَفاتيح الشُّكوك المُبْهَمات، والممنوحين من شَرف السِّمات، ماجَلّ عن المُسامَات، والممدوحينَ بفضْل الجاه فى الأرَضين والسّمٰوات .

وإن الله بحكمته البَدِيعـه، ورحمتِه الوَسِيعه؛ أقام الخلفاء لخلقه قِوَاما وبحقّه قُوّاما، وجعل نارَ الحوادثِ بنُورهم بَرْدا وسَلَاما، وجعـل لهم الهدايةَ بأمره لِزَاما، وٱستَصْرَف بهم عن الخَلْق عذابَ جهَـنّم ﴿ إنَّ عَذَابَها كانَ غَرَاما ﴾؛ فهم أرواحٌ والخلائقُ أجسام، وصَـبَاحٌ والمَسالكُ أظْلام، وثمراتٌ والوجُودُ أكمام، وحُكّام والحقائقُ أحْكام، يَسْهَرُون فى منافع الأنَام وهم نِيَام، وينفَردُون بوَصَب النَّصَب

ويُفْرِدُونهم بلذّات الجَمام ، ويهتدُون بهداياتهم إلىٰ ماتدقُّ عنـه حوائطُ الأفهام ، ولا يُدْرَك إلّا بوسائط إلهام . وقد آصطفىٰ اللهُ الأميرَ من تلك الأُسْره ، ورقّاه شرفَ تلكَ المنـابِر ومُلْك تِلكَ الأسِرَّه ، وأنار بمقامه نُجومَ السـعادة المستَسِرَّه ، وآستخدَم العالَمَ لأغراضه ، وسدّدَ كلَّ سهمٍ فى رَمْيه إلىٰ أغراضه ، وأقرضَ اللهَ قرضًا حسَنا فهو واثقٌ بحُسْن عواقب إقراضه ، وآفترضَ طاعتَه فى خَلْقه فالسعيدُ من تلقّىٰ طاعة أميرِ المؤمنين بآفتراضـه ، وأمضىٰ أوامِرَهُ علىٰ الأيّامِ فمـا يقابِلُها صَرْفٌ من صُروفها باعتِراضه ، وأدار الحقَّ معه حيثُ دار ، وكشَفَ له ما آستجَنَّ تحتَ أستارِ الأقْدار ، ووقَفَ الخيرةَ والنُّصْرة علىٰ آرائِه و راياتِه فهو المستَشار والمستَخار ، وألهمه أن يحفَظَ للأمة غَدَها كما حَفِظ لهـا يومَها ، وأن يُجْرِىَ لهـا مَوارِدَ توفيقِ الآرتِيادِ ولا يُطيلَ حَوْمَها ، وأن يجعل المؤمنَ علىٰ ثَلَج من الصُّدور ، وفَلَج من الظُّهور ، ويُودِعَ عندها بَرْدَ اليقينِ بالإشارةِ إلىٰ مستَوْدَع النُّور ، ويجعلَها علىٰ شريعـةٍ من الأمرِ فتتّبِعها ، ويُحِلَّها بمنزلة الخِصْب فترتَبِعها ، ويُسْـلِم نَدىٰ خَيْرِه ليكونَ غايتَها ومَفْزَعها ، ويُعرِّفَها من تنتظِرُه فتتّخِذه مآلَهَا ومَرْجِعَها ، ويقتَدِى فى ذٰلك بسيد المرسَلين فى يومِ الغَدير ، ويُشير إلىٰ مَنْ يقُوم به المشيرُ مقام البشير .

ولـمّـا كنتَ حافِظَ عهد أمير المؤمنين والسـيِّدَ الذى لا بُدّ أن يُتَوَّجَ به السَّرِير ، والنَّجْمَ الذى لابُدّ أن نستطِيلَ إلىٰ أنْواره ونسـتَطِير ، والذَّخيرة التى ادَّخَرها اللهُ لِنَيْل كل خَطَر ودَفْع كلِّ خَطِير ، والسَّحابَ الذى فيه الثَّجُّ المَطِير ، والنَّجمُ المُنِير ، والرَّجْمُ المُبِير ، وقد تجلَّتْ لكَ أوجُهُ الكرامات وتبدّتْ ، وتبرّجَتْ لك مخطُوبات المَقامات وتصـدّتْ ، وطلبَتْك كُفئًا لنَيْلِ عَقيلتها وسُكْنىٰ مَعْقِلها فـا تعدّتْ ، وأدّت إليكَ لطائفُ فَهمِكَ من أسرار الحقائقِ ما أدّتْ ؛ وعرَفْتَ من سِيمـاكَ هَـدْىَ النبوّه ، وآجتمع لكَ مزيّةُ الشرَفين مِن الطّرَفين الأبُوّة والبُنُوّه ، وأخذْتَ كتابَ الحكمة

ومَصُون العِصْمة بقُوّه ، وأجْرَتَ القلوبَ التى بعوارض الشَّكِّ مَمْنُوّه، وآثرْتَ العقائدَ التى بنواقِض العقْد مملُوّه، وغدَتْ وُجُوه الأنام بأيامك مجلُوّه، وتوافقت الألْسُنُ علىٰ مَدْحك ولا مِثْـلَ ما مُدِحْتَ من الآيات المتلُوّه ، وكنتَ بحيثُ تَذْهبُ بالأهوال المَسْلُوّه ، وتُقْبِـل بالآمالِ المَرْجُوّه ، ولو أنَّ رَكْبًا ضلَّ لَهَداهُ نورُك فى الليـلِ البَهيم ، ولو أنَّ ذِكْرَك شذَّ لتبـدَّى فى الآياتِ والذِّكْرِ الحكيم ، ولو أنَّك طلَعْتَ علىٰ الأوّلين لمـا تساءَلُوا ولا ٱختلَفُوا فى النَّبإ العظيم ، ولوأنَّ قديمًا عَلا فوق كلِّ حديثٍ لقام لكَ الحديثُ مَقَامَ القديم ، ولو أنَّ جميعَ الأنام فى صـعيدٍ واحدٍ لصَعِدتَ دُونَهم المَقـامَ الكريم ،ولو أنَّ يدَكَ البيضاء تجَسَّمتْ للناظرين لأعدَتْ آيةَ موسىٰ الكليم ، ولو أنَّ هِدايتَكَ الغَرَّاء تنسَّمتْ للذاكرين لأحيَيْتَ بهـا العِظامَ وهى رَمِيم ، ولو أنَّ عُلُومَكَ ٱنتشرتْ بينَ العلَماء لتلَوْا : ﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾ ولو أنَّ ليلةَ وِلادتِك رصدَتْها البصائرُ،رأت كيف يُفَرَّقُ فيها كلُّ أمْرٍ حكيم ،والصِّفاتُ إذا ٱحتفل أربابُها وقفَتْ لك عبيـدا ، والأيامُ إذا كانتْ ظُروفًا لفضائلكَ كانـ كلُّ يوم منها للعبيدِ عِيدا ، والأنسابُ إذا عددْتَها كان الجَدُّ سعيدا ، فلْتفخَرْ قبْلَ السير بأن أمليْت عليها السُّوَر، وأبشِرْ بأن المنتَظَر من فضل الله لكَ فوقَ ما تعجَّله النظَر ، وٱشمَخْ بأنَّ سادةَ القبائل مُضَرُ وأنك بعـد أمير المؤمنين سـيِّدُ مُضَرْ ، وٱبذَخْ بأنك عِوَضٌ من كلِّ مَنْ غاب وماعنك عِوضٌ فى كل مَنْ حَضَر ، وٱبْجَحْ بأنك قد أُهِّلْتَ لأمرٍ أبىٰ الله له إلا أولِى العَزْم والخَطَر ، وٱشكُرِ اللهَ علىٰ نعمة خلقَكَ لها بِقَدَرْ ، ومزيَّةٍ لا يُوفِّى حقَّها من أضمر فأغْرَقَ أو نطقَ فشكَرَ : وقُلِ ﴿ الحَمْدُ للهِ الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾ : ﴿ وقُـلْ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعَلىٰ وَالِدَىَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاه ﴾ .

فإليك هـذا الأمرُ بَصير، وأنت لَهُ والله لك نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النَّصير، وتأهَّبْ له في درجته التي لاينَـالُها باعٌ قصير، ولا يمتطيها إلاَّ من آختارهُ اللهُ علىٰ عِلْمٍ من أهل الثقلين ولو أنَّ بعضَهم لبعضٍ ظَهير، ولا نرىٰ لها أهلا إلَّا مَنْ أراه الله من آياته أنه هو السَّميع البصير، وفاوِضْ أميرَ المؤمنين في مُشْكِلات الأمر ولا ينبِّئك مثلُ خَبير، وآقْتَدِ منه بمن هو[في] أهل دهره وَصيُّ الوصيّ ونظيرُ النَّذير، وآهتَدِ بنُوره الذى هو بالنُّور البائنِ دُونَ الخلق بشير، وسِرْ إذا آستعْمَلك اللهُ فيهم بما رأيتَ أميرَ المؤمنين به فيهم يَسير، وآدْعُ اللهَ بأن يُيَسِّر علىٰ يَدِك مَنَاجِحَهم إنَّ ذلك علىٰ الله يَسير، وآعْرِف ما آثَرك اللهُ به من أنه لم يجعل لِيَدِك كُفُؤًا إلا ذا الفَقَار ولا لقَدَمك كفُؤًا إلا المِنْبَر والسرير، وتحدَّثْ بنعمة الله وإجرائها فأميرُ المؤمنين اليومَ عليك أميرٌ وأنت غدًا علىٰ المؤمنين أمير : ﴿هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِـــه﴾ .

وأما العــدْلُ وإفاضَتُه ، والجَوْرُ وإغاضَـتُه ، والصَّعْبُ ورِياضَـتُه ، والجَدْب وتروِيضُه ، والخَطْب وتَفْويضه ، والجهادُ ورَفْع عَلَمه ، والذبُّ عن دِينِ الله وحِفْظُ حُرَمِه ، والأمْرُ بالمعروف ونَشْر رِدَائه ، والنهىُ عن المنكر وطَىُّ آعتِدَائه ، وإقامةُ الحدّ بالصَّفْح والحَـدّ ، والمُساواةُ فى الحقّ بين المَوْلىٰ والعَبْد ، وبثُّ دعوة الله فى كل غَوْرٍ من البلاد ونَجْد ، وأمرُ عباد الله إن عباد الله فى زمنك الرغد ؛ فذٰلك عهدُ الأئمة الراشدين ، وهو إليك من أمير المؤمنين ، عَهْدٌ مؤكَّد العَقْد : وهو سُنَّة فضل الخلفاء التى لاتجِـدُ لهـا تحويلا ، ومعنىٰ العـهد الذى أمر اللهُ بالوفاء به فقـال : ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا ﴾ .

وهل يُوصىٰ البحرُ بتلاطُم أمواجه؟ وتَدافُع أفواجِه؟ وبتَراكُم عَجَاجِه؟ وهل يُحَضُّ البدرُ المنيرُ علىٰ أن يُنِير سِراجُه ، ويَطْلَعَ ليتَّضح للسالك مِنْهاجُه؟ أو يُنَبَّه علىٰ هدايته

إذا تهادته أبراجه ؟ وعليكَ من سرائرِ أنوار الله مايُغنيك أن تُوصَى ، ولدَيْكَ من ظواهر لطائفِ الله ماتَميَّز به عن الخلقِ إذ أضحيْتَ به مخصُوصا ، ومن شواهدِ آختيار الله ماتظاهرَتْ عليك آياتُه نُصُوصا ؛ فبِسَلام الله يُحَيِّيك المؤمنُون ، وبالآعتلاق بعِصْمة ولائِك فى يوم الفَزَع الأكبرِ يأمَنُون ، واللهُ منجزٌ لك وعدَه كما أنجزه لمن جعلهم أئمةً لَمَّا صَبَروا وكانوا بآياتنا يُوقِنُون ؛ والله سبحانَهُ يُهْدِى إليك تحيةً من عندهِ مباركَةً طيِّبه ، ويُسْدِى إلىٰ مَقام شَرفك سَحابةَ رحمةٍ غَدِقةً صَيِّبه ؛ ويجعل ماراه أميرُ المؤمنين من ولايَتِك عهدَه ، وكَفَالتِك للأُمَّة بعده ، للمَسَرَّات ناظِما ، وللمَساءات حاسِما ، وللبركات جامِعا ، وللباطل خافِضًا وللحق رافِعا . وأمَر أميرُالمؤمنين أن يَعيَّن علىٰ رجال من أولياء دَوْلته ، ووجوه شِيعته ، وأنصار سَرِيَّته ، عِدَّةٌ يكون إليك آعتزاؤُها وبِكَ آعتزازُها ، وببابك العالى إقامتُها وإلىٰ جَنابِك آنحيازُها ؛ فتَكونُ موْسُومةً بالعُبوديَّه ، ومتعرِّضةً بالوَلاء للسعادة الأبَديَّه ؛ فتَمْتَثِل(١) علىٰ ماتُمَثِّله من المراسم ، وتَتصَرَّف علىٰ ماتُصَرِّفُها عليه من العَزائم ؛ وتكونُ أبدًا لما يَنْفُذ عنك من أحكام الهِبَات والمَكارم ، وتَقُومُ من ملازمة الخِدْمة فى مَواكِبك بما هو لكل خادِمٍ فرضٌ لازم ؛ وتُسارِع فى مَطالِبك إلىٰ مايُسارع إليه الحازم ، وتَجُودُ بأسْماءِ الإنْعام بالغَدَق الساجِم . وتُقدّر لها من الواجبات والزِّيادات ماتقتضيه هِمَمُ المَكارم ؛ تبذُل فى الخِدمة الاجتهاد ، وتُنافِسُ فيما تَستَمِدُّ [به] الحُظوةَ بحضرته والإحماد ؛ وعَرِّضْها من الإحسان الجَمِّ للآزْدِياد ، وبَلِّغْها المُراد بما تَبْلُغ بها من المُراد : لتَتَشرّف بأن تكونَ تحتَ ركابه العالى متصَرِّفه ، وتفتخرَ بأن تكون أنسابُها باسمه العالى متَشرِّفه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله فتمشى على .

المـــــذهب الثـالث

(أن يفتتح العهدَ بعد البسملة بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله» ثم يأتى بالبعديّة،
ويأتى بما يُناسبُ الحالَ علىٰ نحو ماتقدم؛ وعليه عمل أهل زماننا
مع الاقتصار علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ، والاختصارِ فى القول)

وهذه نسخةٌ أوردها علىّ بنُ خلَف من إنشائه فى كتابه "مواد البيان" لترتيب الكتابة فى زمن الفاطميين، وهى :

الحمد لله مُعزّ دينه بخُلَفائه الراشدين، ومرتّب حقّه بأوليائه الهادين؛ الذى آختار دينَ الإسلام لصَفْوته من بريّته، وخَصّ به من آستخْلَصَه من أهل طاعته؛ وجعله حَبْلَه المَتين، ودينَه الذى أظهرَه علىٰ كلّ دين؛ وسبيلَه الأفسح، وطريقَه الأوْضَح؛ وآبتعث به نبيّه محمدًا صلى الله عليه فصدَعَ بأمْره، وأعْلَنَ بذِكْره؛ والناسُ فى فَتْرة الضّلاله، وغَمْرة الجَهَاله؛ فلما أنجز فى نُصْرة حَقّه، وتأييده لسُعَداء خَلْقه [قبضه](1) إليه محمودَ الأثَر، طَيّبَ الخَبَر [وقام](1) بخلافته، مَن آنتخَبه من طَهرة عِتْرته؛ وأوْدعَهم حكمَتَه، وكفّلَهم شريعتَه؛ فآقتفَوْا سبيلَه، وآتبعُوا دليلَهْ؛ كُلّما قَبضَ منهم سَلَفا الىٰ مَقرّ مَجْده، آصطفىٰ خَلَفا للإمامة من بَعْده .

يحمَدُه أميرُ المؤمنين أن أفضىٰ إليــه بتُرَاث الإمامةِ والرّساله، وهَدىٰ به كما هدىٰ بجَدّه من الزّيْغ والضّلاله؛ وآختَصّه بميراث النبُوّة والخلافه، ونَصَبه رحمةً للكافهْ؛ وأتمّ نعمتَه [عليه] كما أتمّها علىٰ آبائه، وأجْزَل حقّه من حُسْن بَلائه؛ وأعانَهُ علىٰ ما آسترْعاه، ووفّقه فيما وَلّاه؛ وأنهضَــه بإعزاز الملّه، وإكرام الأمّه؛ وإماتةِ البِدَع، وإبطال

---

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما يقتضيه المقام .

المَذْهَبِ المخترَع ، وإحْياء السُّنَن ، والاستقامة على لاحِبِ السَّنَن ، ووهبه من بَنِيه وذُرِّيَّته ، مُؤَازِرِين على ما حمَّله من أعباء خِلافَته ، ومُظاهِرِين على ما كلَّفه من إمعان النظر في بَرِيَّته .

ويسألُه الصلاةَ على محمد خاتَم أنبيائه ، والخِيرة من خُلَصائه ، الذى شرَّفه بختام رُسُله ، وإقرار نِيَابته في أهله ، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمِّه وباب حِكْمته ، علىّ بن أبي طالب وَصِيِّه في أمّته ، وعلى الأئمة الطَّهَرة من ذرِّيَّته ، مَنَاهِجِ رحمته ، وسُرُجِ هِدايته ، وسلّم تسليما .

وإنّ الله تعالى جعل الخلافةَ للكافَّة عِصْمه ، ولأهل الإيمان رَحْمه ، تجمعُ كَلِمتَهم ، وتحفَظُ أُلفتَهم ، وتُصلِح عامَّتَهم ، وتُقيم فرائضَه وسُنَنَه فيهم ، وتُمُدُّ رُواقَ العدل والأَمَنَة عليهم ، وتحسِمُ أسبابَ الكُفْر والنِّفاق ، وتقمَع أهلَ العِناد والشِّقاق ، ولذلك وصلَ اللهُ حبْلَ الإمامه ، وجعلها كلمةً باقيةً في عَقِب أوليائه إلى يوم القيامه .

ولما نظرَ أميرُ المؤمنين بعين اليقين ، واقتبَس من الحقيقة قَبَس [الحق] المُبِين ، عَرَف ما بُنِيَتْ عليه الدنيا من سُرْعة الزَّوال ، ووَشْك التحوُّل والانتقال ، وأنَّ ما فوَّضَ الله إليه من خلافته لا بدّ أن يَنْتقلَ عنه إلى أبنائه المَيَامين ، كما انتقل إليه عن آبائه الراشدين ، فلم يغترَّ بمَواعِيدها المُحَال ، وأضربَ عمّا تَخْدَع به من الأَمَانِيّ والآمال ، وأشفقَ على مَنْ كفَّله الله بسياسَته ، وحمّله رعايَتَه من أهل الإسلام المعتصمين بحبل دَعْوته ، المشتملين بظلِّ بَيْعته ، عند تقضِّي مُدَّته ونُزوعه إلى آخرته ، في الوقت المَعْلُوم ، بالأجل المَحْتُوم : من انتشار الكلمه ، وانْبِتَات العِصْمه ، وانشِقَاق العَصَا ، وإراقة الدِّمَا ، واستيلاء الفتَن ، وتعطيل الفُرُوض والسُّنَن ، فنظر

لم بمـا يَنْظِم شَمْلَهم ، ويصـلُ حَبْلَهم ؛ ويَزْجُر ظَلَمَتَهم ، ويَجْمع كلمتَهم ، ويؤلِّف أفئدَتَهم ؛ ورأىٰ أن يَعْهَـد إلىٰ فلان ولَدِه : لأنه قريعهُ فى عِلْمِـه وفَضْله ، وعقيبُه فى إنصـافِه وعَدْله ؛ والمَلْمُوح من بعـده ، والمرجُوُّ ليومه وغَده ، ولِمَـا جمعَ اللهُ له من شُرُوط الإمامه ، وكَمَّله له من أدَوَاتِ الخلافه ، وجَبَله عليـه من الرَّحمة والرَّأفه ؛ وخَصَّه به من الرَّصانة والرَّجَاحه ، والشَّجاعة والسَّماحه ؛ وآتاه من فَصْل الخطَاب ، وجَوامِع الصَّواب ومحاسِنِ الآداب ؛ ووِقايةِ الدِّين ، والغِلْظة علىٰ الظالمين ، واللُّطْف بالمؤمنين ؛ بعْدَ أن قدَّم آستخارةَ الله تعالىٰ فيه ، وسأله تَوْفيقَه لمـا يُرْضيه ؛ ووقَفَ فِكْرُه علىٰ آختياره ، ولم يكن بآختياره مع إيثارِه ؛ ويَلُوح فى شمـائله ، ويَسْـتَوْضِحُ فى مَخايِله ؛ أنَّه الولىُّ المجتَبىٰ ، والخليفةُ المصْـطفىٰ ؛ الذى يحيِى اللهُ به ذِمَارَ الحقّ ، ويُعْلى بسلطانه شِـعَارَ الصِّدْق ؛ وأنه ـ سبحانه ـ قد أفضىٰ إليه بمـا أفضىٰ به إلىٰ الخُلَفاء من قَبْله ، وأفاضَ عليـه من الكامِنَات ما أفاضَهُ علىٰ أهله ؛ وبعدَ أنْ عاقده وعاهَدَه علىٰ مثل ما عاهَدَه عليـه آباؤُه : من تقوىٰ اللهِ تعالىٰ وطاعتِـه ، وآستشعار خِيفَتِه ومراقبته والعملِ بكتابه وسُنَّته ؛ وإقامةِ حُدُود الله التى حدَّها ، بفُرُوضه التى وَكَّدها ، والآقتداءِ بسَلَفه الراشـدين ، فى المُكافَحَة عن الدِّين ، والمسامحة عن أوزار المسلمين ؛ وبَسْـط العدْل علىٰ الرعيّـه ، والحكم بينهم بالسَّويّه ؛ وإنصافِ المظلومِ من الظَّلُوم ، وكفِّ يَدِ المغتَصِب الغَشُوم ؛ وصَرْف وُلَاة الجَوْر عن أهل الإسلام ، وتخَيُّرِ من ينظُر بينهم فى المَظالِمِ والأحْكام ؛ وأن لا يُوَلِّىَ عليهم إلّا من يَثِق بعَدَالته ، ويسْكُنُ إلىٰ دِينه وأمانَته ؛ ولا يَفْسَحُ لشريف فى التعدِّى علىٰ مَشْرُوف ، ولا يُقوِّىٰ فى التسـلُّط علىٰ مَضعوف ؛ وأن يحمِـل الناس فى الحُقُوق علىٰ التَّساوى ، ويُجْرِيَهم فى دَوْلته علىٰ التناصُف والتَّكافِى ؛ ويأمر حُجّابه ونُوّابَه بإيصال الخاصّة والعامّة إليه ، وتمكينِهم من عَرْض حوائِجهم ومَظَالمهم عليه : ليعلموا : الوُلاةُ والعُمَّال ، أنَّ رعيته

علىٰ ذُكْرٍ منه وبَالٍ؛ فيتحامَوُا التثقيلَ عليهم والإضرار بهم . وأشهد عليه بكلّ ماشرطَه وحدّده ، والعملِ بما يحمد إليه فيما تقلّده . علىٰ أنه غنيٌّ عن وَصيّةٍ وتبصير ، وتنبيهٍ وتذكيرٍ ؛ إلا أنّ محمدًا سيدَ المرسلين يقول لعليّ صلّى الله عليهما "أرسِلْ عاقلًا الا فأوصه" (١) .

فبايِعوا علىٰ بركة الله تعالىٰ طائعين غيرَ مُكرَهين ، برَغبةٍ لا برَهْبه ، وبإخلاصٍ لا بمُداهَنه ، بيعةَ رِضًا وآختيار ، وآنقيادٍ وإيثار ، بصحّةٍ من نيّاتكم ، وسلامةٍ من صُدُوركم ، وصفاءٍ من عَقائدكم ، ووفاءٍ وآستقامةٍ فيما تضمَّون عليه أَيمانَكم : لِيُعرِّفَكم الله [من] سُبوغِ النِّعمه ، وشُمولِ الخَيْره ، وحُسْنِ العاقبه ، وآتفاقِ الكلمه ، مايُقِرُّ نواظِرَكم ، ويُبرِّد ضمائرَكم ، ويُذهِبُ غِلَّ صُدُورِكم ويُعِزُّ جانبَكم ، ويُذِلُّ مُجانِبَكم ؛ فاعلموا هذا وآعملوا به إن شاء الله .

وقد يُغني هذا الكتابُ الذى ذكرناه مَغْنَى العهد ، فلا يُحتاج إلىٰ عَهْد :

وعلىٰ ذلك كُتِبَ عن الإمام المستكفي بالله أبى الربيع سليمان ، آبن الحاكم بأمر الله أحمد ، عهدُ ولدِه المستوثِق بالله « بركة » بالخلافة بعده . وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذى أيّد الخلافةَ العبّاسيّةَ بأجلِّ والدٍ وأبرّ ولَد ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه والسَّنَد كالسَّنَد ، وآواهُمْ من أمْرِهم إلىٰ الكَهْف فالكَهْف وإن تناهَىٰ العَدَد ؛ وزان عِطْفَها بسُودَدِ سَوادِ شِعارهم المسجِّلةِ أنوارَهم ولا شكَّ أن النُّور فى السَّواد ، وعَدَق (٢) بصَوْلتهم النبويّ مُعجِزُها كلَّ مُنادّ .

---

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه وحرر .

(٢) لعله وقدع . أى كف . تأمل .

نحمَدُه علىٰ مامنّ به من تَمَـام النِّعمة فيهـم، ونُزُول الرحمة بتَوَافِيهم ؛ ونشهدُ انْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مَحْضَــةَ الإخْلاص ، كافلًا مَحْضُها بالفَكَاك من أَسْر الشِّرْك والخَلَاص ؛ ونشهد أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بمـا أوضَح سُبُلَ الرَّشاد، وقَمَع أهـلَ العِناد، والشـفيعُ المشَفَّع يوم التَّنادْ ؛ صـلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا آنقضاءَ لهـا ولا نَفَاد؛ وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ فإنّ أميرَ المؤمنين (ويذكر آسمه) يَعتَصِم بالله فى كلّ مايأْتِى ويَذَر ممـا جعل اللهُ [له] من التفويض ، ويُشِير إلىٰ الصَّواب فى كلّ تَصْريح منه وتعريض ؛ وإنه شَدّ اللهُ أزْرَه، وعَظَّم قَدْره، آستخار اللهَ سبحانَه وتعالىٰ فى الوصيَّة بمـا جعله الله له من الخلافة المعظَّمة المفخَّمة الموروثة عن الآباء والجُدُود ، المُلْقاةِ إليه مقالِيدُها كما نصّ عليه آبنُ عمِّه صلّى اللهُ عليه وسلم فى الوالد من قُرَيش والمَوْلُود ؛ لوَلَده السيِّد، الأجلِّ، المعظَّم، المكرَّم، فلان ، سـليلِ الخلافةِ وشِـبْلِ غابِها، ونُخْبةِ أحسابها وأنسابها، أجلَّه اللهُ وشرَّفه ، وجمَّـل به عِطْفَ الأمانَةِ وفوَّفه : لمـا تلمَّحه فيه من النَّجابة اللائحةِ علىٰ شمائِلِه ، وظَهَر من مستَوْثِق إبْداءِ سِرِّه فيه بدَلائل بُرهانه وبُرهان دلائله ؛ وأشهدَ علىٰ نَفْسه الكريمة ـ صانها الله تعالىٰ ـ مولانا أو سيدُنا أميرُ المؤمنين، مَنْ حضَر من حُكّام المسلمين : قُضاة قُضاتهم ، وعلمائهم ، وعُدُولهم، بمجلســه الشريف، أنه رضِيَ أن يكون الأمرُ فى الخلافة المعظَّمة ، الذى جعله الله له الآنَ لولده السـيِّد الأجلِّ فلان بعد وفاته ، فسَّح الله فى أجَلِه ؛ وعَهِد بذلك إليه، وعوّل فى أمر الخلافةِ عليــه ، وألقىٰ إليه مقالِيدَها ، وجعل بيــده زِمامَ مُبْدِئها ومُعِيدها ؛ وصّى له بذلك جزئيِّه وكُلِّيِّه، وغامِضه وجليِّه ؛ وصيَّةً شرعيــةً بشُروطها اللازمة المعتبره، وقواعِدِها المحرَّره؛ أشهَد عليه بذلك فى تاريخ كذا .

الوجـــــه السـابع

(فيما يكتب فى مستَنَد عهدِ ولىّ الخلافة عن الخليفة ، وما يكْتُبه الخليفة فى بيت العَلَامة ، وما يُكْتَب فى ذَيْل العـــهد بعد إتمـام نُسْخته من قَبُول المعهود إليه ، وشهادةِ الشُّهود علىٰ العهد)

أما مايكتب فى المستَنَد ، فينبغى أن يكونَ كما يُكتَب فى عُهود المُلُوك عن الخلفاء ، علىٰ نحو ماتقدّم فى البيْعات ، وهو أن يُكتَب : «بالإذْن العالى ، المولَوِىّ ، الإمامىّ ، النبوىّ ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالىٰ » أو نحو ذٰلك من الدعاء .

وأما مايكتُبُه الخليفة فى بيت العلامة ، فينبغى أن يَكْتُب : « عهِدتُ إليه بذٰلك » : لأنه اللفظُ الذى ينعقِدُ به العــهد . ولوكتب : « فوّضْتُ إليه ذٰلك » كما يكتُب الخليفةُ فى عهد السلطان الآنَ علىٰ ماسيأتى ، كفىٰ ذٰلك . والأليقُ بالمقام الأوّلُ .

وأما مايُكتَبُ فى ذيل العهد بعد إتمـام نُسْخته ، فالمنقولُ فيه عن المتقدّمين ماكَتَبَ به « علىّ الرِّضىّ » تحت عهْد المأمون إليه بالخلافة ، وهو :

الحمْـدُ لله الفعّالِ لمـا يَشَاء ، لامُعقِّبَ لحُكْمه ، ولا رادَّ لقَضائه ، يعـلَمُ خائنـةَ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّــدور ؛ وصـلواتُه علىٰ نبيِّــه محمدٍ خاتمِ النبيين ، وآلِه الطيِّبين الطاهرين . أقولُ وأنا علىُّ بنُ موسىٰ بن جعفر : إنّ أميرالمؤمنين عَضَّــده الله بالسَّداد ، ووفّقه للرشاد ؛ عَرَف من حقّنا ماجهِله غيره : فوَصَلَ أرحاما قُطِعتْ ، وأمّنَ أنفُسًا فَزِعتْ ، بل أحياها وقد تَلِفَتْ ، وأغْناها إذ ٱفتَقَرت ؛ مُتَّبِعا رِضا ربِّ العالمين ، لايُرِيد جزاءً من غيره وسيَجْزِى اللهُ الشاكِرين ، ولا يُضيعُ أجْرَ المُحْسِنين ؛

وإنه جعل إلىّ عهدَه، والإمرةَ الكُبرىٰ إن بَقِيتُ بعــده؛ فمن حَلّ عُقْدةً أمر اللهُ بشَدّها، أو فَصَم عُروةً أحبّ الله إيثاقَها، فقد أباح حَرِيمَه وأحَلّ محرَّمه؛ إذ كان بذٰلك زارِيًا علىٰ الإمام، منتهِكًا حُرمةَ الإســلام؛ بذٰلك جرىٰ السالفُ فصــبر منهم علىٰ الفلَتات، ولم يَعترض بعدَها علىٰ العَزَمات؛ خوفًا علىٰ شَتَات الدِّين، واضطراب حَبْل المسلمين؛ ولقُرْب أمر الجاهليةِ ورَصْد فُرصة تُنْتَهَز، وباقية تُبْتَدَر؛ وقد جعلتُ لله تعالىٰ علىٰ نَفسى إن استرعانى علىٰ المسلمين، وقلّدنى خلافتَه، العملَ فيهم عامّــة وفى بنى العبّاس بن عبدالمطّلب خاصّــة بطاعتِه وبسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأنْ لا أَسْفِك دمًا حراما، ولا أُبيحَ فَرْجا ولا مالا، إلا ماسفكَتْه حدُودُه، وأباحته فرائضُه، وأن أتخيَّر الكُفَاة جُهْدى وطاقتِى. جعلتُ بذٰلك علىٰ نَفسى عهدًا مؤكّدا يسألُنِى [الله] عنه، فإنه عزّ وجل يقول: ﴿وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مَسْئُولا﴾. فإن أحدثت أو غيَّرتُ أو بدّلتُ، كنتُ لِلغِيَر مستحِقا، وللنَّكال متعرِّضا؛ وأعوذُ بالله من سَخَطه، وإليه أرغَبُ فى التوفيق لطاعته، والحول بينى وبين معْصيَته، (فى عامّة المسلمين؛ والخاصّة والحضر يد لانــ على ضدّ ذلك)(١): ﴿وَمَا أَدْرِى مايُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: ﴿إنِ الحُكْمُ إلّا لِلهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفاصِلِينَ﴾. لٰكنّى امتثلْتُ أمْرَ أمير المؤمنــين وآثرتُ رِضاه، والله يَعْصِــمُنى وإيّاه؛ وأشهدتُ اللهَ علىٰ نفسى بذٰلك وكفىٰ بالله شهيدا. وكتبتُ بخطّى بحضرة أمير المؤمنين ـ أطال اللهُ بقــاءه ـ والفضلِ بن سَهْل، وسهلِ بن الفضل، ويحيىٰ بن أكثَم، وبِشْر بنِ المعتَمِر، وحَمّاد ابنِ النُّعمان، فى شهر رمضان سنة إحدىٰ ومائتين.

ثم كتب فيه مَنْ حَضَر من هٰؤلاء، وهذه صورة كتابتهم.

فكتب الفضل بنُ سَهْل وزيرُ المأمون ماصورته:

(١) ثبتت هذه العبارة فى الاصل وعليها علامة التوقف، ولم نعثر عليها فى غير هذا الكتاب. تأمل.

"رسَمَ أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءه قراءةَ مضمُون هذا المكتوب: ظهرِه و بطنِه، بحَرَم سيدنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، بين الرّوضة والمِنبر على رُءُوس الأشهاد، ومَرْأى ومَسْمَع من وجوه بنى هاشم وسائر الأوليـاء والأجناد ، وهو يسألُ الله أن يعرِّف أمير المؤمنين وكافّةَ المسـلمين بركةَ هذا العـهد والمِيثاق ، بمـا أوجب أميرُ المؤمنين الحجـةَ به على جميع المسلمين، وأبطَلَ الشُّبْهةَ التى كانتِ اعترضَتْ آراء الجاهلين: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ علىٰ ما أَنْتُمْ عَلَيْه﴾ . وكتب "الفضلُ بن سهل" فى التاريخ المعيّن فيه" .

وكتب عبدُ الله بنُ طاهرٍ ما صورته « أثبتَ شهادتَه فيـه بتاريخه عبدُ الله بن طاهرِ بنِ الحسين » .

وكتب يحيىٰ بنُ أكثَمَ القاضى ماصُورته : « شهد يحيىٰ بنُ أكثَم على مضمُون هذه الصحيفة ظهرِها وبطنِها، وكتب بخطه بالتاريخ » .

وكتب حمّاد بن النُّعمان ماصورتُه : « شَهِد حمّاد بن النعمان بمضـمون ظهره وبطنِه، وكتب بيده بتاريخه » .

وكتب بِشرُ بنُ المعتمر ماصورته : « شهد بمثـل ذلك بِشْرُ بن المعتمر، وكتب بخطه بالتاريخ » .

قلت : وعلىٰ نحو ما تقـدّم من كتابة المعهود إليـه بالقبُول وشهـادةِ الشُّهود علىٰ العهـد ينبغى أن يكونَ العملُ أيضا فى زماننا : ليجتمعَ خطُّ العاهد بالتفويض علىٰ ما تقـدّم، وشهادةُ الشهود . ولو اقتصر المعهودُ إليه فى الكتابة علىٰ قوله : « قبِلتُ ذلك » كان كافيًا ، وإن كان أمّيًّا اكتُفى بشهادة الشهود .

الوجـــــه الثـامن

(فى قطع الورق الذى تُكتَب فيه عهودُ الخلفاء، والقلمِ الذى يُكتَب به، وكيفيّـــة كتابتها وصورةِ وَضْـــعها)

أما قطْعُ الورق فمقتضىٰ قول المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أنّ للعهود قَطْعَ البغدادىّ الكامل، وأن عُهودَ الخلفـاء تُكْتَب فى البغدادىّ كما هو مستعْمَل فى عهود الملوك عن الخلفاء، علىٰ ماسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ. وهو مقتضىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ قَطْع الورق فى مقدّمة الكتاب نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القلم والدواة" أنّ القطع الكامل للخلفاء.

قلت : وقد أخبرنى من يُوثَق به أنه وقَف علىٰ عهد المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، والدِ المتوكل علىٰ الله : أبى عبـدِ الله محمد خليفة العصر، وهو مكتوب فى قطع الشامىّ الكامل ؛ وأنه كُتِبَ عهد المتوكّل علىٰ ظهره بخط الشهود دون كاتبِ إنشاء. وكأنهم لـما تقهقرتِ الخلافةُ وضَعُف شأنُها، وصار الأمْرُ إلىٰ الملوك المتغلّبين علىٰ الخلفـاء، تنازلُوا فى كتابةِ عُهُودهم من قطـع كامل البغدادى إلىٰ قطع الشامىّ. وهذا هو المناسبُ للحال فى زمانِنا.

وأما القـلم الذى يُكتَب به، فالحكْمُ فيـه ما تقدّم فى البَيْعات، وهو إن كُتِب العهدُ فى قطع البغدادىّ، كُتِبَ بقلم مختَصر الطُّومار. وإن كُتِب فى قطع الشامىّ، كُتب بقلم الثلثين الثّقيل.

وأما كيفيّة الكتابة وصورةُ وضْعها، فعلىٰ ماتقدّم فى كتابة البَيْعات، وهو أن يُبتدأ بكتابة الطُّرّة فى أوّل الدَّرْج بالقلم الذى يُكتَب به العهدُ سُـطورا متلاصقةً ممتـدّةً

فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلىٰ آخره من غير هامش . ثم إن كانت الكتابةُ فى قطع البَغْدادىّ الكامل، جرىٰ فيه علىٰ القاعدة المتداوَلة فى عُهُود الملوك عن الخلفاء، فيُتْرَكُ بعد الوصل الذى فيه الطرّة ستّةَ أوصال بياضًا من غير كتابة، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بحيثُ يُلْحِق أعالِيَ ألِفاته بالوصل الذى فوقه ، بهامش قَدْر أربعة أصابع أو خمسة؛ ثم يكتُب تحتَ البسملة سَطْرا من أوّل العهد ملاصقا لها؛ ثم يخلِّى مكانَ بيت العلامةِ قَدْرَ شبرٍ كما فى عُهُود الملوك؛ ثم يكتُب السطر الثانى تحتَ بيتِ العلامة علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة . ويَحْرِص أن تكونَ نهايةُ السجعةِ الأُولىٰ فى السطر الأوّل أو الثانى؛ ثم يَسْتَرْسِل فى كتابة بقيّة العهد إلىٰ آخره، ويجعل بين كلِّ سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش . فإذا انتهىٰ إلىٰ آخر العَهْد، كتب «إن شاء الله تعالىٰ» ثم المستَنَد، ثم الحمدَلةَ، والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبَلَةَ، علىٰ ماتقدّم فى الفواتح والخَوَاتم . ثم يكتب المعهودُ إليه والشهودُ بعد ذلك . وإن كُتِب فى قطع الشامى، فعلىٰ ما تقدّم فى البَيْعات : من أنه ينبغى أن يُقْتَصر فى أوصال البياض علىٰ خمسة أوصال ، ويكونُ الهامشُ قدْرَ ثلاثة أصابع .

وهذه صورة وضعه فى الورق، ممثّلا فيها بالطرّة التى أنشأتها، علىٰ ماتقدّم ذكره فى العهد الذى أنشأته علىٰ لسان الإمامِ المتوكلِ علىٰ الله خليفةِ العصر لولَده العبّاس . وهو العهد الأخير من المَذْهب الأوّل من عُهُود الخلفاء عن الخلفاء

بياض بأعلى الدرج تقدير اصبع

هـــذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُودُه، وزاد فى الارتقاء فى العَلْيـاء صُعُوده، وفُصِّلتْ بالجواهر قلائدُه ونُظِّمت بنفيس الدُّرِّ عُقُوده؛ من عبـدِالله ووليِّـه الإمام المتوكل على الله أبى عَبْد الله محمد ابن الإمام المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة المقدّسةِ لوَلَده السيد الجليل، ذَخِيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين، أبى الفَضْل العبَّاس، بلَّغه الله تعـالىٰ فيه غايةَ الأمل، وأقَرَّ به عينَ الأمّة كما أقرّ به عينَ أبيـه وقد فعَل على ماشرح فيه

بياض ستة أوصال

بســـم الله الرحمن الرحيم

هامش هـــذا عهدٌ ســـعيدُ الطالع ميمُونُ الطائر مباركُ الأوّل

صورة خط الخليفة

عهدت إليـــه بذلك

وكتب فلان بن فلان

بيت العلامة
قدر شبر

قدر ربع ذراع

جميـــلُ الأوْسَط حميـــدُ الآخِر تشهد به حضَراتُ الأمـــلاك

وترقُــــه كفُّ الثُّرَيّا بأقلام القَبُولُ فى صحائف الأفلاك وتُبـاهِى

بالقلم المتقدم بالشرح

به ملائكةُ الارض ملائكةَ السما، وتَسْرِى بنَشْره القَبُولُ إلىٰ الأقطـار

هامش فتنشر له بكل ناحية عَلَمـا، وتُطلِـعُ به سـعادةُ الجَدّ من مُلوك العدْل
في كلّ أُفُق نجْما .

ثم يأتى على الكلام إلى آخر العهْد على هذا النَّمَط إلى أن ينتهِىَ إلى
قوله فيه «والله تعالى يبلِّغه منك أملا، ويحقق فيك عِلْما ويُزَكِّى بك عملا»

إن شاء الله تعالى

كتِب فى اليوم الأوّل من المحرّم
سنة إحدى وثمانمائة

بالإذن العـالى ، المولَوِىّ ، الإمامىّ، النبـوىّ، المتـوكّلىّ ،

أعـــلاه الله تعـالى

الحمد لله وحْدَه وصلواتُه على سيدنا محمد وآله وصَحْبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

صورة خط العهود | قبلتُ ذلك
وكتب فلانٌ ولىُّ
عهدِ أمير المؤمنين | صورة خط شهود العهد | شهد على العاهد والمعهود إليه
فيه زادهما الله شرفا
وكتب فلان بن فلان
وكذا بقيـة الشهود

النـــــوع الثـانى

(عهودُ الخلفاء للملوك ، ويتعلّق النظر به من سبعةِ أوجُه)

الوجـــه الأوّل

(فى أصـــل مشـــرُوعيّتهـا)

والأصلُ فيها مارواه ابن إسحاق وغيرُه : أنه لمـا رَجَع وفْدُ بنى الحٰرث بنِ كعب إلىٰ قومهم باليَمَن بعد وُفُود[هم] علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسـلم قبلَ وفاته بأربعة أشهر، بعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعدَ أن وَلَّى وَفْدَهم عَمْرو بنَ حَزْم، يُفَقِّهُهم فى الدِّين، ويعلِّمُهم السنّةَ ومَعَالِمَ الإسلام، ويأخُذُ منهم صدَقاتِهم . وكتب له كتاباً عَهِد فيه عَهْدَه، وأمَرَه فيه أمره، علىٰ ماسيأتى ذكْرُه فى أوّل نُسَخ العُهُود الواردةِ فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ . فقد فوّض النبىُّ صلّى الله عليه وسلم أمْرَ اليمن فى حياتِهِ إلىٰ عَمْرو بن حَزْم رضى الله عنه . وذٰلك أصرحُ دليـل وأقومُ شاهدٍ لمـا نحن فيه .

الوجـــه الثـانى

(فى بيانِ[معنىٰ] المُلْك والسَّلْطنة اللتين يقَعُ العهدُ بهما)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب نقْلا عن " الفُروق " فى اللغـة للعسكرىّ أن المُلْك أخصُّ من السَّلْطنة : لأن المُلْك لايطلَقُ إلا علىٰ الوِلَاية العامّة، والسَّلطنةَ تُطْلَق علىٰ أنواع الوِلَايات، حتّى إنّ الفقهاء يعبِّرون عن القاضى ووالى البلد فى أبواب الفقه بالسُّلْطان .

ثم تفويضُ الخليفةِ الأمورَ فى البلاد والأقاليم إلىٰ مَنْ يدَبِّرها ويقوم بأعبائها علىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل — وهو أعلاها وزارةُ التفويض، وهو أن يَسْتوزِرَ الخليفةُ من يفوّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وإمضاءَها علىٰ اجتهاده، وينظُرُ فيها علىٰ العُمُوم . وعلىٰ ذلك كانتِ السلطنةُ فى زَمَن الخلفاء الفاطميين بمصر علىٰ ماسيأتى ذكره . قال الماوردىّ فى "الأحكام السلطانية" : ولا يمتنعُ جوازُ مثلِ ذلك : لأنَّ كلَّ ما وُكِل إلىٰ الإمام من تدبيرِ [الأمة](1) لايقدِر علىٰ مباشرة جميعه إلَّا بالاستنابة، ونيابةُ الوزيرِ المشاركِ له فى التدبير أصحُّ فى تنفيذ الأمور، [من تفرده بها](1) ليستظهِر به علىٰ نَفْسه ولنفسه، فيكونَ أبعدَ من الزَّلَل ، وأمنَعَ من الخَلَل . قال : وتعتبر فى [تقليد](2) هذه الوزارة شروطُ الإمامة إلا النَّسبَ وحده . وقد تقدّم بيانُ شروط الإمامة فى الكلام علىٰ البيعات . ثم قال : وكُلُّ ماصحَّ من الإمام صحَّ من وزير التفويض إلا فى ثلاثة أشياء :

أحدها — ولايةُ العهد. فإنَّ للإمام أن يَعْهَدَ إلىٰ مَنْ يرىٰ وليس ذلك للوزير.

الثانى — أنَّ للإمام أن يستَعْفِيَ الأمَّةَ من الإمامة وليس ذلك للوزير .

الثالث — أنَّ للإمام أن يعزِل من قلَّده الوزيرُ وليس للوزير أن يعزِلَ من قلَّده الإمام .

وتفارق هذه الوزارةُ الخلافةَ فى عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين :

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

(٢) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

أحدهما — مختصٌّ بالإمام وهو أن يتصفّح افعالَ الوزير وتدبيرَ الأمور : ليُقِرّ منها ماوافق الصّواب ، ويستدرِك ماخالَفَه : لأنّ تدبير الأمة إليه موكُول، وعلىٰ آجتهادِه محُول .

والثاني — مختصٌّ بالوزير. وهو مطالعةُ الإمام بما أمضاه من تدبيرٍ، وأنفذه من ولايةٍ وتقليدٍ : لئلا يصيرَ بالاستبْداد كالإمام .

أما وِزَارةُ التنفيذ فسيأتى الكلام عليها فى تقليد الوزارة إن شاء الله تعالىٰ .

القسم الثانى — إمارة الاستكفاء .

وهى التى تنعقد عن آختيارٍ من الخليفة . وتشتمل علىٰ عملٍ محدودٍ ونظرٍ مَعْهود، بأن يفوِّضَ الخليفةُ إليه إمارةَ بلدٍ أو إقليم ولايةً علىٰ جميع أهله ، ونظرًا فى المعهُودِ من سائر أعماله ، فيصيرُ عامَّ النظر فيما كان محدُودا من عملٍ ، ومعهُودا من نَظَر . قال الماوردىّ : فينظر فيما إليه فى تدبير الجيش، وترتيبِه فى النّواحى، وتقديرِ أرزاقهم إن لم يكُنِ الإمامُ قد قدَّرها ، وإدرارها عليهم إن كان الإمام قدّرها ، وكذلك [النظر فى] الأحكامِ ، وتقليدِ القُضاة والحُكّام، وجبايةِ الخَرَاج، وقَبْض الصَّدَقات والعملِ فيهما ، وتفريق مايستحق منهما، وحمايةِ الحَرِيم ، والذَّبّ عن البَيْضة ، ومراعاةِ الدِّين من تغييرٍ أوتبْديل، وإقامةِ الحُدُود فى حقُوق الله تعالىٰ وحُقُوق الآدميين ، والإمامةِ فى الجُمَع والجماعات بالقيام بها، والاستخلاف عليها، وتسييرِ الحَجِيج من عَمَله ومَنْ يمُرّ عليه من غيرعَمَله ، وجهاد من يَليه من العدُوّ، وقَسْم الغنائم فى المقاتِلَة ، وأخْذِ خُمُسها لاهل الخُمُس . وله أن يتّخذ وزيرَتنفيذ لا وزيرَ تفويض .

وعلىٰ هذا كانت الأمراءُ والعُمّال فى الأقاليم والأمصار من ٱبتداء الإسلام إلىٰ أن تغلّب المتغلّبون علىٰ الأمر وٱستُضْعِف جانبُ الخلفاء .

قال الماوردىّ : ويعتبرُ فى هذه الإمارة ما يُعتبر فى وزارة التفويض من الشروط : إذ ليس بين عُموم الوِلاية وخُصوصِها فَرْقٌ فى الشروط المعتَبَرة فيها .

القسم الثالث — إمارة الٱستيلاء .

وهى أن يقلّده الخليفةُ(١) الإمارةَ علىٰ بلاد ويفوِّض إليه تدبيرَها ، فيستَوْلى عليها بالقوة ، فيكون [الأمير] بٱستيلائه مستبِدًا بالسياسة والتدبير ، والخليفةُ بإذنه ينَفِّذ أحكامَ الدين : لتخرُج عن الفساد إلىٰ الصِّحّة ، ومن الحَظْر إلىٰ الإباحة ؛ نافذَ التصرُّف فى حقوق الملة وأحكامِ الأُمّة . وهذا ما صار إليه الأمرُ بعد التغلّب علىٰ الخلفاء ، والٱستبدادِ بالأمر بالغَلَبة والقوّة .

قال الماوردىّ : وهذا وإنْ خرج عن عُرْف التقليد المطْلَق فى شروطه وأحكامِه ، ففيه [من] حفْظ قوانينِ الشرع وحِراسة الأحكام الدينية مالا يجُوزُ أن يُترَك مختَلًّا مدْخُولا ، ولا فاسدًا مَعْلولا ؛ فجاز فيه مع الٱستيلاءِ والٱضطرار ، ما ٱمتنع فى تقليد الٱستِكْفاء والٱختيار : لوُقُوع الفَرْق بين شروط المَكِنة(٢) والعَجز .
قال : والذى يُحَفَّظ بتقليد المستولِى من قوانين الشريعة سبعةُ أشياء ، يشترك فى التزامها الخليفةُ المولِّى والأميرُ المستَوْلى ، ووجُوبُها فى جهة المستولى أغلظُ .

(١) عبارة "الأحكام السلطانية" وإمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطراب فهى أن يستولى بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوّض إليه الخ وهى أوضح وأصرح .

(٢) فى المصباح . وله مَكِنَةٌ أى قوة وشدّة .

أحدها — حِفْظ مَنْصب الإمامة فى خلافة النبوّة، وتدبيرِ أمورِ الأمة : ليكون ما أوجبه الشرعُ من إقامتها محفُوظا، وما تفرّعَ عنها من الحقوق محْروسا .

والثــانى — ظهورُ الطاعةِ الدِّينية التى يزُولُ معها حكمُ العِناد فى الدين ، وينتفى بها مأثم المُبايَنةِ له .

والثالث — آجتماعُ الكلمةِ علىٰ الأُلْفة والتناصُر : ليكونَ المســلمونَ يدًا علىٰ مَنْ ســـواهم .

والرابع — أن تكونَ عقُود الولايات الدينيّة جائزة، والأحكامُ والأقضيةُ [فيها] نافذة، لا تبطل بفساد عُقُودها، ولا تسقُط بخَلَل عُهُودها .

الخامس — أن يكونَ آستيفاءُ الأموال الشرعيّة بحقٍّ تبرأ به ذمّةُ مؤدِّيها ، ويستَبِيحه آخِذُها ومُعْطيها .

السادس — أن تكونَ الحدُودُ مستوفاةً بحقٍّ ، وقائمةً علىٰ مستَحِقّ ؛ فإنّ جَنْب المؤمن حِمًى إلّا من حقُوق الله تعالىٰ وحُدُوده .

السابع — أن يكون للأُمّــة فى حِفْظ الدين وازِعٌ عن محارم الله تعالىٰ، يأمُرُ بحقّــه إن أُطيع ، ويدعُو إلىٰ طاعتــه إن عُصِى . ثم قال : فإن كمُلت فيــه شُروطُ الآختيارِ المتقــدّمةُ، كان تقليدُه حتْما آســتِدْعاءً لطاعتــه ، ودفْعا لمشاقّته ومخالَفَته ؛ وجرىٰ علىٰ مَنِ آستَوزره أو آستَنابه أحكامُ من آستَوْزَره الخليفة أو آستَنابه . وإن لم تكْمُلْ [فيه] شروطُ الآختيار ، جاز له إظهارُ تقليدِه آستدعاءً لطاعته وحَسْما لمخالَفَته ومعانَدَته ، وكان نفُوذُ تصرُّفاته فى الحقُوق والأحكامِ مَوْقُوفا علىٰ أن يستنيب الخليفةُ

له مَنْ تكاملَتْ فيه الشُروط ، قال : وجاز مثلُ هذا وإن شذّ عن الأصول : لأن الضرورةَ تُسقِط ماأعوزَ من شُروط المَكِنة .

قلت : ومملكةُ الديار المصرية من حينِ الفتح الإسلاميّ وهلُمّ جرًّا إلىٰ زماننا دائرةٌ بين هذه الأقسام الثلاثة، لاتكادُ تخرُج عنها : فكانتْ فى بِداية الأمر « إمارةَ آستكفاء» يولِّ عليها الخليفةُ فى كلِّ زمن مَنْ يقُوم بأعبائها، ويتصرَّف فى أمورها، قاصرُ الولاية عليها، واقفٌ عند حَدِّ مايَرِد عليه من الخليفة من الأوامِر والنَّواهى، إلّا ما كان فى أيام بَنِى طُولُون من الخُروج عن طاعةِ الخلفاء فى بعض الأحيان . فلَمّا آستَوْلىٰ عليها الفاطميُّون واستَوْزَرُوا أربابَ السُّيوف فى أواخرِ دَوْلتهم ، وعظُمتْ كلِمتُهم عندهم، صارتْ سلطَنتُها "وزارةَ تَفْويض" . وكان الخليفةُ يحتَجب والوزير هو المتصَرِّف فى المملكة كالمُلُوك الآنَ أو قريبٍ منهم . وكانوا يُلقِّبون بألقاب المُلوك الآنَ : كالمَلِك الأفضل رِضْوان وزيرِالحافظ ، وهو أوّلُ من لُقِّب بالمَلك منهم فيما ذكره المؤيِّد صاحبُ حماةَ فى تاريخه . والملِك الصالح طَلائِع بن رُزِّيك وزير الفائز ثم العاضِد . والملِك المنصُور أسدِ الدين شيركُوه بن شادِى وزيرِ العاضد، وآبنِ أخيه صلاح الدين يُوسفَ بنِ أيوب وزيرِ العاضد أيضا ، قبل أن يستقلّ بالمُلْك ويخطُبَ بالديار المصرية لبَنِى العَبَّاس ببَغْداد . ولانُكْرَ فى تسمية الوزير مَلِكا، فقد قيل فى قوله تعالىٰ فى قِصّة يوسفَ عليه السلام : ﴿ وقَالَ المَلِكُ آئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسى ﴾ إنّ المرادَ بالملِك الوزيرُلا الملِكُ نفْسُه . ولما آنتُزِعتْ من الفاطميين وصارتْ إلىٰ بنِى أيُّوبَ ، وكانوا يلُونَها عن خُلَفاء بنى العبّاس ، صارتْ « إمارةَ آستيلاء » لآستيلائِهم عليها بالقُوّة ، وآستبدادِهم بالأمر والتدبير مع أصْلِ إذنِ الخليفة وتقْليده . وكان الرشيدُ قد لقَّب « جَعْفَر بن يَحْيىٰ البَرْمَكِىّ »

فى زمن وزارته له بالسلطان ، ولم يأخذ النــاسُ فى التلقيب به . فلمّا تغلّب الملوكُ بالشّرق علىٰ الخلفاء وآستبدّوا عليهم ، صار لَقَبُ السلطان سِمةً لهم ، مع ما يختصّهم به الخليفةُ من ألقــاب التشريف : كشَرَف الدّولة ، وعَضُد الدولة ، ورُكْن الدولة ، ومُعِزّ الدولة ، وعِزّ الدولة ، ونحو ذلك . وشاركهم فى لَقَب السلطنة غيرُهم من ملُوك النواحى ، فتلقّب بذٰلك صــلاحُ الدين يوسفُ بنُ أيّوبَ ، وتلقّب بالملك الناصِر عند آستبداده بالمُلْك علىٰ العاضــدِ الفاطمىّ بعدَ وِزارته له ، وتَقَــل ما كان من وِزَارة التفويض والعهدِ بها إلىٰ السلطنة ، وصارتِ الوزارةُ عن السلطان معدُوقةً بقَــدْرٍ مخصوصٍ من التصَرُّف . وبقى الأمْرُ علىٰ ما هو عليه من الآستيلاء والآستبدادِ بالمُلْك ، مع أصلِ إذْن الخليفة وكتابةِ العَهْد بالمُلْك ، وهى علىٰ ذلك إلىٰ زماننا ، إلا ما كانَ فى زمنِ تعطيلِ جِيــد الخلافة من الخُلَفاء ، من حينِ قَتْل التتارِ « المســتَعصِمَ » آخر خلفــاء بنى العباس ببغداد إلىٰ حينِ إقامة الخليفــة بمصر فى الدولة الظاهريّة بِيبَرْس . علىٰ أنّ فى السلطنة الآنَ شَبَهًا من وزارة التفويض ، فإن الخليفةَ يفوّض إليــه فى تقليده تدبيرَ جميع الممــالكِ الإسلامية بالتفويض العامّ لا يَسْتثنِى منها شيئاً . وغيرُ هذه المملكة وإن كان خارجًا عن يَدِه فهو داخل فى عُمومِ وَلايتــه ، حتّى لو غَلَب علىٰ شىء منها أو فتحه لم يَحْتَجْ فيه إلىٰ توليةٍ جديدةٍ من الخليفة . ولا مانِــعَ لذلك : فسيأتى فى الكلام علىٰ المناشير أنه يجوزُ للإمام أن يُقْطِع أرضَ الكُفر قبل أن تُفْتَح ، وإذا جاز ذٰلك فى الإقطاع ففِى هذا أوْلىٰ . وحينئذ فتكون سلطنةُ الديار المصْريّةِ الآنَ مركّبةً من وزارة التفويض وإمارةِ الآستيلاء .

الوجـــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فيـــه)

وآعلم أنه يجب علىٰ الكاتب مراعاةُ أمور :

منها — براعةُ الآستهلال بمـا يتهيّأُ له من آسْمِ السـلطان أو لقبه الخاصّ : مثل فلان الدين ، أو لقبِه بالسلطنة : مثل الناصِرِ، والظاهِرِ ، ونحوِهما ؛ أو غيرِ ذٰلك ممـا يدُلُّ علىٰ مابعده قبلَ الإتيان به كما تقدّم فى البيْعات وعُهُود الخُلفاء .

ومنها — التنبيهُ علىٰ شَرَف السّلْطنة وعُلُوِّ رُتْبتها ، ووجُوبِ القيام بأمْرِ الرعِيَّـة ، وتحمُّل ذٰلك عن الخليفة .

ومنها — الإشارةُ إلىٰ آجتهاد الخليفةِ و إعمـال فِكْره فيمَنْ يَقُوم بأمر الأمّـة ، وأنه لم يجِدْ بذٰلك أحقّ من المعهود إليه ولا أوْلىٰ به منه ، فيَصِفُه بالصِّفات الجميلةِ ، ويُثْنِي عليه بمـا يلِيقُ بمَقام المُلْكِ .

ومنها — الإشارةُ إلىٰ جَرَيان لفظٍ تنعقِد به الوِلايةُ من عَهْد أو تقليدٍ أوتفويض ، وقبولِ ذلك ، ووُقُوع الإشهاد علىٰ الخليفة بالعهد .

ومنها — إيرادُ مايليقُ بالمَقَام من الوصيّة ، بحَسَب مايقْتضيه الحال : من علُوّ رتبة الخلافة وآنْخِفاضها ، مبيّنا لما يلزَمُه القيامُ به : من حِفْظ الدِّين علىٰ أصوله المستقِرّة ، وما أجمعَ عليه سلف الأمّة ، وتنفيذ الأحكام ، و إنصافِ المظلوم من الظالم ، وحِمايةِ البَيْضة ، والذّبِّ عن الحُرَم ، و إقامةِ الحُدُود ، وتحصين الثُّغُور ، وجهاد أعداءِ الله وغَزْوِهم ، وجبايةِ الفَيْء والصَّدَقات علىٰ ما أوجبه الشرعُ من غير حَيْف ولاعَسْف ،

وتقديرِ العطاء، وصَرْف مايُستَحَقُّ فى بيت المال من غير سَرَف ولا تقتير، فى وقتِ الحاجة إليه، وآستِكفاءِ الأمَناء، وتقليد النُّصَحاء للأعمال والأموال، ومُباشرةِ الأمورِ بنَفسه وتَصَفُّح الأحوال ؛ إلىٰ غير ذٰلك من الأمور المتعلِّقة بالإمامة : من إقامة مَوْسِم الحجّ، وتأمين الحَرَم الشريف وإكرام ضرائح الأنبياء وبيتِ المَقْدِس، وتحرير مقادير المُعامَلات، وغير ذٰلك مما يقتضيه أمْرُ المملكة .

الوجه الرابع

(فيما يكتب فى الطرّة، وهو نمطان)

النَّمَط الأوّل — ما كان يُكتَب فى وِزارة التفويض فى دَوْلة الفاطميين .

وكان الخليفةُ هو الذى يكتُب بيده . وهذا أمْرٌ وإن كان قد تُرِك فالمعرفةُ به خيرٌ من الجهل، خصُوصًا وقد أثبتَ المقرُّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله عهدَىْ أسد الدين شيركوه وآبنِ أخيه السلطانِ صَلاح الدِّين يوسُفَ بن أيوب بالوزارة عن العاضد، فى جملة عُهُود الملوك علىٰ ما سيأتى ذِكْره . وسنُورِدُهما فى جملة عُهُود الملوك عن الخلفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

فمِن ذلك ما كتب به العاضِدُ فى طُرّة عهدِ أسَد الدِّين شيركوه المتقدّم ذكره، وهو :

«هذا عهْدٌ لا عَهْدَ لوزيرٍ بمثله، وتقليدُ أمانةٍ رآك الله تعالىٰ وأميرُ المؤمنين أهْلًا لحمْله، والحجةُ عليكَ عندَ الله بما أوضحه لكَ من مَراشد سُبُله ؛ فخُذْ كتابَ أميرِ المؤمنين

بِقُوه، وأسْحَب ذَيْلَ الفَخار بأن اعتَرتْ خِدْمَتُكَ إلىٰ بُنُوة النُّبُوه ؛ واتخذْ أميرَ المؤمنين للفوز سبيلا ﴿ ولا تَنْقُضُوا الأيمانَ بَعْدَ تَوكِيدِهَا وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عليكُمْ كَفيلا ﴾ » .



ومن ذلك ما كتب به العاضدُ أيضا فى طرَّة العهد المكتَتَب عنه بالوِزارة للسلطان صلاح الدِّين يُوسفَ بن أيُّوب قبل استقلاله بالسلطنة ، وهو :

« هـذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليْك، وحُجَّتُه عند الله تعالىٰ عليْك؛ فأوْفِ بعَهْـدك ويَمينك، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بيَمينك ؛ ولِمَنْ مَضىٰ بجـدِّنا رسولِ الله صـلَّى الله عليه وسلم أحسَنُ أُسْوه،ولمن بَقِى بقُرْبنا أعظَمُ سَلْوَه﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لايُرِيدُون عُلُوًّا فى الأَرْضِ وَلَافَسَادا والعاقِبَةُ للمُتّقين ﴾ » .

النمط الثانى — ما يُكتَب فى طُرّة عُهود الملُوك الآنَ .

وهو قريب ممـا كان يُكتَب أوّلا مما تقدّم ذكْره ، إلّا أنه يُبَدّل فيه لفظُ الوِزارة بالمُلْك والسَّلْطنة ، ويكونُ الذى يكتُبه هو الذى يكْتُب العَهدَ دُونَ الخليفة . ثم هو بحسَب مايُؤْثِره الكاتبُ ممـا يدُلُّ علىٰ صَدْر العهد علىٰ مايقتضيه الحال .

وهـذه نسخةُ طرّةِ عهدٍ ، كتَب بهـا القاضى محيى الدين بن عبْد الظاهر ، فى نسخةِ عهدٍ أنشأه للسـلطان الملكِ الناصرِ محمد بن قلاوُون ، فى سـنة سبعَ عشْرةَ وسبعمائة ، وهو :

« هـذا عهدٌ شريفٌ تجدّدتْ مَسَرّاتُ الإسلام بتَجْديده ، وتأكّدتْ أسبابُ الإيمـان بتأكيده ، ووُجِد النصرُ العزيز والفتحُ المبينُ بوُجُوده ، ووفَد اليُمْنُ والإقبالُ

على الخليقة بوفوده، وورد الأنام مَوْرِد الأمان بوروده . من عبداللهِ ووليّه الإمام المستكفي بالله أبي الرَّبيع سليمانَ أميرِ المؤمنين ، آبنِ الحاكم بأمرِ الله ابي العباس أحمد . عَهِد به إلى السلطان الملكِ الناصر أبي الفتح محمّد ، خلّد الله سلطانه ، آبن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون الصالحيّ قدّس الله روحه » .

تم الجزء التاسع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العاشر

وأوله الوجـه الخامس

(فيما يكتب في ألقاب الملوك عن الخلفاء ، وهو نمطان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهـــــرس

الجـــــزء التـاسع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

صفحة

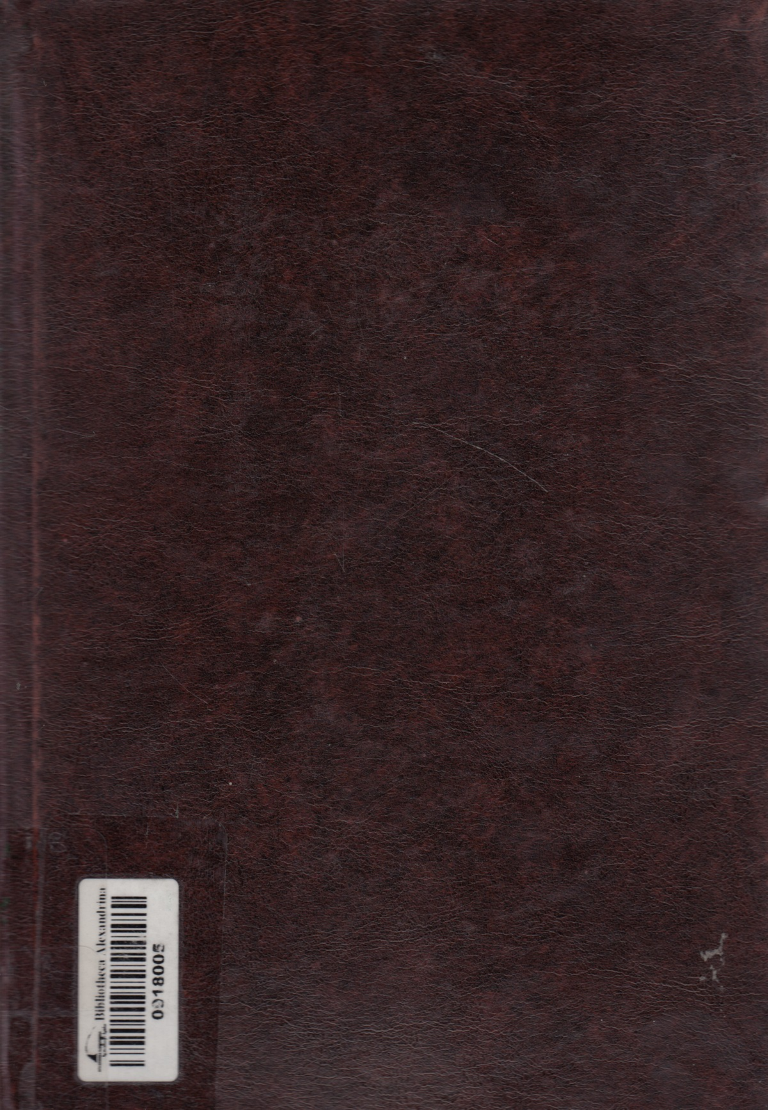
صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

(تم فهرس الجـــزء التـاسع من كتاب صبح الأعشى)



Bibliotheca Alexandrina
0018005